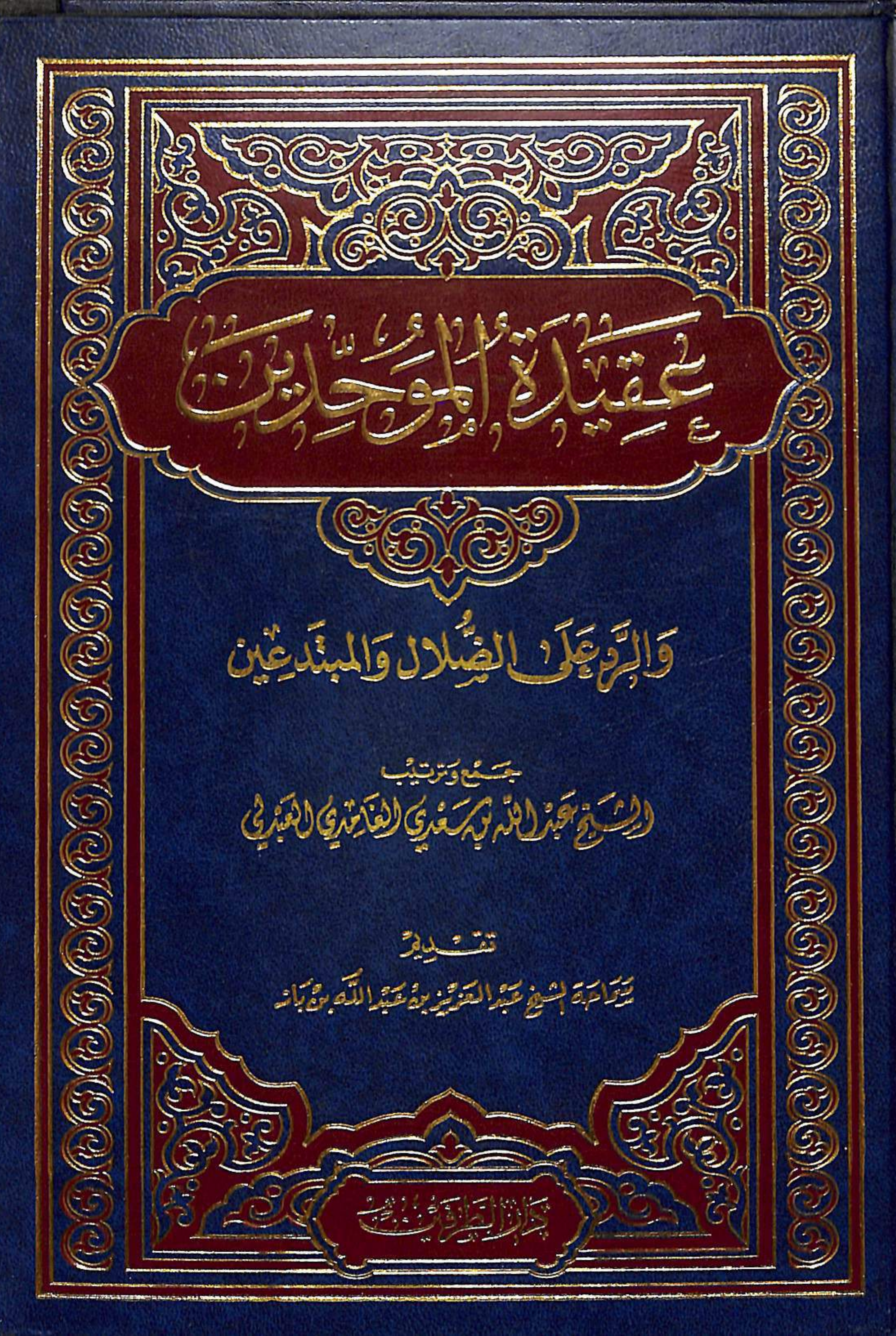


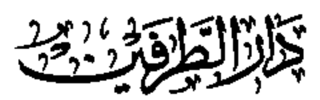
عقيدة الموحدين
والرد على الضلال والمبتدعين
جمع وترتيب
الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي العبدلي
تقديم
سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
دار الطرفين

عقيدة الموحدين

والرد على الضلال والمبتدعين

ⓒ دار الطرفين للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العبدلي، عبد الله بن سعدي الغامدي
عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين. ط٢ ـ الطائف.
٥١٢ص، ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٠ ـ ٦١ ـ ٨٠٨ ـ ٩٩٦٠
١ ـ التوحيد ٢ ـ العقيدة الإسلامية ـ دفع مطاعن ٣ ـ القرآن ـ التفسير الحديث
أ ـ العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٩/٢٣٥٨
رقم الإيداع: ١٩/٢٣٥٩
ردمك: ٠ ـ ٦١ ـ ٨٠٨ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م



هاتف ٧٣٢٩٥٧٢ ـ فاكس: ٧٤٦٣٦٨٨ جوال ٠٥٥٧٠٤٨٠٨ . ص ب: ٢٥٧٩

عقيدة الموحدين

والرد على الضلال والمبتدعين

جمع وترتيب

الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي العبدلي

تقديم

سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

دار الطرفين



مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. وبعد:

فهذه الطبعة الثانية من كتاب «عقيدة الموحدين والرد على الضلّال والمبتدعين» من جمع وترتيب فضيلة الشيخ «عبد الله بن سعدي الغامدي العبدلي» نفع الله بعلمه.

أعدنا طبعَه لنفاد الطبعة الأولى، ولكثرة الإقبال عليه، والحاجة الملحّة إليه، وقد وصلنا رسائل كثيرة من القرّاء تشيد بالكتاب والمؤلف وحملت في طيّاتها بعض الملاحظات والتصويبات، ونحن إذ نشكر لهم ذلك يسرنا أن نُخرج هذه الطبعة القشيبة بعد أن قمنا بالتالي:

أ ـ إعادة صف الكتاب كاملاً.

ب ـ تصويب ما نَدّ عن الطبعة الأولى من الأخطاء المطبعية.

جـ ـ كتابة الآيات برسم المصحف.

د ـ ضبط بعض الكلمات بالشكل.

هـ ـ تفقير الصفحات ووضع علامات الترقيم المناسبة لكل فقرة.

وختاماً نسأل الله تعالىٰ أن يبارك في هذا السِفر وينفع به من كتبه وجمعه ورتبه وطبعه ووزعه بين إخوانه المسلمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسَلّم تسليماً كثيراً.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي
دار الطرفين
الطائف ص ب ٢٥٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ عبد العزيز بن باز

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد تقدم إلي الأخ في الله فضيلة الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي، وهو معروف بصدقه وأمانته، وغيرته الدينية، ووقوفه ضد الخرافات والأعمال الشركية، والبدع ونحوها وذبه عن العقيدة الإسلامية، والدعوة إليها، ومكافحة ما يخالفها وذكر لي أنه قد عزم على جمع بعض الرسائل النافعة من مؤلفات أئمة الدعوة وبعض علماء نجد وطبعها، في حكم تكفير المعين وعدم العذر بالجهل في مسائل التوحيد والشرك، وطلب مني أن أضع مقدمة لها.

وقد اطلعت على هذه الرسائل فألفيتها رسائل قيمة جديرة بالنشر، ألفها أئمة أجلاء، وعلماء فضلاء قضوا حياتهم في تدريس العلم النافع من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، والعمل بهما، والدعوة إلى الله، وصانوا العقيدة ودافعوا عنها، وبينوا زيغ الزائغين، وضلال الضالين، مع اشتمال هذه الرسائل على بيان التوحيد وما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وبيان ما يجب لله تعالى على عباده من العبودية لله وحده، وإخلاص العبادة له بجميع أنواعها قولاً وعملاً واعتقاداً، فلا يُدعى إلا هو وحده، ولا يرجى إلا هو وحده، ولا يستغاث ولا يستعان إلا به وحده.

كما أن هذه الرسائل أيضاً قد اشتملت على محاربة الوثنية بجميع صورها وأشكالها وألوانها، وحذرت عن كثير من أنواع الشركيات الواقعة عند كثير من المسلمين وخاصة في هذه الأزمنة وفي كثير من البلاد كدعاء

الأنبياء والصالحين وغيرهم، ودعوة الغائبين من الملائكة والجن وغيرهم وسؤالهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، والتقرب إليهم بالذبح والنذر وسائر أنواع العبادات التي لا تصلح إلا لله تعالى، كما اشتملت على تكفير من دلت الأدلة على كفره، وإلى القارئ بيانها:

الانتصار لحزب الله الموحدين، مفيد المستفيد، وكشف الشبهات، وثلاثة الأصول، وتطهير الاعتقاد عن أدران الشرك والإلحاد، وحكم تكفير المعين، والمورد العذب الزلال، وشرح أصل دين الإسلام وقاعدته، والرد على الجهمي، الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، والعقيدة الواسطية، والعقيدة الطحاوية، ودرجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين، والجواب المفيد في حكم تارك التوحيد، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ الآية، من تفسير محمد رشيد رضا، وأدلة معتقد أبي حنيفة الإمام في أبوي الرسول عليه السلام، فتوى لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم في الذكاة، فتاوي للشيخ سليمان بن سمحان والشيخين عبد الله والشيخ إبراهيم ابني الشيخ عبد اللطيف في تكفير الجهمية، أربع فتاوى من مجلة البحوث الإسلامية وغيرها في حكم دعاء الجن وتكفير من يدعوهم وعدم العذر بالجهل، وفي كفر من رضي بما هو عليه من الشرك وأعرض عن تعلم التوحيد، نواقض الإسلام.

جزى الله مؤلفيها أعظم الجزاء وضاعف مثوبتهم، ورفع درجاتهم في المهديين، ونفع بعلمهم المسلمين في كل وقت وحين، وجزى الله فضيلة الشيخ عبد الله خيراً، وأثابه لقاء حرصه على نشر الكتب الداعية إلى توحيد الله وتعظيم كتابه وسنة نبيه ﷺ، والرد على من خالف ذلك، ووفقه وأعانه على كل خير إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

عقيدة الموحدين
والرد على الضلال والمبتدعين

(مجموعة عشرون رسالة ومذيلة بفتاوي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية ومعها غيرها للجهابذة من العلماء الأعلام):

١ـ الانتصار لحزب الله الموحدين، للشيخ: عبد الله البابطين.

٢ـ ٣ـ ٤ـ مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد وكشف الشبهات والثلاثة الأصول. لشيخ الإسلام: محمد بن عبد الوهاب.

٥ـ تطهير الاعتقاد عن أدران الشرك والإلحاد، للشيخ: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني.

٦ـ تكفير المعين. لابن حفيد شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن الذي هو الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن آل الشيخ.

٧ـ ٨ـ ٩ـ المورد العذب الزلال في نقض شبه أهل الضلال وشرح أصل دين الإسلام وقاعدته والرد على الجهمي، للشيخ: عبد الرحمن بن حسن.

١٠ـ الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، للشيخ: عبد الله بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

١١ـ العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٢ـ درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين، للشيخ: محمد بن أحمد الحفظي.

١٣ـ الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد، للشيخ: أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد الحميد المصري.

١٤ـ تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ إلى آخر الآية/ الأعراف ١٧٢، للشيخ: محمد رشيد رضا.

١٥ـ فتوى لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، بشأن ذبيحة من يدعو غير الله، وبرفقها تقريرات له منقولة من فتاويه. الجزء الأول ص٨٤ والجزء الثاني عشر ص٢٠٦.

١٦ـ فتوى للشيخ ابن سحمان من الدرر السنية المجلد الأول الجزء الثاني ص١٦٧.

١٧ـ أدلة معتقد أبي حنيفة الإمام بأبوي الرسول عليه الصلاة والسلام، للشيخ علي بن سلطان القاري.

١٨ـ تعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز على العقيدة الطحاوية.

١٩ـ فتوى للشيخ عبد الله والشيخ إبراهيم أبناء الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ. وللشيخ سليمان بن سحمان بشأن تكفير الجهمية والجواب عن حديث من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا... إلى آخره.

٢٠ـ أربع فتاوى من مجلة البحوث العلمية وغيرها وهي كما يأتي:

أـ تعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز على نواقض الإسلام العشرة.

ب ـ فتوى لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في حكم دعاء الجن والشياطين. مضاف إليها فتوى رقم ٩٢٥٧ وتاريخ ٢٢/٢/١٤٠٥هـ. تتضمن عدم العذر بالجهل، وأخرى من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية متضمنة تكفير من يدعو الجن.

ج ـ وأخرى أيضاً رقم ٣٥٤٨ وتاريخ ١٨/٣/١٤٠١هـ، من مجلة البحوث العدد ١٨ تتضمن كفر من رضي بما هو عليه من الشرك وأعرض عن تعلم التوحيد.

الرسالة الأولى

الانتصار لحزب الله الموحدين
والرد على المجادل عن المشركين

العلامة مفتي الديار النجدية في القرن الماضي
الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين
المتوفى في سنة ١٢٨٢ هـ تغمده الله برحمته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾. فلما أعلمنا سبحانه أنه إنما خلقنا لعبادته وجب علينا الاعتناء بما خلقنا له علماً وعملاً، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ ما في القرآن من الأمر بالعبادة فالمراد به التوحيد، وبذلك أمر الله جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وكلُّ رسول أول ما يقرع به أسماع قومه أن يقول: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

قال مالك وغير واحد من المفسرين: كلُّ ما عبد من دون الله فهو طاغوت. وقال عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما: الطاغوت الشيطان. قال ابن كثير رحمه الله: وهو قول قويّ جداً، فإنه يتناول كل ما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها، ذكره على قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ الآية.

قال النووي: قال الليث وأبو عبيدة والكسائي وجماهير أهل اللغة: الطاغوت كل ما عُبد من دون الله. وقال الجوهري: الطاغوت الشيطان، وكل رأس في الضلالة. انتهى.

وما تضمنته هذه الآيات ونحوها من آي القرآن من الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة غيره هو معنى لا إله إلا الله، قال ابن جرير في الكلام على معنى لفظ الجلالة قال: وروي لنا عن ابن عباس قال: أي هو ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. وقال الجوهري في الصحاح: أَلَه بالفتح إلاهة أي عبد عبادة. قال: ومنه قولنا «الله» وأصله إلاه على وزن فعال بمعنى مفعول، لأنه مألوه بمعنى معبود قال: والتأليه التعبيد، والتأله التنسك والتعبد، قال رُؤبة:

سَبَّحْن واسترجعن من تألُّهي

وقال في القاموس: أَلَه إلاهة وألوهة وألوهة وألوهية: عبد عبادة، ومنه لفظ الجلالة، قال وأصله إلاه بمعنى مألوه، وكل ما اتخذ معبوداً فهو إله عند متخذه، قال: والتأله التنسك والتعبد، وفي المصباح: أله من باب تعب إلهة بمعنى عبد عبادة، وتألّه تعبّد، والإله المعبود وهو الله سبحانه وتعالى، استعاره المشركون لما عبدوه من دون الله. انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الإله هو المعبود المطاع فهو إله بمعنى مألوه، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة وإكراماً وتعظيماً وخوفاً ورجاء وتوكلاً.

وقال ابن رجب رحمه الله: الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاء وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك إلا لله، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في لا إله إلا الله ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال ابن هبيرة في الإفصاح: قوله شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وينبغي أن يكون الناطق بها شاهداً فيها، فقد قال تعالى ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد لك بما يعلمه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

قال: واسم الله مرتفع بعد إلا من حيث أنه الواجب له الإلهية فلا يستحقها غيره سبحانه. قال: واقتضى الإقرار بها أن تعلم أن كلَّ ما فيه أمارة للحدث فإنه لا يكون إلهاً، فإذا قلت لا إله إلا الله اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله، فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده. قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله كنتَ ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله. انتهى.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره: لا إله إلا هو أي لا معبود إلا هو، وقال الزمخشري: الإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق.

وقال البقاعي: لا إله إلا الله، أي انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبوداً بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف. انتهى.

وجميع المفسرين يفسرون الإله بالمعبود، والمشركون يعرفون ذلك لأنهم أهل اللسان، فلما طلب منهم النبي ﷺ أن يقولوا: «لا إله إلا الله» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾، وهم يعترفون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ربٌّ كل شيء ومليكه، كما أخبر الله عنهم بذلك في مواضع كثيرة من كتابه، والله سبحانه فرضَ على

عباده معرفة معنى «لا إله إلا الله» وأن يعلموا أن لا إله إلا هو، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وترجم البخاري على الآية فقال: باب العلم قبل القول والعمل، إشارة إلى أن العلم بمعنى لا إله إلا الله أول واجب، ثم بعد ذلك القول والعمل. وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا أن لا إله إلا هو.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ قال المفسرون: إلا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم. وقد قال ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»، واستدل العلماء بهذه الآيات ونحوها على أن أول واجب على الإنسان معرفة الله، ودلت هذه الآيات على أن آكد الفرائض العلم بمعنى لا إله إلا الله وأن أعظم الجهل نقص العلم بمعناها إذا كان معرفة معناها آكد الواجبات، فالجهل بذلك أعظم الجهل وأقبحه.

ومن العجب أن بعض الناس إذا سمع من يتكلم في معنى هذه الكلمة نفياً وإثباتاً عاب ذلك وقال: لسنا مكلفين بالناس والقول فيهم. فيقال له: بل أنت مكلف بمعرفة التوحيد الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وأرسل جميع الرسل يدعون إليه، ومعرفة ضده وهو الشرك الذي لا يغفر ولا عذر لمكلف في الجهل بذلك، ولا يجوز فيه التقليد لأنه أصل للأصول. فمن لم يعرف المعروف وينكر المنكر فهو هالك، لا سيما أعظم المعروف وهو التوحيد وأكبر المنكرات وهو الشرك.

قال رجل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هلكتُ إن لم آمر بالمعروف وأنه عن المنكر، فقال ابن مسعود: هلكتَ إن لم يعرف قلبك المعروف وينكر المنكر. وبمعرفة التوحيد يعرف أهله كما قال علي رضي الله عنه: اعرف الحق تعرف أهله.

وأما الإقرار بتوحيد الربوبية، وهو أن الله سبحانه خالق كل شيء

ومليكه ومدبره، فهذا يقر به المسلم والكافر ولا بد منه، لكن لا يصير الإنسان به مسلماً حتى يأتي بتوحيد الإلهية الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون، وبه يتميز المسلم من المشرك وأهل الجنة من أهل النار. وقد أخبر سبحانه في مواضع من كتابه عن المشركين أنهم يقرون بتوحيد الربوبية، ويحتج عليهم سبحانه بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إشراكهم في توحيد الإلهية، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ الآية.

قال البكري الشافعي في تفسيره على هذه الآية: إذا قلتَ إذا أقروا بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟ قلت: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادةَ الله والتقرب إليه، لكن في طرق مختلفة، ففرقة قالت: ليس لنا أهلية عبادة الله بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه زلفى، وفرقة قالت: الملائكة ذوو وجاهة عند الله اتخذناها أصناماً على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله زلفى، وقالت: جعلنا الأصنام قبلة لنا في العبادة كما أن الكعبة قبلة في عبادته، وفرقة اعتقدت أن لكل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله، وإلا أصابه شيطانه بنكبة بأمر الله.

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ إنما يحملهم على عبادتهم أنهم عبدوا الأصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمر الدنيا.

قال قتادة والسدّي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي ليشفعوا لنا وليقربونا عنده ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال ابن عباس وغيره: إذا سألتهم من خلق السموات والأرض قالوا: الله وهم يعبدون معه غيره، ففسروا الإيمان في هذه الآية بإقرارهم بتوحيد الربوبية، والشرك بعبادتهم غير الله وهو توحيد الألوهية.

فلما تقرر معنى الإله وأنه المعبود تعيّن علينا معرفة حقيقة العبادة وحدِّها، فعرّفها بعضهم بأنها ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي. وقال بعضهم: هي كمال الحب مع كمال الخضوع وهذا يستلزم طاعة المحبوب والانقياد له.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء والذكر وقراءة القرآن وأمثال ذلك من العبادة.

فالدين كله داخل في العبادة، فإذا علم الإنسان وتحقق معنى الإله وأنه المعبود وعرف حقيقة العبادة تبين له أن من جعل شيئاً من العبادة لغير الله فقد عبده واتخذه إلهاً وإن فر من تسميته معبوداً أو إلهاً وسمى ذلك توسلاً وتشفعاً والتجاء ونحو ذلك.

فالمشرك مشرك شاء أم أبى، كما أن المرابي مرابٍ شاء أم أبى وإن لم يسم ما فعله ربا، وشارب الخمر شارب للخمر وإن سماها بغير اسمها، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «يأتي ناس من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها» فتغيير الاسم لا يغير حقيقة المسمى ولا يزيل حكمه كتسمية البوادي سوالفهم الباطلة حقاً وتسمية الظلمة ما يأخذونه من الناس بغير اسمه.

ولما سمع عدي بن حاتم وهو نصراني قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال للنبي ﷺ: لسنا نعبدهم.

فقال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه» قال: قلت بلى، قال: «فتلك عبادتهم». فعديّ رضي الله عنه ما كان يحسب أن موافقتهم فيما ذكر عبادة منهم فأخبر ﷺ أن ذلك عبادة منهم لهم مع أنهم لا يعتقدونه عبادة لهم، وكذلك ما يفعله عبّاد القبور من دعاء أصحابها وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليهم بالذبائح والنذور عبادة منهم للمقبورين وإن كانوا لا يسمونه ولا يعتقدونه عبادة. وكذلك الذين قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، ما كانوا يظنون أن قولهم اجعل لنا ذات أنواط كقول بني إسرائيل اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، ولم يظنوا أن هذا من التأله لغير الله الذي تنفيه لا إله إلا الله لأنهم يقولون لا إله إلا الله ويعرفون معناها لأنهم عرب، لكن خفيت عليهم هذه المسألة لحداثة عهدهم بالكفر حتى قال النبي ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن. قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون. لتركبن سنن من كان قبلكم».

فإن قيل: فإن النبي ﷺ لم يكفرهم بذلك؟ قلنا: هذا يدل على أن من تكلم بكلمة كفر جاهلاً بمعناها ثم نبّه فتنبه أنه لا يكفر، ولا شك أن هؤلاء لو اتخذوا ذات أنواط بعد إنكار النبي ﷺ عليهم لكفروا. وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ الآية. الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ راجع لقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ قال مجاهد وقتادة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فلا يزال في ذرية إبراهيم من يعبد الله وحده، ففي الآية والحديثين قبلها بيان لمعنى لا إله إلا الله وأن المراد منها البراءة من التأله والعبادة لغير الله وإفراده سبحانه بالعبادة.

ومن أعظم المصائب إعراض أكثر الناس عن النظر في معنى هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثير منهم يقول: من قال لا إله إلا الله ما تقول فيه شيئاً وإن فعل ما فعل، لعدم معرفتهم بمعنى هذه الكلمة نفياً وإثباتاً.

مع أن قائل ذلك لا بد أن يتناقض، فلو قيل له: ما تقول فيمن قال لا إله إلا الله ولا يقر برسالة محمد بن عبد الله؟ لم يتوقف في كفره، أو أقر بالشهادتين وأنكر البعث لم يتوقف في تكفيره، أو استحل الزنا واللواط ونحوهما، أو قال: أن الصلوات الخمس ليست بفرض أو أن صيام رمضان ليس بفرض فلا بد أن يقول يكفر من قال ذلك، فكيف لا تنفعه لا إله إلا الله إذاً ولا تحول بينه وبين الكفر، فإذا ارتكب ما يناقضها وهو عبادة غير الله وهو الشرك الأكبر الذي هو أكبر الذنوب قيل هو يقول لا إله إلا الله ولا يجوز تكفيره لأنه يتكلم بكلمة التوحيد! لكن آفة الجهل والتقليد أوجبت ذلك، وهؤلاء ونحوهم إذا سمعوا من يقرر أمر التوحيد ويذكر الشرك استهزأوا به وعابوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أثناء كلام له: والضالون مستخفّون بتوحيد الله، يعظمون دعاء غيره من الأموات، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الآية. فاستهزأوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك، وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد لما في أنفسهم من تعظيم الشرك، وكذلك من فيهم شبه منهم إذا رأوا من يدعو إلى التوحيد استهزأوا به لما عندهم من الشرك، ومن كيد الشيطان لمبتدعة هذه الأمة المشركين بالبشر من المقبورين وغيرهم، ولما علم عدو الله أن كل من قرأ القرآن أو سمعه ينفر من الشرك ومن عبادة غير الله ألقى في قلوب الجهال أن هذا الذي يفعلونه مع المقبورين وغيرهم ليس عبادة لهم، وإنما هو توسل وتشفع بهم والتجاء إليهم ونحو ذلك، فسلب العبادة والشرك اسمهما من قلوبهم وكساهما أسماء لا تنفر عنها القلوب، ثم ازداد اغترارهم وعظمت الفتنة بأن صار بعض من ينسب إلى علم ودين يسهل عليهم ما ارتكبوه من الشرك، ويحتج لهم بالحجج الباطلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فصل

وقد أورد بعضهم أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ذكر كلاماً وحكايات تدل على أن دعاء الأموات ليس بشرك، كما ذكر أنه روى أن رجلاً جاء إلى قبر النبي ﷺ فشكى إليه الجدب عام الرمادة، فرآه وهو يأمره أن يأتي إلى عمر بن الخطاب فيأمره أن يستسقي بالناس وغير ذلك من الحكايات.

قال بعض المجادلين: ولو سلم لكم في بعض الأمور أنها شرك أو كفر فإن الشيخ ذكر في (اقتضاء الصراط المستقيم) أن المتأول والمجتهد المخطئ والمقلد مغفور لهم ما ارتكبوه من الشرك والكفر. فهذا تلبيس من الناقل وكذب على الشيخ رحمه الله، لأنه إنما قال ذلك في سياق الكلام في بعض البدع كتحري دعاء الله عند قبر النبي وغيره، فقال: وقد يفعل الرجل العمل الذي يعتقده صالحاً ولا يكون عالماً أنه منهي عنه، فيثاب على حسن قصده، ويعفى عنه لعدم علمه. وهذا باب واسع، وعامة العبادات المبتدعة المنهي عنها قد يفعلها بعض الناس ويحصل له نوع من الفائدة، وذلك لا يدل على أنها مشروعة. ثم العامل قد يكون متأولاً أو مخطئاً مجتهداً أو مقلداً فيغفر له خطأه ويثاب على ما فعله من الخير المشروع المقرون بغير المشروع.

قال: والحاصل أن ما يقع من الدعاء المشتمل على كراهية شرعية بمنزلة سائر العبادات. وقد علم أن العبادة المشتملة على وصف مكروه قد تغفر تلك الكراهة لصاحبها لاجتهاده أو تقليده أو حسناته أو غير ذلك، ثم

ذلك لا يمنع أن ذلك مكروه منهي عنه، وإن كان هذا الفاعل المعيّن قد زال موجب الكراهة في حقه. قال: فإذا سمعت دعاء أو مناجاة مكروهة في الشرع قد قضيت حاجة صاحبها فكثيراً ما يكون من هذا الباب. ولا يقال هؤلاء لما نقصت معرفتهم يسوغ لهم ذلك فإن الله لم يسوغ هذا لأحد، لكن قصور المعرفة قد يرجى معه العفو والمغفرة، أما استحباب المكروهات أو إباحة المحرمات فلا فرق بين العفو عن الفاعل والمغفرة له وبين إباحة فعله أو المحبة له، وإنما استحباب الأفعال واتخاذها ديناً بكتاب الله تعالى وسنة نبيه وما كان عليه السابقون الأولون وما سوى هذا من الأمور المحدثة فلا تستحب وإن اشتملت أحياناً على فوائد، لأنا نعلم أن مفاسدها راجحة على فوائدها، لما يخاف عليهم من الافتتان، وإنما تكون الفتنة إذا انعقد سبيلها. فلولا أنه قد يحصل عند القبور ما يخاف الافتتان به لما نهى الناس عن ذلك. انتهى.

فانظر قوله: وليس هذا مما نحن فيه، وليس فيه معارضة لما ذكرنا، لأنه قرر أن قصد القبور لدعاء الله عندها بدعة منهي عنه، وكذلك قرر أن دعاء الأموات والغائبين والاستغاثة بهم شرك، وذكر أنه ليس في جميع ما ذكره معارضة لما قرره دفعاً لما قد يتوهم.

واحتج بعض من يجادل عن المشركين بقصة الذي أوصى أهله أن يحرقوه بعد موته على أن من ارتكب الكفر جاهلاً لا يكفر، ولا يكفر إلا المعاند.

والجواب عن ذلك كله أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأعظم ما أرسلوا به ودعوا إليه عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك الذي هو عبادة غيره. فإن كان مرتكب الشرك الأكبر معذور لجهله فمن هو الذي لا يعذر؟ ولازم هذه الدعوى أنه ليس لله حجة على أحد إلا المعاند، مع أن صاحب هذه الدعوى لا يمكنه طرد أصله، بل لا بد أن يتناقض فإنه لا يمكنه أن

يتوقف في تكفير من شك في رسالة محمد ﷺ أو شك في البعث أو غير ذلك من أصول الدين، والشاك جاهل، والفقهاء رحمهم الله يذكرون في كتب الفقه حكم المرتد وأنه المسلم الذي يكفر بعد إسلامه نطقاً أو فعلاً أو اعتقاداً أو شكاً. وسبب الشك الجهل، ولازم هذا لا يكفّر جهلة اليهود والنصارى ولا الذين يسجدون للشمس والقمر والأصنام لجهلهم، ولا الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار لأننا نقطع أنهم جهال. وقد أجمع العلماء رحمهم الله على كفر من لم يكفر اليهود والنصارى أو يشك في كفرهم، ونحن نتيقن أن أكثرهم جهال.

وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى: من سب الصحابة أو واحداً منهم واقترن بسبه دعوى أن علياً إله أو أن جبريل غلط فلا شك في كفر هذا، بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره. وقال: ومن زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشر أو أنهم فسقوا فلا ريب في كفر قائل ذلك، بل من شك في كفره فهو كافر. قال: ومن ظن أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بمعنى قدر وأن الله ما قدر شيئاً إلا وقع وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب كلها. انتهى.

ولا ريب أن أهل هذه المقالة أهل علم وزهد وعبادة، وأن سبب دعواهم هذه الجهل، وقد أخبر الله سبحانه عن الكفار أنهم في شك مما تدعوهم إليه الرسل، وأنهم في شك من البعث، فقالوا لرسلهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، وقال إخباراً عنهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، وقال عن الكفار: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ ووصفهم بغاية الجهل كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ

هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، وقد ذم الله المقلدين بقوله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الآيتين، ومع ذلك كفرّهم سبحانه وتعالى.

واستدل العلماء بهذه الآية ونحوها على أنه لا يجوز التقليد في معرفة الله والرسالة. وحجة الله سبحانه قائمة على الناس بإرسال الرسل إليهم وإن لم يفهموا حجج الله وبيّناته، قال الشيخ موفق الدين أبو محمد بن قدامة رحمه الله لما أنجز كلامه في مسألة هل كل مجتهد مصيب ورجح قول الجمهور: إنه ليس كل مجتهد مصيباً، بل الحق في قول واحد من أقوال المجتهدين. قال: وزعم الجاحظ أن مخالف ملة الإسلام إذا نظر فعجز عن إدراك الحق فهو معذور غير آثم، إلى أن قال: أما ما ذهب إليه الجاحظ فباطل يقيناً وكفر بالله ورد عليه وعلى رسوله، فإنما نعلم قطعاً أن النبي ﷺ أمر اليهود والنصارى بالإسلام واتباعه، وذمهم على إصرارهم وقاتلهم جميعاً بقتل البالغ منهم. ونعلم أن المعاند العارف ممن يقتل، وإنما الأكثر مقلدة اعتقدوا دين آبائهم تقليداً ولم يعرفوا معجزات الرسول وصدقه، والآيات الدالات في القرآن على هذا كثيرة كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ الآية. وفي الجملة ذم المكذبين للرسول مما لا ينحصر في الكتاب والسنة. انتهى.

والعلماء يذكرون أن من أنكر وجوب عبادة من العبادات الخمس أو قال في واحدة إنها سنة لا واجبة أو جحد حِلَّ الخبز ونحوه أو جحد تحريم الخمر أو نحوه أو شك في ذلك ومثله لا يجهله كفر، وإن كان مثله يجهله عُرّف ذلك فإن أصر بعد التعريف كفر وقتل، ولم يقولوا فإذا تبين له

الحق وعاند كفر. وأيضاً فنحن لا نعرف أنه معاند حتى يقول أنا أعلم أن ذلك حق ولا ألتزمه أو لا أقوله، وهذا لا يكاد يوجد.

وقد ذكر العلماء من أهل كل مذهب أشياء كثيرة لا يمكن حصرها من الأقوال والأفعال والاعتقادات أنه يكفر صاحبها، ولم يقيدوا ذلك بالمعاند. فالمدعي أنه مرتكب الكفر متأولاً أو مجتهداً أو مخطئاً أو مقلداً أو جاهلاً معذور مخالف للكتاب والسنة والإجماع بلا شك مع أنه لا بد أن ينقض أصله، فلو طرد أصله كفر بلا ريب كما لو توقف في تكفير من شك في رسالة محمد ﷺ، وأما الرجل الذي أوصى أهله أن يحرقوه وأن الله غفر له مع شكه في صفة من صفات الرب سبحانه فإنما غفر له لعدم بلوغ الرسالة له، كذا قال غير واحد من العلماء.

ولهذا قال الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى: من شك في صفة من صفات الرب ومثله لا يجهلها كفر، وإن كان يجهلها لم يكفر. قال: ولهذا لم يكفِّر النبي ﷺ الرجل الشاك في قدرة الله تعالى لأنه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة، وكذا قال ابن عقيل وحمله على أنه لم تبلغه الدعوة. واختيار الشيخ تقي الدين في الصفات أنه لا يكفر الجاهل، وأما في الشرك ونحوه فلا كما ستقف على بعض كلامه إن شاء الله تعالى.

وقد قدمنا بعض كلامه في الاتحادية وغيرهم وتكفيره من شك في كفرهم، قال صاحب اختياراته: والمرتد من أشرك بالله وكان مبغضاً لرسوله أو لما جاء به أو ترك إنكار كل منكر بقلبه، أو توهم أن من الصحابة من قاتل مع الكفار أو أجاز ذلك أو أنكر إجماعاً مجمعاً عليه إجماعاً قطعياً، أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفر إجماعاً. ومن شك في صفة من صفات الله ومثله لا يجهلها فمرتد، وإن كان مثله يجهلها فليس بمرتد، ولهذا لم يكفِّر النبي ﷺ الرجل الشاك في قدرة الله تعالى، فأطلق فيما تقدم من المكفرات، وفرق في الصفة بين الجاهل وغيره، مع أن رأي الشيخ رحمه الله في التوقف عن تكفير الجهمية

ونحوهم خلاف نصوص الإمام أحمد وغيره من أئمة الإسلام.

قال المجد رحمه الله تعالى: كل بدعة كفرنا فيها الداعية فإنا نفسق المقلد فيها كمن يقول بخلق القرآن أو أن علم الله مخلوق أو أن أسماءه مخلوقة أو أنه لا يُرى في الآخرة أو يسب الصحابة تديناً أو أن الإيمان مجرد الاعتقاد وما أشبه ذلك، فمن كان عالماً بشيء من هذه البدع يدعو إليه ويناظر عليه فهو محكوم بكفره، نص أحمد على ذلك في مواضع. انتهى. فانظروا كيف حكموا بكفرهم مع جهلهم.

فصل

ومما يتعين الاعتناء به معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، لأن الله سبحانه ذم من لا يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله، فقال تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومعرفة حدود الأسماء واجبة لأن بها قيام مصلحة الآدميين في المنطق الذي جعله الله رحمة لهم، لا سيما حدود ما أنزل الله على رسوله من الأسماء كالخمر والربا، فهذه الحدود هي المميزة بين ما يدخل في المسمى وما يدل عليه من الصفات وبين ما ليس كذلك، وقد ذم الله سبحانه من لم يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله انتهى.

ففرض على المكلف معرفة حد العبادة وحقيقتها التي خلقنا الله من أجلها، ومعرفة حد الشرك وحقيقته الذي هو أكبر الكبائر، وتجد كثيراً ممن يشتغل بالعلم لا يعرف حقيقة الشرك الأكبر وإن قال إنه الشرك في العبادة، لقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾،

﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ وقوله ﷺ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، فإنه لا يعرف حد العبادة وحقيقتها، وربما قال: العبادة التي صرْفُها لغير الله شركٌ الصلاة والسجود، مع اعترافه بأن الشرك الذي حرم الله هو الشرك في العبادة، فإذا طلب منه الدليل على أن الله سمى الصلاة لغيره أو السجود لغيره شركاً لم يجده، وربما قال: لأن ذلك خضوع والخضوع لغير الله شرك، فيقال له: تجد في الكتاب أو السنة تسمية هذا الخضوع شركاً؟ فلا يجده. فيلزمه أن يقول لأنه عبادة

لغير الله، فيقال: وكذلك الدعاء والذبح والنذر عبادات، مع ما يلزم هذه العبادات من أعمال القلوب من الذل والخضوع والحب والتعظيم والتوكل والخوف والرجاء وغير ذلك.

وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة»، وقد قرن الله سبحانه بين الصلاة والذبح في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ أي أخلص له صلاتك وذبيحتك، فكما أن الصلاة لغير الله شرك فكذا قرين الصلاة وهو الذبح لغير الله شرك. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾.

ومن العجب قول بعض من يحتج للمشركين بالأموات: إنهم لا يرجون قضاء حاجاتهم من الميت ونحوه.

فنقول: هذا مكابرة ومغالطة، لأنه من المعلوم عند كل ذي عقل أنهم ما دعوهم وتذللوا وخضعوا لهم وبذلوا أموالهم لهم بالنذر والذبائح إلا لأنهم يرجون حصول مطلوبهم وقضاء حاجاتهم من جهتهم، فكيف يتصور عند عاقل أن يسمع من يسأل الميت أو الغائب حاجة بأن يقول أعطني كذا وأنا في حبك، ويستغيث به في دفع عدو أو كشف ضر ويتذلل ويخضع له ثم يقول: إنه لا يرجو حصول مطلوبه ودفع مزهوبه من جهته!

وكيف يتصور أن يبذل ماله بالنذر والذبح مع أن المال عزيز عند أهله لمن لا يرجوه ويعتقد أنه لا يحصل له من جهته نفع ولا دفع ضر، فهذا من أبين المحال وأبطل الباطل، كيف وهم يفتخرون بقضاء حاجاتهم وكشف كرباتهم من جهتهم، فبعض منهم يعتقدون أن الميت ونحوه يفعل ذلك أصالة، وبعضهم يقول: هم وسيلتنا إلى الله، يعنون واسطة بينهم وبين الله كما عليه المشركون الأولون كما أخبر الله عنهم أنهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ بل كثير من مبتدعة هذه الأمة أعظم غلواً واعتقاداً في ولائجهم من المشركين الأولين، لأن الله سبحانه أخبر عن المشركين الموجودين حين نزول القرآن

أنهم يخلصون لله الدعاء في حال الشدة وينسون آلهتهم، وكثير من غلاة أهل هذا الزمان يخلصون الدعاء عند الأمور المهمة والشدائد لولائجهم كما هو مستفيض عنهم، قال تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

ومن العجب قول بعض من ينتسب إلى علم ودين إن طلبهم من المقبورين والغائبين ليس دعاء لهم بل هو نداء، أفلا يستحي هذا القائل من الله إذا لم يستح من الناس من هذه الدعوى الفاسدة السمجة التي يروج بها على رعاع الناس، والله سبحانه وتعالى قد سمى الدعاء نداء كما في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وأي فرق بين ما إذا سأل العبد ربه حاجة وبين ما إذا طلبها من غيره ميت أو غائب بأن الأول يسمى دعاء والثاني نداء؟ وما أسمج هذا القول وأقبحه، وهو قول يستحى من حكايته لولا أنه يروج على الجهال، لا سيما إذا سمعوه ممن يعتقدون علمه ودينه، وأي فرق بين سؤال الميت حاجة وبين سؤالها من صنم ونحوه بأن الثاني يسمى دعاء والأول نداء؟

فإن قال الكل يسمى نداء لا دعاء فهذا مشاقة للقرآن ومحادة لله ورسوله، وما أظن عاقلاً يحيك هذا في نفسه، وإنما هو عناد ومكابرة، إنما تروج على أشباه البهائم، أما يخاف هذا أن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ والله سبحانه وتعالى سمى سؤال غيره دعاء في غير موضع من كتابه ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ والدعاء في القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة.

فصل

ويقال لمن ادعى أن الشرك هو الصلاة والسجود لغير الله فقط مع أن هذا مكابرة من مدعيه، فكما أن السجود عبادة فكذلك الدعاء والنذر والذبح وغيرهما كما تقدم تعريفه. وقد نهى الله عن دعاء غيره وذم فاعل ذلك وأمرنا بإخلاص الدعاء له وأكثر مما ذكر في خصوصية السجود، مع أن الدعاء في القرآن يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة الذي يدخل فيه السجود وغيره من أنواع العبادة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ وفي القرآن مثل ذلك مالا يحصى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الكلام على دعوة ذي النون: لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة، وفسر قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بالوجهين.

وفي حديث النزول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»، والمستغفر سائل والسائل داع، لكن ذكر السائل

لدفع الشر بعد السائل للخير، وذكرهما بعد الدعاء الذي يتناولهما وغيرهما من عطف الخاص على العام، وسماها دعوة لتضمنها النوعين، فقوله: «لا إله إلا أنت» اعتراف بتوحيد الإلهية، وهو يتضمن النوعين، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى بالنوعين.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في البدائع بعد آيات ذكرها قال: وهذا في القرآن كثير يبين أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى رجاء وخوفاً دعاء العبادة. فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، إلى أن قال: وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، ولا استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً. انتهى.

فعلى هذا يكون النهي عن دعاء غيره سبحانه نصاً في دعاء العبادة وفي دعاء المسألة حقيقة، فهو نهي عن كل منهما حقيقة.

فصل

وقد ذكرنا أن الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى إنما قال: ترجى المغفرة لمن فعل بعض البدع مجتهداً أو جاهلاً، لم يقل ذلك فيمن ارتكب الشرك الأكبر والكفر الظاهر، بل قد قال رحمه الله: إن الشرك لا يغفر وإن كان أصغر، وقد قدمنا بعض كلامه في ذلك. ونذكر هنا بعض ما اطلعنا عليه من كلامه وكلام غيره من العلماء. قال رحمه الله تعالى في شرح العمدة لما تكلم في كفر تارك الصلاة، قال: وفي الحقيقة فكل رد لخبر الله أو أمره فهو كفر دق أو جل، لكن قد يعفى عما خفيت فيه طرق العلم وكان أمراً يسيراً في الفروع، بخلاف ما ظهر أمره وكان من دعائم الدين من الأخبار والأوامر.

وقال رحمه الله في أثناء كلام له في ذم أصحاب الكلام: والرازي من أعظم الناس في باب الحيرة، لكن هو مسرف فيه له نهمة في التشكيك، والشك في الباطل خير من الثبات على اعتقاده، لكن قل أن يثبت أحد على باطل محض، بل لا بد فيه من نوع من الحق، وتوجد الردة منهم كثيراً كالنفاق، وهذا إذا كان في المقالات الخفية، فقد يقال لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها، لكن يقع ذلك في طوائف منهم في أمور يعلم العامة والخاصة بل اليهود والنصارى يعلمون أن محمداً ﷺ بعث بها وكفّر من خالفها، مثل عبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة غيره، فإن هذا أظهر شرائع الإسلام، ومثل أمره بالصلوات الخمس وتعظيم شأنها، ومثل معاداة المشركين وأهل الكتاب، ومثل تحريم الفواحش والربا والميسر ونحو ذلك.

إلى أن قال: وصنف الرازي كتابه في عبادة الأصنام والكواكب وأقام الأدلة على حسنه ورغب فيه، وهذه ردَّة عن الإسلام إجماعاً. انتهى.

فقوله رحمه الله: بل اليهود والنصارى يعلمون ذلك هو كما قال، فقد سمعنا من غير واحد من اليهود أنهم يعيبون على المسلمين ما يفعل عند هذه المشاهد يقولون إن كان نبيكم أمركم بهذا فليس بنبي، وإن كان نهاكم عنه فقد عصيتموه. فيا سبحان الله ما أعجب هذا، اليهود ينكرون هذه الأمور الشركية ويقولون لا يأتي بها نبي، وكثير من علماء هذا الزمان يجوزون ذلك ويوردون الشبه الباطلة عليه وينكرون على من أنكره. وانظر قول الشيخ: لكن قد يعفى عما قد خفيت فيه طرق العلم وكان أمراً يسيراً في الفروع. وقوله أيضاً: وهذا في المقالات الخفية، فقد يقال لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها.

وقال الشيخ رحمه الله في الرسالة السنية لما ذكر حديث الخوارج: فإذا كان في زمن النبي ﷺ وخلفائه من قد مرق من الدين مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام في هذا الزمان قد يمرق أيضاً، وذلك بأمور: منها الغلوّ الذي ذمه الله تعالى كالغلوّ في بعض المشايخ كالشيخ عدي، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يدعوه من دون الله بأن يقول: يا سيدي فلان أغثني أو اجبرني أو توكلت عليك أو أنا في حبك، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل. فإن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يجعل معه إله آخر، والذين يجعلون مع الله آلهة أخرى مثل الملائكة والمسيح وعزير والصالحين أو قبورهم لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق وترزق، وإنما كانوا يدعونهم يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فبعث الله الرسل تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استعانة.

وقال أيضاً رحمه الله وقد سئل عن رجلين تنازعا فقال أحدهما: لا

بد لنا من واسطة بيننا وبين الله، فإنا لا نقدر أن نصل إليه إلا بذلك.

فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: إن أراد أنه لا بد لنا من واسطة تبلغنا أمر الله فهذا حق، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به وينهى عنه إلا بواسطة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده، وهذا ما أجمع عليه أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده، وهم الرسل الذين بلّغوا عن الله أوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل.

وإن أرادوا بالواسطة أنه لا بد من واسطة يتخذها العباد بينهم وبين الله في جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يكونوا واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألون ذلك ويرجعون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفّر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويدفعون بهم المضار. إلى أن قال: فمن جعل الأنبياء والملائكة وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وتفريج الكربات وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين، إلى أن قال: فمن أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالحجّاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، وأن الله إنما يهدي عباده وينصرهم ويرزقهم بتوسطهم، بمعنى أن الخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائل أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

وهؤلاء مشبهون، شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا لله أنداداً، وفي القرآن من الردّ على هؤلاء ما لا تتسع له هذه الفتوى، فإن هذا دين

المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى حيث قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾. انتهى.

فقد جزم رحمه الله في مواضع كثيرة بكفر من فعل ما ذكره من أنواع الشرك، وحكى إجماع المسلمين على ذلك، ولم يستثن الجاهل ونحوه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وقال عن المسيح إنه قال: ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ فمن خص ذلك الوعيد بالمعاند فقط وأخرج الجاهل والمتأوّل والمقلد فقد شاق الله ورسوله وخرج عن سبيل المؤمنين. والفقهاء يصدّرون باب حكم المرتد بمن أشرك بالله، ولم يقيدوا ذلك بالمعاند. وهذا أمر واضح ولله الحمد. وقال الله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

وقال الشيخ أيضاً: وهذه الأمور المبتدعة عند القبور أنواع أبعدها عن الشرائع أن يسأل الميت حاجة كما يفعله كثير من الناس، وهؤلاء من جنس عباد الأصنام، ولهذا يتمثل لهم الشيطان في صورة الميت والغائب كما يتمثل لعباد الأصنام.

ومن تقريره رحمه الله في هذا الأصل ما ذكره في (اقتضاء الصراط المستقيم) حيث قال: إن الدعاء المتضمن شركاء كدعاء غير الله أن يفعل أو دعائه أن يدعو ونحو ذلك ليحصل غرض صاحبه، ولا يورث حصول الزمن شبهة إلا في الأمور الحقيرة، وأما الأمور العظيمة كإنزال الغيث عند القحط وكشف العذاب النازل فلا ينفع فيه هذا الشرك، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٠) بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ (٤١)﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ

﴿ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الآيات، فكون هذه المطالب العظيمة لا يستجيب فيها إلا هو سبحانه دل على توحيده وقطع شبهة من أشرك به، وعلم بذلك أن ما دون هذا أيضاً من الإجابات إنما فعلها هو سبحانه وحده لا شريك له وإن كانت تجري بأسباب محرمة أو مباحة، كما أن خلقه السموات والأرض والسحاب والرياح وغير ذلك من الأجسام العظيمة دال على وحدانيته وأنه خالق كل شيء وأن ما دون هذا بأن يكون خلقاً له أولى، إذ هو منفعل عن مخلوقاته العظيمة، فخالق السبب التام خالق للمسبب لا محالة.

وجماع ذلك أن الشرك نوعان: شرك في ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبير مّا كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ فتبين أنهم لا يملكون ذرة استقلالاً، ولا يشركونه في شيء من ذلك، ولا يعينونه على ملكه. فمن لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً فقد انقطعت علاقته وأشرك في الألوهية بأن يدعى غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

فكما أن إثبات المخلوقات أسباباً لا يقدح في توحيد الربوبية ولا يمنع أن يكون الله خالق كل شيء ولا يوجب أن يدعي المخلوق دعاء عبادة أو دعاء استعانة، كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أو غيره أسباباً لا يقدح في توحيد الإلهية ولا يمنع أن يكون الله هو الذي يستحق الدين الخالص، ولا يوجب أن تستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك إذا كان الله يسخط ذلك ويعاقب العبد عليه وتكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعته، إذ قد جعل الخير كله في أنا لا نعبد إلا إياه ولا نستعين إلا إياه. وعلمه آيات القرآن تثبت هذا الأصل، حتى أنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه.

فذكر رحمه الله آيات كثيرة في هذا المعنى، ثم قال: والقرآن عامته إنما هو تقرير هذا الأصل العظيم الذي هو أصل الأصول. وقال رحمه الله في موضع آخر: ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته أن تدعو أحداً من الأحياء والأموات، لا الأنبياء ولا غيرهم، ولا بلفظ الاستغاثة ولا بلفظ الاستعانة ولا بغيرهما، كما لم يشرع السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن ذلك كله وأنه من الشرك الذي حَرّمه الله ورسوله، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم حتى يبين لهم ما جاء به الرسول.

قال: ولهذا ما بُينت هذه المسألة لمن يعرف أصل الإسلام إلا تفطن لها وقال هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض أكابر الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول: هذا أعظم ما بينته لنا، لعلمه بأن هذا أصل الدين. انتهى.
فقوله رحمه الله: لم يمكن تكفيرهم حتى يبين لهم ما جاء به الرسول، أي لم يمكن تكفيرهم بأشخاصهم وأعيانهم بأن يقال فلان كافر ونحوه، بل يقال هذا كفر ومن فعله كافر، أطلق رحمه الله الكفر على فاعل هذه الأمور ونحوها في مواضع لا تحصى، وحكى إجماع المسلمين على كفر فاعل هذه الأمور الشركية، وصرح بذلك رحمه الله في مواضع، كما قال في أثناء جواب له في الطائفة القلندرية، قال بعد كلام كثير: وأصل ذلك أن المقالة التي هي كفر في الكتاب والسنة والإجماع يقال هي كفر مطلق كما دل على ذلك الدليل الشرعي، فإن الإيمان والكفر من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم الناس فيه بظنونهم، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى تثبت في حقه شروط التكفير وتنتفي موانعه، مثل من قال: إن الزنا أو الخمر حلال لقرب عهده بالإسلام أو نشوئه ببادية بعيدة.

وقال رحمه الله في موضع آخر في أثناء كلام له على هذه المسألة: وحقيقة الأمر في ذلك أن القول يكون كفراً فيطلق القول بتكفير صاحبه

ويقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم الحجة التي يكفر تاركها. فهذا كما في نصوص الوعيد، فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية. فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز ألا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع، فقد لا يكون بلغة التحريم، وقد يتوب من فعل المحرم، وقد يكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح المنازل: ومن أنواعه ـ أي الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يملكه لمن استغاث به أو سأله أن يشفع له. وقال في أثناء كلام له: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون إن هذا الحجر وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له.

وقال في الهدى في فوائد غزوة الطائف: ومنها أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً فأنها شعائر الكفر والشرك، وهي من أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها بعد القدرة البتة. وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد بالتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، فلا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بل أعظم شركاً عندها وبها والله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق

وتحيي وتميت، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقلّ العلماء وغلبت السفهاء، وتفاقم الأمر واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، انتهى. والأمر كما قال رحمه الله أن سبب حدوث الشرك ظهور الجهل وخفاء العلم وقلة العلماء وغلبة السفهاء.

فتبين لطالب الحق أن من جادل عن المشركين وسهّل عليهم ما ارتكبوه من الشرك واحتج لهم بالحجج الباطلة أنه فاقد أصل العلم، فيستحق أن يوصف بالجهل وإن كان له اشتغال بأنواع من العلوم القليل نفعها، ففي هذا مصداق قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»، وما أحسن ما قال ابن المبارك رحمه الله تعالى:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

ويروى أن هلاك من كان قبلنا كان على أيدي قرائهم وفقهائهم فإنا لله وإنا إليه راجعون. قال ابن القيم رحمه الله: ومن ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به وتقرب إليه بما يجب فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخداماً، وصدق، هو استخدام من الشيطان. وقال رحمه الله تعالى أيضاً:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أياً ... كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديّان
والله ما ساووهم بالله في ... خلق ولا رزق ولا إحسان

لكنهم ساووهم بالله في حب وتعظيم وفي إيمان
جعلوا محبتهم مع الرحمن ما جعلوا المحبة قط للرحمن

وقال شيخ الإسلام: وأما ما نذره لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة لأن كليهما شرك والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من العقد ويقول ما قال النبي ﷺ: «من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله». انتهى.

قوله: «فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله» أي في عدم الانعقاد، ولأن النذر عبادة بخلاف الحلف.

وقال أيضاً: قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقول هذه ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقيل فيه باسم المسيح ونحوه، لأن ما ذبحناه متقربين إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا فيه بسم الله، فإن عبادة الله بالصلاة له والنسك أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح والزهرة وقصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله، فعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه لحرم وإن قال فيه بسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والنذور ونحو ذلك إن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان.

ومن هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن، قال: ولهذا كان عباد الشيطان والأصنام يذبحون الذبائح، فالذبح للمعبود غايته الذل والخضوع، ولهذا لم يجز الذبح لغير الله. وقال في موضع آخر: والمسلم إذا ذبح لغير الله أو ذبح بغير اسمه لم تبح ذبيحته وإن كان يكفر

بذلك. إلى أن قال: ولأن الذبح لغير الله وباسم غيره قد علم أنه ليس من دين الإسلام، بل هو من الشرك الذي أحدثوه. قال: وقول الشيخ أنذروا لي لتقضى حاجتكم أو استعينوا بي إن أصر ولم يتب قتل.

وقال أبو محمد البربهاري شيخ الحنابلة في وقته في عقيدته: ولا نخرج أحداً من أهل القبلة عن الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله أو يرد شيئاً من آثار رسول الله ﷺ أو يصلي لغير الله أو يذبح لغير الله فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام، في كلام كثير ذكره انتهى. سمع البربهاري من المروذي وغيره.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: رأيتُ لأبي الوفاء بن عقيل فصلاً حسناً فذكرته بلفظه قال: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد السرج وتقبيلها وتخليقها وخطاب أهلها بالحوائج وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركاً وإفاضة الطيب على القبور وشد الرحال إليها وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى. والويل عندهم لمن لم يقبل مشهد الكف، ولم يتمسح بالآجر يوم الأربعاء، ولم يقل الحمالون على جنازته: أبو بكر الصديق ومحمد وعلي، ولم يعقد على قبر أبيه أزجاً بالجص والآجر، ولم يخرق ثيابه ولم يرق ماء الورد على القبر. انتهى.

فانظر إلى تكفير ابن عقيل لهم مع إخباره بجهلهم.

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار: النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد الآن كأن يكون لإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية فيأتي إلى قبر بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ويقول: يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا أو من الطعام كذا أو من الماء كذا

أو من الشمع كذا، فهذا باطل بالإجماع لوجوه: منها أنه نذر لمخلوق والنذر لمخلوق لا يجوز لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله واعتقاد ذلك كفر، إلى أن قال: إذا علمت ذلك فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم فحرام بإجماع المسلمين.

وقال النووي في شرح مسلم على قول النبي ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله» المراد به أن يذبح بغير اسم الله كمن يذبح للصنم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى أو للكعبة ونحو ذلك، وكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة، وسواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً، إلى أن قال: فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان كفراً، فإن كان الذابح مسلماً صار بالذبح مرتداً. انتهى.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي في الرد على من أجاز النذر والذبح للأولياء وأثبت الأجر في ذلك: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان لغير الله فيكون باطلاً. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أي صلاتي وذبحي لله كما فسر به قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝﴾ قال: والنذر لغير الله إشراك مع الله، إلى أن قال: والنذر لغير الله كالذبح لغيره، وقال الفقهاء: خمسة لغير الله شرك: الركوع، والسجود، والنذر، والذبح، واليمين. قال: والحاصل أن النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور.

وقال ابن النحاس في كتاب الكبائر: ومنها إيقادهم السرج عند الأحجار والأشجار والعيون والآبار ويقولون إنها تقبل النذر، وهذه كلها بدع ومنكرات قبيحة تجب إزالتها ومحو أثرها. فإن أكثر الجهال يعتقدون أنها تنفع وتضر وتجلب وتدفع وتشفي المرضى وترد الغائب إذا نذر لها. وهذا شرك ومحادة لله ورسوله.

وقال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب (البدع والحوادث): ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم ويرجون الشفاعة لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر وحائط.

وفي مدينة دمشق ـ صانها الله ـ من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما، والعمود المخلَّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث، وذكر الحديث ثم قال: قال أبو بكر الطرطوشي: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها.

ثم قال: ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبيناني رحمه الله أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة حكى عنه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت امضوا بي إلى العافية فتعرف بها الفتنة. قال أبو عبد الله: فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأساً، فما رفع لها رأس إلى الآن. انتهى.

وكان الإمام أبو محمد بن أبي يزيد يعظم شأن أبي إسحاق هذا ويقول: طريقة أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي في كتابه الذي ألفه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفاً في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفاً في حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات. قالوا: منهم أبدال ونقباء وأوتاد ونجباء وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة والقطب هو الغوث للناس وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور وأثبتوا لهم فيهما الأجور.

قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق ومضادة الكتاب العزيز المصدق، ومخالف لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة.

وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ إلى أن قال: الفصل الأول فيما انتحلوه من الإفك الوخيم والشرك العظيم، إلى أن قال: فأما قولهم إن للأولياء تصرفاً في حياتهم وبعد الممات فيرده قول الله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾، ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ونحو ذلك من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه، والكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً وإحياء وإماتةً وخلقاً، وتمدح الرب سبحانه بانفراده في ملكه بآيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فقوله في الآيات كلها من دونه من غيره فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره؟ إلى أن قال: فكيف يتصور لغيره من ممكن أن يتصرف؟ إن هذا من السفاهة لقول وخيم وشرك عظيم.

إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة، قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وفي الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» الحديث.

فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة أو نقصان، فدل ذلك أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره بحركة، وأن روحه محبوسة مرهونة بعملها من خير أو شر، فإذا عجز عن حركته لنفسه فكيف يتصرف لغيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون إن الأرواح مطلقة متصرفة، قل أأنتم أعلم أم الله؟

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدّ ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم: «ويستغاث بهم في الشدائد» فهذا أقبح مما قبله وأبدع، لمضاده قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ وذكر آيات في هذا المعنى، ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب، وأنه المنفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر وعلى إيصال الخير، فهو المنفرد بذلك، فإذا تبين جل ذكره خرج عن غيره من ملك ونبي وولي، قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من

الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقولهم: يا لزيد، يا لقومي، يا للمسلمين. كما ذكروا ذلك في كتب النحو بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل.

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله، فلا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال وينادونهم ويستنجدون بهم فهذا من المنكرات، إلى أن قال: فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيراً فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير، وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات فحاشا أولياء الله أن يكونوا بهذه المثابة فهذا ظن أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه أشرك مع الله، إذ لا قادر على النفع غيره، ولا خير إلا خيره.

وأما ما قالوه إن فيهم أبدالاً أو نقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس، فهذا من موضوعات إفكهم كما ذكره القاضي المحدث ابن العربي في (سراج المريدين) وابن الجوزي وابن تيمية. انتهى باختصار، وكلام العلماء في ذلك كثير، واكتفينا بما ذكرنا.

فصل

وتقدم في كلام الشيخ الإشارة إلى أنه لولا أنه يخشى من الفتنة بالقبور لما نهى عن الصلاة عندها وغير ذلك، وتأكدت الفتنة بقضاء بعض حوائج قاصديها والمشركين بها، وذكر الشيخ رحمه الله من ذلك أشياء كثيرة ذكرها في (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وغيره من كتبه، قال: والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها كما يفعل أهل دعوى الكواكب فإنه ينزل عليه الشيطان ويخاطبه ويحدثه ببعض الأمور يسمون ذلك روحانيات الكواكب، وهو شيطان، وكذلك عُبّاد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين. وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا عنده وظن أن الدعاء عند قبره أفضل من البيوت والمساجد.

وللنصارى والضلال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشيطان، مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد عقد، أو يوضع عنده مصروع فيبصرون شيطانه قد فارقه، فيفعل هذا الشيطان ليضلهم. ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق فيخرج منه إنسان فيظنه الميت. ومن هؤلاء من يستعين بمخلوق حي أو ميت سواء كان ذلك الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث، فيظن أنه ذلك الشخص أو أنه ملك على صورته، وإنما هو شيطان أضل لما أشرك بالله كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين، ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ويقول

له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، ومنهم من يطير به الجني إلى مكة، أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات.

قال رحمه الله: حتى إني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ فتارة يكون الشيخ نفسه لم يعلم بتلك القضية، فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهمهم أنه نفسه أتاهم وأعانهم، وإن كان في صدق مع جهل وضلال قال: هذا ملك صوره الله على صورتي، وجعل هذا من كرامات الصالحين، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ويتخذهم أرباباً وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكته على صورهم تغيث المستغيثين بهم.

ولهذا أعرف غير واحد منهم ممن فيه صدق وزهد وعبادة لما ظنوا أن هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه يقول: إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغيث بي وليستنجدني ويقول أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي، وهو لا يعرف أن تلك الشياطين تتصور على صورته لتضله وتضل أتباعه، فتحسّن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله والاستعانة بغير الله وأنها قد تلقي في قلبه أنا نفعل بأصحابك بعد موتك ما كنا نفعل بهم في حياتك، فيظن هذا من خطاب إلهي ألقى إليه فيأمر أصحابه بذلك، وذكر أشياء كثيرة من هذا الجنس وأعظم منها، والمقصود أن الإنسان إذا سمع بوقوع مثل ذلك لا يستبعده ولا يستغربه إذا عرف أن مثل هذه الأمور تقع لعباد الأصنام والقبور، والأمر كله لله ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فصل

يتعين على من نصح نفسه وعلم أنه مسؤول عما قال ومحاسب على اعتقاده وقوله وفعله أن يعد لذلك جواباً، ويخلع ثوبي الجهل والتعصب ويخلص القصد في طلب الحق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، وليعلم أنه لا يخلصه إلا اتباع كتاب الله وسنة نبيه، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

ولما كان قد سبق في علم الله وقضائه أنه سيقع الاختلاف بين الأمة أمرهم وأوجب عليهم عند التنازع الرد إلى كتابه وسنة نبيه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

قال العلماء رحمهم الله: الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول الرد إليه في حياته والرد إلى سنته بعد مماته، ودلت الآية أن من لم يردّ عند التنازع إلى كتاب الله وسنة نبيه فليس بمؤمن لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فهذا شرط ينتفي المشروط بانتفائه، ومحال أن يأمر الله الناس بالرد إلى ما لا يفصل النزاع، لا سيما في أصول الدين التي لا يجوز فيها التقليد عند عامة العلماء، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

ولما أخبر النبي ﷺ بوقوع الاختلاف الكثير بعده بين أمته أمرهم عند وجود الاختلاف بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده فقال ﷺ: «إن من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»، ولم يأمرنا الله ولا رسوله بالرد عند التنازع والاختلاف إلى ما عليه أكثر الناس، ولم يقل الله ولا رسوله لينظر أهل كل زمان إلى ما عليه أكثر أهل زمانهم فيتبعونهم، ولا إلى أهل مصر معين، وإنما الواجب على الناس الرد إلى كتاب الله وسنة نبيه وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وما مضى عليه الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين، ولا يعبأ بكثرة المخالفين بعدهم، فإذا علم الله من العبد الصدق في طلب الحق وترك التعصب ورغب إلى الله في سؤاله هداية الصراط المستقيم فهو جدير بالتوفيق، فإن على الحق نوراً، لا سيما التوحيد الذي هو أصل الأصول الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم وهو توحيد الألوهية فإن أدلته وبراهينه في القرآن ظاهرة، وعامة القرآن إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم.

ولا يستوحش الإنسان لقلة المرافقين وكثرة المخالفين، فإن أهل الحق أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة التي قد صار الإسلام فيها غريباً، والحق لا يعرف بالرجال كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمن قال: أترى أنا نرى الزبير وطلحة مخطئين وأنت المصيب؟ فقال له علي: ويحك يا فلان إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله وأيضاً فالحق ضالة المؤمن، وليحذر العاقل من مشابهة الذين قال الله عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

وقد قال بعض السلف: ما ترك أحد حقاً إلا تكبر في نفسه. ومصداق ذلك قول النبي ﷺ حين قال: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال

ذرة من كبر»، ثم فسر الكبر بأنه بطر الحق أي رده، وغمط الناس وهو احتقارهم وازدراؤهم، ولقد أحسن القائل:

وتعرّ من ثوبين من يلبسهما ... يلقى الردى بمذمة وهوان
ثوب من الجهل المركب فوقه ... ثوب التعصب بئسما الثوبان
وتحلَّ بالإنصاف أفخر حلة ... زينت بها الأعطاف والكتفان
واجعل شعارك خشية الرحمن مع ... نصح الرسول فحبذا الأمران

وقال ابن القيم رحمه الله أيضاً: وما أحسن ما قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن المعروف بأبي شامة في كتاب (الحوادث والبدع): بحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا تنظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم، قال عمرو بن ميمون الأودي: صحبت معاذاً فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود فسمعته يقول: عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة، قال: قلتُ يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون، قال: وماذا؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول صل الصلاة وحدك وهي الفريضة وصل مع الجماعة وهي النافلة.

قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظن أنك من أفقه أهل هذه القرية، أتدري ما الجماعة؟ قلتُ: لا، قال: إن جمهور الناس قد فارقوا الجماعة، الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.

وفي طريق أخرى: فضرب على فخذي وقال: ويحك، إن جمهور الناس قد فارقوا الجماعة.

وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل.

قال نعيم عن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن يفسدوا، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ. ذكره البيهقي وغيره.

وروى مبارك بن فضالة عن الحسن البصري قال: لو أن رجلاً أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً، قال: ووضع يده على خده ثم قال: إلا هذه الصلاة، ثم قال: أما والله لمن عاش في هذه النكراء ولم يدرك هذا السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دينه، فعصمه الله من ذلك وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح يسأل عن سبيلهم ويقتص آثارهم يتبع سبيلهم ليعوض أجراً عظيماً، فكذلك كانوا إن شاء الله.

وروى محمد بن وضاح عن أبي الطفيل أن حذيفة بن اليمان أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه ثم قال: إن هذا الدين قد استضاء إضاءة هذه الحصاة، ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها، ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون هذا الدين كما دُفنت هذه الحصاة، ولتسلكن طريق الذين كانوا قبلكم حذوَ القذة بالقذة وحذوا النعل بالنعل.

وقال محمد بن وضاح رحمه الله: الخير بعد الأنبياء ينقص والشر يزيد، قال ابن وضاح: إنما هلكت بنو إسرائيل على أيدي قرائهم وفقهائهم.

وروى ابن وضاح عن عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن حسان بن أبي جبلة عن أبي الدرداء قال: لو خرج رسول الله ﷺ إليكم ما عرف شيئاً مما كان عليه هو أصحابه إلا الصلاة. قال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟ قال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟

وروى ابن وضاح عن الأوزاعي قال: قال لي شقيق أبو وائل: يا سليمان ما شبهت قراء زمانك إلا بغنم رعت حمضاً فمن رآها ظن أنها سمينة وإذا ذبحها لم يجد فيها شاة سمينة.

وروى ابن وضاح عن أبي الدرداء قال: لو أن رجلاً تعلم الإسلام وأهمله ثم تفقده ما عرف منه شيئاً.

وروى ابن وضاح عن عبد الله بن المبارك قال: اعلم أي أخي أن الموت كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكوا وحشتنا، وذهاب الإخوان وقلة الأعوان، وظهور البدع، وإلى الله نشكوا عظيم ما حل بهذه الأمة من ذهاب العلماء، وأهل السنة، وظهور البدع. انتهى.

فكيف لو رأى من تقدم ذكرهم هذه الأزمنة التي ظهر فيها الشرك الأكبر والأصغر والبدع التي لا تعد ولا تحصى في الاعتقادات والأقوال والأعمال، وظهرت جميع الفواحش في أكثر أمصار المسلمين، وضيعت الصلوات واتبعت الشهوات، وظهر مصداق قول حذيفة: ليجيئن أقوام يدفنون الدين كما دفنت هذه الحصاة، وأبلغ من ذلك قول النبي ﷺ: «لتتبعن سَنن من كان قبلكم حَذْوَ القذة بالقذَّة، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن»؟ وقال: «لتأخذن هذه الأمة مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، قالوا: فارس والروم؟ قال: فمن الناس إلا أولئك»؟ وظهر مصداق قول النبي ﷺ حقيقة: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

واعتبر هذا بما عاب به سبحانه اليهود من تبديلهم رجم الثيب الزاني بالجلد والتحميم، فقال سبحانه في شأنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ إن أفتاكم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوا.

وقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال النبي ﷺ لما رجم الزاني قال: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فكيف حال الذين عطلوا الحدود بالكلية، ثم زاد الشر إلى أن آل

الأمر ببعض الولاة أنهم يضربون على البغايا الخراج، وتعدوا حد الله في السارق بالصلب والقتل صيانةً لأموالهم، ولم يعبأوا بانتهاك حرمات مولاهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وليجتهد المسلم في تحقيق العلم والإيمان وليتخذ الله هادياً ونصيراً وحاكماً ووليا، فإنه نعم المولى ونعم النصير، وكفى بربك هادياً ونصيراً، وينبغي أن يكثر الدعاء بما رواه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

آخره والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرسالة الثانية

مفيد المستفيد
في حكم تارك التوحيد

من كتابات الشيخ المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله المتوفى سنة ١٢٠٦هـ

مقدمة

بقلم فضيلة الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ

الحمد لله وحده وبعد:

فقد طلب مني الأخ (الشيخ علي الحمد الصالحي) أن أقدم رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب «رحمه الله».

(مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد)

التي يريد الشيخ علي، إعادة طبعها.. وهذه رسالة كسائر رسائله «رحمه الله» لا تحتاج إلى من يقدم لها ويثني عليها.. فبمجرد ما يطلع عليها القارئ ويتصفحها يحكم عليها بالجودة والتحقيق ولا سيما وهي صادرة من إمام مجدد كرس حياته في بيان التوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وبيان ما يجب لله تعالى على عباده من حق العبودية وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله سبحانه وتعالى، فلا يدعى ولا يرجى إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُستغاث ولا يُستعاذ فيما لا يقدر عليه إلا به وحده.

وقد حارب هذا الإمام الوثنية بجميع أشكالها وطهر الجزيرة العربية من الشرك الذي وقع فيه كثير من المسلمين.. كدعاء الأموات، والغائبين، وسؤالهم تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وقضاء الحاجات، والتقرب إليهم بالذبح، والنذر لهم.

إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله وحده.

وقد ناصر الشيخ «رحمه الله» في دعوته التي قام بها (آل سعود) الأشاوس فدافعوا عنها ووقفوا في وجه أعدائها الذين حاولوا إخمادها، والقضاء عليها في الداخل والخارج من الحساد، والمخرفين، والمنافقين، وجاهدوا في هذا السبيل جهاد المؤمنين الصامدين حتى ثبتت هذه العقيدة.. وطهرت الجزيرة العربية من أوظار الشرك.. والبدع.. والخرافات بفضل الله ثم بفضل جهادهم وإخلاصهم لهذا الدين.. وصار هذا الجهاد وهذه النصرة لهذه الدعوة سبباً في عزتهم ورفع شأنهم.

ولا تزال هذه الأسرة بحمد الله تدافع عن هذه العقيدة وتحمي حماها، وتذود عن حياضها. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اهـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وبه نستعين * وعليه نتوكل

مما قال الشيخ الإمام، وعلم الهداة الأعلام (محمد بن عبد الوهاب) رحمه الله تعالى، لما ارتاب بعض من يدعي العلم من أهل العيينة لما ارتد أهل حريملاء.

فسئل الشيخ أن يكتب كلاماً ينفعه الله به.

فقال رحمه الله تعالى: روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، قال: فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي حتى قدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرءو عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: وما أنت؟ قال: أنا نبي! قلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله! فقلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء! فقلت له: ومن معك على هذا؟ قال: حر وعبد! قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال، فقلت له: إني متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال: فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في أهلي، وجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم نفر من أهل يثرب، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع! وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني،

قال: نعم! أنت الذي لقيتني بمكة؟ قال فقلت: يا نبي الله علمني مما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة، قال: صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس، وحتى ترفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإنها حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة محضورة مشهودة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، وذكر الحديث.

قال أبو العباس رحمه الله تعالى: فقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها معللاً بأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان، وأنه حينئذ يسجد لها الكفار.

ومعلوم أن المؤمن لا يقصد السجود إلا لله.

وأكثر الناس قد لا يعلمون أن طلوعها وغروبها بين قرني شيطان، ولا أن الكفار تسجد لها.

ثم أنه ﷺ نهى عن الصلاة في هذا الوقت حسماً لمادة المشابهة.

ومن هذا الباب أنه إذا صلى إلى عود أو عمود جعله على حاجبه الأيمن ولم يصمد له صمداً.

ولهذا ينهى عن الصلاة إلى ما عبد من دون الله في الجملة.

ولهذا نهي عن السجود بين يدي الرجل لما فيه من مشابهة السجود لغير الله، انتهى كلامه.

فليتأمل المؤمن الناصح لنفسه ما في هذا الحديث من العبر، فإنه سبحانه وتعالى يقص علينا أخبار الأنبياء وأتباعهم ليكون للمؤمن من المستأخرين عبرة فيقيس حاله بحالهم.

وقص قصص الكفار والمنافقين لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضاً.

فمما فيه من الاعتبار أن هذا الأعرابي الجاهلي لما ذكر له رجلاً بمكة يتكلم في الدين بما يخالف الناس لم يصبر حتى ركب راحلته فقدم عليه وعلم ما عنده لما في قلبه من محبة الدين والخير، وهذا فسر به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي حرصاً على تعلم الدين ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم، فهذا يدل على أن عدم الفهم في أكثر الناس اليوم عدل منه سبحانه لما يعلم في قلوبهم من عدم الحرص على تعلم الدين.

فتبين أن من أعظم الأسباب الموجبة لكون الإنسان من شر الدواب هو عدم الحرص على تعلم الدين، فإذا كان هذا الجاهلي يطلب هذا المطلب، فما عذر من ادعى اتباع الأنبياء وبلغه عنهم ما بلغه وعنده من يعرض عليه التعليم ولا يرفع بذلك رأساً؟ فإن حضر أو سمع فكما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

وفيه من العبر أيضاً أنه لما قال: أرسلني الله، قال: بأي شيء أرسلك؟ قال: بكذا وكذا.

فتبين أن زبدة الرسالة الإلهية، والدعوة النبوية، هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له وكسر الأوثان، ومعلوم أن كسرها لا يستقيم إلا بشدة العداوة وتجريد السيف، فتأمل زبدة الرسالة.

وفيه أيضاً أنه فهم المراد من التوحيد، وفهم أنه أمر كبير غريب، ولأجل هذا قال: من معك؟ قال: حر وعبد، فأجابه أن جميع العلماء والعباد والملوك والعامة مخالفون له ولم يتبعه على ذلك إلا من ذكر، فهذا أوضح دليل على أن الحق قد يكون مع أقل القليل وأن الباطل قد يملأ الأرض.

ولله در الفضيل بن عياض حيث يقول: لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين.

وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وفي الصحيحين أن بعث النار من كل ألف تسعة وتسعون وتسعمائة وفي الجنة واحد من كل ألف، ولما بكوا من هذا لما سمعوه قال ﷺ: «إنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلاّ كمل من المنافقين». قال الترمذي حسن صحيح.

فإذا تأمل الإنسان ما في هذا الحديث من صفة بدء الإسلام، ومن اتبع الرسول ﷺ إذا ذاك، ثم ضم إليه الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»، تبين له الأمر إن هداه الله وانزاحت عنه الحجة الفرعونية ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؟.

والحجة القرشية ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾:

وقال أبو العباس، في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

ظاهره أن ما ذبح لغير الله سواء لفظ به أو لم يلفظ حرام، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه باسم المسيح وغيره.

كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله أزكى مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله.

فإن عبادة الله بالصلاة والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور.

والعبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله، فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه لحرم وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبائحهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، وهذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح للجن، انتهى كلام الشيخ.

وهو الذي ينسب عنه أعداء الدين أنه لا يكفر المعين.

فانظر أرشدك الله إلى تكفيره من ذبح لغير الله من هذه الأمة، وتصريحه أن المنافق يصير مرتداً بذلك، وهذا في المعين، إذ لا يتصور أن تحرم إلا ذبيحة معين.

وقال أيضاً في الكتاب المذكور: وكانت الطواغيت الكبار التي تشد إليها الرحال ثلاثة: اللات، والعزى، ومناة، وكل واحد منها لمصر من أمصار العرب، فكانت اللات لأهل الطايف، ذكروا أنه كان في الأصل رجلاً صالحاً يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره.

وأما العزى: فكانت لأهل مكة قريباً من عرفات، وكانت هناك شجرة يذبحون عندها ويدعون.

وأما مناة: فكانت لأهل المدينة وكانت حذو قديد من ناحية الساحل.

ومن أراد أن يعلم كيف كانت أحوال المشركين في عبادتهم الأوثان، ويعرف حقيقة الشرك الذي ذمه الله وأنواعه، حتى يتبين له تأويل القرآن فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ وأحوال العرب في زمانه، وما ذكره الأزرقي وغيره في أخبار مكة من العلماء.

وكان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسمونها ذات أنواط، فقال بعض الناس: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «الله أكبر، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم»، فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها أسلحتهم.

فكيف بما هو أعظم من ذلك من الشرك بعينه.

إلى أن قال: (فمن ذلك عدة أمكنة بدمشق) مثل مسجد يقال له مسجد الكف فيه تمثال كف يقال إنه كف علي بن أبي طالب حتى هدم الله ذلك الوثن، وهذه الأمكنة كثيرة في البلاد، وفي الحجاز منها مواضع.

ثم ذكر كلاماً طويلاً في نهيه ﷺ عن الصلاة عند القبور فقال: العلة لما يفضي إليه ذلك من الشرك، ذكر ذلك الشافعي وغيره، وكذلك الأئمة من أصحاب مالك وأحمد، كأبي بكر الأثرم عللوا بهذه العلة. وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ الآية.

ذكر ابن عباس وغيره من السلف أن هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، ذكر هذا البخاري في صحيحه وأهل التفسير كابن جرير وغيره.

ومما تبين صحة هذه العلة أنه لعن من يتخذ قبور الأنبياء مساجد.

ومعلوم أن قبور الأنبياء لا يكون ترابها نجساً.

وقال عن نفسه: اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد.

فعلم أن نهيه عن ذلك كنهيه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها سداً للذريعة لئلا يصلى في هذه الساعة وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله، ولا يدعو إلا الله، لئلا يفضي ذلك إلى دعائها والصلاة لها، وكلا الأمرين قد وقع، فإن من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب ويدعوها بأنواع الأدعية، وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي يضل به كثير من الأولين والآخرين حتى شاع ذلك في كثير ممن ينتسب إلى الإسلام، وصنف بعض المشهورين فيه كتاباً على مذهب المشركين مثل أبي معشر البلخي، وثابت بن قرة وأمثالهم ممن دخل في الشرك وآمن بالطاغوت والجبت وهم ينتسبون إلى الكتاب كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ انتهى كلام الشيخ رحمه الله.

فانظر رحمك الله إلى هذا الإمام الذي ينسب عنه من أزاغ الله قلبه

عدم تكفير المعين كيف ذكر عن مثل الفخر الرازي وهو من أكابر أئمة الشافعية، ومثل أبي معشر وهو من أكابر المشهورين من المصنفين وغيرهما أنهم كفروا وارتدوا عن الإسلام، والفخر هو الذي ذكره الشيخ في الرد على المتكلمين، لما ذكر تصنيفه الذي ذكر هنا قال وهذه ردة صريحة باتفاق المسلمين وسيأتي كلامه إن شاء الله تعالى.

وتأمل أيضاً ما ذكره في اللات والعزى ومناة وجعله فعل المشركين معها هو بعينه الذي يفعل بدمشق وغيرها، وتأمل قوله على حديث ذات أنواط.

هذا قوله في مجرد مشابهتهم في اتخاذ شجرة، فكيف بما هو أطم من ذلك من الشرك بعينه؟ فهل للزائغ بعد هذا متعلق بشيء من كلام هذا الإمام؟

وأنا أذكر لفظه الذي احتجوا به على زيغهم، قال رحمه الله تعالى: أنا من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير، أو تبديع، أو تفسيق، أو معصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى، انتهى كلامه.

وهذا صفة كلامه في المسألة في كل موضع وقفنا عليه من كلامه لا يذكر عدم تكفير المعين إلا ويصله بما يزيل الإشكال، أن المراد بالتوقف عن تكفيره قبل أن تبلغه الحجة، وأما إذا بلغته حكم عليه بما تقتضيه تلك المسألة من تكفير، أو تفسيق، أو معصية.

وصرح رضي الله عنه أن كلامه في غير المسائل الظاهرة، فقال في الرد على المتكلمين: لما ذكر أن بعض أئمتهم توجد منه الردة عن الإسلام كثيراً قال: وهذا إن كان في المقالات الخفية فقد يقال أنه فيها مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها، لكن هذا يصدر عنهم في أمور يعلم الخاصة والعامة من المسلمين أن رسول الله ﷺ بعث بها، وكفر من خالفها، مثل عبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سواه من

الملائكة والنبيين وغيرهم، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام، ومثل إيجاب الصلوات الخمس وتعظيم شأنها، ومثل تحريم الفواحش والربا والخمر والميسر، ثم تجد كثيراً من رؤوسهم وقعوا فيها فكانوا مرتدين.

وأبلغ من ذلك أن منهم من صنف في دين المشركين كما فعل أبو عبد الله الرازي يعني (الفخر الرازي) قال وهذه ردة صريحة بإتفاق المسلمين انتهى كلامه.

(فتأمل هذا وتأمل ما فيه) من تفصيل الشبهة التي يذكر أعداء الله، لكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً.

على أن الذي نعتقده وندين الله به ونرجو أن يثبتنا عليه أنه لو غلط هو أو أجل منه في هذه المسألة وهي مسألة المسلم إذا أشرك بالله بعد بلوغ الحجة، أو المسلم الذي يفضل هذا على الموحدين، أو يزعم أنه على حق، أو غير ذلك من الكفر الصريح الظاهر الذي بينه الله ورسوله وبينه علماء الأمة، أنا نؤمن بما جاءنا عن الله وعن رسوله من تكفيره ولو غلط من غلط.

فكيف والحمد لله ونحن لا نعلم عن واحد من العلماء خلافاً في هذه المسألة، وإنما يلجأ من شاق فيها إلى حجة فرعون ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أو حجة قريش ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وقال الشيخ رحمه الله في (الرسالة السنية) لما ذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمره ﷺ بقتالهم، قال: فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة حتى أمر ﷺ بقتالهم، فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة قد يمرق أيضاً من الإسلام في هذه الأزمان، وذلك بأسباب.

منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ وعلي بن أبي طالب حرق الغالية من

الرافضة فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفهم فيها، واتفق الصحابة على قتلهم، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق وهو قول أكثر العلماء وقصتهم معروفة عند العلماء.

وكذلك الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن بي طالب، بل الغلو في المسيح ونحوه.

فكل من غلا في نبي، أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول يا سيدي فلان انصرني، أو اغثني، أو ارزقني، أو اجبرني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذه شرك وضلال يستتاب صاحبها، فإن تاب وإلا قتل.

فإن الله سبحانه إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له لا يجعل معه إلهاً آخر.

والذين يجعلون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا معتقدين أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

فبعث الله رسوله ﷺ ينهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة، ولا دعاء استغاثة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ الآية.

قال: طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيراً والملائكة.

ثم ذكر رحمه الله تعالى آيات.

ثم قال: وعبادة الله وحده لا شريك له هي أصل الدين وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل ونزلت به الكتب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وكان ﷺ يحقق التوحيد ويعلمه أمته حتى قال له رجل ما شاء الله وشئت، قال: أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده، ونهى عن الحلف بغير الله وقال: «من حلف بغير الله فقد كفر»، «أو أشرك».

وقال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا.

وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد».

وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً» وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني».

ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور ولا الصلاة عندها.

وذلك لأن أكبر أسباب عبادة الأوثان هو تعظيم القبور.

ولهذا اتفق العلماء على أنه من سلم على النبي ﷺ عند قبره أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها لأنه إنما يكون ذلك لأركان البيت فلا يشبه بيت المخلوق بيت الخالق.

كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملاً إلا به ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآية.

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه.

وأعظم آية في القرآن آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

وقال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

والإله هو الذي تألهه القلوب عبادة له واستعانة به ورجاء وخشية وإجلالاً انتهى كلامه رحمه الله.

فتأمل أول الكلام وآخره، وتأمل كلامه فيمن دعا نبياً أو ولياً، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني ونحوه أنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، هل يكون هذا إلا في المعين والله المستعان.

وتأمل كلامه في اللات والعزى ومناة وما ذكر بعده يتبين لك الأمر إن شاء الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح المنازل في باب التوبة:

وأما الشرك فهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر لا يغفره الله إلاّ بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله ويبغضون لمنتقص معبودهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وقد شاهدنا هذا وغيرنا منهم جهرة.

وترى أحدهم قد اتخذ ذكر معبوده على لسانه إن قام وإن قعد وإن عثر وإن استوحش وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده، وهكذا كان عباد الأصنام سواء.

وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها من البشر.

قال تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الآية.

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى، وما أعز من يتخلص من هذا، بل ما أعز من لا يعادي من أنكره، والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، ثم ذكر الشيخ رحمه الله فصلاً طويلاً في تقرير هذا الشرك الأكبر.

ولكن تأمل قوله: وما أعز من يتخلص من هذا، بل ما أعز من لا يعادي من أنكره، يتبين لك بطلان الشبهة التي أدلى بها الملحد، وزعم أن كلام الشيخ في الفصل الثاني يدل عليها وسيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

وذكر في آخر هذا الفصل أعني الفصل الأول في الشرك الأكبر الآية التي في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وتكلم عليها.

ثم قال: والقرآن مملوء من أمثالها، ولكن أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته ويظنه في قوم قد خلوا ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية فتنقض بذلك عرى الإسلام ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان، وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، فالله المستعان.

فصل

وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والحلف بغير الله، وقول هذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا.

وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده.

ثم قال الشيخ رحمه الله تعالى بعد ذكر الشرك الأكبر والأصغر:

ومن أنواع هذا الشرك السجود للشيخ.

ومن أنواعه التوبة للشيخ فإنها شرك عظيم.

ومن أنواعه النذر لغير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والانابة والخضوع والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وإضافة نعمه إلى غيره.

ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً لمن استغاث به، وسأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله لم يجعل سؤال غيره سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم ونسأل الله لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة

العبادة وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى تنقص الأموات.

وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأوليائه المؤمنين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، أو أنهم أمروهم به، وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان وما أكثر المستجيبين لهم.

ولله در خليله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد التوحيد لله، وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله. انتهى كلامه.

والمراد بهذا أن بعض الملحدين نسب إلى الشيخ أن هذا شرك أصغر. وشبهته أنه ذكره في الفصل الثاني الذي ذكر في أوله الأصغر.

وأنت رحمك الله تجد الكلام من أوله إلى آخره في الفصل الأول والثاني صريحاً لا يحتمل التأويل من وجوه كثيرة.

منها أن دعاء الموتى والنذر لهم ليشفعوا له عند الله هو الشرك الأكبر الذي بعث الله النبي ﷺ بالنهي عنه فكفر من لم يتب وقاتله وعاداه، وآخر ما صرح به قوله آنفاً (وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلى آخره).

فهل بعد هذا البيان بيان، إلا العناد بل الإلحاد؟

ولكن تأمل قوله أرشدك الله: وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من عادى المشركين إلى آخره.

وتأمل أن الإسلام لا يصح إلا بمعاداة أهل الشرك الأكبر وإن لم يعاديهم فهو منهم وإن لم يفعله.

وقد ذكر في الإقناع عن الشيخ تقي الدين، إن من دعا علي ابن أبي

طالب فهو كافر، وإن من شك في كفره فهو كافر، فإذ كان هذا حال من شك في كفره مع عداوته له ومقته، فكيف بمن يعتقد أنه مسلم ولم يعاده، فكيف بمن أحبه، فكيف بمن جادل عنه وعن طريقته، وتعذر أنا لا نقدر على التجارة وطلب الرزق إلا بذلك.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾.

فإذا كان هذا قول الله تعالى فيمن تعذر عن النبيين بالعمل بالتوحيد ومعاداة المشركين بالخوف على أهله وعياله فكيف بمن اعتذر في ذلك بتحصيل التجارة، ولكن الأمر كما تقدم عن عمر: إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية، لهذا لم يعرف معنى القرآن، وأنه أشر وأفسد من الذين قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ الآية.

ومع هذا فالكلام الذي يظهرونه نفاقاً، وإلا فهم يعتقدون أن أهل التوحيد ضالون مضلون، وأن عبدة الأوثان أهل الحق والصواب، كما صرح به إمامهم في الرسالة التي أتتكم قبل هذه خطه بيده يقول بيني وبينكم أهل الأقطار وهم خير أمة أخرجت للناس وهم كذا وكذا، فإذا كان يريد التحاكم إليهم ويصفهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فكيف أيضاً يصفهم بشرك ومخالطتهم للحاجة.

وما أحسن قول أصدق القائلين: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

فرحم الله امرءاً نظر في نفسه وتفكر فيما جاء به محمد ﷺ من عند الله من معاداة من أشرك بالله من قريب أو بعيد وتكفيرهم وقتالهم حتى يكون الدين كله لله، وعلم ما حكم به محمد ﷺ فيمن أشرك بالله مع ادعائه الإسلام.

وما حكم في ذلك الخلفاء الراشدون كعلي بن أبي طالب رضي الله

عنه وغيره لما حرقهم بالنار مع أن غيرهم من أهل الأوثان الذين لم يدخلوا في الإسلام لا يقتلون بالتحريق، والله الموفق.

وقال أبو العباس ابن تيمية في الرد على المتكلمين لما ذكر بعض أحوال أئمتهم قال: وكل شرك في العالم إنما حدث برأي جنسهم فهم الآمرون بالشرك والفاعلون له، ومن لم يأمر منهم بالشرك فلم ينه عنه، بل يقر هؤلاء وهؤلاء وإن رجح الموحدين ترجيحاً ما فقد يرجح غيره المشركين، وقد يعرض عن الأمرين جميعاً، فتدبر هذا فإنه نافع جداً.

ولهذا كان رؤوسهم المتقدمون والمتأخرون يأمرون بالشرك، وكذلك الذين كانوا في ملة الإسلام لا ينهون عن الشرك ويوجبون التوحيد بل يسوغون الشرك، أو يأمرون به، أو لا يوجبون التوحيد، وقد رأيت من مصنفاتهم في عبادة الملائكة وعبادة الأنفس المفارقة أنفس الأنبياء وغيرهم ما هو أصل الشرك.

وهم إذا ادعوا التوحيد إنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل، والتوحيد الذي جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك به، وهذا شيء لا يعرفونه فلو كانوا موحدين بالقول والكلام لكان معهم التوحيد دون العمل، وذلك لا يكفي في السعادة والنجاة بل لا بد أن يعبد الله وحده ويتخذه إلهاً دون ما سواه، وهذا هو معنى قول (لا إله إلا الله)، انتهى كلام الشيخ.

فتأمل رحمك الله هذا الكلام فإنه مثل ما قال الشيخ فيه نافع جداً.

ومن أكبر ما فيه من الفوائد أنه يبين لك حال من أقر بهذا الدين، وشهد أنه الحق، وأن الشرك هو الباطل، وقال بلسانه ما أريد منه، ولكن لا يدين بذلك، إما بغضاً له، أو عدم محبته كما هي حال المنافقين الذين بين أظهرنا، وإما إيثار الدنيا مثل تجارة أو غيرها فيدخلون في الإسلام ثم يخرجون منه كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فإذ قال هؤلاء بألسنتهم نشهد أن هذا دين الله ورسوله، وإن المخالف له باطل، وأنه الشرك بالله، غر هذا الكلام ضعيف البصيرة.

وأعظم من هذا وأطم أن أهل حريملاء ومن والاهم يصرحون بمسبة الدين، وأن الحق ما عليه أكثر الناس يستدلون بالكثرة على حسن ما هم عليه من الدين، ويفعلون، ويقولون ما هو من أكبر الردة وأفحشها، فإذا قالوا التوحيد حق والشرك باطل وأيضاً لم يحدثوا في بلدهم أوثاناً جادل الملحد عنهم وقال: أنهم يقرون أن هذا شرك، وأن التوحيد هو الحق، ولا يضرهم عندهم ما هم عليه من السب لدين الله، وبغى العوج له، ومدح الشرك وذبهم دونه بالمال واليد واللسان، فالله المستعان.

وقال أبو العباس أيضاً: في الكلام على كفر مانعي الزكاة: والصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحداً لها، هذا لم يعهد عن الخلفاء والصحابة، بل قال الصديق لعمر رضي الله عنهما: (والله لو منعوني عقالاً) (أو عناقاً) كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فجعل المبيح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب.

وقد روى أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب لكن بخلوا بها، ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم جميعهم سيرة واحدة وهي قتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم، والشهادة على قتلتهم بالنار وسموهم جميعهم أهل الردة.

وكان من أعظم فضائل الصديق رضي الله عنه عندهم أن ثبته الله عند قتالهم ولم يتوقف كما توقف غيره فناظرهم حتى رجعوا إلى قوله.

وأما قتال المقرين بنبوة مسيلمة، فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم انتهى.

فتأمل كلامه رحمه الله في تكفير المعين والشهادة عليه إذا قتل بالنار وسبي حريمه وأولاده عند منع الزكاة، فهذا الذي ينسب عن أعداء الدين عدم تكفير المعين.

قال رحمه الله بعد ذلك: وكفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنة، انتهى كلامه.

ومن أعظم ما يحل الأشكال في مسألة التكفير والقتال عمن قصد اتباع الحق، إجماع الصحابة على قتال مانعي الزكاة وإدخالهم في أهل الردة وسبي ذراريهم، وفعلهم فيهم ما صح عنهم وهو أول قتال وقع في الإسلام على من ادعى أنه من المسلمين. فهذه أول وقعة وقعت في الإسلام على هذا النوع أعني المدعين للإسلام وهي أوضح الوقعات التي وقعت من العلماء عليهم من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا.

وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضَاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل بي كذا وكذا وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى، انتهى كلامه.

والمراد منه قوله: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع.

وقال أيضاً في كتاب الفنون: لقد عظم الله الحيوان لا سيما ابن آدم، حيث أباحه الشرك عند الإكراه، فمن قدم حرمة نفسك على حرمته حتى أباحك أن تتوقى عن نفسك بذكره بما لا ينبغي له سبحانه لحقيق أن تعظم شعائره وتوقر أوامره وزواجره، وعظم عرضك بإيجاب الحد بقذفك وعظم مالك بقطع يد مسلم في سرقته، وأسقط شطر الصلاة في السفر لأجل مشقتك، وأقام مسح الخف مقام غسل الرجل إشفاقاً عليك من مشقة الخلع واللبس، وأباحك الميتة سداً لرمقك وحفظاً لصحتك، وزجرك عن مضارك

بحد عاجل، ووعيد آجل، وخرق العوائد لأجلك، وأنزل الكتب إليك، أيحسن لك مع هذا الإكرام أن يراك على ما نهاك منهمكاً، ولما أمرك تاركاً، وعلى ما زجرك مرتكباً، وعن داعيه معرضاً، ولداعي عدوه فيك مطيعاً، يعظمك وهو هو، وتهمل أمره وأنت أنت، هو حط رتبة عباده لأجلك، وأهبط إلى الأرض من امتنع عن سجدة يسجدها لأبيك، هل عاديت خادماً طالت خدمته لك لترك صلاة، هل نفيته من دارك للإخلال بفرض أو لارتكاب نهي، فإن لم تعترف اعتراف العبد للموالي، فلا أقل أن تقتضي نفسك إلى الحق سبحانه اقتضاء المساوي، المكافي، ما أفحش ما تلاعب الشيطان بالإنسان، بينا هو بحضرة الحق سبحانه وملائكة السماء سجود له، ترامى به الأحوال والجهات إلى أن يوجد ساجداً لصورة في حجر، أو لشجرة من الشجر، أو لشمس أو لقمر، أو لصورة ثور خار، أو لطاير صفر.

ما أفحش زوال النعم، وتغير الأحوال، والحور بعد الكور، لا يليق بهذا الحي الكريم الفاضل على جميع الحيوانات أن يرى إلا عابداً لله في دار التكليف، أو مجاوراً لله في دار الجزاء والتشريف، وما بين ذلك فهو واضع نفسه في غير موضعها، انتهى كلامه.

والمراد منه أنه جعل أقبح حال وأفحشها من أحوال الإنسان أن يشرك بالله، ومثله بأنواع.

منها السجود للشمس أو للقمر.

ومنها السجود للصورة كما في الصور التي على القبور.

والسجود قد يكون بالجبهة على الأرض، وقد يكون بالانحناء من غير وصول إلى الأرض، كما فسر به قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: ركعاً.

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان في إنكار تعظيم القبور: وقد آل

الأمر بهؤلاء المشركين أن صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سماه (مناسك المشاهد) ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عبادة الأصنام، انتهى.

وهذا الذي ذكره ابن القيم، رجل من المصنفين يقال له ابن المفيد، *فقد رأيت ما فيه بعينه، فكيف ينكر تكفير المعين.*

وأما كلام سائر أتباع الأئمة في التكفير، فنذكر منه قليلاً من كثير.

(أما كلام الحنفية) فكلامهم في هذا من أغلظ الكلام، حتى إنهم يكفرون المعين إذا قال مصيحف أو مسيجد أو صلى صلاة بلا وضوء ونحو ذلك.

وقال في النهر الفائق، وعلم أن الشيخ قاسماً، قال في شرح درر البحار: إن النذر الذي يقع من أكثر العوام بأن يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلاً يا سيدي فلان إن رد غائبي أو عوفي مريضي فلك من الذهب أو الفضة أو الشمع أو الزيت كذا باطل إجماعاً لوجوه، إلى أن قال:

ومنها ظن أن الميت يتصرف في الأمر واعتقاد هذا كفر، إلى أن قال، وقد ابتلي الناس بذلك، لا سيما في مولد الشيخ أحمد البدوي انتهى كلامه.

فانظر إلى تصريحه إن هذا كفر، مع قوله أنه يقع من أكثر العوام، وأن أهل العلم قد ابتلوا بما لا قدرة لهم على إزالته.

وقال القرطبي رحمه الله لما ذكر سماع النقر أو صورته قال: هذا حرام بالإجماع.

وقد رأيت فتوى شيخ الإسلام، جمال الملة أن مستحل هذا كافر، ولما علم أن حرمته بالإجماع لزم أن يكفر مستحله.

فقد رأيت كلام القرطبي وكلام الشيخ الذي نقل عنه في كفر من

استحل السماع والرقص مع كونه دون ما نحن فيه بالإجماع بكثير.

وقال أبو العباس رحمه الله: حدثني ابن الخضيري عن والده الشيخ الخضيري إمام الحنفية في زمانه قال: كان فقهاء بخارىٰ يقولون في ابن سينا كان كافراً ذكياً، فهذا إمام الحنفية في زمنه حكى عن فقهاء بخارى جملة كفر ابن سينا وهو رجل معين منصف يتظاهر بالإسلام.

(وأما كلام المالكية) في هذا فهو أكثر من أن يحصر وقد اشتهر عن فقهائهم سرعة الفتوى والقضاء بقتل الرجل عند الكلمة التي لا يفطن لها أكثر الناس، وقد ذكر القاضي عياض في آخر كتاب الشفاء من ذلك طرفاً، ومما ذكر أن من حلف بغير الله على وجه التعظيم كفر، وكل هذا دون ما نحن فيه بما لا نسبة بينه وبينه.

(وأما كلام الشافعية)، فقال صاحب الروضة رحمه الله: أن المسلم في الكلام إذا ذبح للنبي ﷺ كفر.

وقال أيضاً: من شك في كفر طائفة ابن عربي فهو كافر، وكل هذا دون ما نحن فيه.

وقال ابن حجر في شرح الأربعين على حديث ابن عباس: إذا سألت فاسأل الله، وما معناه إن من دعا غير الله فهو كافر، وصنف في هذا النوع كتاباً مستقلاً سماه (الإعلام بقواطع الإسلام) ذكر فيه أنواعاً كثيرة من الأقوال والأفعال كل واحد منها ذكر أنه يخرج من الإسلام ويكفر به المعين وغالبه لا يساوي عشير معشار ما نحن فيه.

وتمام الكلام في هذا أن يقال: الكلام هنا في مسألتين:

الأولى: أن يقال هذا الذي يفعله كثير من العوام عند قبور الصالحين ومع كثير من الأحياء والأموات والجن من التوجه إليهم ودعائهم لكشف الضر والنذر لهم لأجل ذلك هل هو الشرك الأكبر الذي فعله قوم نوح ومن بعدهم إلى أن انتهى الأمر إلى قوم خاتم الرسل قريش وغيرهم.

فبعث الله الرسل وأنزل الكتب ينكر عليهم ذلك ويكفرهم ويأمر بقتالهم حتى يكون الدين كله لله، أم هذا شرك أصغر وشرك المتقدمين غير هذا، فاعلم أن الكلام في هذه المسألة سهل على من يسره الله عليه بسبب أن علماء المشركين اليوم يقرون أنه الشرك الأكبر ولا ينكرونه إلا ما كان من مسيلمة الكذاب وأصحابه كابن إسماعيل وابن خالد مع تناقضهم في ذلك واضطرابهم، فأكثر أحوالهم يقرون أنه الشرك الأكبر ولكن يعتذرون بأن أهله لم تبلغهم الدعوة.

وتارة يقولون لا يكفر إلا من في زمن النبي ﷺ.

وتارة يقولون أنه شرك أصغر وينسبونه لابن القيم في المدارج كما تقدم.

وتارة لا يذكرون شيئاً من ذلك بل يعظمون أهله وطريقتهم في الجملة، وأنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم العلماء الذين يجب رد الأمر عند التنازع إليهم وغير ذلك من الأقاويل المضطربة.

وجواب هؤلاء كثير في الكتاب، والسنة، والإجماع.

ومن أصرح ما يجاوبون به إقرارهم في غالب الأوقات أن هذا هو الشرك الأكبر.

وأيضاً إقرار غيرهم من علماء الأقطار، مع أن أكثرهم قد دخل في الشرك وجاهد أهل التوحيد، لكن لم يجدوا بداً من الإقرار به لوضوحه.

المسألة الثانية: الإقرار بأن هذا هو الشرك الأكبر ولكن لا يكفر به إلا من أنكر الإسلام جملة، وكذب الرسول والقرآن واتبع اليهودية أو النصرانية أو غيرهما، وهذا هو الذي يجادل به أهل الشرك والعناد في هذه الأوقات، وإلا المسألة الأولى قلَّ الجدال فيها ولله الحمد لما وقع من إقرار العلماء المشركين بها.

فاعلم أن تصور هذه المسألة تصوراً حسناً يكفي في إبطالها من غير دليل خاص لوجهين.

الأول أن مقتضى قولهم أن الشرك بالله وعبادة الأصنام لا تأثير لها في التكفير لأن الإنسان إن انتقل عن الملة إلى غيرها وكذب الرسول والقرآن فهو كافر وإن لم يعبد الأوثان كاليهود، فإذا كان من انتسب إلى الإسلام لا يكفر إذا أشرك الشرك الأكبر لأنه مسلم يقول لا إله إلا الله ويصلي ويفعل كذا وكذا لم يكن للشرك وعبادة الأوثان تأثير بل يكون ذلك كالسواد في الخلقة أو العمى أو العرج فإن كان صاحبها يدعي الإسلام فهو مسلم، وإن ادعى ملة غيرها فهو كافر، وهذه فضيحة عظيمة كافية في رد هذا القول الفظيع.

الوجه الثاني: أن معصية الرسول ﷺ في الشرك وعبادة الأوثان بعد بلوغ العلم كفر صريح بالفطر والعقول والعلوم الضرورية، فلا يتصور أنك تقول لرجل ولو هو من أجهل الناس أو أبلدهم، ما تقول فيمن عصى الرسول ﷺ ولم ينقد له في ترك عبادة الأوثان والشرك، مع أنه يدّعي أنه مسلم متبع إلا ويبادر بالفطرة الضرورية إلى القول بأن هذا كافر من غير نظر في الأدلة أو سؤال أحد من العلماء.

ولكن لغلبة الجهل وغرابة العلم وكثرة من يتكلم بهذه المسألة من الملحدين اشتبه الأمر فيها على بعض العوام من المسلمين الذين يحبون الحق، فلا تحقرها وأمعن النظر في الأدلة التفصيلية لعل الله أن يمن عليك بالإيمان الثابت ويجعلك من الأئمة الذين يهدون بأمره.

فمن أحسن ما يزيل الإشكال فيها ويزيد المؤمن يقيناً ما جرى من النبي ﷺ وأصحابه العلماء بعدهم فيمن انتسب إلى الإسلام.

كما ذكر أنه ﷺ بعث البراء ومعه الراية إلى رجل تزوج امرأة أبيه ليقتله ويأخذ ماله.

ومثل همه بغزو بني المصطلق لمّا قيل أنهم منعوا الزكاة.

ومثل قتال الصديق وأصحابه لمانعي الزكاة وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم وتسميتهم مرتدين.

ومثل إجماع الصحابة في زمن عمر على تكفير قدامة بن مظعون وأصحابه إن لم يتوبوا لما فهموا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ حل الخمر لبعض الخواص.

ومثل إجماع الصحابة في زمن عثمان في تكفير أهل المسجد الذين ذكروا كلمة في نبوة مسيلمة مع أنهم لم يتبعوه، وإنما اختلف الصحابة في قبول توبتهم.

ومثل تحريق علي رضي الله عنه أصحابه لما غلوا فيه.

ومثل إجماع التابعين مع بقية الصحابة على كفر المختار بن أبي عبيد ومن أتبعه، مع أنه يدعي أنه يطلب بدم الحسين وأهل البيت.

ومثل إجماع التابعين ومن بعدهم على قتل الجعد بن درهم وهو مشهور بالعلم والدين وهلم جرا، من وقائع لا تعد ولا تحصى.

ولم يقل أحد من الأولين والآخرين لأبي بكر الصديق وغيره كيف تقتل بني حنيفة وهم يقولون لا إله إلا الله، ويصلون، ويزكون.

وكذلك لم يستشكل أحد تكفير قدامة وأصحابه لو لم يتوبوا وهلم جراً.

الى زمن بني عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر والشام وغيرها مع تظاهرهم بالإسلام وصلاة الجمعة والجماعة ونصب القضاة والمفتيين لما أظهروا من الأقوال والأفعال ما أظهروا لم يستشكل أحد من أهل العلم والدين قتالهم ولم يتوقفوا فيه وهم زمن ابن الجوزي، والموفق، وصنف ابن الجوزي كتاباً لما أخذت مصر منهم سماه (النصر على فتح مصر).

ولم يسمع أحد من الأولين والآخرين أن أحداً أنكر شيئاً من ذلك أو استشكل لأجل ادعائهم الملة، أو لأجل قول لا إله إلا الله، أو لأجل إظهار شيء من أركان الإسلام، إلا ما سمعناه من هؤلاء الملاعين في هذه

الأزمان من إقرارهم إن هذا هو الشرك، ولكن من فعله أو حسنه، أو كان مع أهله أو ذم التوحيد، أو حارب أهله لأجله، أو أبغضهم لأجله إنه لا يكفر، لأنه يقول لا إله إلا الله، أو لأنه يؤدي أركان الإسلام الخمسة، ويستدلون بأن النبي ﷺ سماها الإسلام، هذا لم يسمع قط إلا من هؤلاء الملحدين الجاهلين الظالمين، فإن ظفروا بحرف واحد من أهل العلم أو أحد منهم يستدلون به على قولهم الفاحش الأحمق فليذكروه، ولكن الأمر كما قال اليمني في قصيدته:

أقاويل لا تعزى إلى عالم فلا   تساوي فلساً إن رجعت إلى نقد

ولنختم الكلام في هذا النوع بما ذكره البخاري في صحيحه حيث قال:

«باب يتغير الزمان حتى تعبد الأوثان»

ثم ذكر باسناده قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة»، وذو الخلصة صنم لدوس يعبدونه، فقال ﷺ لجرير بن عبد الله: «ألا تريحني من ذي الخلصة» فركب إليه بمن معه فأحرقه وهدمه ثم أتى النبي ﷺ فأخبره قال فبرك على خيل أحمس ورجالها خمساً.

وعادة البخاري رحمه الله إذا لم يكن الحديث على شرطه ذكره في الترجمة، ثم أتى بما يدل على معناه مما هو على شرطه، ولفظ الترجمة وهو قوله (يتغير الزمان حتى تعبد الأوثان) لفظ حديث أخرجه غيره من الأئمة والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولنذكر من كلام الله تعالى، وكلام رسول الله ﷺ، وكلام أئمة العلم جملاً في جهاد القلب واللسان ومعاداة أعداء الله وموالاة أوليائه، وأن الدين لا يصح ولا يدخل الإنسان فيه إلا بذلك فنقول:

«باب في وجوب عداوة أعداء الله
من الكفار والمرتدين والمنافقين»

وقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

وقال (الإمام الحافظ) محمد بن وضاح، أخبرني غير واحد، أن أسد بن موسى، كتب إلى أسد بن الفرات:

اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتاب إليك إلا ذكر أهل بلدك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس، وحسن حالك مما أظهرت من السنة، وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم فقمعهم الله بك وشد بك ظهر أهل السنة وقواك عليهم، بإظهار عيبهم والطعن عليهم فأذلهم الله بيدك وصاروا ببدعتهم مستترين، فأبشر يا أخي بثواب ذلك واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد، وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله تعالى وإحياء سنة رسول الله ﷺ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من أحيا شيئاً من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وضم بين أصبعيه».

وقال: «أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل آخر من اتبعه إلى يوم القيامة». فمتى يدرك أجر هذا شيء من عمله.

وذكر أيضاً أن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام ولياً يذب عنها وينطق علامتها.

فاغتنم يا أخي هذا الفضل وكن من أهله فإن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن وأوصاه: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من كذا وكذا، وأعظم القول فيه.

فاغتنم ذلك وادع إلى السنة حتى يكون لك في ذلك ألفه وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونوا، أئمة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة، كما جاء في الأثر فاعمل على بصيرة ونية وحسبة، فيرد الله بك المبتدع المفتون الزائغ الحائر فتكون خلفاً من نبيك ﷺ فإنك لن تلق الله بعمل يشبهه.

وإياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب فإنه جاء الأثر: (من جالس صاحب بدعة نزعت منه العصمة ووكل إلى نفسه، ومن مشى إلى صاحب بدعة مشى في هدم الإسلام).

وجاء: ما من إله يعبد من دون الله أبغض إلى الله من صاحب هوى.

وقد وقعت اللعنة من رسول الله ﷺ على أهل البدع وأن الله لا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً ولا فريضة ولا تطوعاً، وكلما زادوا اجتهاداً أو صوماً وصلاة، ازدادوا من الله بعداً، فارفض مجالسهم وأذلهم وأبعدهم كما أبعدهم الله وأذلهم رسول الله ﷺ وأئمة الهدى بعده، انتهى كلام أسد رحمه الله تعالى.

واعلم رحمك الله أن كلامه وما يأتي من كلام أمثاله من السلف في معاداة أهل البدع والضلالة ضلالة لا تخرج عن الملة.

لكنهم شددوا في ذلك وحذروا منه لأمرين:

الأول: غلظ البدعة في الدين في نفسها فهي عندهم أجل من الكبائر، ويعاملون أهلها بأغلظ مما يعاملون أهل الكبائر كما تجد في قلوب

الناس اليوم أن الرافضي عندهم ولو كان عالماً عابداً أبغض وأشد من السني المجاهر بالكبائر.

الأمر الثاني: أن البدع تجر إلى الردة الصريحة كما وجد من كثير من أهل البدع.

فمثال البدعة التي شددوا فيها مثل تشديد النبي ﷺ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح خوفاً مما وقع من الشرك الصريح الذي يصير به المسلم مرتداً.

فمن فهم هذا فهم الفرق بين البدع وبين ما نحن فيه من الكلام في الردة ومجاهدة أهلها، أو النفاق الأكبر ومجاهدة أهله، وهذا هو الذي نزلت فيه الآيات المحكمات.

ومثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية.

وقال ابن وضاح في كتاب البدع والحوادث بعد حديث ذكره أنه سيقع في هذه الأمة فتنة الكفر وفتنة الضلال.

قال رحمه الله: إن فتنة الكفر هي الردة يحل فيها السبي والأموال.

وفتنة الضلال لا يحل فيها السبي والأموال، لعله وهذا الذي نحن فيه فتنة ضلالة لا يحل فيها السبي ولا الأموال.

وقال رحمه الله: أيضاً أخبرنا أسد أخبرنا رجل عن ابن المبارك قال: قال ابن مسعود إن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام ولياً من أوليائه يذب عنه وينطق بعلاماتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً.

ثم ذكر بإسناده عن بعض السلف قال: لأن أرد رجلاً عن رأي سيء أحب إلي من اعتكاف شهر.

أخبرنا أسد عن أبي إسحاق الحذّاء عن الأوزاعي قال: كان بعض أهل العلم يقولون لا يقبل الله من ذي بدعة صلاة، ولا صدقة، ولا صياماً، ولا جهاداً، ولا حجاً، ولا صرفاً، ولا عدلاً، وكانت أسلافكم تشتد عليهم ألسنتهم وتشمئز منهم قلوبهم ويحذرون الناس بدعتهم.

قال: ولو كانوا مستترين ببدعتهم دون الناس ما كان لأحد أن يهتك ستراً عليهم، ولا يظهر منهم عورة، الله أولى بالأخذ بها وبالتوبة عليها، فأما إذا جاهروا فنشر العلم حياة، والبلاغ عن رسول الله ﷺ رحمة يعتصم بها على مصر ملحد.

ثم روى بإسناده قال: قال جاء رجل إلى حذيفة، وأبو موسى الأشعري قاعد فقال: أرأيت رجلاً ضرب بسيفه غضباً لله حتى قتل، أفي الجنة أم في النار؟ فقال أبو موسى: في الجنة! فقال حذيفة: استفهم الرجل وأفهمه، ما تقول حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة قال: والله لأستفهمه فدعا به حذيفة فقال: رويدك وما يدريك أن صاحبك لو ضرب بسيفه حتى ينقطع فأصاب الحق حتى يقتل عليه فهو في الجنة، وإن لم يصب الحق ولم يوفقه الله للحق فهو في النار؟ ثم قال والذي نفسي بيده ليدخلن النار في مثل الذي سألت عنه أكثر من كذا وكذا.

ثم ذكر بإسناده عن الحسن قال: لا تجالس صاحب بدعة فإنه يمرض قلبك.

ثم ذكر بإسناده عن سفيان الثوري قال: من جالس صاحب بدعة لم يسلم من إحدى ثلاث: إما أن يكون فتنة لغيره، وإما أن يقع في قلبه شيء فيزل به فيدخله الله النار، وإما أن يقول والله ما أبالي ما تكلموه، وإني واثق بنفسي، فمن أمن الله على دينه طرفة عين سلبه إياه.

ثم ذكر بإسناده عن بعض السلف قال: من أتى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام.

أخبرنا أسد قال: حدثنا كثير أبو سعيد قال: من جلس إلى صاحب بدعة نزعت منه العصمة ووكل إلى نفسه.

أخبرنا أسد بن موسى قال: أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما تعرفون. قال أيوب: وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب.

أخبرنا أسد بن موسى قال: أخبرنا زيد عن محمد بن طلحة قال: قال إبراهيم لا تجالسوا أصحاب البدع، ولا تكلموهم فإني أخاف أن ترد قلوبكم.

أخبرنا أسد بالإسناد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

أخبرنا أسد أخبرنا مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن زيد عن أيوب قال: دخل على محمد بن سيرين يوماً رجل فقال: يا أبا بكر أقرأ عليك آية من كتاب الله لا أزيد على أن أقرأها ثم أخرج، فوضع أصبعيه في أذنيه ثم قال: أحرّج عليك أن كنت مسلماً لما خرجت من بيتي، قال: فقال يا أبا بكر لا أزيد على أن أقرأ ثم أخرج، فقال بإزاره يشد عليه وتهيأ للقيام قال: فأقبلنا على الرجل فقلنا: قد حرّج عليك إلا خرجت، فقلنا: يا أبا بكر ما عليك لو قرأ آية ثم خرج، قال: إني والله لو ظننت أن قلبي يثبت على ما هو عليه ما باليت أن يقرأ، ولكن خفت أن يلقي في قلبي شيئاً أجهد أن أخرجه من قلبي فلا أستطيع.

أخبرنا أسد قال: أخبرنا ضمرة عن سودة قال: سمعت عبد الله بن القاسم وهو يقول ما كان عبد على هوى فتركه إلا آل إلى ما هو شر منه.

قال: فذكرت ذلك لبعض أصحابنا فقال: تصديقه في حديث عن النبي ﷺ: يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية ثم لا يرجعون حتى يرجع السهم إلى فوقه.

أخبرنا أسد قال: أخبرنا موسى بن إسماعيل عن حماد بن زيد عن أيوب قال: كان رجل يرى رأياً فرجع عنه، فأتيت محمداً فرحاً بذلك فأخبرته، فقلت: أشعرت أن فلاناً ترك رأيه الذي كان يرى، فقال: انظروا إلى ما يتحول، إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله يمرقون من الإسلام لا يعودون إليه.

ثم روى بإسناده عن حذيفة أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه، ثم قال: إن هذا الدين قد استضاء استضاءة هذه الحصاة، ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين كما دفنت هذه الحصاة.

أخبرنا محمد بن سعيد بإسناده عن أبي الدرداء قال: لو خرج رسول الله ﷺ اليوم إليكم ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة، قال: الأوزاعي فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان، أخبرنا سليمان بن محمد بإسناده عن علي أنه قال: تعلموا العلم تعرفون به، وأعملوا به تكونوا من أهله، فإنه سيأتي بعدكم زمان ينكر الحق فيه تسعة أعشارهم.

أخبرنا يحيى بإسناده عن أبي سهل بن مالك عن أبيه أنه قال: ما أعرف منكم شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة.

حدثني إبراهيم بن محمد بإسناده عن أنس قال: ما أعرف منكم شيئاً كنت أعهده على عهد رسول الله ﷺ ليس قولكم لا إله إلا الله.

أخبرنا أسد بإسناده عن الحسن قال: لو أن رجلاً أدرك السلف الأول، ثم بعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً، قال: ووضع يده على

خده ثم قال: إلا هذه الصلاة، ثم قال: أما والله لمن عاش في هذه النكر أو لم يدرك هذا السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب يدعو إلى دنياه فعصمه الله عن ذلك وجعل قلبه يحن إلى ذكر هذا السلف الصالح ويقتص آثارهم ويتبع سبيلهم ليعوض أجراً عظيماً، فكذلك كونوا إن شاء الله تعالى.

حدثني محمد بن عبد الله بن محمد بإسناده عن ميمون بن مهران قال: لو أن رجلاً نشر فيكم من السلف ما عرف فيكم غير هذه القبلة.

أخبرنا محمد بن قدامة بإسناده عن أم الدرداء قالت: دخل علي أبو الدرداء مغضباً، فقلت له: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يصلون جميعاً.

وفي لفظ: لو أن رجلاً تعلم الإسلام وأهمه ثم تفقده ما عرف منه شيئاً.

حدثني إبراهيم بإسناده عن عبد الله بن عمرو قال: لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خليا بمصحفيهما في بعض هذه الأودية لأتيا الناس اليوم ولا يعرفان شيئاً مما كانا عليه.

قال مالك: وبلغني أن أبا هريرة رضي الله عنه تلى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ فقال: والذي نفسي بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دينهم أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً.

قف تأمل رحمك الله إذا كان هذا في زمن التابعين بحضرة أواخر الصحابة، فكيف يغتر المسلم بالكثرة أو تشكل عليه أو لا يستدل بها على الباطل.

ثم روى ابن وضاح بإسناده عن أبي أمية قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قول الله

تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» قيل: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم».

ثم روى بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «طوبي للغرباء»، ثلاثاً، قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «ناس صالحون قليل في أناس سوء كثير من يبغضهم أكثر ممن يحبهم».

أخبرنا محمد بن سعيد بإسناده عن المعافري قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للغرباء الذين يتمسكون بكتاب الله حين ينكر، ويعملون بالسنة حين تطفى».

أخبرنا أسد بإسناده عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريباً، ولا تقوم الساعة حتى يكون غريباً، فطوبى للغرباء حين يفسد الناس، ثم طوبى للغرباء حين يفسد الناس».

أخبرنا أسد بإسناده عن عبد الله أنه سمع رسول الله يقول: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»، هذا آخر ما نقلته من كتاب البدع والحوادث للإمام الحافظ محمد بن وضاح.

فتأمل رحمك الله أحاديث الغربة وبعضها في الصحيح مع كثرتها وشهرتها.

وتأمل إجماع العلماء كلهم إن هذا قد وقع في زمن طويل، حتى قال ابن القيم رحمه الله: الإسلام في زماننا أغرب منه أغرب منه في أول ظهوره.

فتأمل هذا تأملاً جيداً لعلك أن تسلم من هذه الهوة الكبيرة التي هلك فيها أكثر الناس وهي الاقتداء بالكثرة والسواد الأكبر، والنفرة من الأقل، فما أقل من سلم منها ما أقله ما أقله.

ولنختم ذلك بالحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويعتقدون بأمره (وفي رواية يهتدون بهديه) ويستنون بسنته، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» انتهى ما نقلته والحمد لله رب العالمين.

وقد رأيت للشيخ تقي الدين، رسالة كتبها وهو في السجن إلى بعض إخوانه لما أرسلوا إليه يشيرون عليه بالرفق بخصومه ليتخلص من السجن أحببت أن أنقل أولها لعظم منفعته.

قال رحمه الله تعالى: الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(أما بعد فقد وصلت الورقة) التي فيها رسالة الشيخين الناسكين القدوتين أيدهما الله وسائر الأخوان بروح منه وكتب في قلوبهم الإيمان، وأدخلهم مدخل صدق، وأخرجهم مخرج صدق، وجعل لهم من لدنه ما ينصر به من السلطان سلطان العلم والحجة بالبيان والبرهان وسلطان القدرة والنصرة باللسان والإخوان، وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه الغالبين،

لمن ناوأهم من الأقران، ومن الأئمة الذين جمعوا بين الصبر والإيقان، والله محقق ذلك ومنجز وعده في السر والإعلان، ومنتقم من حزب الشيطان لعباد الرحمن، لكن بما اقتضته حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان، الذي يميز الله به أهل الصدق والإيمان، من أهل النفاق والبهتان، إذ قد دل كتابه على أنه لا بد من الفتنة لكل من ادعى الإيمان، والعقوبة لذوي الإساءات والطغيان، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾.

فأنكر سبحانه على من ظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب الغالب، وأن مدعي الإيمان يتركون بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب.

وأخبر في كتابه أن الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيله فقال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾.

وأخبر سبحانه وتعالى بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة، الذي يعبد الله على حرف، وهو الجانب والطرف الذي لا يستقر من هو عليه، بل لا يثبت على الإيمان إلا عند وجود ما يهواه من خير الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١﴾، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ۝٣١﴾.

وأخبر سبحانه أنه عند وجود المرتدين فلا بد من وجود المحبين بين المجاهدين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي

﴿ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فهؤلاء هم الشاكرون لنعمة الإيمان، الصابرون على الامتحان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فإذا أنعم الله على إنسان بالصبر والشكر كان جميع ما يقضي له من القضاء خيراً له، كما قال النبي ﷺ: «لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له».

الصابر الشاكر هو المؤمن الذي ذكر الله في غير موضع من كتابه.

ومن لم ينعم الله عليه بالصبر والشكر فهو بشر حال، وكل واحد من السراء والضراء في حقه يفضي به إلى قبيح المال، فكيف إذا كان ذلك من الأمور العظيمة التي هي محن الأنبياء والصديقين، ومنها تثبت أصول الدين، وحفظ الإيمان والقرآن من كيد أهل النفاق والإلحاد والبهتان، فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

والله المسؤول أن يثبتكم وسائر المسلمين بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويتم نعمه عليكم الظاهرة والباطنة وينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين على الكافرين المنافقين الذين أمرنا بجهادهم والإغلاظ عليهم في كتابه المبين. انتهى ما نقلته من كلام أبي العباس رحمه الله.

ومن جواب له رحمه الله لما سئل عن الحشيشة ما يجب على من يدعي أن أكلها جائز، فقال: وأكل هذه الحشيشة حرام وهي أخبث الخبائث المحرمة سواء أكل منها كثيراً أو قليلاً، لكن الكثير المسكر منها حرام باتفاق المسلمين، ومن استحل ذلك فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً لا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن بين المسلمين.

وحكم المرتد أشر من حكم اليهود والنصارى سواء اعتقد أن ذلك يحل للعامة أو للخاصة الذين يزعمون أنها لقمة الذكر والفكر، وإنها تحرك العزم الساكن وتنفع في الطريق.

وقد كان بعض السلف ظن أن الخمر يباح للخاصة متأولاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ فاتفق عمر وعلي وغيرهما من علماء الصحابة على أنهم إن أقروا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على الاستحلال قتلوا، انتهى ما نقلته من كلام الشيخ رحمه الله تعالى.

فتأمل كلام هذا الذي ينسب عنه عدم تكفير المعين إذا جاهر بسب دين الأنبياء وصار من أهل الشرك، ويزعم أنهم على الحق ويأمر بالمصير معهم وينكر على من لا يسب التوحيد ويدخل مع المشركين لأجل انتسابه إلى الإسلام.

انظر كيف كفر المعين ولو كان عابداً باستحلال الحشيشة ولو زعم حلها للخاصة الذين تعينهم على الكفرة واستدل بإجماع الصحابة على تكفير قدامة وأصحابه إن لم يتوبوا وكلامه في المعين، وكلام الصحابة في المعين، فكيف بما نحن فيه مما لا يساوي استحلال الحشيشة جزء منه.

والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

خاتمة الطبع

بقلم: الشيخ عبد الرحمن المحمد الدوسري

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، وصلى الله على سيدنا محمد الأمين، وآله المقتدين به والحاملين رسالته إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد وقع ما حذر المصطفى ﷺ من وقوعه.

وما تفرسه عمر بن الخطاب، حيث قال: (يوشك أن تنتقض عرى الإسلام عروة عروة ـ قيل متى يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية).

وقد نشأ ممن لا يعرف الجاهلية ضروب من أنواع الشرك المخالفة للتوحيد تظهر في كل عصر بأشكال شتى.

وقد برزت في العصور الوسطى بتقديس الأضرحة حتى ولو كانت موهومة تقديساً بعضه يخل بالتوحيد وأكثره يهدم التوحيد.

وهذا من آثار العبيديين في مصر ونحوها، وآثار بني (بويه) ومن على شاكلتهم في المشرق وما جاوره

وقد تصدى المصلحون قديماً لكشف هذا الشرك وتكفير فاعله.

وممن تصدى لذلك الإمام ابن عقيل البغدادي، وخلق كثير في قرنه وبعده إلى دور الشيخين ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الهادي والمقريزي وغيرهم.

ثم إلى دور الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب الذي نشر الله السلفية بسببه في مشارق الأرض ومغاربها على الرغم من محاربة حصلت

عليها من جهلة بلداء ومن مرتزقة بالشعوذة وسدانة القبور ممن جندوا أنفسهم لعبادة المادة والهوى حتى سقطوا من أعين الحاكمين. بل أخذ بعض الحاكمين بإقرارهم وتشجيعهم ليشغلوا السواد الأعظم عن عبث السياسة به.

وهذا النوع من العلماء لم ينالوا خيراً بل شتمهم بعض زعماء الاشتراكية بأبشع شتيمة على رؤوس الأشهاد قائلاً أنهم (يصدرون الفتوى من أجل الحصول على فراخ يأكلونها) فجرتهم دناءة أنفسهم وسقوط ضمائرهم إلى أن يصدروا الفتاوي بأن خطته من الإسلام بل تطرف بعضهم إلى فظاعة لا نذكرها وذلك في الحقيقة تصديق منهم له على وصمته إياهم (من يهن يسهل الهوان عليه) وهكذا الماديون في كل عصر هم ورثة لمن قبلهم في عداوة المصلحين وممالئة المغرضين.

وقد أوضح الشيخ رحمه الله تعالى بهذا الكتاب حكم تارك التوحيد بنقول واضحة من وحي الله وتفريع علماء السلف مما يتبين للقارئ الكريم أن الإسلام ليس بمجرد الانتساب أو بمجرد النطق بالشهادتين دون تصديقهما بالعمل بمدلولهما ومنابذة ما يناقضهما ومعاداة أربابه.

ومن التفت إلى وحي الله أدنى التفاتة قلبية عرف أن الشرك بالله ليس مقصوراً على عبادة صنم بل أنه يتمثل في انصراف القلب إلى غير الله من أي معظم محبوب صامت أو ناطق، لأن قلب الإنسان إذا انصرف إلى شيء من ذلك أسلم وجهه له، وعمل من أجله وبذل في سبيله وانحصر ولاؤه وعداؤه فيه، وكانت خشيته وهيبته منه، وتعلقه به، ورغبته إليه، فما أبعده عن توحيد الله واتباع رسوله.

ولكن كل من دجل الدجالين وتشقق المضللين وانضباع الجاهلين يحول ركاماً دون معرفة التوحيد الذي جاءت به الرسل وإلا فالله قال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولم يقل (لا تشركوا به صنماً)، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾،

وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل (فلا تجعلوا لله أصناماً).

وقد تشعب ضلال الناس باتخاذ الأنداد.

فبعضهم يتخذها من الأصنام.

وبعضهم يتخذها من الجن الشياطين.

وبعضهم من الملائكة.

وبعضهم يتأله الشمس، والقمر، والنجوم، حتى آل الأمر إلى تقديس الأضرحة التي عالج العلماء المصلحون قضية الشرك فيها لاتحاد العلة بينها وبين الأنداد المألوهة من دون الله، إما بطلب النفع والضر، أو بدعوى الشفاعة والزلفى عند الله كما هو واضح في الآية ٢٢ من سورة البقرة، والآية ١٨ من سورة يونس، والآية ٤٣ من سورة الزمر، والآية ٢٢ و٢٣ من سورة سبأ وغيرهما مما يطول ذكره.

ومن العجب سوء اعتقادهم بعدم مخالفة هذا التوحيد متجاهلين حقيقة مدلولات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ومتأثرين بمذهب المرجئة من أهل الكلام الزاعمين أن الإيمان مجرد التصديق وهذا قول فاسد بصحيح المنقول وصريح المعقول لأن المؤمن بشيء ما يقدر وجوده ويحترمه ويحسب له حسابه ويقيم له ما يستحقه من الوزن فكيف يؤمن بالله؟.

طبعاً لا يصح إيمانه إلا بالتصديق العملي الناشئ من الاعتقاد القلبي بحصر جميع أنواع العبادة له سبحانه وتعالى، وأن يعامله معاملة المحب لحبيبه من حب أحبابه وموالاتهم من أي جنس كانوا وبغض جميع أعدائه ومعاداتهم في ذاته ولو كانوا أقرب قريب، وأن يقوم بطاعته ويسارع في مرضاته ويكون قوياً في تنفيذ حكمه رافضاً حكم غيره حاصراً لتلقي الهداية من وحيه كتاباً وسنة، وأن يحقق الكفر بالطاغوت باجتناب وعدم مشابهة أحد من الكفرة والمشركين السالكين مسالك الطاغوت.

فمن زعم الإيمان بقوله وهو سائر على خلاف مراد الله منه في الحب

والبغض لشهوة النفس أو على حسب ما تتطلبه مبادؤه القومية أو مذاهبه المادية ومن ارتكاب ما يسخط الله واجتناب مراضيه أو اتخاذ أنداداً من دونه كما قدمنا، فهذا بعيد عن الإيمان الصحيح المطلوب منا بل هو ممن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾، وممن وصفهم النبي ﷺ بأن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم.

ولقد تفاقم شر الشرك في هذا الزمان ولبس أثواباً غير الأثواب التي عهدها وعالجها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذريته غفر الله لهم ففي عهدهم وقبله بقرون تمثلت اللات والعزى ومناة، وذات أنواط وغيرها، بمقبورين تعسين، وأشجار ومغالاة، ونحوها ولكن في هذا الزمان تمثلت اللات والعزى ونحوها بمبادئ قومية ومذاهب مادية وطواغيت وأصنام ناطقة متزعمين لهذه المبادئ والمذاهب التي غدت تتمثل في شخصياتهم وأصبحوا مؤلهين بسببها من دون الله.

أسلم كثير من الناس وجوههم لهم بكامل الحب والتعظيم الذي لا يحظى به الله منهم، وأصبحوا يتقبلون ما يصدر منهم بكل تسليم وانشراح صدر، زاعمين أنه لا يخالف الدين وأصبحوا أمناء أقوياء على تنفيذ ما يشرعونه من الأنظمة والقرارات بكل ترحيب وتصميم.

بل يجعلهم البعض في مصاف الرسل منادياً بقوله: (يا نبي الشرق، أو يا رسول القرن العشرين، ويا رسول الحرية وغيرها) مما لا نحب ذكره.

بل يغالي البعض في إطراء بعض الزعماء قائلاً عنه أنه حقق ما لم يحققه محمد ﷺ.

وبعضهم يقول عن الوحدة حتى بعد انفكاكها وانقلابها إلى فرقة ورقيقة (إنها خير من الوحدة المحمدية والوحدة النبوية) ويسمون الكافر الملحد عابد الطين، المسلم على الكفر والمرحب بجهنم يسمونه «قديس القومية» لإعلان كفره بقوله: بلادك قدمها على كل ملة، ومن أجلها أفطر، ومن أجلها صم.

ولا شك أن المؤمن بمبادئ القومية، كافراً بالله لكفرانه بما أنزل على محمد ﷺ من ملة إبراهيم التي تنقضها مبادئ القومية من أساسها، ذلك أنه من ضروريات المبادئ القومية تفضيل الكافر الذي من جنسيتهم على المسلم الذي من غير جنسيتهم فيقولون العربي المسيحي خير وأفضل من المسلم غير العربي ويغرسون هذه العقيدة الوثنية في قلوب الناشئين بما يدرسونهم من الأناشيد التي منها:

أنا عربي عربي   أحب كل عربي

ومنها:

بلاد العرب أوطاني   وكل العرب إخواني

ويلبسون على الجهلة والسذج بقولهم الدين لله والوطن للجميع.

ويقصدون بقولهم (الوطن للجميع) أن يحكم الوطن بحكم علماني معاكس للحكم الديني الذي يوجب الله القيام به على المسلمين حيث قال: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾.

ولكن الخطط الماسونية واليهودية التي ينفذها أفراخ الإفرنج من أبناء المسلمين استطاعت فتنة القوميين العلمانيين عن جميع ما أنزل الله ليس عن بعضه فقط، فأباحوا الحكم العلماني الذي لا يساوي المجرمين بالمسلمين فقط بل يفضل المجرمين على المسلمين ويعلن إباحة ما حرمه الله من أجلهم كالخمور، والربا، والقمار، والزنى، في حالة الرضى، والتبرج، وإظهار المفاتن، واختلاط الجنسين، وفتح المسارح، ودور الرقص، والبلاجات الخليعة، ونحوها مما هو مخالف لله ورسوله من جهة وانحطاط بالإنسانية إلى الشغل البهيمي، وتذويب لجميع طاقات الأمم والشعوب حتى تكسبها اليهودية العالمية في كل مجال، ومن جهة ثالثة ولا شك أن الحكم العلماني هادم لملة إبراهيم التي هي دين الله من عدة أمور:

(أحدها): إيجاب مؤاخاة أعداء الله من اليهود والنصارى والصابئة من شاكلتهم من الملاحدة والمذاهب المنحرفة مؤاخاة تصرح بتفضيلهم باسم القومية والوطنية على المسلمين الغير مواطنين والذين ينتمون إلى جنس غير قوميتهم وهذا ينافي مدلول الشهادتين من حصر الموالاة والمعاداة على الدين الحق والإيمان الصحيح كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

فانظر إلى إبراهيم إمام المسلمين ومن معه من الأنبياء كيف صرحوا بعداوة قومهم وبغضهم لأن الله لا يبيح لهم موالتهم أو مؤاخاتهم باسم القومية لأي هدف كان حتى يتحقق فيهم الإيمان بالله قولاً وعملاً واعتقاداً.

وأوجب الله علينا التأسي بهم ذلك أن مؤاخاة الكفار بأي شكل من الأشكال ولأي غرض من الأغراض لا يكون أبداً إلا على حساب العقيدة والأخلاق بل لا يكون إلا بخفض كلمة الله واطراح حكمه ونبذ حدوده ورفض وحيه، ومهما ادعوا من الأخوّة الإنسانية والعمل لصالح الوطن ومقاومة أعدائه ونحو ذلك من التسهيلات المفرضة فإن المصير المحتوم للمسلمين هو ما ذكرناه من تجميد رسالة الله وإقامة حكم مناقض لإعلاء كلمته والجهاد الصحيح في سبيله لنشر دينه وتحكيم شريعته.

وما قيمة الإسلام إذا لم يكن هو الحاكم ظاهراً والمهيمن باطناً.

ثانيها: تلبيسهم الصريح بقولهم (الدين لله والوطن للجميع) والتوحيد الحق يوجب على المسلمين أن يقولوا الدين لله والوطن لله، يجب أن تعلوا فيه كلمة الله ويحكم فيه بشريعته وتقام فيه حدوده، وكل وطن على ضد هذه الحال ليس وطناً للمسلم، ولذا أقسم بذاته العلية على نفي الإيمان على من لم يحتكم لشرعه بانشراح صدر وتسليم كما في الآية ٦٥ من سورة النساء.

وقد أخرجتهم خطتهم الأثيمة في حكمهم الوطني بغير ما أنزل الله

عن حقيقة العروبة الصحيحة فضلاً عن حقيقة الدين لأنهم نصبوا أنفسهم ديوثين على أعراض شعوبهم بإباحة الزنى حال الرضا وتشريع القوانين المعفية للزناة من إقامة حدود الله وتشجيعهم للاختلاط والتبرج والمسارح والمراقص وجميع أنواع الخلاعة المعلقة بالانحلال المؤدي حتماً إلى سقوط ليس معه ارتفاع.

ويالها من سخرية برجال الدين بل إنقاص الدين والتنديد بالشريعة ووصفهم لوحي الله بالأساطير والأوراق الصفراء، وتسميتهم للنبي ﷺ بالعبقري ودعواهم إلى رسالة السماء هي الاشتراكية وتصريحهم بكل وقاحة أن الدين لا يصلح لهذا العصر إلى غير ذلك مما يعتبر شتماً لله وتعطيلاً صريحاً لجميع مدلولات الإله بأسمائه الحسنى مما يعتبر أفظع من كفر المشركين الذين مما أوجب الله قتالهم وأباح نسائهم وأموالهم. ذلك أن المشرك معظم لله في الحقيقة لكن جرّه الجهل بحقيقة التعظيم إلى اتخاذ وسائط يقربونه إلى الله زلفى.

أما العصريون أفراخ الثقافة الاستعمارية فليس عندهم لله ذرة من تعظيم بل هم على اختلاف أتباعهم من قوميين وبعثيين وشيوعيين كلهم يلتقون في الإلحاد بأسماء الله ورفض دينه واطّراح وحيه، لكن الشيوعي صريح في إنكار الله لقوة دولته وشدة وقاحته أما غيره فيعترف بالله اعترافاً لفظياً دون أن يتقيد بشيء من أوامره، فهو يعترف بإله مرفوض لا يطاع أمره ولا يلتفت لحكمه ولا تحترم حدوده فما قيمة هذا الإله.

ألا أنها ردة جديدة وكفر شنيع ثبت بين العوائل الإسلامية ككفر الماسونية اليهودية لاحتلال الصدارة في كل ميدان ليفتك بالمسلمين ويجتث الدين من أصوله فيجب على علماء المسلمين أولاً، وعلى أولياء العائلات أن يطهروا بيوتهم بحسن التربية الإسلامية وقوة البذل في سبيل الله للتوعية الدينية ومقابلة التخطيط بتخطيط أقوى ليصدقوا ما عاهدوا الله عليه ويوقفوا هذه الردة عند حدها، والله يتولى الصالحين.

الرسالة الثالثة

كشف الشبهات

تأليف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

أجزل الله له الأجر والثواب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اعْلَمْ رَحِمَكَ الله أنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إفْرَادُ الله بالْعِبَادَةِ، وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ الَّذي أَرسَلَهُمُ الله بِهِ إِلَى عِبَادِهِ، فَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَرْسَلَهُ الله إِلَى قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ وِدّاً وَسُوَاعاً وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ ونَسْراً، وَآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الذِي كَسَرَ صُوَرَ هؤُلاَءِ الصَّالِحِينَ. أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمٍ يَتَعَبَّدُونَ وَيَحُجُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ ويذْكُرُونَ الله كَثِيراً، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الله، يَقُولُونَ: نُرِيدُ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ إِلَى الله. وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ مِثْل الْمَلاَئِكَةِ، وَعِيسَى، وَمَرْيَمَ، وَأُنَاسٍ غَيْرهم مِنَ الصَّالِحِينَ؛ فَبَعَثَ الله مُحَمَّداً ﷺ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ، وَيُخبِرُهُم أَنَّ هذَا التَّقَرُّبَ وَالاعْتِقَادَ مَحْضُ حَقِّ الله لاَ يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ الله لاَ لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلاَ لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِمَا.

وَإِلاَّ فَهؤُلاَءِ الْمُشْرِكُونَ يَشْهَدُونَ أَنَّ الله هُوَ الْخالِقُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّهُ لاَ يرزُقُ إِلاَّ هُوَ. وَلاَ يُحْيِي إِلاَّ هُوَ، وَلاَ يُمِيتُ إِلاَّ هُوَ، وَلاَ يُدَبِّرُ الأَمْرَ إِلاَّ هُوَ، وَأَنَّ جَمِيعَ السَّموَاتِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ وَمَنْ فِيهَا كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ.

فَإِذَ أَرَدْتَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ هٰؤُلاَءِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ يَشْهَدُونَ بِهذَا فَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾، وَقَوْلَهُ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ.

فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مُقِرُّونَ بهَذَا وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ الذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، وَعرَفْتَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي جَحَدُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادِةِ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشركُونَ فِيَ زَمَانِنَا (الاعْتِقَادَ) كَما كَانُوا يَدْعُونَ الله سُبْحَانَهُ لَيْلاً وَنَهَاراً، ثُمَّ مِنهُمْ مَنْ يدْعُو الْمَلاَئِكَةَ لأَجْلِ صَلاَحِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ الله لِيَشْفعُوا لهُ، أَوْ يَدْعُو رَجُلاً صَالِحاً مِثْلَ اللاتِ، أَوْ نبياً مِثلَ عِيسَى، وَعَرَفْتَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلَهُمْ عَلَى هَذَا الشِّرْكِ وَدَعَاهُمْ إِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لله وَحْده كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ وَقَالَ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ إنمَا قَاتَلَهُمْ لِيكُونَ الدُّعاءِ كُلُّهُ لله وَالنَّذْرُ كُلُّهُ لله، وَالذَّبْحُ كُلُّهُ لله، وَالاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا بالله، وَجَمِيعُ الْعِبَادَاتِ كُلُّهَا لله، وَعَرَفْتَ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِية لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ، وَأَنَّ قَصْدَهُمُ الْمَلاَئِكَةَ وَالأنْبِياءَ، وَالأَوْلِياءَ، يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَى الله بِذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَحَلَّ دِمَائَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، عَرفتَ حِينَئِذٍ التَّوْحِيدَ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَى عَنِ الإِقْرَارِ بِهِ الْمُشرِكُونَ.

وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ مَعْنَى قَوْلِكَ: لاَ إِلَه إِلاَّ الله، فَإِنَّ الإِلهَ عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ لأَجْلِ هَذِهِ الأُمُورِ، سواءٌ كان مَلَكاً أو نبياً أو وَلياً أو شجرةً أو قبراً أو جِنِّيّاً، لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ الإِلهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لله وَحْدَهُ كما قَدَّمْتُ لَكَ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بالإِلهِ مَا يَعْنِي الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا بِلَفْظِ السَّيِّدِ. فَأَتَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَهِيَ (لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله) والْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ معناها لا مجرّدُ لفظِها والكفارُ الجُهَّالُ يعلمونَ أنَّ مُرادَ النبيِّ ﷺ بهذه الكلمةِ هُوَ إِفْرَادُ الله تَعالى بالتَّعلُّقِ بهِ وَالْكُفرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ قُولُوا: لاَ إِلَه إِلاَّ الله. قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

فإذا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّال الْكُفَّار يَعرِفُونَ ذَلِكَ، فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلامَ

وَهُوَ لاَ يَعْرِفُ مِنْ تفسيرِ هَذِه الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الْكُفارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنْ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بحرُوفِها مِنْ غَيْر اعْتِقَادِ الْقَلْب لِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي. والْحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا لاَ يَخْلُقُ وَلاَ يَرْزُقُ ولا يُدَبرُ الأَمْرَ إلاّ الله، فَلاَ خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَى لاَ إِلَهَ إلاَّ الله.

إِذَا عَرَفْتَ مَا ذَكرْتُ لَكَ مَعْرِفَةَ قَلْب، وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بالله الَّذِي قَالَ الله فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وَعَرَفْتَ دِينَ الله الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لاَ يَقْبَلُ الله مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالبُ النَّاس فيه منَ الْجَهْلِ بِهَذَا أَفَادَكَ فَائدَتَيْن:

الأُولَى: الْفرَحُ بفضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ كمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾. وَأَفادكَ أَيْضاً الْخَوْفَ الْعَظِيم، فإِنَّكَ إذا عَرَفْتَ أَنَّ الإِنسَانَ يكْفُرُ بكلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ، فَلا يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إلى الله تَعَالى كما ظَنَّ الْمُشركُونَ، خُصُوصاً إِنْ أَلْهَمَكَ الله مَا قَصَّ عَنْ قَوْم مُوسَى مَعَ صَلاَحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾. فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ حِرْصُكَ وَخَوفُكَ عَلَى مَا يخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِياً بِهَذَا التَّوْحِيدِ إلاَّ جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءَ كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وَقَدْ يَكُونُ لأعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ كمَا قَالَ تَعَالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الله لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءَ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ أَهْل فَصَاحَةٍ وَعِلْم وَحُجَج، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْ دِين الله مَا يَصِيرُ لَكَ سِلاَحاً تُقَاتِلُ بِهِ هؤُلاَءِ الشَّيَاطِين، الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى الله، وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، فَلاَ تَخَفْ ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ أَلْفاً مِنْ عُلَمَاءِ هؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، فَجُنْدُ الله هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ كما هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذي يسلُكُ الطريقَ وليسَ معه سِلاحٌ، وقد مَنَّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جَعَلَه: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فَلاَ يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلاَّ وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضها وَيُبَيِّنُ بُطْلاَنَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾، قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هَذِهِ الآيَةُ عَامَّةٌ فِي كلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِها أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَأَنَا أذكرُ لَكَ أَشْيَاءَ مِمَّا ذَكَرَ الله فِي كِتَابِهِ جَوَاباً لِكَلاَمٍ احْتَجَّ به الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا عَلَيْنَا فَنَقُولُ: جَوَابُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٍ، وَمُفَصَّلٍ.

أَمَّا الْمُجملُ فَهُوَ الأَمْرُ العظِيمُ وَالفَائِدةُ الْكَبِيرةُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَذَلكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، أَنهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِك الَّذِينَ سَمَّى الله فَاحْذَرُوهُمْ»، مِثَالُ ذَلِكَ إِذَا قَالَ لَكَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، وَأَنَّ الشَّفَاعَةَ حَقٌّ، وَأَنَّ الأَنْبِيَاءَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ الله أَوْ ذكَرَ كَلاماً لِلنَّبِيِّ ﷺ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ باطِلِهِ، وَأَنْتَ لاَ تَفْهَمُ مَعْنَى الْكلام الَّذي ذَكَرَهُ، فَجَاوِبْهُ بِقَوْلِكَ: إِنَّ الله ذَكرَ فِي كِتَابِهِ أَن الَّذِينَ فِي قُلوبِهِمْ زَيْغٌ يَتْرُكُونَ الْمُحْكَمَ وَيَتْبعُونَ الْمُتشابهَ، وَمَا ذَكَرْتُهُ لكَ مِنْ أَنَّ الله ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُقِرُّونَ بالرُّبُوبِيَّةِ، وَأنَّ كُفرَهُمْ بِتعَلُّقِهِمْ عَلَى الْمَلاَئِكةِ وَالأَنْبِياءِ وَالأَوْلياءِ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، هَذَا أَمْرٌ مُحكمٌ بَيِّنٌ لاَ

يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَعْنَاهُ، وَمَا ذَكَرْتَ لِي أَيُّهَا الْمُشْرِكُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ كلاَمِ النَّبِيِّ ﷺ لاَ أَعْرِفُ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ أَقْطَعُ أَنَّ كلاَمَ الله لاَ يَتَنَاقَضُ، وَأَنَّ كلاَمَ النَّبِيِّ ﷺ لاَ يُخَالِفُ كَلاَمَ الله، وَهَذَا جَوَابٌ سَدِيدٌ، ولَكِنْ لاَ يَفْهَمُهُ إلاَّ مَنْ وَفَّقَهُ الله، فَلاَ تَستَهِنْ بِهِ فَإِنَّهُ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ، فَإِنَّ أَعْدَاءَ الله لَهـمْ اعْتِراضَاتٌ كثِيرةٌ يصُدُّونَ بهَا النَّاسَ عَنْهُ؛ مِنهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لاَ نُشْرِكُ بالله. بلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لاَ يَخْلُقُ وَلاَ يَرْزُقُ وَلاَ يَنْفَعُ وَلاَ يَضُرُّ إلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شريكَ لَهُ؛ وَأَنَّ مُحَمَّداً ﷺ لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلاَ ضَراً، فَضلاً عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ، وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ الله، وأطلُبُ من الله بهم، فجاوبْهُ بما تقدَّم، وهو أن الذين قاتلهُمْ رسولُ الله، مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَمُقرُّونَ أَنَّ أَوْثَانَهُمْ لاَ تُدَبِّرُ شَيْئاً، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ. وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَر الله فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ، فَإِنْ قَالَ: هَؤُلاَءِ الآيَاتُ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، كَيْفَ تجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ أَصْناماً؟.

فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنْ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لله، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِمَّنْ قَصَدُوا إلاَّ الشَّفَاعَةَ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَفْرِقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذكَرَهَ، فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكفَّارَ مِنهُمْ مَنْ يَدْعُو الصَّالِحِينَ وَالأَصْنَامَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ الله فِيهِم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، ويَدْعُون عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

واذْكُرْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ﴾ الآية.

فَقُلْ لَهُ: عَرَفتَ أَنَّ الله كَفَّرَ مَنْ قَصدَ الأَصْنام، وكَفَّرَ أَيضاً مَنْ قَصد الصَّالِحِينَ وَقَاتَلهُمْ رَسُولُ الله ﷺ؟ فَإِنْ قَالَ: الْكفَّارُ يُرِيدُونَ مِنهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ الله هُوَ النَّافعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ لاَ أُرِيدُ إِلاَّ مِنْهُ وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ وَلَكِنْ أَقْصُدُهُمْ أَرْجُو مِنْ الله شَفَاعَتَهُمْ. فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكفَّار سَوَاءً بسواءٍ فَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾.

وَاعْلمْ أَنَّ هَذِهِ الشُّبَهَ الثَلاَث هي أَكبَرُ مَا عندهُمْ، فإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الله وَضَحَهَا فِي كِتَابِهِ، وَفَهِمْتَهَا فَهمَاً جَيِّداً فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا. فَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أَعْبُدُ إِلاَّ الله وَهَذَا الإلتِجَاءُ إِلَى الصَّالِحِينَ، وَدعَاؤُهُمْ لَيْسَ بعِبادَةٍ فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تُقِرُّ أَنَّ الله فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلاَصَ الْعِبَادَةِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؟ فإِذَا قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ وَهُوَ إِخْلاَصُ الْعِبَادَةِ لله وَحْدَهُ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ وَلاَ أَنْوَاعَهَا فَبَيِّنْهَا لهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ ﴾ فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا فَقُلْ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ هَذَا عِبَادَةً لله؟ فَلاَ بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، وَالدُّعَاءِ مُخُّ الْعِبَادَةِ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقْرَرْتَ أَنَّهُ عِبَادَةٌ لله وَدَعَوْتَ الله لَيْلاً وَنَهَاراً خَوْفاً وَطَمَعاً، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيّاً أَوْ غَيْرَهُ هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ الله غَيْرَهُ؟ فَلاَ بُدَّ أَنْ يَقُولَ نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا عَمِلْتَ بِقَوْلِ الله إِذْ قَالَ الله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾، وَأَطَعْتَ الله وَنَحَرْتَ لَهُ هَلْ هَذَا عِبَادَةٌ. فَلاَ بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ نَبِيٍّ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ الله؟ فَلاَ بُدَّ أَنْ يُقِرَّ، وَيَقُولَ: نَعَمْ. وَقُلْ لَهُ أَيْضاً: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ، هَلْ كَانُوا يَعبِدُونَ الْمَلاَئِكَةَ وَالصَّالِحِينَ وَاللاَّتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلاَ بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلاَّ فِي الدُّعَاءِ

وَالذَّبْحِ وَالإِلْتِجَاءِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِلاَّ فَهُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُمْ عَبِيدُ الله وَتَحْتَ قَهْرِهِ، وَأَنَّ الله هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الأَمْرَ وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ، وَالتجأوا إِلَيْهِم لِلْجَاهِ والشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جداً.

(فَإِنْ قَالَ) أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ الله ﷺ وَتَبْرَأُ مِنهَا؟ فَقُلْ: لاَ أُنكِرُهَا وَلاَ أَتَبَرَّأُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ ﷺ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ، ولَكِنَّ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لله كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ وَلاَ تَكُونُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِ الله كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ وَلاَ يَشْفعُ النبيُّ فِي أَحَدٍ إِلاَّ مِنْ بعْدِ أَنْ يَأْذَن الله فِيهِ كَما قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وهو لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فَإِذَا كانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لله وَلاَ تَكونُ إِلاَّ بَعْدَ إِذْنِهِ ولاَ يَشْفَعُ النَّبيُّ ﷺ ولاَ غَيْرُهُ فِي أَحَدٍ حَتَّى يَأْذَنَ الله فِيه، ولاَ يَأْذَنُ إِلاَّ لأَهْلِ التَّوْحِيدِ، تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لله وَأَطْلُبُهَا مِنْهُ وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنِي شَفَاعَتَهُ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، وَأَمْثَالَ هَذَا.

فإِنْ قالَ: النَّبيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ الله، فَالْجَوَابُ أَنَّ الله أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا فَقَالَ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾. وأَيضاً فَإِنَّ الشَّفَاعة أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَحَّ أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ يَشْفَعُونَ وَالأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ وَالأَوْلِيَاءَ يَشفَعُونَ، أَتقُولُ: إِنَّ الله أَعْطَاهُمُ الشَّفَاعَةَ وَأَطْلُبُهَا مِنهُم. فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجعْتَ إِلَى عِبادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذكَرَ الله فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ قُلْتَ: لاَ، بَطَلَ قَوْلُكَ أَعْطَاهُ الله الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ الله.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أُشْرِكُ بالله شَيْئاً حَاشَ وكلاَّ وَلَكِنْ الإِلْتِجَاءُ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بشِرْكٍ، فَقُلْ لَهُ: إِذَا كنْتَ تُقِرُّ أَنَّ الله حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيم الزِّنَا وَتُقِرَّ أَنَّ الله لاَ يَغْفِرُهُ، فَمَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَرَّمَهُ الله وَذَكَرَ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي، فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لاَ تَعْرِفُهُ، أَمْ كَيْفَ يُحَرِّمُ الله عَلَيْكَ هَذَا وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ وَلاَ تَسْأَلُ عَنْهُ وَلاَ تَعْرِفُهُ، أَتَظُنُّ أَنَّ الله يُحَرِّمُهُ وَلاَ يُبَيِّنُهُ لَنَا؟؟

فإنْ قَالَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَام وَنَحْنُ لاَ الأَصْنَامَ، فَقُلْ: وَمَا مَعْنَى عِبَادَةِ الأَصْنَام؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الأَخْشَابَ وَالأَحْجَارِ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاهَا، فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وإنْ قَالَ هُوَ مَنْ قَصَدَ خَشَبَةً أَوْ حَجَراً أَوْ بنيَةً عَلَى قَبْرٍ أَوْ غَيْرِهِ يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَى الله زُلْفَى وَيَدْفَعُ الله عَنَّا بِبَرَكَتِهِ، فَقُلْ صَدَقْتَ وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الأَحْجَارِ وَالْبِنَايَاتِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا. فَهذَا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَام، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضاً قَوْلُكَ: «الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَام»، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا، وَأَنَّ الاعْتِمادَ عَلَى الصَّالحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لاَ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ ما ذَكَرَ الله فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ وَعِيسَى وَالصَّالِحِينَ فَلاَ بُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ في عِبَادَةِ أَحَداً مِنَ الصَّالِحِينَ فَهُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ في الْقُرْآنِ وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لاَ أُشْرِكُ بالله. فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بالله، فَسِّرْهُ لِي؟ فَإِنْ قَال: هُو عِبَادَةُ الأَصْنَام. فَقُلْ: وَمَا مَعْنَى عِبَادَةِ الأَصْنَام فَسِّرْهَا لِي؟ فَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أَعْبُدُ إلاَّ الله (وَحْدَهُ). فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ فَسِّرْهَا لِي؟ فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ. وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئاً وَهُوَ لاَ يَعْرِفُهُ، وَإِنْ فَسَّرَ ذلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنْتَ لَهُ الآيَاتِ الْوَاضِحَاتَ في مَعْنَى الشِّرْكِ بِالله وَعِبَادَةِ الأَوْثَان، وَأَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَ في هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصيحُونَ كَما صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ في زَمَانِنَا هَذَا «الاعْتِقَادَ» هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآن وَقَاتَلَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ عَلَيْهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ شِرْكَ الأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا بِأَمْرَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الأَوَّلِينَ لاَ يُشْرِكُونَ وَلاَ يَدْعُونَ الْمَلاَئِكَةَ وَالأَوْلِيَاء وَالأَوْثَانَ مَعَ الله إلاَّ في الرَّخَاءِ، وَأَمَّا

فِي الشِّدَّةِ فيُخْلِصُونَ للهِ الدِّينَ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾، وقَولُهُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾، وقَولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

فَمَنْ فَهِمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي وَضَّحَهَا الله في كِتَابِهِ وهِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَ الله وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ في الرَّخَاءِ، وأَمَّا في الضُّرِّ والشِّدَّةِ فَلاَ يَدْعُونَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وينْسَوْنَ سَادَاتِهِمْ، تَبَيَّنَ لَهُ الْفَرْقُ بَيْنَ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وَشِرْكِ الأَوَّلِينَ، وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَهْماً رَاسِخاً؟ والله الْمُسْتَعَانُ.

وَالأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ الله أُنَاساً مُقَرَّبِينَ عِنْدَ الله إِمَّا أَنْبِيَاءَ وَإِمَّا أَوْلِيَاءَ وَإِمَّا مَلاَئِكَةً، أَوْ يَدْعُونَ أَشْجَاراً وَأَحْجَاراً مُطِيعَةً لله لَيْسَتْ عَاصِيَةً، وَأَهْلُ زَمانِنَا يَدْعُونَ معَ الله أُنَاساً مِنْ أَفسَقِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الذِينَ يَحْكُونَ عَنْهُمُ الْفُجُورَ مِنَ الزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، وَتَرْكِ الصَّلاَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالَّذِي يَعْتَقِدُ في الصَّالِحِ، أَوْ الَّذِي لاَ يَعْصِي مِثْلُ الْخَشَبِ وَالْحَجَرِ أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشَاهِدُ فِسْقَهُ وَفَسَادَهُ وَيَشْهَدُ بِهِ.

إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَصَحُّ عُقُولاً وَأَخَفُّ شِرْكاً مِنْ هَؤُلاَءِ فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلاَءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ فَاصْغِ سَمْعَكَ لجوَابِها وهِيَ أنهم يقولون: إِن الذِين نزل فِيهِم القرآنَ لاَ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ الله، وَيُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْراً وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي، وَنَصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أُولَئِكَ؟

فَالْجَوَابُ أَنَّهُ لاَ خِلافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ الله ﷺ فِي شَيءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الإِسْلاَمِ، وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ؛ كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ، وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاَةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلاَةِ وَجَحَدَ الزَّكَاةَ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الصَّوْمَ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الْحَجَّ، وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ، أَنْزَلَ الله فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الْبَعْثَ كَفَرَ بِالإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ، كما قَالَ جَلَّ جَلاَلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ فَإِذَا كَانَ الله قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ ببعْضٍ فَهُوَ الْكَافِرُ حَقّاً زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ، وَهَذِه هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْنَا.

وَيُقَالُ أَيْضاً: إِذَا كنتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاَةِ، أَنَّهُ كافِرٌ حَلاَلُ الدَّمِ بِالإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ إِذَا جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ لاَ يَجْحَدُ هَذَا، وَلاَ تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا، فَمَعْلومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ. فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الإِنْسَانُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ؟ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُو دِينُ الرُّسلِ كُلِهِمْ لاَ يكفُرُ، سُبْحَانَ الله! مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ.

وَيُقَالُ أَيْضاً: هَؤُلاَءِ أَصْحَابُ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، وَيُصَلُّونَ وَيُؤَذِّنُونَ، فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مُسَيْلَمَةَ نَبِيٌّ، قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمطْلُوبُ، إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلاً إِلَى رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، كَفَرَ

وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهَادَتَانِ وَلاَ الصَّلاَةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ، أَوْ صَحَابِيّاً، أَوْ نَبِيّاً، فِي مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ؟ سُبْحَانَ الله مَا أَعْظَمَ شَأْنَه، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ويُقَالُ أَيْضاً: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالنَّارِ، كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإِسْلاَمَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَتَعَلَّمُوا العِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلكِنْ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ، مِثْلَ الاعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرُون الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ الاعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لاَ يَضُرُّ، وَالاعْتِقَادَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يُكَفِّرُ؟

وَيُقَالُ أَيْضاً: بَنُو عُبَيْدِ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكُوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَانِ بَنِي الْعبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله وَيَدَّعُونَ الإِسْلاَمَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفرِهِمْ، وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلاَدَهُم بِلاَدُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ.

وَيُقَالُ أَيْضاً: إِذَا كانَ الأَوَّلونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلاَّ أَنَّهُمْ جمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ، وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ فِي كلِّ مَذْهَبٍ «بابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ» وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلامِهِ، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعَاً كثِيرَةً كلُّ نوعٍ مِنْهَا يُكَفِّرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حتَّى أَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا مِثْلُ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ واللَّعِبِ.

وَيُقَالُ أَيْضاً: الَّذِينَ قَالَ الله فِيهِمْ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ الله كَفَّرَهُمْ بكلِمَةٍ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ الله ﷺ يُجَاهِدُونَ مَعَهُ وَيُصَلُّونَ مَعَهُ وَيُزَكُّوْنَ وَيحُجُّونَ وَيُوَحِّدُونَ. وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ الله فِيهِمْ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ صَرَّحَ الله أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الشُّبْهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ أُنَاساً يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ، (ثُمَّ تَأَمَّلْ) جَوَابَهَا فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الأَوْرَاقِ.

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً مَا حَكَى الله عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ عِلْمِهِمْ وَصَلاَحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وَقَوْلُ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ» فَحَلَفَ ﷺ أَنَّ هَذَا نَظِيرُ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً.

وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ» لَمْ يَكْفُرُوا، فَالْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلُوا، وَلاَ خِلاَفَ فِي أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لاَ خِلاَفَ فِي أَنَّ الَّذِينَ نهاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَلَكِنْ هَذِهِ الْقِصَّةُ تُفِيدُ أَنَّ الْمُسْلِمَ بَلِ الْعَالِمَ قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشِّرْكِ لاَ يَدْرِي عَنْهَا فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الْجَاهِلِ (التَّوْحِيدُ فَهِمْنَاهُ) أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ «وَتُفِيدُ» أَيْضاً أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكلامِ كُفْرٍ وَهُوَ لاَ يَدْرِي فَنُبِّهَ عَلَى ذَلِكَ فَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لاَ يكفُرُ كما فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَالَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ، «وَتُفِيدُ» أَيْضاً أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الْكلاَمُ تَغْلِيظاً شَدِيداً كما فَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ.

وَلِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ أُخْرَى يَقُولُونَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَى أُسَامَةَ قَتْلَ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ الله، وَقَالَ لَهُ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ الله»؟ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»: وَأَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْكفِّ عَمَّنْ قَالَهَا، وَمُرَادُ هَؤُلاَءِ الْجَهَلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَهَا لاَ يُكفرُ وَلاَ

يُقْتَلُ وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ، فَيُقَالُ لِهَؤُلاَءِ الْجَهَلَةِ: مَعْلومٌ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلَ الْيَهُودَ وَسَباهُمْ وهم يَقُولُونَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله وَيُصَلُّونَ وَيَدَّعونَ الإِسْلاَمَ، وَكَذَلِكَ الَّذينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب بالنَّارِ، وَهَؤُلاَءِ الْجَهَلَةُ مُقرُونَ: إِنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ كَفَرَ وَقُتِلَ وَلَوْ قَالَ: لا إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلاَمِ كَفَرَ وقُتِل وَلَوْ قَالَهَا، فَكَيْفَ لاَ تَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ فَرْعاً مِنَ الْفُرُوعِ؟ وَتَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ التَوْحِيدَ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ دِينِ الرُّسُلِ ورَأْسُهُ، وَلَكِنْ أَعْدَاءُ الله مَا فَهِمُوا مَعْنَى الأَحَادِيثِ.

فَأَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلاً ادَّعَى الإِسْلاَمَ بِسَبَب أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ مَا ادَّعَى الإِسْلاَمَ إِلاَّ خَوْفاً عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ، وَالرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ الإِسْلاَمَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْهُ ما يُخَالِفُ ذَلِكَ، وَأَنْزَلَ الله تَعَالَى فِي ذَلكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ أيْ تَثَبَّتوا، فَالآيَة تدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْكَفُّ عنهُ والتَّثَبُّتُ، فَإِذَا تَبيَّنَ مِنْهُ بعْدَ ذَلِكَ مَا يُخالِفُ الإِسْلاَمَ قُتِلَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وَلَوْ كَانَ لاَ يُقْتَل إِذَا قَالَهَا لَمْ يَكُنْ لِلتَّثَبُّتِ مَعْنًى، وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الآخَرُ وَأَمْثَالُهُ مَعْنَاهُ مَا ذَكَرْنَاهُ وَأَنَّ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ وَالإِسْلاَمَ وَجبَ الْكَفُّ عَنْهُ إِلاَّ أَنْ يُتَبَّينَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ هُوَ الَّذِي قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»؟ وَقَالَ: «أُمرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلهَ إِلاَّ الله» هُوَ الَّذِي قَالَ فِي الْخَوَارِجِ: «أَيْنَمَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً، وَتَهْلِيلاً وَتَسْبِيحاً، حَتَّى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقُرُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَهُمْ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله» وَلاَ كَثْرَةُ الْعِبَادةِ، وَلاَ ادِّعَاءُ الإِسْلاَمِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ.

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قِتَالِ الْيَهُودِ وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَكَذَلِكَ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَغْزُوَ بَنِي الْمُصْطَلِقِ لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ حَتَّى أَنْزَلَ الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وَكَانَ الرَّجلُ

وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الآية. فَلَمْ يَعْذِر الله مِنْ هَؤُلاءِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئناً بالإِيمَانِ، وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ سَوَاءٌ خَوْفاً أَوْ مُدَارَاةً، أَوْ مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ عَشِيرَتِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ، إلاَّ الْمُكْرَه.

فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ: الأَوَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فَلَم يَسْتَثْنِ الله تَعَالَى إلاَّ الْمُكْرَهَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يُكْرَهُ إلاَّ عَلَى الْكَلَامِ أَوِ الْفِعلِ، وَأَمَّا عَقِيدَةُ الْقَلْبِ فَلا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَلَيْهَا، وَالثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فَصَرَّحَ أَنَّ الْكُفْرَ وَالْعَذَابَ لَمْ يَكُنْ بسبَبِ الاعْتِقَاد والْجَهْلِ والْبُغْضِ للدِّين ومَحَبَّةِ الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا سَبَبُهُ أَنَّ لهُ فِي ذَلِكَ حَظّاً مِنْ حُظُوظ الدُّنْيَا فَآثَرَهُ عَلَى الدِّين، وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَعَزُّ وَأَكْرَمُ، وَصلى الله عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الحمد لله رب العالمين.

الرسالة الرابعة

الأصول الثلاثة

تاليف
الإمام العلامة صاحب النهضة الدينية المجدد شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب
المتوفي سنة ١٢٠٦هـ رضي الله عنه وأرضاه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم رحمكَ الله أنه يجِبُ علينا تَعُلمُ أربعِ مسائلَ: (الأُولى) العِلم، وهو مَعْرِفَةُ الله، ومعرفةُ نَبِيِّهِ، ومعرفةُ دِينِ الإِسلام بالأدلَّةِ. (الثَّانِيَةُ) العملُ به. (الثالثةُ) الدَّعْوَةُ إليه. (الرابِعةُ) الصَّبْرُ على الأَذَى فيه.

والدَّلِيلُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾. قال الشافعيُّ رحمه الله تعالى: لو ما أَنْزَلَ الله حُجَّةً على خَلْقِهِ إلا هذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

وقال البُخَارِيُّ رحمه الله تعالى:

«(بابٌ): العِلمُ قَبْلَ القولِ والعمَلِ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فبدأ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ.

اعلمْ رحمك الله أنه يجبُ على كل مسلمٍ ومسلمةٍ تَعُلمُ هذِهِ المسائِلِ الثلاث والعملُ بِهِنَّ:

(الأولَى): أَنَّ الله خَلقَنا ورَزَقَنا ولم يَتْرُكْنا هَمَلاً، بلْ أَرْسَلَ إلينا رسولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دخل الجنةَ، ومَن عَصَاهُ دخل النارَ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾.

(الثانيةُ): أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ معه فِي عِبَادَتِه أَحَدٌ، لاَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ. والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾.

(الثالثةُ): أَنَّ مَن أَطَاعَ الرسولَ ووَحَّدَ الله لا يجوز له مُوَالاَةُ مَن

حادَّ الله ورسُولَهَ ولو كان أقْرَبُ قَرِيبٍ. والدليلُ قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

اعلمْ أرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ أنَّ الحنيفيَّةَ مِلة إبراهيمَ أنْ تَعْبُدَ الله وَحْدَهُ مُخْلِصاً لهُ الدِّينَ. وبذلك أمَرَ الله جميعَ الناسِ وخَلَقَهُمْ لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾. ومعنى يَعْبُدُونِ يوَحِّدُونِي. وأَعْظَمُ ما أمَرَ الله بِهِ التوحيدُ، وهو إفْرَادُ الله بالعبادةِ. وأعْظَمُ ما نَهى عنه الشِّرْكُ، وهو دَعْوَةُ غَيرِهِ معهُ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

فإذا قيل لك: ما الأُصُولُ الثلاثة التي يجبُ على الإنسانِ معرِفتُها؟ فقل: معرفَةُ العبد رَبَّهُ ودِينَهُ ونبيَّه محمداً ﷺ.

الأصل الأول

فإذا قيل لك: مَنْ رَبُّكَ؟ فقُلْ: رَبِّيَ الله الَّذي ربَّانِي ورَبَّى جَمِيعَ العالمين بِنعْمتهِ، وهو معبودِي، ليس لي معبودٌ سواهُ. والدليل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ وكُلُّ مَنْ سِوَى الله عالَمٌ، وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ.

فإذا قيل لك: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فقلْ: بآياتِهِ ومخلوقاتهِ، ومِنْ آياتهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاته السمواتُ السَّبْعُ والأرضُونَ السبعُ ومَن فيهنَّ وما بينهما. والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾. والرَّبُّ هو المعبودُ. والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، قال ابنُ كَثِيرٍ رحمه الله تعالى: الخالقُ لهذه الأشياءِ هو المُسْتَحِقُّ للعبادةِ.

وأنواعُ العبادةِ الّتي أمَرَ الله بها، مِثْلُ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، ومنه الدُّعاءُ، والخوْفِ، والرَّجاءِ، والتَّوكُّلِ، والرَّغْبةِ، والرَّهْبةِ، والخشوعِ، والخشيةِ، والإنابةِ، والاسْتعانةِ، والاستعاذةِ، والاستغاثةِ، والذَّبْحِ، والنذرِ، وغيرَ ذلك من أنواع العبادةِ التي أمرَ الله بها، كلّها لله.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، فمنْ صَرَفَ منها شيئاً لغيرِ الله فهوَ مشركٌ كافرٌ. والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

وفي الحديث: «الدُّعاءُ مُخُّ العبادةِ». والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾. ودليل الخوفِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. ودليلُ الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، ودليلُ التوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

ودليل الرَّغْبةِ والرَّهْبةِ والخشوعِ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾. ودليل الخشْيةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ الآية. ودليل الإنَابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ الآية. ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ

نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾. وفي الحديث: «إذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله»، ودليل الاستعَاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾، ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ الآية، ودليل الذَّبح قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾، ومن السُّنةِ: «لَعَنَ الله مَن ذَبَحَ لغيْرِ الله». ودليل النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾﴾.

الأصل الثاني

معرفةُ دِينِ الإسلام بالأدلةِ، وهو الاسْتِسْلامُ لله بالتَّوْحيدِ، والانقيادُ له بالطاعةِ، والبراءة من الشرك وأهلهِ. وهو ثلاثُ مَراتِبَ: «الإِسْلامُ» و«الإِيمَانُ» و«الإِحْسانُ». وكُلُّ مَرْتبةٍ لهَا أَركَانٌ.

المرتبة الأولى

الإِسلام خَمسةُ أركَانٌ: شَهادَةُ أَنْ لا إِلهَ إلاَّ الله وأَنَّ محمداً رَسولُ الله، وإقامُ الصَّلاةِ، وإِيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحَجُّ بيتِ الله الحرامِ.

فَدَليلُ الشَّهادَةِ قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾. ومعناها: لا معبودَ بحَقٍّ إلا الله وحدَه. «لا إلهَ» نافياً جميعَ ما يُعبدُ من دونِ الله. «إلا الله» مُثْبِتاً العبَادَةَ لله وَحْدَهُ، لا شريكَ له في عبَادتِه، كما أنهُ ليس له شريكٌ في مُلْكِه. وتفسيرُها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ودليلُ شهادةِ أن محمداً رسولُ الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ ومعنى شهادة أن محمداً رسولُ الله طاعتُه فيما أمَرَ، وتصديقهُ فيما أخْبَرَ، واجتنابُ ما عنه نَهى وزَجَرَ، وأنْ لا يُعْبَدَ الله إلاَّ بما شَرَعَ.

ودليلُ الصلاةِ، والزكاةِ وتفسيرُ التَّوْحِيدْ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾، ودليلُ الصيامِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾، ودليلُ الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

المرتبة الثانية

الإيمانُ. وهو بِضْعٌ وسبعونَ شُعْبةً، فأعلاها قولُ لا إله إلا الله، وأَدْنَاهَا إماطَةُ الأَذَى عن الطَّريقِ، والحياءُ شُعْبةٌ من الإيمانِ، وأركانُه سِتةٌ: أنْ تُؤْمنَ بالله وملائكتِه وكُتُبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخرِ وتُؤمِنْ بالقَدَرِ خَيره وشَرِّه. والدليلُ على هذه الأركانِ الستةِ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية. ودليل القدَر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

المرتبة الثالثة

الإحسانُ رُكْنٌ واحدٌ، وهو أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ. والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾، وقوله تعالى:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية.

والدليلُ من السنةِ حديثُ جبْرِيلَ المشهورُ عن عُمَرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه قال: «بَيْنَما نحن جُلوسٌ عند النبي ﷺ إذْ طَلَعَ علينَا رجلٌ شدِيدُ بَيَاضِ الثيابِ شديدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لا يُرى عليهِ أثَرُ السَّفَرِ ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النبيِ ﷺ فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيه على فَخِذَيْهِ وقال: يا محمدُ أَخْبِرني عن الإسلامِ، فقال: أنْ تَشْهَدَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وتُقِيمَ الصَّلاةَ وتُؤتِيَ الزكاةَ وتصومَ رمضانَ وتَحُجَّ البيتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إليه سَبِيلاً، قال: صَدَقْتَ، فَعجبنا لهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قال: أخبرِنِي عن الإيمانِ، قال: أن تُؤْمِنَ بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخرِ وتُؤمِنَ بالقَدَر خَيْرِهِ وشرِّه، قال أخبرني عن الإحسان، قال: أن تَعْبُدَ الله كأنَّك تَرَاهُ، فإن لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ، قال: أخبرِنِي عن السَّاعَةِ، قال: ما المَسْؤولُ عنها بأعْلَم من السَّائِلِ، قال: أخبرني عن أَمارَاتِهَا، قال: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرى الحُفَاةَ العُرَاةَ العالَةَ رعاءَ الشَّاءِ يتَطاولُونَ في البُنْيَانِ، قال: فَمَضَى فَلبِثْنا مَلِياً، فقال: يا عمرُ أتَدْرُونَ مَن السائلُ؟ قلنا: الله ورسوله أعلمُ، قال: هذا جبريلُ أَتاكُمْ يُعلِّمكُمْ أَمْرَ دِينكُمْ».

الأصل الثالث معرفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم

وهو محمدُ بن عبد الله بن عبد المُطَّلِبِ بن هاشم. وهاشمٌ من قُرَيْشٍ، وقريشٌ من العرب، والعَرَبُ من ذريّة إسماعيلَ بن إبراهيمَ الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاةِ والسلامِ. وله من العمر ثلاثٌ وستون سنةً، منها أربعون قبلَ النُّبوَّةِ، وثلاثٌ وعشرون نبياً رسولاً. نُبِّئَ بِاقْرَأ. وأُرْسِلَ بالمُدَّثر. وبلدهُ مكةُ. بَعَثَهُ الله بالنِّذارَةِ عن الشِّرْكِ ويَدْعو إلى التوحيدِ.

والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾

ومعنى «قُمْ فأَنْذِرْ» يُنْذِرُ عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، «وربَّكَ فَكَبِّرْ» عَظمْهُ بالتَّوْحِيدِ، «وثيَابَكَ فَطهِّرْ» أي طهر أعمالَكَ عن الشركِ، «والرُّجزَ فاهْجُرْ» الرُّجْزُ: الأَصنام، وهَجْرُها تَرْكُها وأهْلِها والبراءَةُ منها وأهلِها.

أَخَذَ على هذا عشرَ سِنينَ يدعو إلى التوحيدِ، وبعدَ العشْر عُرجَ بهِ إلى السَّماءِ وفُرِضَتْ عليهِ الصلواتُ الخمسُ. وصلَّى في مكةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ.

والهجرَةُ: الانْتِقَالُ من بلدِ الشركِ إلى بلد الإِسلام، والهجرة فريضةٌ على هذه الأُمّةِ من بلد الشركِ إلى بلدِ الإِسلام، وهي باقيةٌ إلى أن تقومَ الساعةُ، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

قال البغويُّ رحمه الله: سببُ نُزُول هذه الآية في المسلمين الذين في مَكَّةَ لم يُهاجِرُوا، ناداهم الله باسم الإِيمانِ. والدليل على الهجرةِ من السنةِ قوله ﷺ: «لا تَنقطِعُ الهجرةُ حتى تَنقطِعَ التَّوْبةُ، وَلا تنقطِع التوبةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مَغْرِبِها».

فلما أَسْتقَرَّ في المدينة أُمِرَ بِبقَيَّةِ شرائعِ الإِسلام، مثل الزَّكاةِ، والصوم، والحجّ، والأذانِ، والجهادِ، والأمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وغَير ذَلك من شرائع الإِسلام. أَخَذَ على هذا عشرَ سنينَ.

وتُوُفِّيَ، صلاةُ الله وسلامه عليه، ودِينهُ باقٍ، وهذا دينهُ: لا خيْرَ إلاّ دَلَّ الأُمَّةَ عليه، ولا شَرَّ إلاَّ حَذَّرَها عنه. والخيرُ الذي دَلّها عليهِ التوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ الله ويرضاه، والشرُّ الذي حذَّرها عنه الشركُ وجميعُ ما يكرهه الله ويأباه. بعثه الله إلى الناس كافة، وافتَرَضَ طاعتَهَ على جميع

الثَّقَلَيْنِ، الجنِّ والإِنْسِ. والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وكمَّل الله به الدينَ. والدليلُ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾. والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾. والناسُ إذا ماتُوا يُبْعَثُونَ. والدليل قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾. وبعدَ البعثِ مُحاسَبُونَ ومجزِيُّونَ بأعمالِهِمْ. والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

ومن كَذَّبَ بالبعث كَفَر. والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾. وأرسلَ الله جميعَ الرُّسُلِ مُبشِّرين ومُنْذرين. والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾. وأوَّلهُمْ نوحٌ عليهِ السلام، وآخِرهُمْ محمدٌ ﷺ، وهو خاتَمُ النَّبِيِّينَ. والدليل على أنَّ أَوَّلَهُمْ نوحٌ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

وكلُّ أُمَّةٍ بعث الله إِليهِمْ رسولاً من نوحٍ إِلى محمدٍ يأمرُهُم بعبادة الله وحدهُ، وينهاهُم عن عبادةِ الطاغوتِ. والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾. وافترَض الله على جميع العبَادِ الكُفْرَ بالطّاغُوتِ والإِيمَانَ بالله. قال ابن القَيِّم رحمَهُ الله تعالى: معنى الطّاغُوتِ ما تَجاوَزَ بهِ العبدُ حَدَّهُ مِنْ معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، والطَّواغيتُ كثيرون، ورؤوسُهم خمسةٌ: إبليسُ لعنه الله، ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ، ومَنْ دعا الناسَ إلى عبادة نفسهِ، ومَنِ ادَّعَى شيئاً من علم الغيبِ، ومن حكَمَ بغيْرِ ما أنزلَ الله والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ

ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾. وهذا هو معنى لا إله إلا الله.

وفي الحديث: «رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعَمُودُهُ الصلاةُ، وذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ في سَبيل الله»، والله أعلم.

أربع القواعد
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أَسأَلُ الله الكريمَ رَبَّ العَرْشِ العظيمِ أَنْ يتَوَلاكَ في الدّنيا وَالآخِرَةِ وَأَنْ يَجْعلكَ مُباركاً أيْنما كنْتَ وَأنْ يَجعَلكَ مِمَّنْ إذا أُعطيَ شَكرَ، وَإذا ابتُليَ صَبَرَ. وَإذا أَذْنبَ استَغفَرَ فإِنَّ هذه الثّلاثُ عِنوَانُ السّعادَةِ.

اعلمْ أرْشدَكَ الله لطَاعَتِهِ أَنَّ الحَنِيفيةَ مِلَّةَ إبْراهيمَ أَنْ تعبُدَ الله وَحدَهُ مخلصاً لهُ الدينَ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ فإذا عَرَفتَ أَنَّ الله خلقَكَ لعِبَادَتِهِ فاعلمْ أَنَّ العِبادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إلاَّ معَ التَّوْحِيدِ كما أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صلاةً إلاَّ معَ الطهارَةِ فإذَا دَخَلَ الشِّرْكُ في العِبَادَةِ فَسَدَتْ كالحدثِ إذا دخل في الطهارة، فإذا عرفت أن الشركَ إذا خالطَ العبادةَ أفسَدَها وَأَحبَطَ العَمَلَ وَصَارَ صَاحِبُهُ مِن الخَالِدِينَ في النَّارِ عَرَفتَ أَنَّ أَهمّ مَا عَلَيْكَ مَعرِفة ذلِكَ لعَلّ الله أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبكةِ وَهيَ الشِّرْكُ باللهِ الذِي قالَ الله تعَالى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وَذلِكَ بمعْرِفةِ أرْبَع قوَاعِدَ ذكرَهَا الله تعَالى في كتَابهِ.

(القاعِدَةُ الأولى): أَنْ تعْلمَ أَنّ الكفّارَ الذينَ قاتلهُمْ رَسولُ الله ﷺ مُقِرُّونَ بأن الله تعالى هوَ الخَالِقُ الرّازِقُ المُدَبِّرُ وَأَن ذَلِكَ لمْ يُدْخِلهُمْ في الإسْلام. وَالدليلُ قوْلهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

(القاعِدة الثانيةُ): أنهـمْ يَقولونَ مَا دَعوناهمْ وَتوَجهنَا إلِيهمْ إلاَّ لطَلب القُرْبَةِ وَالشفَاعةِ، فدَلِيلُ القُربَةِ قوْلهِ تعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾.

(وَدَلِيلُ الشفَاعَةِ) قوْلهُ تعَالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾. والشّفاعةُ شفَاعتَانِ شفاعَةٌ مَنفِيَّةٌ، وَشفَاعَةٌ مُثْبتةٌ. فالشفَاعةُ المنفِيَّةُ ما كانتْ تُطلبُ مِنْ غيرِ الله فِيما لا يَقدِرُ عَليهِ إلا الله. وَالدّليلُ قولهُ تعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٥٤)﴾.

وَالشّفاعةُ المُثْبتةُ هِيَ التي تُطلَبُ مِنَ الله وَالشّافِعُ مُكرمٌ بالشّفَاعةِ وَالمشْفوعُ لهُ مَنْ رَضيَ الله قوْلهُ وَعمَلهُ بعْدَ الإذْنِ كما قالَ تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾.

(القاعِدةُ الثالثةُ): أنّ النَّبيّ ﷺ ظهَرَ في أناس مُتفَرّقِينَ في عِبادَاتِهمْ مِنهُمْ مَنْ يَعبُدُ المَلائِكةَ، ومنهم من يعبدُ الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبدُ الأشجارَ والأحجارَ، وَمِنهمُ مَنْ يَعبدُ الشّمسَ وَالقمَرَ وَقاتلهُمْ رَسولُ الله ﷺ ولَمْ يُفرّقْ بينَهمْ. وَالدّلِيلُ قوْلهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾.

وَدَلِيلُ الشّمسِ وَالقمَرِ قوْلهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ (٣٧)﴾ ودَلِيلُ الملائِكةَ قوْلهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾.

وَدَلِيلُ الأنبياءِ قوْلهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

وَدَلِيلُ الصَّالِحينَ قوْلهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، الآية.

وَدَلِيلُ الأشجَارِ والأحجَارِ قوْلهُ تَعَالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾، الآية.

وَحديثُ أبي واقِدٍ الليْثيّ رَضِيَ الله عنهُ قال: خرَجنَا مَعَ النَّبيّ ﷺ إلى حُنَينَ وَنحنُ حُدَثَاءُ عهْدٍ بكفْر، وَللمُشركِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِندَها وَيُنوطُونَ بهَا أَسلِحتُهمْ يُقَالُ لهَا ذَاتُ أنواطٍ، فمَرَرْنَا بسدْرَة فقُلنَا: يَا رَسولَ الله اجْعَلْ لنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كما لهُمْ ذَاتُ أَنوَاطٍ» الحدِيث.

(القاعِدَةُ الرَّابعةِ): أَن مُشْرِكي زَمَانِنا أَغلظُ شِرْكاً مِنَ الأولِينَ لأنَّ الأولِينَ يُشْركونَ في الرَّخاءِ وَيُخلِصونَ في الشُدَّةِ، ومشركو زماننا شركهم دائمٌ في الرخاء والشدة، والدليلُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الرسالة الخامسة

تطهير الاعتقاد
عن أدران الشرك والإلحاد

تأليف الأستاذ المحدث الشهير

محمد بن إسماعيل الامير اليمني الصنعاني

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو المستعان

قال الإمام العلامة الهاشمي الفاطمي السيد محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير الكحلاني ثم الصنعاني المتوفى في عام ١١٨٢ هجرية.

الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد، حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد، من اتخاذ الأنداد، فلا يتخذون له نداً ولا يدعون معه أحداً، ولا يتكلون إلا عليه، ولا يفزعون في كل حال إلا إليه، ولا يدعونه بغير أسمائه الحسنى، ولا يتوصلون إليه بالشفعاء ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ وأشهد أن لا إله إلا الله رباً معبوداً عبده ورسوله الذي أمره أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وكفى بالله شهيداً، صلى الله عليه وعلى آله والتابعين له في السلامة من العيوب، وتطهير القلوب عن اعتقاد كل شيء يشوب.

(وبعد) فهذا (تطهير الاعتقاد، عن أدران الإلحاد) وجب عليَّ تأليفه، وتعين علي ترصيفه، لما رأيته وعلمته من اتخاذ العباد الأنداد، في الأمصار والقرى وجميع البلاد، من اليمن والشام ونجد وتهامة وجميع ديار الإسلام، وهو الاعتقاد في القبور، وفي الأحياء ممن يدعي العلم بالمغيبات والمكاشفات وهو من أهل الفجور، لا يحضر للمسلمين مسجداً ولا يُرى لله راكعاً ولا ساجداً، ولا يعرف السنة ولا الكتاب، ولا يهاب البعث ولا الحساب، فوجب علي أن أنكر ما أوجب الله إنكاره ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله إظهاره، فاعلم أن ههنا أصولاً هي من قواعد الدين، ومن أهم ما تجب معرفته على الموحدين.

الأصل الأول

إنه قد علم من ضرورة الدين أن كل ما في القرآن فهو حق لا باطل، وصدق لا كذب، وهدى لا ضلالة، وعلم لا جهالة، ويقين لا شك فيه. فهذا الأصل أصل لا يتم إسلام أحد ولا إيمانه إلا بالإقرار بهذا الأصل وهذا مجمع عليه لا خلاف فيه.

الأصل الثاني

إن رسل الله وأنبياءه من أولهم إلى آخرهم بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، وكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ وهذا الذي تضمنه قول لا إله إلا الله، فإنما دعت الرسل أممها إلى قول هذه الكلمة واعتقاد معناها لا مجرد قولها باللسان، ومعناها هو إفراد الله بالإلهية والعبادة والنفي لما يعبد من دونه والبراءة منه، وهذا الأصل لا مرية فيما تضمنه ولا شك فيه وأنه لا يتم إيمان أحد حتى يعلمه.

الأصل الثالث

إن التوحيد قسمان: (القسم الأول) توحيد الربوبية والخالقية والرازقية ونحوها، ومعناها أن الله وحده هو الخالق للعالم وهو الرب لهم والرازق لهم، وهذا لا ينكره المشركون، ولا يجعلون لله فيه شريكاً بل هم مقرون به كما سيأتي في الأصل الرابع.

والقسم الثاني: توحيد العبادة، ومعناها إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات الآتي بيانها، فهذا هو الذي جعلوا لله فيه الشركاء، ولفظ الشريك يشعر بالإقرار بالله تعالى. فالرسل عليهم السلام بعثوا لتقرير الأول ودعاء المشركين إلى الثاني، مثل قولهم في خطاب المشركين ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ونهيهم عن شرك العبادة، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي قائلين لأممهم أن اعبدوا الله، فأفاد بقوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أن جميع الأمم لم ترسل إليهم الرسل إلا لطلب توحيد العبادة لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم، وأنه رب السموات والأرض، فإنهم مقرون بهذا، ولهذا لم ترد الآيات في الغالب إلا بصيغة استفهام التقرير نحو ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ استفهام تقرير لهم لأنهم به مقرون، وبهذا تعرف أن المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان ولم يعبدوها ولم يتخذوا المسيح وأمه، ولم يتخذوا الملائكة شركاء لله تعالى، لأنهم أشركوهم في خلق السموات والأرض، بل اتخذوهم لأنهم يقربونهم إلى الله زلفى كما قالوه - فهم مقرون بالله في نفس كلمات كفرهم - وأنهم شفعاء عند الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فجعل الله تعالى اتخاذهم للشفعاء شركاً ونزّه نفسه عنه، لأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكيف يثبتون شفعاء لهم لم يأذن الله لهم في شفاعة، ولا هم أهل لها ولا يغنون عنهم من الله شيئاً.

الأصل الرابع

إن المشركين الذين بعث الله الرسل إليهم مقرون أن الله خالقهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وأنه الذي خلق السموات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾، وأنه الرازق الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؛ وأنه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾، ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ

لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

وهذا فرعون مع غلوه في كفره ودعواه أقبح دعوى؛ ونطقه بالكلمة الشنعاء؛ يقول الله في حقه حاكياً عن موسى عليه السلام ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ وقال إبليس ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ وقال: رب ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾ وكل مشرك مقر بأن الله خالقه؛ خالق السموات والأرض وربهن ورب ما فيهما ورازقهم؛ ولهذا احتج عليهم الرسل بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ وبقولهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ والمشركون مقرون بذلك لا ينكرون.

الأصل الخامس

إن العبادة أقصى باب الخضوع والتذلل؛ ولم تستعمل إلا في الخضوع لله لأنه مولى أعظم النعم وكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع كما في الكشاف. ثم إن رأس العبادة وأساسها التوحيد لله الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل، وهو قول لا إله إلا الله، والمراد اعتقاد معناها لا مجرد قولها باللسان؛ ومعناها إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كل معبود دونه؛ وقد علم الكفار هذا المعنى لأنهم أهل اللسان العربي فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾﴾.

فصل

إذا عرفت هذه الأصول فاعلم أن الله تعالى جعل العبادة له أنواعاً.

(اعتقادية) وهي أساسها وذلك أن يعتقد أنه الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر؛ الذي لا شريك له ولا يشفع عنده

أحد إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك مما يجب من لوازم الإلهية.

(ومنها اللفظية) وهي النطق بكلمة التوحيد؛ فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله؛ وكان كإبليس فإنه يعتقد التوحيد بل ويقر به كما أسلفناه عنه إلا أنه لم يتمثل أمر الله فكفر؛ ومن نطق ولم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه إلى الله؛ وحكمه حكم المنافقين.

(وبدنية) كالقيام والركوع والسجود في الصلاة.

ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف.

(ومالية) كإخراج جزء من المال امتثالاً لما أمر الله تعالى به؛ وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال والأبدان والأفعال والأقوال كثيرة لكن هذه أمهاتها.

وإذا تقررت هذه الأمور فاعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة لا إلى إثبات أنه خلقهم ونحوه؛ إذ هم مقرون بذلك كما قررناه وكررناه ولذا قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ أي لنفرده بالعبادة ويختص بها من دون الأوثان؛ فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله؛ ولم ينكروا الله تعالى؛ ولا أنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد وأنكروا كونه يفرد بالعبادة؛ فعبدوا مع الله غيره وأشركوا معه سواه واتخذوا له أنداداً كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون أنه لا ند له.

وكانوا يقولون في تلبيتهم للحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك؛ تملكه وما ملك. وكان يسمعهم النبي ﷺ عند قولهم لا شريك لك ويقول: قد أفردوه جل جلاله لو تركوا قولهم: إلا شريكاً هو لك؛ فنفس شركهم بالله تعالى إقرار به تعالى، قال تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

فنفس اتخاذ الشركاء إقرار بالله تعالى ولم يعبدوا الأصنام بالخضوع لهم والتقرب بالنذور والنحر لهم إلا لاعتقادهم أنهم تقربهم من الله زلفى وتشفع لهم لديه؛ فأرسل الله الرسل تأمر بترك عبادة كل ما سواه وإن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل؛ وإن ذلك لا يكون إلا لله وحده؛ وهذا هو توحيد العبادة؛ وقد كانوا مقرين كما عرفت في الأصل الرابع بتوحيد الربوبية؛ وهو أن الله هو الخالق وحده، والرازق وحده.

ومن هذا تعرف أن التوحيد الذي دعتهم إليه الرسل من أولهم - وهو نوح عليه السلام - إلى آخرهم - وهو محمد ﷺ، هو توحيد العبادة، ولذا تقول لهم الرسل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وقد كان المشركون منهم من يعبد الملائكة ويناديهم عند الشدائد، ومنهم من يعبد أحجاراً ويهتف بها عند الشدائد فبعث الله محمداً ﷺ يدعوهم إلى الله وحده بأن يفردوه بالعبادة كما أفردوه بالربوبية، أي بربوبية السموات والأرض، وأن يفردوه بكلمة «لا إله إلا الله» معتقدين لمعناها عاملين بمقتضاها، وأن لا يدعو مع الله أحداً، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي من شرط الصدق بالله أن لا يتوكلوا إلاً عليه وأن يفردوه بالتوكل كما يجب أن يفردوه بالدعاء والاستغفار.

وأمر عباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولا يصدق قائل هذا إلا إذا أفرد العبادة لله تعالى وإلا كان كاذباً منهياً عن أن يقول هذه الكلمة، إذ معناها نخصك بالعبادة ونفردك بها، وهو معنى قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ كما عرف من علم البيان أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي لا تعبدوا إلا الله، ولا تعبدوا غيره، ولا تتقوا غيره. كما في الكشاف: فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله له والنداء في الشدائد والرخاء لا يكون إلا لله وحده، والاستعانة بالله وحده

واللجوء إلى الله والنذر والنحر له تعالى، وجميع أنواع العبادات من الخضوع والقيام تذللاً لله تعالى؛ والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب؛ والحلق والتقصير كله لا يكون إلا لله عز وجل، ومن فعل ذلك لمخلوق حي أو ميت أو جماد أو غيره، فهذا شرك في العبادة وصار من تفعل له هذه الأمور إلهاً لعابديه سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجراً أو قبراً أو جنياً أو حياً أو ميتاً. وصار بهذه العبادة أو بأي نوع منها عابداً لذلك المخلوق وإن أقر بالله وعبده، فإن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك وعن وجوب سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم؛ قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، لا يقبل الله عملاً شورك فيه غيره ولا يؤمن به من عبد معه غيره.

فصل

إذا تقرر عندك أن المشركين لم ينفعهم الإقرار بالله مع إشراكهم في العبادة، ولا يغني عنهم من الله شيئاً، وأن عبادتهم هي اعتقادهم فيهم أنهم يضرون وينفعون، وأنهم يقربوهم إلى الله زلفى، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى فنحروا لهم النحائر وطافوا بهم ونذروا النذور عليهم، وقاموا متذللين متواضعين في خدمتهم، وسجدوا لهم، ومع هذا كله فهم مقرون لله بالربوبية وأنه الخالق، ولكنهم لما أشركوا في عبادته جعلهم مشركين ولم يعتد بإقرارهم هذا لأنه نافاه فعلهم فلم ينفعهم الإقرار بتوحيد الربوبية.

فمن شأن من أقر لله تعالى بتوحيد الربوبية أن يفرده بتوحيد العبادة فإذا لم يفعل ذلك، فالإقرار الأول باطل؛ وقد عرفوا وهم في طبقات النار وقالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ مع أنهم لم يسوّوهم به من كل وجه ولا جعلوهم خالقين ولا رازقين؛ لكنهم علموا وهم في قعر جهنم أن خلطهم الإقرار بذرّة من ذرات الإشراك في توحيد العبادة صيّرهم كمن سوّى بين الأصنام وبين رب الأنام، قال الله

تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي ما يقر أكثرهم في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الأوثان؛ بل سمى الله الرياء في الطاعات شركاً مع أن فاعل الطاعة ما قصد بها إلا الله تعالى، وإنما إراد طلب المنزلة بالطاعة في قلوب الناس؛ فالمرائي عَبَدَ الله لا غيره لكنه خلط عبادته بطلب المنزلة في قلوب الناس فلم تقبل له دعوة عبادة وسماها شركاً كما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً وأشرك فيه معي غيري تركته وشركه»، بل سمى الله التسمية بعبد الحارث شركاً كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ فإنه أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث سمرة أنه قال ﷺ: «لما حملت حواء وكان لا يعيش لها ولد ـ طاف بها إبليس وقال: لا يعيش لك ولد حتى تسميه عبد الحارث فسمته فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره، فأنزل الله الآيات وسمى هذه التسمية شركاً وكان إبليس يسمى بالحارث» والقصة تسمى في الدر المنثور وغيره.

فصل

قد عرفت من هذا كله أن من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت أنه ينفع أو يضر أو أنه يقرب إلى الله أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا بمجرد التشفع به والتوسل إلى الرب تعالى ـ إلا ما ورد في حديث فيه مقال في حق نبينا محمد ﷺ أو نحو ذلك ـ فإنه قد أشرك مع الله غيره واعتقد ما لا يحل اعتقاده كما اعتقد المشركون في الأوثان فضلاً عمن ينذر بماله وولده لميت أو حي؛ أو يطلب من ذلك ما لا يُطلب إلا من الله تعالى من الحاجات من عافية مرضية أو قدوم غائبة أو نيلهِ لأي مطلب من المطالب؛ فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان عليه عُبّاد الأصنام.

والنذور بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كان يفعله الجاهلية، وإنما يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً، وفعله القبوريون لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً. والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإن من شرب الخمر وسماها ماء، ما شرب إلا خمراً وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعله يزيد عقابه للتدليس والكذب في التسمية.

وقد ثبت في الأحاديث أنه يأتي قوم يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها، وصدق ﷺ فإنه قد أتى طوائف من الفسقة يشربون الخمر ويسمونها نبيذاً، وأول من سمى ما فيه غضب الله وعصيانه بالأسماء المحبوبة عند السامعين إبليس لعنه الله، فإنه قال لأبي البشر آدم عليه السلام ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ فسمى الشجرة التي نهى الله تعالى آدم عن قربانها شجرة الخلد جذباً لطبعه إليها، وهزاً لنشاطه إلى قربانها وتدليساً عليه بالاسم الذي اخترعه لها، كما يسمي إخوانه المقلدون الحشيشة بلقمة الراحة، وكما يسمي الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلماً وعدواناً (أدباً) فيقولون أدب القتل، أدب السرقة، أدب التهمة، بتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب كما يحرفونه في بعض المقبوضات إلى اسم النفاعة، وفي بعضها إلى اسم السياقة، وفي بعضها أدب المكاييل والموازين. وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد.

وكذلك تسمية القبر مشهداً، ومن يعتقدون فيه ولياً؛ لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشداد ونحوها، وكل قوم لهم رجل ينادونه، فأهل العراق يهتفون باسمه ويقولون يا زيلعي يا ابن العجيل، وأهل

مكة وأهل الطائف: يا ابن العباس، وأهل مصر يا رفاعي - يا بدوي - والسادة البكرية، وأهل الجبال يا أبا طير، وأهل اليمن يا ابن علوان. وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر وهو بعينه فعل المشركين في الأصنام كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله يغوث وود ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيره أهلت لغير الله جهلاً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلاً ويلتمس الأركان منهن بالأيدي

فإن قال إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه، فقل إن كان النحر لله فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال نعم، فقل له هذا النحر لغير الله بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد تعظيمه فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟ أنت تعلم يقيناً أنك ما أردت ذلك أصلاً ولا أردت إلا الأول ولا خرجت من بيتك إلا قصده، ثم كذلك دعائهم له، فهذا الذي عليه هؤلاء شرك بلا ريب.

وقد يعتقدون في بعض فسقة الأحياء، وينادونهم في الشدة والرخاء، وهو عاكف على القبائح لا يحضر حيث أمر الله عباده المؤمنين بالحضور هناك، ولا يحضر جمعة ولا جماعة، ولا يعود مريضاً ولا يشيع جنازة، ولا يكتسب حلالاً، ويضم إلى ذلك دعوى التوكل وعلم الغيب، ويجلب إليه إبليس جماعة قد عشش في قلوبهم وباض فيها وفرخ، ويصدقون بهتانه، ويعظمون شأنه، ويجعلون هذا نداً لرب العالمين ومثلاً. فيا للعقول أين ذهبت؟ ويا للشرائع كيف جهلت؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

فإن قلت: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلت: نعم قد حصل منهم ما حصل من أولئك وساووهم في ذلك، بل زادوا في الاعتقاد والانقياد والاستعباد، فلا فرق بينهم.

فإن قلت: هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله تعالى، ولا نجعل له نداً، والالتجاء إلى الأولياء ليس شركاً.

قلت: نعم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك؛ فإن تعظيمهم الأولياء ونحرهم النحائر لهم شرك، والله تعالى يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي لا لغيره كما يفيد تقديم الظرف. ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وقد عرفت بما قدمنا قريباً أنه سمى الرياء شركاً فكيف بما ذكرناه؟ فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم هو عين ما فعله المشركون وصاروا به مشركين ولا ينفعهم قولهم: نحن لا نشرك بالله شيئاً لأن فعلهم أكذب قولهم.

فإن قلت: هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه.

قلت: قد خرج الفقهاء في كتب الفقه في باب الردة أن من تكلم بكلمة الكفر كفر، وإن لم يقصد معناها، وهذا دال على أنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام ولا ماهية التوحيد، فصاروا حينئذ كفاراً كفراً أصلياً، فالله تعالى فرض على عباده إفراده بالعبادة ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وإخلاصها ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية، ومن نادى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وخوفاً وطمعاً، ثم نادى معه غيره فقد أشرك في العبادة، فإن الدعاء من العبادة وقد سماها الله تعالى عبادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ بعد قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

(فإن قلت:) فإذا كانوا مشركين وجب جهادهم والسلوك فيهم ما سلك رسول الله ﷺ في المشركين.

(قلت) إلى هذا ذهب طائفة من أئمة العلم فقالوا يجب أولاً دعاؤهم إلى التوحيد وإبانة أن ما يعتقدونه ينفع ويضر - لا يغني عنهم من الله شيئاً،

وأنهم أمثالهم، وأن هذا الاعتقاد منهم فيهم شرك لا يتم الإيمان بما جاءت به الرسل إلاّ بتركه والتوبة منه؛ وإفراد التوحيد اعتقاداً وعملاً لله وحده.

وهذا واجب على العلماء (أي) بيان أن ذلك الاعتقاد الذي تفرعت عن النذور والنحائر والطواف بالقبور شرك محرم، وأنه عين ما كان يفعله المشركون لأصنامهم. فإذا أبانت العلماء (ذلك) للأئمة والملوك وجب على الأئمة والملوك بعث دعاة إلى إخلاص التوحيد؛ فمن رجع وأقر حقن عليه دمه وماله وذراريه؛ ومن أصر فقد أباح الله منه ما أباح لرسوله ﷺ من المشركين.

فصل

(فإن قلت): الاستغاثة قد ثبتت في الأحاديث فإنه قد صح أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى؛ ينتهون إلى محمد ﷺ بعد اعتذار كل واحد من الأنبياء؛ فهذا دليل على أن الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر.

(قلت) هذا تلبيس، فإن الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لا ينكرها أحد، وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وإنما الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم وطلبهم منهم أموراً لا يقدر عليها إلا الله تعالى من عافية المريض وغيرها.

بل أعجب من هذا أن القبوريين وغيرهم من الأحياء ومن أتباع من يعتقدون فيه يجعلون له حصة من الولد إن عاش ويشترون منه الحمل في بطن أمه ليعيش ويأتون بمنكرات ما بلغ إليها المشركون، لقد أخبرني بعض من يتولى قبض ما ينذر القبوريين لبعض أهل القبور أنه جاء إنسان بدراهم وحلية نسائه وقال (هذه لسيدة فلان) يريد صاحب القبر - نصف مهر ابنتي لأني زوجتها وكنت ملكت نصفها فلاناً، يريد صاحب القبر، وهذه النذور

بالأموال وجعل قسط منها للقبر كما يجعلون شيئاً من الزرع يسمونه قلماً في بعض الجهات اليمنية، وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام وهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بلا شك ولا ريب - نعم استغاثة العباد يوم القيامة وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى يفصل بين العباد بالحساب حتى يريحهم من هول الموقف وهذا لا شك في جوازه (أعني) طلب الدعاء لله تعالى من بعض عباده لبعض؛ بل قال ﷺ لعمر رضي الله عنه لما خرج معتمراً: «لا تنسنا يا أخي من دعائك».

وأمرنا سبحانه أن ندعو للمؤمنين ونستغفر لهم: يعني قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، وقد قالت أم سليم رضي الله عنها: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون الدعاء منه ﷺ وهو حي. وهذا أمر متفق على جوازه؛ والكلام في طلب القبوريين من الأموات أو من الأحياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أن يشفوا مرضاهم، ويردوا غائبهم، وينفسوا على حُبلاهم، وأن يسقوا زرعهم، ويُدِرُّوا ضروع مواشيهم، ويحفظوها من العين، ونحو ذلك من المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى - هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فكيف يُطلب من الجماد أو من حي الجمادُ خيرٌ منه لأنه لا تكليف عليه؟.

وهذا يبين ما فعله المشركون الذين حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فهؤلاء القبوريون والمعتقدون في جهال الأحياء وضلالهم سلكوا

مسالك المشركين حذو القذة بالقذة فاعتقدوا فيهم ما لا يجوز أن يعتقد إلا في الله، وجعلوا لهم جزءاً من المال، وقصدوا قبورهم من ديارهم للزيارة وطافوا حول قبورهم، وقاموا خاضعين عند قبورهم، وهتفوا بهم عند الشدائد ونحروا تقرباً إليهم، وهذه هي أنواع العبادات التي عرّفناك، ولا أدري هل فيهم من يسجد لهم؟ لا أستبعد أن فيهم من يفعل ذلك، بل أخبرني من أثق به أنه رأى من يسجد على عتبة باب مشهد الولي الذي يقصده تعظيماً له وعبادة ويقسمون بأسمائهم.

بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبل منه، فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه، وهكذا كانت عبادة الأصنام، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾. وفي الحديث الصحيح: «من حلف فليحلف بالله أو ليصمت»، وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يحلف باللات فأمره أن يقول: لا إله إلا الله، وهذا يدل على أنه ارتد بالحلف بالصنم فأمره أن يجدد إسلامه فإنه قد كفر بذلك كما قررنا في (سبل السلام شرح بلوغ المرام)، وفي (منحة الغفار).

(فإن قلت) لا سواء، لأن هؤلاء قد قالوا: لا إله إلا الله، وقد قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها»، وقال لأسامة بن زيد: «قتلته بعدما قال لا إله إلا الله»؟ وهؤلاء يصلون ويصومون ويزكون ويحجون بخلاف المشركين.

(قلت) قد قال النبي ﷺ: «إلا بحقها»، وحقها إفراد الألوهية والعبودية لله تعالى، والقبوريون لم يفردوا هذه العبادة فلم تنفعهم كلمة الشهادة، فإنها لا تنفع إلا مع التزام معناها، ولم ينفع اليهود قولها لأنكارهم بعض الأنبياء؛ وكذلك من جعل غير من أرسله الله نبياً لم تنفعه كلمة الشهادة، ألا ترى أن بني حنيفة كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن

محمداً رسول الله ويصلون ولكنهم قالوا: أن مسيلمة نبي فقاتلهم الصحابة وسبوهم، فكيف بمن يجعل للولي خاصة الإلهية ويناديه للمهمات.

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حَرّق أصحاب عبد الله بن سبأ وكانوا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولكن غلوا في علي رضي الله عنه واعتقدوا فيه ما يعتقد القبوريون وأشباههم؛ بل عاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحداً من العصاة، فإنه حفر لهم الحفائر، وأجج لهم ناراً وألقاهم فيها وقال:

إني إذا رأيت أمراً منكراً   أججت ناري ودعوت قنبراً

وقال الشاعر في عصره:

لترم بي المنية حيث شاءت   إذا لم ترم بي في الحفرتين
إذا ما أججوا فيهن ناراً   رأيت الموت نقداً غير دين

والقصة في فتح الباري وغيره من كتب الحديث والسير. وقد وقع إجماع الأمة على أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، فكيف من يجعل لله نداً؟

(فإن قلت): قد أنكر ﷺ على أسامة قتله لمن قال لا إله إلا الله، كما هو معروف في كتب الحديث والسيرة.

قلت: لا شك أن من قال: لا إله إلا الله من الكفار حقن دمه وماله حتى يتبين منه ما يخالف ما قاله، ولذا أنزل الله في قصة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ الآية فأمرهم الله تعالى بالتثبت في شأن من قال كلمة التوحيد: فإن التزم لمعناها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم؛ وإن تبين خلافه لم يحقن دمه وماله بمجرد التلفظ.

وهكذا كل من أظهر التوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يخالف ذلك، فإذا تبين لم تنفع هذه الكلمة بمجردها ولذلك لم تنفع اليهود ولا نفعت الخوارج مع ما انضم إليها من العبادة التي يحتقر الصحابة

عبادتهم إلى جنبها، بل أمر ﷺ بقتلهم وقال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد، وذلك لما خالفوا بعض الشريعة وكانوا شر القتلى تحت أديم السماء كما ثبتت به الأحاديث، فثبت أن مجرد كلمة التوحيد غير مانع من ثبوت شرك من قالها لارتكابه ما يخالفها من عبادة غير الله.

(فإن قلت): القبوريون وغيرهم من الذين يعتقدون في فسقة الناس وجهالهم من الأحياء يقولون نحن لا نعبد هؤلاء، ولا نعبد إلا الله وحده، ولا نصلي لهم، ولا نصوم، ولا نحج.

(قلت): هذا جهل بمعنى العبادة فإنها ليست منحصرة فيما ذكرت بل رأسها وأساسها الاعتقاد وقد حصل في قلوبهم ذلك بل يسمونه معتقداً ويصنعون له ما سمعته مما تفرع عن الاعتقاد من دعائهم وندائهم والتوسل بهم والاستغاثة والاستعانة والحلف والنذر وغير ذلك، وقد ذكر العلماء أن من تزيى بزي الكفار صار كافراً، ومن تكلم بكلمة الكفر صار كافراً، فكيف بمن بلغ هذه الرتبة اعتقاداً وقولاً وفعلاً.

(فإن قلت): هذه النذور والنحائر ما حكمها؟

(قلت): قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها يسعون في جمعها ولو بارتكاب كل معصية، ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والأقاصي، فلا يبذل أحد من ماله شيئاً إلا معتقداً لجلب نفع أكثر منه أو دفع ضرر.

فالناذر للقبر ما أخرج من ماله إلا لذلك، وهذا اعتقاد باطل، ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما أخرج درهماً؛ فإن الأموال عزيزة عند أهلها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

فالواجب تعريف من أخرج النذر بأنه إضاعة لماله وأنه لا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضرراً، وقد قال ﷺ: «إن النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل» ويجب رده إليه، وأما القابض للنذر فإنه حرام عليه

قبضه لأنه أكل لمال الناذر بالباطل لا في مقابلة شيء، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ولأنه تقرير للناذر على شركه وقبح اعتقاده ورضاه بذلك؛ ولا يخفى حكم الراضي بالشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية؛ فهو مثل حلوان الكاهن ومهر البغي ولأنه تدليس على الناذر وإيهام له أن الولي ينفعه ويضره.

فأي تقرير لمنكر أعظم من قبض النذر على الميت؟ وأي تدليس أعظم؛ وأي رضاء بالمعصية العظمى أبلغ من هذا؟ وأي تصيير لمنكر معروفاً أعجب من هذا؟ وما كانت النذور للأصنام والأوثان إلا على هذا الأسلوب: يعتقد الناذر جلب النفع في الصنم ودفع الضرر، فينذر له جزوراً من ماله، ويقاسمه في غلات أطيانه، ويأتي به إلى سدنة الأصنام فيقبضونه منه ويوهمونه حقية عقيدته، وكذلك يأتي بنحيرته فينحرها بباب الصنم.

وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسل لإزالتها وإمحائها وإتلافها والنهي عنها.

(فإن قلت): إن الناذر قد يدرك النفع ودفع الضرر بسبب إخراجه للنذر وبذله.

(قلت): كذلك الأصنام قد يدرك منها ما هو أبلغ من هذا وهو الخطاب من جوفها والإخبار ببعض ما يكتمه الإنسان؛ فإن كان هذا دليلاً على حقية القبور وصحة الاعتقاد فيها فليكن دليلاً على حقية الأصنام، وهذا هدم للإسلام وتشييد لأركان الأصنام.

والتحقيق أن لإبليس وجنوده من الجن والإنس أعظم العناية في إضلال العباد، وقد مكن الله إبليس من الدخول في الأبدان والوسوسة في الصدور والتقام القلب بخرطومه؛ فكذلك يدخل أجواف الأصنام، ويلقي الكلام في أسماع الأقوام، ومثله يصنعه في عقائد القبوريين؛ فإن الله تعالى قد أذن له أن يجلب بخيله ورجله على بني آدم وأن يشاركهم في الأموال والأولاد.

وثبت في الأحاديث أن الشيطان يسترق السمع بالأمر الذي يحدثه الله فيلقيه إلى الكهان وهم الذين يخبرون بالمغيبات ويزيدون فيما يلقيه الشيطان من عند أنفسهم مائة كذبة؛ ويقصد شياطين الجن شياطين الإنس من سدنة القبور وغيرهم فيقولون إن الولي فعل وفعل يرغبونهم فيه ويحذرونهم منه؛ وترى العامة ملوك الأقطار وولاة الأمصار معززين لذلك ويولون العمال لقبض النذور. وقد يتولاها من يحسنون فيه الظن من عالم أو قاض أو مفت أو شيخ صوفي فيتم التدليس لإبليس، وتقر عينه بهذا التلبيس.

(فإن قلت): هذا أمر عم البلاد، واجتمعت عليه سكان الأغوار والأنجاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً، ويمناً وشاماً، وجنوباً وعدناً، بحيث لا بلدة من بلاد الإسلام إلا وفيها قبور ومشاهد وأحياء يعتقدون فيها ويعظمونها وينذرون لها ويهتفون بأسمائها ويحلفون بها ويطوفون بفناء القبور ويسرجونها ويلقون عليها الأوراد والرياحين؛ ويلبسونها الثياب ويصنعون كل أمر يقدرون عليه من العبادة لها وما في معناها من التعظيم والخضوع والخشوع والتذلل والافتقار إليها.

بل هذه مساجد المسلمين غالبها لا يخلو عن قبر أو قريب منه أو مشهد يقصده المصلون في أوقات الصلاة يصنعون فيه ما ذكر أو بعض ما ذكر، ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت عليه علماء الإسلام الذين ثبتت لهم الوطأة في جميع جهات الدنيا.

(قلت): إن أردت الإنصاف، وتركت متابعة الأسلاف، وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل، لا ما اتفق عليه العوالم جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل، فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منارها، صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل، ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دني ومثيل.

ينشأ الواحد فيجد أهل قريته وأصحاب بلدته يلقنونه في الطفولية أن

يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون عليه ويعظمونه ويرحلون به إلى محل قبره؛ ويلطخونه بترابه ويجعلونه طائفاً على قبره، فينشأ وقد قرّ في قلبه عظمة ما يعظمونه وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على هذا الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير، بل ترى من يتسم بالعلم ويدعي الفضل وينتصب للقضاء والفتيا والتدريس، أو الولاية أو المعرفة، أو الإمارة والحكومة معظماً لما يعظمونه مكرماً لما يكرمونه، قابضاً للنذور، آكلاً ما ينحر على القبور، فيظن أن هذا دين الإسلام، وأنه رأس الدين والسنام، ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر، ويعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر أن سكوت العالم أو العالم على وقوع منكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر.

ولنضرب لك مثلاً من ذلك وهي هذه المكوس المسماة بالمجابي المعلوم من ضرورة الدين تحريمها قد ملأت الديار والبقاع وصارت أمراً مأنوساً لا يلج إنكارها إلى سمع من الأسماع، وقد امتدت أيدي المكاسين من أشرف البقاع في مكة أم القرى، يقبضون من القاصدين لأداء فريضة الإسلام، ويلقون في البلد الحرام كل فعل حرام، وسكانها من فضلاء الأنام، والعلماء والحكام، ساكتون عن الإنكار، معرضون عن إيراده والإصدار. أفيكون السكوت دليلاً على أخذها وإحرازها؟ هذا لا يقوله من له أدنى إدراك.

بل أضرب لك مثلاً آخر: هذا حرم الله الذي هو أفضل بقاع الدنيا، بالاتفاق وإجماع العلماء، أحدث فيه بعض ملوك الشراكسة الجهلة الضلال هذه المقامات الأربعة التي فرقت لعبادات العباد، واشتملت على ما لا يحصيه إلا الله عز وجل من الفساد، وفرقت عبادات المسلمين، وصيرتهم كالملل المختلفة في الدين، بدعة قرت بها عين إبليس اللعين؛ وصيرت المسلمين ضحكة للشياطين، وقد سكت الناس عليها، ووفد علماء الآفاق والأبدال والأقطاب إليها، وشاهدها كل ذي عينين، وسمع بها كل ذي

أذنين، أفهذا السكوت دليل على جوازها؟ هذا لا يقوله من له إلمام بشيء من المعارف. كذلك سكوتهم على هذه الأشياء الصادرة من القبوريين.

(فإن قلت): يلزم من هذا أن الأمة قد اجتمعت على ضلالة حيث سكتت عن إنكارها لأعظم جهالة.

(قلت): الإجماع حقيقته اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ على أمر بعد عصره، وفقهاء المذاهب الأربعة يحيلون الاجتهاد من بعد الأربعة، وإن كان هذا قولاً باطلاً؛ وكلاماً لا يقوله إلا من كان للحقائق جاهلاً، فعلى زعمهم لا إجماع أبداً من بعد الأئمة الأربعة، فلا يرد السؤال، فإن هذا الابتداع والفتنة بالقبور لم يكن على عهد أئمة المذاهب الأربعة.

وعلى ما نحققه فالإجماع وقوعه محال فإن الأمة المحمدية قد ملأت الآفاق وصارت في كل أرض وتحت كل نجم، فعلماؤها المحققون لا ينحصرون، ولا يتم لأحد معرفة أحوالهم، فمن ادعى الإجماع بعد انتشار الدين وكثرة علماء المسلمين، فإنها دعوى كاذبة كما قاله أئمة التحقيق.

ثم لو فرض أنهم علموا بالمنكر وما أنكروه، بل سكتوا عن إنكاره لما دل سكوتهم على جوازه، فإنه قد علم من قواعد الشريعة أن وظائف الإنكار ثلاثة:

(أولها): الإنكار باليد، وذلك بتغيير المنكر وإزالته.

(ثانيها): الإنكار باللسان مع عدم استطاعة التغيير.

(ثالثها): الإنكار بالقلب عند عدم استطاعة التغيير باليد واللسان؛ فإن انتفى أحدها لم ينتف الآخر.

ومثاله مرور فرد من أفراد علماء الدين بأحد المكاسين وهو يأخذ أموال المظلومين. فهذا الفرد من علماء الدين لا يستطيع التغيير على هذا الذي يأخذ أموال المساكين باليد ولا باللسان، لأنه إنما يكون سخرة لأهل العصيان؛ فانتفى شرط الإنكار بالوظيفتين؛ ولم يبق إلا الإنكار بالقلب الذي

هو أضعف الإيمان، فيجب على من رأى ذلك العالم ساكتاً عن الإنكار، مع مشاهدة ما يأخذه ذلك الجبار، أن يعتقد أنه تعذر عليه الإنكار باليد واللسان، وأنه قد أنكر بقلبه فإن حسن الظن بالمسلمين أهل الدين واجب، والتأويل لهم ما أمكن ضربة لازب، فالداخلون إلى الحرم الشريف والمشاهدون لتلك الأبنية الشيطانية التي فرقت كلمة الدين، وشتتت صلوات المسلمين؛ معذورين عن الإنكار إلا بالقلب كالمارين على المكاسين وعلى القبوريين.

ومن هنا يعلم اختلال ما استمر عند أئمة الاستدلال من قولهم في بعض ما يستدلون عليه أنه وقع ولم ينكر فكان إجماعاً؛ ووجه اختلاله أن قولهم: ولم ينكر، رجم بالغيب؛ فإنه قد يكون أنكرته قلوب كثيرة تعذر عليها الإنكار باليد واللسان، وأنت تشاهد في زمانك أنه كم من أمر يقع لا تنكره بلسانك ولا بيدك وأنت منكر له بقلبك؛ ويقول الجاهل إذا رآك تشاهده سكت فلان عن الإنكار بقوله إلا لائماً أو متأسياً بسكوته، فالسكوت لا يستدل به عارف؛ وكذا يعلم اختلال قولهم في الاستدلال: فعل فلان كذا وسكت الباقون فكان إجماعاً، مختل من جهتين:

(الأولى): دعوى أن سكوت الباقين تقرير لفعل فلان لما عرفت من عدم دلالة السكوت على التقرير.

(الثانية): قولهم فكان إجماعاً، فإن الإجماع اتفاق أمة محمد ﷺ؛ والساكت لا ينسب إليه وفاق ولا خلاف حتى يعرب عن لسانه.

قال بعض الملوك، وقد أثنى الحاضرون على شخص من عماله وفيهم رجل ساكت: ما لك لا تقول كما يقولون؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم؛ فما كل سكوت رضى. فإن هذه منكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وأعراضهم تحت قوله وكلمه، فكيف يقوى فرد من الأفراد، على دفعه عما أراد، فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد؛ وأكبر وسيلة إلى

هدم الإسلام وخراب بنيانه، غالب بل كل من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، أما على قريب لهم على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو لدفع ضر، ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضرر وبفلان النفع، حتى يغرسوا في جبلته كل باطل.

ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من سرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها. وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهي عنه، ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة.

(فإن قلت): هذا قبر رسول الله ﷺ قد عمرت عليه قبة عظيمة أنفقت فيها الأموال.

(قلت) هذا جهل عظيم بحقيقة الحال، فإن هذه القبة ليس بناؤها منه ﷺ ولا من أصحابه ولا من تابعيهم وتابع التابعين، ولا من علماء أمته وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمولة على قبره ﷺ من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين، وهو قلاوون الصالحي، المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في (تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة) فهذه أمور دولية لا دليلية يتبع فيها الآخر الأول.

وهذا آخر ما أردناه مما أوردناه لما عمت البلوى واتبعت الأهواء، وأعرض العلماء عن النكير الذي يجب عليهم، ومالوا إلى ما مالت العامة إليه، وصار المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ولم نجد من الأعيان ناهياً عن ذلك ولا زاجراً.

(فإن قلت): قد يتفق للأحياء وللأموات اتصال جماعة بهم يفعلون

خوارق من الأفعال يتسمون بالمجاذيب، فما حكم ما يأتون من تلك الأمور؟ فإنها مما جلبت القلوب إلى الاعتقاد بها.

(قلت): أما المتسمّون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم، ويقولونها بألسنتهم، ويخرجونها عن لفظها العربي، فهم من أجناد إبليس اللعين، ومن أعظم حمر الكون الذين ألبستهم حلل التلبيس والتزيين، لما أن إطلاق الجلالة مفرداً عن إخبار عنها بقولهم (الله الله) ليس بكلام ولا بتوحيد، وإنما هو تلاعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه العربي، ثم إخلاؤها عن معنى من المعاني، ولو أن رجلاً عظيماً صالحاً يسمى بزيد وصار جماعة يوقولن زيد زيد لعد ذلك استهزاء وإهانة وسخرية، ولا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ.

ثم انظر هل أتى في لفظه من الكتاب والسنة ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ إذ الذي فيهما هو طلب الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل، وهذه أذكار رسول الله ﷺ وأدعيته وأدعية آله وأصحابه خالية من هذا الشهيق والنهيق والنعيق، الذي اعتاده من عن الله وعن هدى رسوله ﷺ وسمته ودله في مكان سحيق، ثم قد يضيفون إلى الجلالة الشريفة أسماء جماعة من الموتى؛ مثل ابن علوان وأحمد بن الحسين وعبد القادر والعيدروس بل قد انتهى الحال إلى أنهم يفرون إلى أهل القبور من الظلم والجراءة كعلي رومان وعلي الأحمر وأشباههما، وقد صان الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ وأهل الكساء وأعيان الصحابة من إدخالهم في أفواه هؤلاء الجهلة الضلال، فيجمعون أنواعاً من الجهل والشرك والكفر.

(فإن قلت): إنه قد يتفق من هؤلاء الذين يلوكون الجلالة ويضيفون إليها أهل الخلاعة والبطالة، خوارق عادات، وأمور تظن كرامات، كطعن أنفسهم، وحملهم لمثل الحنش والحية والعقرب، وأكلهم النار، ومسهم إياها بالأيدي وتقلبهم فيها بالأجسام.

(قلت): هذه أحوال شيطانية وإنك لملبوس عليك إن ظننتها كرامات

لأموات، أو حسنات للأحياء لما هتف هذا الضال بأسمائهم، جعلهم أنداداً وشركاء له في الخلق والأمر، فهؤلاء الموتى أنت تفرض أنهم أولياء الله تعالى، فهل يرضى ولي الله أن يجعله المجذوب أو السالك شريكاً له تعالى ونداً؟

إن زعمت ذلك فقد جئت شيئاً إدّاً، وصيّرت هؤلاء الأموات مشركين، وأخرجتهم ـ وحاشاهم عن ذلك ـ عن دائرة الإسلام والدين حيث جعلتهم بجعلهم أنداداً لله راضين فرحين، وزعمت أن هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضلال المشركين التابعين لكل باطل، المنغمسين بين بحار الرذائل، الذين لا يسجدون لله سجدة، ولا يذكرون الله وحده، فإن زعمت هذا فقد أثبت الكرامات للمشركين الكافرين المجانين، وهدمت بذلك ضوابط الإسلام وقواعد الدين المبين والشرع المتين.

وإذا عرفت بطلان هذين الأمرين علمت أن هذه أحوال وأفعال طاغوتية، وأعمال إبليسية، يفعلها الشياطين لإخوانهم من هؤلاء الضالين، معاونة من الفريقين، وقد ثبت في الأحاديث أن الشياطين والجان يتشكلون بأشكال الحية والثعبان وهذا أمر مقطوع بوقوعه، فهم الثعابين التي يشاهدها في أيدي المجاذيب الإنسان.

وقد يكون ذلك من باب السحر؛ وهو أنواع؛ وتعلمه ليس بالعسير؛ بل بابه لأعظم الكفر بالله وإهانة ما عظمه الله، من جعل مصحف في كنيف ونحوه: فلا يغتر من يشاهد ما يعظم في عينيه من أحوال المجاذيب من الأمور التي يراها خوارق؛ فإن للسحر تأثيراً عظيماً في الأفعال، وهكذا الذين يقلبون الأعيان بالأسحار وغيرها. وقد ملأ سحرة فرعون الوادي بالثعابين والحيات حتى أوجس في نفسه خيفة موسى عليه السلام، وقد وصفه الله بأنه سحر عظيم.

والسحر يفعل أعظم من هذا، فإنه قد ذكر ابن بطوطة وغيره أنه شاهد في بلاد الهند قوماً توقد لهم النار العظيمة فيلبسون الثياب الرقيقة ويخوضون

في تلك النار ويخرجون وثيابهم كأنها لم يمسها شيء؛ بل ذكر أنه رأى إنساناً عند بعض ملوك الهند أتى بولدين معه، ثم قطعهما عضواً عضواً، ثم رمى بكل عضو إلى جهة فرقاً، حتى لم ير أحد شيئاً من تلك الأعضاء ثم صاح وبكى، فلم يشعر الحاضرون إلا وقد نزل كل عضو على انفراده وانضم إلى الآخر، حتى قام كل واحد منها على عادته حياً سوياً.

ذكر هذا في رحلته وهي رحلة بسيطة وقد اختصرت ـ طالعتها بمكة عام ست وثلاثين ومائة وألف؛ وأملاها علينا العلامة مفتي الحنفية في المدينة السيد محمد بن أسعد رحمه الله.

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بسنده أن ساحراً كان عند الوليد بن عقبة، فجعل يدخل في جوف بقرة ويخرج، فرآه جندب رضي الله عنه، فذهب إلى بيته فاشتمل على سيفه، فلما دخل الساحر في البقرة قال جندب: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ثم ضرب وسط البقرة فقطعها وقطع الساحر معها فانذعر الناس، فحبسه الوليد وكتب بذلك إلى عثمان رضي الله عنه وكان على السجن رجل نصراني، فلما رأى جندباً يقوم الليل ويصبح صائماً، قال النصراني: والله إن قوماً هذا شرهم لقوم صدق، فوكل بالسجن رجلاً ودخل الكوفة فسأل عن أفضل أهلها، فقالوا الأشعث بن قيس فاستضافه، فرأى أبا محمد ـ يعني الأشعث ـ ينام الليل ويصبح فيدعو بغذائه، فخرج من عنده وسأل أي أهل الكوفة أفضل؟ فقالوا جرير بن عبد الله، فوجده ينام الليل ثم يصبح فيدعو بغذائه، فاستقبل القبلة فقال: ربي رب جندب وديني دين جندب وأسلم.

وأخرجها البيهقي في السنن الكبرى بمغايرة في القصة، فذكر بسنده إلى الأسود أن الوليد بن عقبة كان بالعراق يلعب بين يديه ساحر، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيقوم صارخاً فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله، يحيي الموتى، ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط

الرجل سيفه فضرب وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، فأمر به الوليد ديناراً صاحب السجن فسجنه. انتهى.

بل أعجب من هذا ما أخرجه الحافظ البيهقي بإسناده في قصة طويلة، وفيها:

أن امرأة تعلمت السحر من الملكين ببابل هاروت وماروت وأنها أخذت قمحاً فقالت له بعد أن ألقته في الأرض: اطلع فطلع، فقالت: احقل فحقل، ثم تركته، ثم قالت: أيبس فيبس، ثم قالت له: أطحن فأطحن، ثم قالت له: أختبز فاختبز. وكانت لا تريد شيئاً إلا كان.

والأحوال الشيطانية لا تنحصر، وكفى بما يأتي به الدجال. والميعاد اتباع الكتاب والسنة وعدم مخالفتهما. انتهى ما أوردناه والحمد لله أولاً وأخيراً.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ترجمة وجيزة

لمؤلف هذه الرسالة من كتاب البدر الطالع للإمام الشوكاني

هو السيد محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير الكحلاني ثم الصنعاني الإمام الكبير المجتهد المطلق.

ولد في سنة ١٠٥٩هـ في كحلان ثم انتقل مع والده إلى مدينة صنعاء وأخذ عن علمائها، ورحل إلى مكة وقرأ الحديث على أكابر علمائها وعلماء المدينة، وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران وتفرد برياسة العلم في صنعاء، وتظهر بالاجتهاد وعمل بالأدلة ونفر عن التقليد وزيف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية، وجرت له مع علماء عصره خطوب ومحن، وحفظه الله من كيدهم ومكرهم وكفاه شرهم.

وولاه الإمام المنصور الخطابة بجامع صنعاء، واستمر ناشراً العلم، تدريساً وإفتاءً وتصنيفاً، وقد كثر أتباعه من الخاصة والعامة وعملوا باجتهاده وتظهروا بذلك وقرأوا عليه كتب الحديث وذكر أن له مصنفات حافلة جليلة، منها سبل السلام، شرح بلوغ المرام للحافظ ابن حجر، وشعراً منسجماً غالبه في المباحث العلمية والتوجع من أبناء عصره والردود عليهم.

توفي في ٣ شعبان سنة ١١٨٣هـ، ورثاه شعراء العصر. رحمه الله ونفعنا بعلومه.

الرسالة السادسة

حكم تكفير المعين
والفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة

تأليف الشيخ العلامة

إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله المعين والصلاة والسلام على النبي الأمين وعلى آله وأصحابه والتابعين وبعد:

فإن قضية التكفير والتضليل والتبديع قضية لها جذورها في تاريخ الطوائف الإسلامية، وكانت سمة ظاهرة وعلامة بارزة للخوارج ومن نحا نحوهم، ثم جعلت سبة فامتطى الكثير ذراها وتمسكوا بشعفها وتوسلوا بها للنيل ممن حقق التوحيد والمتابعة ليخلصوا من ذلك إلى توسيع دائرة الإسلام ولو جيء بالمكفرات الظاهرة، وكانت حركة التجديد والإصلاح في القرن الثاني عشر قد اظفت على هذه القضية جلبات الستر بإحسان الظن بالمسلمين وحملهم على ما انطوت عليه ضمائرهم وتجلى في ظاهر أعمالهم، وفرع القضية العامة، قضية تكفير المعين وهل يلزم من ذلك قيام الحجة أم لا بد من فهم الحجة.

ناقش الموضوع وأبدى فيه وأعاد العلامة المحدث الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ المتوفى سنة ١٣١٩هـ، وقد أعرب عن مشربه وأوضح عن معتقد سلفه بإيراد الشواهد والأدلة الشرعية المطابقة للمصالح المرعية، فلعل القارئ الكريم يجد بغيته في طيات هذه الرسالة الموجزة.

والمؤلف لها ممن عاش في الأمصار وجاب الديار ورأى مظاهر الكفر والابتداع لدى الدهماء المنتسبين للإسلام، وبما أن الرسالة موضوعها لا يزال حديث الساعة أحببنا نشرها مساهمة في التبصير، ومما نأسف له أننا لم نجد سوى نسخة واحدة بقلم عبد العزيز فوزان حررها في عصر المؤلف سنة ١٣١٢هـ، وذكر أنه نقلها من قلمه.

وبقدر الإمكان جرى تصحيح بعض الأخطاء الإملائية ونزر يسير من الألفاظ النحوية، أرجو الله المثوبة وحسن الجزاء والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد.

إسماعيل بن سعد بن عتيق، الرياض ١٩/١١/١٤٠٨هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله الأحد الصمد، الذي لا يستغاث في الشدائد ولا يدعى إلاَّ إياه، فمن عبد غيره فهو المشرك الكفور، بنص القرآن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخليله صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين، الذي قامت به الحجة على العالمين، فلا نبي بعده ولا رسول أما بعد:

فقد بلغنا وسمعنا من فريق ممن يدعي العلم والدين وممن هو بزعمه مؤتم بالشيخ محمد بن عبد الوهاب إن من أشرك بالله وعبد الأوثان لا يطلق عليه الكفر والشرك بعينه وذلك أن بعض من شافهني منهم بذلك سمع من بعض الإخوان أنه أطلق الشرك والكفر على رجل دعا النبي ﷺ واستغاث به فقال له الرجل لا تطلق عليه الكفر حتى تعرفه وكان هذا وأجناسه لا يعبأون بمخالطة المشركين في الأسفار وفي ديارهم بل يطلبون العلم على من هو أكفر الناس من علماء المشركين، وكانوا قد لفقوا لهم شبهات على دعواهم يأتي بعضها في أثناء الرسالة - إن شاء الله تعالى - وقد غروا بها بعض الرعاع من أتباعهم ومن لا معرفة عنده ومن لا يعرف حالهم ولا فرق عنده ولا فهم متحيزون عن الإخوان بأجسامهم وعن المشايخ بقلوبهم ومداهنون لهم، وقد استوحشوا واستوحش منهم بما أظهروه من الشبه وبما ظهر عليهم من الكآبة بمخالطة الفسقة والمشركين، وعند التحقيق لا يكفرون المشرك إلا بالعموم وفيما بينهم يتورعون عن ذلك، ثم دبت بدعتهم وشبهتهم حتى راجت على من هو من خواص الأخوان وذلك والله

أعلم بسبب ترك كتب الأصول وعدم الاعتناء بها وعدم الخوف من الزيغ.

رغبوا عن رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ قدس الله روحه ـ ورسائل بنيه فإنها كفيلة بتبيين جميع هذه الشبه جداً كما سيمر ومن له أدنى معرفة إذا رأى حال الناس اليوم ونظر إلى اعتقاد المشايخ المذكورين تحير جداً ولا حول ولا قوة إلا بالله وذلك أن بعض من أشرنا إليه بحثته عن هذه المسألة فقال نقول لأهل هذه القباب الذين يعبدونها ومن فيها فعلك هذا شرك وليس هو بمشرك، فانظر ترى واحمد ربك واسأله العافية، فإن هذا الجواب من بعض أجوبة العراقي[1] التي يرد عليها الشيخ عبد اللطيف وذكر الذي حدثني عن هذا أنه سأله بعض الطلبة عن ذلك وعن مستدلهم فقال نكفر النوع ولا نعين الشخص إلا بعد التعريف، ومستندنا ما رأيناه في بعض رسائل الشيخ محمد ـ قدس الله روحه ـ على أنه امتنع من تكفير من عبد قبة الكلواز وعبد القادر من الجهال لعدم من ينبه، فانظر ترى العجب ثم اسأل الله العافية وأن يعافيك من الحور بعد الكور، وما أشبههم بالحكاية المشهورة عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ أنه ذات يوم يقرر على أصل الدين ويبين ما فيه ورجل من جلسائه لا يسأل ولا يتعجب ولا يبحث حتى جاء بعض الكلمات التي فيها ما فيها فقال الرجل ما هذه كيف ذلك؟ فقال الشيخ: قاتلك الله ذهب حديثنا منذ اليوم لم تفهم ولم تسأل عنه فلما جاءت هذه السقطة عرفتها، أنت مثل الذباب لا يقع إلا على القذر أو كما قال.

ونحن نقول الحمد لله وله الثناء ونسأله المعونة والسداد ولا نقول إلا كما قال مشايخنا، الشيخ محمد في إفادة المستفيد وحفيده في رده على العراقي وكذلك هو قول أئمة الدين قبلهم ومما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن المرجع في مسائل أصول الدين إلى الكتاب والسنة وإجماع

---

(١) هو داود بن جرجيس رد عليه الشيخ عبد اللطيف في كتابه منهاج التأسيس والتقديس.

الأمة المعتبر وهو ما كان عليه الصحابة وليس المرجع إلى عالم بعينه في ذلك فمن تقرر عنده هذا الأصل تقريراً لا يدفعه شبهة وأخذ بشراشير قلبه هان عليه ما قد يراه من الكلام المشتبه في بعض مصنفات أئمته إذ لا معصوم إلا النبي ﷺ.

ومسألتنا هذه وهي عبادة الله وحده لا شريك له والبراءة من عبادة ما سواه، وأن من عبد مع الله غيره فقد أشرك الشرك الأكبر الذي ينقل عن الملة هي أصل الأصول وبها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وقامت على الناس الحجة بالرسول وبالقرآن وهكذا تجد الجواب من أئمة الدين في ذلك الأصل عند تكفير من أشرك بالله فإنه يستتاب فإن تاب وإلاً قتل لا يذكرون التعريف في مسائل الأصول إنما يذكرون التعريف في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض المسلمين كمسائل نازع بها بعض أهل البدع كالقدرية والمرجئة أو في مسألة خفية كالصرف والعطف وكيف يعرفون عباد القبور وهم ليسوا بمسلمين ولا يدخلون في مسمى الإسلام وهل يبقى مع الشرك عمل والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ إلى غيره ذلك من الآيات، ولكن هذا المعتقد يلزم منه معتقد قبيح وهو أن الحجة لم تقم على هذه الأمة بالرسول والقرآن نعوذ بالله من سوء الفهم الذي أوجب لهم نسيان الكتاب والرسول بل أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة والقرآن وماتوا على الجاهلية لا يسمون مسلمين بالإجماع ولا يستغفر لهم وإنما اختلف أهل العلم في تعذيبهم في الآخرة، وهذه الشبهة التي ذكرنا قد وقع مثلها أو دونها لأناس في زمن الشيخ محمد رحمه الله ولكن من وقعت له يراها شبهة ويطلب كشفها، وأما من ذكرنا فإنهم يجعلونها أصلاً ويحكمون على عامة المشركين بالتعريف ويجهلون من خالفهم فلا يوفقون للصواب لأن لهم في ذلك هوى وهو مخالطة المشركين، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، الله أكبر ما أكثر

المنحرفين وهم لا يشعرون. ونحن ذكرنا هذه المقدمة لتكون أدعى لفهم ما سيأتي من الحجج على هذه المسألة.

رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذه المسألة:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه في الرسالة التي كتب إلى أحمد بن عبد الكريم صاحب الأحساء أحد الصلحاء أولاً وقبل أن يفتتن، فنذكر منها شيئاً لمشابهة من رددنا عليه كصاحب الرسالة وهذا نصها: «من محمد بن عبد الوهاب إلى أحمد بن عبد الكريم سلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد وصل مكتوبك تقرر المسألة التي ذكرت وتذكر أن عليك إشكال تطلب إزالته ثم ورد منك رسالة تذكر أنك عثرت على كلام شيخ الإسلام أزال عنك الإشكال فنسأل الله أن يهديك لدين الإسلام وعلى أي شيء يدل كلامه؟ على أن من عبد الأوثان عبادة اللات والعزى وسب دين الرسول بعد ما شهد به مثل سب أبي جهل أنه لا يكفر بعينه؟ بل العبارة صريحة واضحة في تكفير مثل ابن فيروز وصالح بن عبد الله وأمثالهما كفراً ظاهراً ينقل عن الملة فضلاً عن غيرهما، هذا صريح واضح في كلام ابن القيم وفي كلام الشيخ الذي ذكرت أنه أزال عنك الإشكال في كفر من عبد الوثن الذي على قبر يوسف وأمثاله ودعاهم في الشدائد والرخاء وسب دين الرسول بعدما أقر وشهد به ودان بعبادة الأوثان بعدما أقر بها وليس في كلامي هذا مجازفة بل أنت تشهد به عليهم ولكن إذا أعمى الله القلب فلا حيلة فيه وإنما أخاف عليك من قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

والشبهة التي دخلت عليك من أجل هذه البضيعة التي في يدك تخاف أن تضيع أنت وعيالك إذا تركت بلد المشركين وشاك في رزق الله، وأيضاً قرناء السوء وأنت والعياذ بالله تنزل درجة أول مرة في الشك وبلد الشرك وموالاتهم والصلاة خلفهم. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

فتأمل قوله في تكفير هؤلاء العلماء وفي كفر من عبد الوثن الذي

على قبر يوسف وأنه صريح في كلام ابن القيم رحمه الله وفي حكايته عن صاحب الرسالة وحكم عليه بآية المنافقين وأن هذا حكم عام وكذلك تأمل اليوم حال كثير ممن ينتسب إلى الدين والعلم من أهل نجد يذهب إلى بلاد المشركين ويقيم عندهم مدة يطلب العلم منهم ويجالسهم، ثم إذا قدم على المسلمين وقيل له اتق الله وتب إلى ربك من ذلك استهزأ بمن يقول له ذلك ويقول أتوب في طلب العلم؟ ثم يظهر من أفعاله وأقواله ما ينبئ عن سوء معتقده وزيفه ولا عجب من ذلك لأنه عصى الله ورسوله بمخالطة المشركين فعوقب، ولكن العجب من أهل الدين والتوحيد لانبساطهم مع هذا الجنس الذين أرادوا أن يقرنوا بين المشركين والموحدين وقد فرق الله بينهم في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ.

ثم قال الشيخ رحمه الله تعالى في تلك الرسالة بعدما ذكر كثرة من ارتد عن الإسلام بعد النبي ﷺ كالذين في زمن أبي بكر رضي الله عنه حكموا عليهم بالردة بمنع الزكاة وكأصحاب علي وأهل المسجد الذين بالكوفة وبنو عبيد القداح كل هؤلاء حكموا عليهم بالردة بأعيانهم، ثم قال: وأما عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية التي لبسوا بها عليك فهي أغلظ من هذا كله ولو نقول بها لكفرنا كثيراً من المشاهير بأعيانهم، فإنه صرح فيها بأن المعين لا يكفر إلا إذا قامت عليه الحجة فإذا كان المعين يكفر إذا قامت عليه الحجة فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه أن يفهم كلام الله ورسوله مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه بل إذا بلغه كلام الله ورسوله وخلا عن ما يعذر به فهو كافر كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، وقوله: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وإذا كان كلام الشيخ ليس في الردة والشرك بل في المسائل الجزئيات.

ثم قال: يوضح ذلك أن المنافقين إذا أظهروا نفاقهم صاروا مرتدين، فأين نسبتك أنه لا يكفر أحداً بعينه، وقال أيضاً في كلامه على المتكلمين

ومن شاكلهم لما ذكر من أئمتهم شيئاً من أنواع الردة والكفر.

قال رحمه الله تعالى: وهذا إذا كان في المقالات الخفية فقد يقال إنه مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها، لكن يقع في طوائف منهم في هذه الأمور الظاهرة التي يعلم المشركون واليهود والنصارى أن محمداً ﷺ بعث بها وكفر من خالفها، مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له ونهيه عن عبادة أحد سواه من النبيين والملائكة وغيرهم، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام، ثم تجد كثيراً من رؤساءهم وقعوا في هذه الأنواع فكانوا مرتدين وكثير تارة يرتد عن الإسلام ردة صريحة إلى أن قال وأبلغ من ذلك أن منهم من صنف في الردة كما صنف الرازي في عبادة الكواكب، وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين، هذا لفظه بحروفه فتأمل كلامه في التفرقة بين المقالات الخفية وبين ما نحن فيه في كفر المعين وتأمل تكفيره رؤسائهم فلاناً وفلاناً بأعيانهم وردتهم ردة صريحة، وتأمل تصريحه بحكاية الإجماع على ردة الفخر الرازي عن الإسلام مع كونه من أكابر أئمة الشافعية، هل يناسب هذا من كلامه أن المعين لا يكفر ولو دعا عبد القادر في الرخاء والشدة ولو أحب عبد الله بن عوف وزعم أن دينه حسن مع عبادته لأبي حديدة؟

وقال شيخ الإسلام أيضاً: بل كل شرك في العالم إنما حدث عن رأي بني جنسهم، فهم الآمرون بالشرك الفاعلون له ومن لم يأمر منهم بالشرك فلم ينه عنه بل يقر هؤلاء وهؤلاء وإن رجح الموحدين ترجيحاً ما فقد رجح غيره من المشركين وقد يعرض عن الأمرين جميعاً، فتدبر هذا فإنه نافع جداً وكذلك الذين كانوا في ملة الإسلام لا ينهون عن الشرك ويوجبون التوحيد بل يسوغون الشرك ويأمرون به وهم إذا ادعوا التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالفعل. انتهى كلامه رحمه الله.

فتأمل كلامه واعرضه على ما غرك به الشيطان من الفهم الفاسد الذي كذبت به الله ورسوله وإجماع الأمة وتحيزت به إلى عبادة الطاغوت، فإن

فهمت هذا وإلا أشير عليك أنك تكثر من التضرع والدعاء إلى من الهداية بيده فإن الخطر عظيم فإن الخلود في النار جزاء الردة الصريحة ما يساوي بضيعة تربح تومان أن نصف تومان وعندنا أناس يجون بعيالهم ولا شحذوا وقد قال الله في هذه المسألة: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ انتهى كلام الشيخ من الرسالة المذكورة بحروفه مع بعض الاختصار فراجعها من التاريخ فإنها نافعة جداً.

والمقصود أن الحجة قامت بالرسول والقرآن فكل من سمع بالرسول وبلغة القرآن فقد قامت عليه الحجة وهذا ظاهر في كلام شيخ الإسلام عند قوله فمن المعلوم أن قيامها ليس أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر الصديق بل إذا بلغه كلام الله ورسوله وخلى عن شيء يعذر به فهو كافر كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ فتأمل كلامه وأحضر فكرك واسأل الله الهداية.

وهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن الحجة قامت بالقرآن على كل من بلغه وسمعه ولو لم يفهمه وهذا ولله الحمد يؤمن به كل مسلم سمع القرآن، ولكن الشياطين اجتالت أكثر الناس عن فطرة الله التي فطر عباده عليها ثم تأمل كلام شيخ الإسلام في حكمه عليهم بالكفر وهل قال لا يكفرون حتى يعرفوا أو لا يسمون مشركين؟ بل فعلهم شرك كما قال من أشرنا إليه.

ثم تأمل حكاية الشيخ عن شيخ الإسلام في كلامه على المتكلمين ومن شاكلهم، وهذا إذا كان في المقالات الخفية فقد يقال أنه مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها حتى يعرف، لكن يكون ذلك في الأمور الظاهرة، إلى أن قال أن اليهود والنصارى والمشركين يعلمون أن محمداً بعث بها وكفر من خالفها مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له

ونهيه عن عبادة أحد سواه من النبيين والملائكة، ثم تجد كثيراً من رؤسائهم وقعوا في هذه الأنواع فكانوا مرتدين، إلى أن قال الشيخ فتأمل كلامه في التفرقة بين المقالات الخفية وبين ما نحن فيه في كفر المعين وتأمل تكفيره رؤسائهم فقف وتأمل كما قال الشيخ وهذا القدر كاف في رد هذه الشبهة وقد جعلها شيخ الإسلام قدس الله روحه من الأمور الظاهرة حتى اليهود والنصارى يعلمون ذلك من دين الإسلام ومن وصفنا لك عمي عن ذلك ولعله يقرأها ويقررها ولكن حيل بينه وبين تنزيلها على الواقع من الناس وهذا له أسباب منها عدم الخوف على النفس من الزيغ والانقلاب وقد خاف السلف من ذلك، وقد يكون للإنسان هوى يمنعه عن معرفة الحق واستخراجه من النصوص كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في بعض رسائله التي ذكر صاحب التاريخ أنه قال ومن ذلك أن تقرر المسألة في أصل الدين سُنةٌ كاملةٌ على بعض الطلبة فيعرفها ويتصورها ثم إذا وقعت لا يفهمها، قف وتأمل.

ومن ذلك أنه ذكر أن بعض علماء الوشم قرر التوحيد في بعض مراسلته للشيخ محمد وسأله هل أصاب أم لا، فقال له: تقريرك التوحيد حق وقد أصبت لكن الشأن في العمل بعد المعرفة، فإنك لما قدم بلدكم بعض رسائل أعداء الدين في سب الدين وأهله مشيت معهم ولم تنابذهم ولم تفارقهم أو كما قال فتأمل ذلك فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة، تأمل كلام الشيخ رحمه الله في تنزيله على صاحب الرسالة أن المنافقين وإن تحيزوا إلى عبادة الطاغوت ثم حكم عليه بالردة. ومن أعظم ما حكى عنه الشيخ أنه توقف في تكفير المعين وأن الذي منعه من الهجرة بأهله ما في يده من البضائع وخوف الفقر، ثم انظر حال من ذكرنا ومن شاكلهم في رحلتهم للمشركين وقراءتهم عليهم وطلب العلم بزعمهم منهم هذا أقروا به وهو مما علم منهم وإلاّ فهم يُتّهمون بموالاتهم والركون إليهم.

ومن المصائب أنه إذا قدم هذا الجنس على المسلمين عاملوهم بمثل

معاملتهم قبل الذهاب للمشركين من الإكرام والتحية، وقد يظهر منهم حكاية وثناء على بلاد المشركين واستهجان المسلمين وبلادهم مما يعلم أنه لا يظهر إلا من سوء طوية ويبقون على ذلك دائماً، وقليل من يستنكر ذلك منهم. وأما كون أحد يخاف عليهم الردة والزيغ بسبب أفعالهم فلا أظن ذلك ببال أحد، فكأن هذه الأحكام الشرعية التي يحكم بها على من صدر منه ما ينافيها.

حكم من جحد ما جاء به الرسول ﷺ وقامت عليه الحجة:

كما ذكر الشيخ رحمه الله وشيخ الإسلام رحمه الله قبله في أناس كانوا فبانوا كما ذكر داعية أولئك المشاهير الذين تقدم ذكرهم، فانظر حالك وتفكر فيما تعتقده فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فلا عجب ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ومن الدليل على مسألتنا ما كتب الشيخ رحمه الله تعالى إلى عيسى بن قاسم وأحمد بن سويلم لما سألاه عن قول شيخ الإسلام تقي الدين قدس الله روحه من جحد ما جاء به الرسول وقامت عليه الحجة فهو كافر، فأجاب بقوله إلى الأخوين عيسى بن قاسم وأحمد بن سويلم:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: ما ذكرتموه من كلام الشيخ كل من جحد كذا وكذا وأنكم تسألون عن هؤلاء الطواغيت وأتباعهم هل قامت عليهم الحجة أم لا، فهذا من العجب العجاب، كيف تشكون في هذا وقد وضحت لكم مراراً أن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام أو الذي نشأ ببادية بعيدة أو يكون ذلك في مسائل خفية مثل الصرف والعطف فلا يكفر حتى يعرف، وأما أصول الدين التي وضحها الله في كتابه فإن حجة الله هي القرآن، فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة فإن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وقيام الحجة وبلوغها نوع وفهمهم إياها نوع آخر، فتأمل كلام الشيخ ونسأل الله أن يرزقك الفهم الصحيح وأن يعافيك من التعصب. وتأمل كلام الشيخ رحمه الله أن كل من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة وإن لم يفهم ذلك وجعله هذا هو السبب في غلط من غلط وأن جعل التعريف في المسائل الخفية. ومن حكينا عنه جعل التعريف في أصل الدين وهل بعد القرآن والرسول تعريف؟ ثم يقول هذا اعتقادنا نحن ومشايخنا نعوذ بالله من الحور بعد الكور. وهذه المسألة كثيرة جداً في مصنفات الشيخ رحمه الله لأن علماء زمانه من المشركين ينازعون في تكفير المعين، فهذا شرح حديث عمرو بن عبسة من أوله إلى آخره كله في تكفير المعين حتى أنه نقل فيه عن شيخ الإسلام ابن يتمية رحمه الله أن من دعا عليّاً فقد كفر ومن لم يكفره فقد كفر، وتدبر ماذا أودعه من الدلائل الشرعية التي إذا تدبرها العاقل المنصف فضلاً عن المؤمن عرف أن المسألة وفاقية ولا تشكل إلا على مدخول عليه في اعتقاده.

وقد ذكر الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى في شرح التوحيد في مواضع منه أن من تكلم بكلمة التوحيد وصلى وزكى ولكن خالف ذلك بأفعاله وأقواله من دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والذبح لهم أنه شبيه باليهود والنصارى في تكلمهم بكلمة التوحيد ومخالفتهم، فعلى هذا يلزم من قال بالتعريف للمشركين أن يقول بالتعريف باليهود والنصارى في تكلمهم بكلمة التوحيد ومخالفتها، فعلى هذا يلزم من قال بالتعريف للمشركين أن يقول بالتعريف باليهود والنصارى ولا يكفرهم إلا بعد التعريف، وهذا ظاهر بالاعتبار جداً.

وأما كلام الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى على هذه المسألة فكثير جداً، فنذكر من ذلك شيئاً يسيراً لأن المسألة وفاقية والمقام مقام اختصار، فلنذكر من كلامه ما ينبهك على الشبه التي استدل بها من ذكرنا في الذي يعبد قبة الكواز وأن الشيخ توقف في تكفيره، ونذكر

أولاً مساق الجواب وما الذي سيق لأجله وهو أن الشيخ محمد رحمه الله ومن حكى عنه هذه القصة يذكرون ذلك معذرة له عن ما يدعيه خصومه عليه من تكفير المسلمين وإلاّ فهي نفسها دعوى لا تصلح أن تكون حجة بل تحتاج لدليل وشاهد من القرآن والسنة، ومن فتح الله بصيرته وعوفي من التعصب وكان ممن اعتنى بين هذه المسألة بياناً شافياً وجزم بكفر المعين في جميع مصنفاته ولا يتوقف في شيء منها، ولنرجع إلى مساق الجواب الذي أشرنا إليه.

قال الشيخ عبد اللطيف رحمه الله على قول العراقي قد كفرتم الحرمين وأهلها فذكر كلامه وأجاب عنه إلى أن قال: قال العراقي: ومن المعلوم أن المنع من تكفير المسلمين الذين تكلموا في هذا الباب وإن أخطأوا من أحق الأغراض الشرعية وهو إذ اجتهد فله أجران إن أصاب، وإن أخطأ فله أجر واحد انتهى كلام العراقي.

والجواب أن يقال: هذا الكلام من جنس تحريفه الذي قررناه في هذا تحريفين أحدهما أنه أسقط السؤال وفرضه في التكفير في المسائل التي وقع فيها نزاع وخلاف بين أهل السنة والجماعة والخوارج والروافض، فإنهم كفروا المسلمين وأهل السنة بمخالفتهم فيما ابتدعوه وأصلوه ووضعوه وانتحلوا ما سقط هذا خوفاً من أن يقال دعاء أهل القبور وسؤالهم والاستغاثة بهم ليست من هذا الباب ولم يتنازع فيها المسلمون بل هي مجمع على أنها من الشرك المكفر كما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية وجعلها مما لا خلاف في التكفير بها فلا يصح حمل كلامه هنا على ما جزم هو بأنه كفر مجمع عليه، ولو صح حمل هذا العراقي لكان قوله قولاً مختلفاً وقد نزهه الله وصانه عن هذا، فكلامه متفق يشهد بعضه لبعض. إذا عرفت هذا عرفت تحريف العراقي في إسقاطه بعض الكلام وحذفه، وأيضاً فالحذف لأصل الكلام يخرجه عن وجهه وإرادة المقصود.

التحريف الثاني: أن الشيخ رحمه الله قال: أصل التكفير للمسلمين،

وعبارات الشيخ أخرجت عُبّاد القبور من مسمى المسلمين كما سننقل من كلامه في الحكم عليهم بأنهم لا يدخلون في المسلمين في مثل هذا الكلام، فذكر كلاماً فيما أخطأ من المسلمين في بعض الفروع إلى أن قال: فمن اعتقد في بشر أنه إله أو دعا ميت وطلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه وسجد له فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه انتهى.

فبطل استدلال العراقي وانهدم من أصله، كيف يجعل النهي عن تكفير المسلمين متناولاً لمن يدعو الصالحين ويستغيث بهم مع الله ويصرف لهم من العبادات ما لا يستحقه إلا الله، وهذا باطل بنصوص الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة.

ومن عجيب جهل العراقي أنه يحتج على خصمه بنفس الدعوى والدعوى لا تصلح دليلاً، فإن دعوى العراقي لإسلام عُبّاد القبور تحتاج دليلاً قاطعاً على إسلامهم فإذا ثبت إسلامهم منع من تكفيرهم والتفريع ليس مشكلاً ومعلوم أن من كفر المسلمين لهواه كالخوارج والرافضة أو كفر من أخطأ في المسائل الاجتهادية أصولاً وفروعاً فهذا ونحوه مبتدع ضال مخالف لما عليه أئمة الهدى ومشايخ الدين ومثل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لا يكفر أحداً بهذا الجنس ولا من هذا النوع وإنما يكفر من نطق بتكفيره الكتاب العزيز وجاءت به السنة الصحيحة وأجمعت على تكفيره الأمة، كمن بدل دينه وفعل فعل الجاهلية الذين يعبدون الأنبياء والملائكة والصالحين ويدعونهم، فإن الله كفرهم وأباح دمائهم وأموالهم وذراريهم بعبادة غيره نبياً أو ولياً أو صنماً، لا فرق في الكفر بينهم كما دل عليه الكتاب العزيز والسنة المستفيضة، وبسط هذا يأتيك مفصلاً وقد مر بعضه.

وقال: وقد سئل عن مثل هؤلاء الجهّال فقرر أن من قامت عليه الحجة وتأهل لمعرفتها يكفر بعبادة القبور، وأما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه فلا أدري ما حاله، وقد سبق من كلامه ما فيه كفاية مع أن العلامة ابن القيم رحمه الله جزم بكفر المقلدين لمشايخهم في المسائل المكفرة إذا

تمكنوا من طلب الحق ومعرفته وتأهلوا لذلك وأعرضوا ولم يلتفتوا، ومن لم يتمكن ولم يتأهل لمعرفة ما جاءت به الرسل فهو عنده من جنس أهل الفترة ممن لم تبلغه دعوة لرسول من الرسل وكلا النوعين لا يحكم بإسلامهم ولا يدخلون في مسمى المسلمين حتى عند من لم يكفر بعضهم وسيأتيك كلامه.

وأما الشرك فهو يصدق عليهم واسمه يتناولهم، وأي إسلام يبقى مع مناقضة أصله وقاعدته الكبرى شهادة أن لا إله إلا الله، وبقاء الإسلام ومسماه مع بعض ما ذكره الفقهاء في باب حكم المرتد أظهر من بقائه مع عبادة الصالحين ودعائهم، ولكن العراقي يفر من أن يسمى ذلك عبادة ودعاء، ويزعم أنه توسل ونداء، ويراه مستحباً وهيهات أين المفر والإله الطالب، حيل بين العير والنزوات بما منّ الله من كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبما جاء به محمد عبده ورسوله من الحكمة والهدى والبيان لحدود ما أنزل الله عليه ولا يزال الله سبحانه وتعالى يغرس لهذا الدين غرساً تقوم به حجته على عبادة ويجاهدون في بيان دينه وشرعه من ألحد في كتابه ودينه وصرفه عن موضوعه إلى آخر ما ذكر.

فتأمل قوله رحمه الله دعاء القبور وسؤالهم والاستغاثة بهم ليست من هذا الباب ولم يتنازع فيها المسلمون بل هي مجمع على أنها من الشرك المكفر كما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه وجعله مما لا خلاف بالتكفير به ولا يصح حمل كلامه هنا على ما جزم هو بأنه كفر. قلت: ويدل عليه كلامه المتقدم أن من ادعا دعا عليّ فقد كفر.

ثم قال: التحريف الثاني الذي قال في أصل التكفير للمسلمين وعبارات الشيخ أخرجت عباد القبور من مسمى المسلمين فتأمل كلامه الأول والثاني أن هذا شيء مجمع عليه وأن عباد القبور ليسوا بمسلمين ولا يدخلون في مسمى الإسلام وأن هذا هو عين كلام الشيخ شيخ الإسلام ابن

تيمية، إلى أن قال يستتاب فإن تاب وإلاّ قتل بضرب عنقه ولم يقل يعرّف، ولا قال ما يكفر حتى يعرف كما ظن ذلك من لا علم عنده ومن هو مدخول عليه في أصل دينه.

ثم تأمل كلامه في رده على العراقي بقوله: فبطل استدلال العراقي وانهدام من أصله كيف يجعل النهي عن تكفير المسلمين متناولاً لمن يدعو الصالحين ويستغيث بهم، قال وهذا باطل بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة، إلى أن قال: وإنما يكفر الشيخ محمد من نطق الكتاب والسنة بتكفيره واجتمعت الأمة عليه، كمن بدل دينه وفعل فعل الجاهلية الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين ويدعونهم، فإن الله كفرهم وأباح دمائهم وأموالهم وذراريهم بعبادة غيره، نبياً أو ولياً أو صنماً لا فرق في الكفر بينهم كما دل عليه الكتاب العزيز انتهى كلامه.

قلت: وهذا من أعظم ما يبين الجواب عن قوله في الجاهل العابد لقبة الكواز لأنه لم يستثن في ذلك لا جاهلاً ولا غيره وهذه طريقة القرآن تكفير من أشرك مطلقاً، وتوقفه رحمه الله في بعض الأجوبة يُحمل على أنه لأمر من الأمور، وأيضاً فإنه كما ترى توقف مرة كما في قوله: وأما من أخلد إلى الأرض فلا أدري ما حاله؟

فيا لله العجب كيف يترك قول الشيخ في جميع المواضع مع دليل الكتاب والسنة وأقوال شيخ الإسلام وابن القيم كما في قوله من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة ويقبل في موضع واحد مع الإجمال. وتفطن أيضاً فيما قال الشيخ عبد اللطيف فيما نقله عن ابن القيم أن أقل أحوالهم أن يكونوا مثل أهل الفترة الذين هلكوا قبل البعثة، ومن لا تبلغه دعوة نبي من الأنبياء، إلى أن قال وكلا النوعين لا يحكم بإسلامهم ولا يدخلون في مسمى المسلمين حتى عند من لم يكفر بعضهم، وأما الشرك فهو يصدق عليهم واسمه يتناولهم، وأي إسلام يبقى مع مناقضة أصله وقاعدته الكبرى شهادة أن لا إله إلا الله.

ولنذكر كلاماً لابن القيم ذكره في طبقات المكلفين نقله عنه الشيخ «عبد اللطيف» في رده على العراقي مثل التفسير لما ذكرنا لك ويجلو عنك بقايا هذه الشبهة. قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب طبقات المكلفين لما ذكر رؤوس الكفار الذين صدوا عن سبيل الله وأن عذابهم مضاعف، ثم قال: الطبقة السابعة عشرة طبقة المقلدين وجهال الكفر وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبع، يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة ولنا أسوة بهم ومع هذا فهم مسالمون لأهل الإسلام غير محاربين لهم كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب، وقد اتفقت على هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤساءهم وأئمتهم إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين ولا الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ولم يعتبر في ذلك غير المربي والمنشأ على ما عليه الأبوان، وصح عنه ﷺ أنه قال: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وهذا المقلد ليس بمسلم وهو عاقل مكلف والعاقل لا يخرج عن الإسلام أو الكفر، وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال وهو بمنزلة الأطفال والمجانين وقد تقدم الكلام عليهم. قلت: وهذا الصنف أعني من لم تبلغهم الدعوة هم الذين استثناهم شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقل العراقي واستثناهم شيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين

وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً، فإن الكافر من جحد توحيد الله تعالى وكذب رسوله إما عناداً وإما جهلاً وتقليداً لأهل، العناد فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد وقد أخبر الله تعالى في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لإسلافهم من الكفار وأن الأتباع مع متبوعهم وأنهم يتحاجون في النار، ثم ذكر آيات في هذا وأحاديث ثم قال وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو مجرد اتباعهم وتقليدهم نعم لا بد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن والمعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أحدهما مريد للهدى مؤثر له محب له غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم مرشد، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات ومن لم تبلغه الدعوة، الثاني معرض لا إرادة له ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه فالأول يقول يا رب لو أعلم لك دين خير مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه ولا أقدر على غيره فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي، والثاني راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته وكلاهما عاجز وهذا لا يحب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق فالأول كمن طلب الدين في الفترة فلم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزاً وجهلاً، والثاني كمن لم يطلب بل مات على شركه ولو كان طلبه لعجز عنه ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض.

والله يقضي بين عباده يوم القيامة بعدله وحكمته ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل فهذا مقطوع به في جملة الخلق، وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وعباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر وأن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه

بالرسول، هذا في الجملة والتعيين موكول إلى علم الله، وحكمه هذا في أحكام الثواب والعقاب وأما أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر، فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم وبهذا التفصيل يزول الإشكال في هذه المسألة وهو مبني على أربعة أصول.

أحدها: أن الله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وذكر آيات ثم قال وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ والظالم من عرف ما جاء به الرسول ﷺ أو تمكن من معرفته ثم خالفه وأعرض عنه، وأما من لم يكن عنده من الرسول علم أصلاً ولا تمكن من معرفته بوجه وعجز عن ذلك فكيف يقال أنه ظالم.

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بشيئين أحدهما الإعراض عن الحجة وعدم إرادته بها ولموجبها، الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا هو الذي نفى الله التعذيب عليه حتى تقوم حجته بالرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر إما لعدم عقله وتميزه كالصغير والمجنون وإما لعدم فهمه لكونه لا يفهم ولم يحضر ترجمان يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً ولا يتمكن من التفهم وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما إلى آخره.

ثم قال الشيخ رحمه الله: فقف هنا وتأمل هذا التفصيل البديع فإنه رحمه الله لم يستثن إلا من عجز عن إدراك الحق مع شدة طلبه وإرادته له

فهذا الصنف هو المراد في كلام شيخ الإسلام وابن القيم وأمثالهما من المحققين، وأما العراقي وإخوانه المبطلون فشبهوا بأن الشيخ لا يكفر الجاهل وأنه يقول هو معذور وأجملوا القول ولم يفصلوا وجعلوا هذه الشبهة ترساً يدفعون به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وصاحوا على عباد الله الموحدين كما جرى لأسلافهم من عباد القبور والمشركين وإلى الله المصير وهو الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، إلى آخر ما ذكر الشيخ رحمه الله.

فتأمل إن كنت ممن يطلب الحق بدليله وإن كنت ممن صمم على الباطل وأراد أن يستدل عليه بما أجمل من كلام العلماء فلا عجب، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

ذي الحجة سنة ١٣١٢هـ، نقل من خط المصنف رحمه الله تعالى بيده فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

بقلم الفقير إلى الله عبده وابن عبده وابن أمته عبد العزيز الفوزان غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين وأئمتهم الذين حفظ الله بهم الدين وأرغم بهم أنوف أهل الزيغ في كل وقت وحين، وصلى الله وسلم على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من إسحاق بن عبد الرحمن إلى من يراه من الإخوان وكافة الرؤساء في ساحل عمان ومن يليهم من أهل فارس وجعلان من المنتسبين إلى السنة والإيمان، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد: فإن الله تعالى أوجب علينا التعاون على البر والتقوى، والتناصر في ذاته على الأعداء؛ وكل إنسان عليه من العبودية بحسبه، فحيث لا عذر عن قبول الحق فكذلك لا عذر عن تبليغه؛ وقد سبقت الإشارة من بعض الإخوان بطلب النصيحة وما لا يدرك كله لا يترك كله، فمن أجل ذلك أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، والتقوى كلمة جامعة لخصال الخير أمراً ونهياً وأعظمها مشقة عداوة من حاد الله ورسوله وألحد في أسمائه وصفاته وأشرك في توحيده، وتعلمون أن سر الخلق والأمر هو أن يعرف الله بأسمائه وصفاته ويقصد وحده سبحانه بأنواع العبادة وأن لا يشرك به أحد سواه كائناً من كان، وأن يقوم الناس بالقسط، فأنزل الحديد آلة يستعان بها على جهاد من خرج عن القسط.

وقد لاح في أوائل هذا القرن علم التوحيد وأغمدت سيوف الجهاد في هامات من حاد عنه من شيع الكفر والتنديد، وأقيمت الحدود الشرعية في كافة بلدان المسلمين وحصل القيام التام بواجبات الدين، وذلك أمر لا يخفى وحصل لأسلافنا وأسلافكم من التعاون على ذلك ما أرغم الله به أنوف الأعداء حتى صارت دياركم معقل الإسلام ومهاجر السادات الأعلام، ولم يزل في هاتيك الجهات لا زال فيها للحق دعاة؛ من يلهج بتحقيق توحيد المرسلين ويرشد به الحيارى الجاهلين وينكر أوضاع الجهمية المبتدعين الملحدين في أسماء رب العالمين، فالتبس هذا الأصل على كثير

من الخلق حتى آن اندراسه، وانقلع إلا ما شاء الله أساسه، وكثر الطعن في الدعوة الإسلامية والملة الحنيفية المحمدية، وفاه بين العوام أن من تكلم بالشهادتين فهو من أهل الإسلام، وخفي عليهم ما وضعت له من إخلاص العبادة لله والكفر بما يعبد من دون الله، ونودي بالمسالمة لمن لاذ بالأوهام وألحد في الدين وعادى المسلمين ـ عمياء صماء ظلماء يحاول دعاتها إطفاء ما استبان من هذا الدين المتين، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويعلي كلمته.

التحذير من موالاة أعداء الله:

وفي خلال تلك الفرقة حصل الابتلاء بتداعي الأمم علينا عقوبة إعراضنا عن هذا الأمر؛ وفي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، لينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن»، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهة الموت».

فدل الحديث على أن الرغبة في الدنيا والإعراض عن الأخرى سبب الهلاك والدمار وتسلط الأعداء وفشل الأعمال. وعن ثوبان أيضاً مرفوعاً: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان» وقد اتسعت الفتنة بهم وعظم الخطب ودب الشوم على عقائد أهل الإسلام والإيمان، والتحق بهم من ليس له بصيرة ولا قدم صدق ولا معرفة بالحق؛ وظنوا أنهم بالتزامهم بعض أركان الإسلام من دون هذا الركن الأعظم على هدى مستقيم؛ وليس الأمر كذلك بل هو كما قال أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله: إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد ولا إلى ضجيجهم بلبيك ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة.

فاللجا اللجا إلى حصن الدين والاعتصام بحبل الله المتين والانحياز إلى أوليائه المؤمنين، والحذر الحذر من أعدائه المخالفين، فأفضل القرب

إلى الله تعالى، مقت من حاد الله ورسوله وجهاده باليد واللسان والجنان بقدر الإمكان وما ينجي العبد من النيران، ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فلا بد أن ينقاد لأوامر القرآن والسنة ويتبرأ من كل معتقد يخالف ما عليه السلف الصالح من سادات الأمة، وهل زال الإسلام وغيرت الأحكام وابتدع في الدين ما لم يأذن به الملك العلام إلا بدعاة أبواب جهنم يصدون الناس عن دينهم، فاتقوا الله عباد الله ولا تذهب بكم الدنيا كل الذهاب فإنها رأس كل خطيئة، وليست من أولها إلى آخرها عوضاً والله عن ذرة من ذرات الآخرة.

وكلما صدر ممن يدعي الإسلام من الإعراض عن هذا الأمر وتولى المشركين والطعن على المسلمين واستعجال الراحة والرضا عن النفس والتزيين هو بعينه نفس العقوبة وسبب الخذلان ومركب الندم والهوان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ فكيف يخلد إلى الدنيا ويصادق الأعداء وينسى عهود الحمى - من يؤمن بالله واليوم الآخر ويخاف سوء الحساب، قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

قال حذيفة رضي الله عنه: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، وتلا هذه الآية. وعاتب عمر رضي الله عنه أبا موسى في جعل النصراني كاتباً وقال: ما لك وله قاتلك الله، أما اتخذت حنيفاً مسلماً؟ وتلا هذه الآية، وهذا مع استخدامه، فكيف بموالاته وإكرامه؟ وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن وادّ المشركين فقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

ومن المعلوم أن من وادّ أحداً عنه راضٍ فإذا رضي عنه رضي بدينه فصار من أهل ملته وهو لا يشعر، وأكثر الناس يفطن للمعصية ووسائلها ولا يفطن للشرك ووسائله، ولما نهى الله عن موالاة أعدائه من الكفار

والمشركين وأباح التقية مع الإكراه قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وهذا من أعظم الوعيد والتهديد لمن تدبر كتاب الله وعقل عن الله أمره.

نعم خف أمر أهل الملل عندنا لما سمعنا بمن جاسوا خلال الدين وهموا باختلاس عقائد المسلمين وأدخلوا الشبه ليصدوا بها الناس عن الحق الواضح المستبين، من إحسائي ذي غل وفارسي مضل، فتقربوا إلى الله تعالى بالبعد من داعي الشبهات واطلبوا علم التوحيد بدليله من البينات. قال بعض السلف: إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند ورود الشهوات، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ واقبلوا نصيحة مشفق بالمسلمين.

من أسباب نجاة الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهنا مقام آخر وهو مقام استجلاب النعم واستدفاع حلول النقم، ولا يحصل إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد السفيه. وقد ذم الله من ليس فيهم بقية ينهون عن الفساد في الأرض فقال جل من قائل: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ فدلت الآيات على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه لا نجاة إلا لمن قام بذلك وإن اتباع الشهوات وإيثار اللذات يوجب الكون في جملة المجرمين، والآيات في هذا المعنى والأحاديث أكثر من أن تحصر، ومن كان الله وحده مراده ومعبوده ومحبوبه انقاد لأوامره ونواهيه ولم يداهن أحداً فيه.

وفقنا الله وإياكم لشكر نعم الله والصبر على طاعته والبعد عن موجبات غضبه وعقابه، وجهاد النفس على عداوة أعدائه ومحبة أحبابه، وصلى الله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

من أحكام الهجر المشروع

وسئل عن الهجر إلى آخره فأجاب: الهجر المشروع قد قام الدليل عليه وأشار جل من السلف إليه، وهو مراتب وله أحوال والسلام تفاصيل على القلب واللسان والجوارح، قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾، وقال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وقد هجر النبي ﷺ الثلاثة وقصتهم مشهورة، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في الهدي في فقه القصة ما يكفي.

وأصل الهجر الترك والفراق والبغض، وشرعاً: ترك ما نهى الله عنه ومجانبته والبعد عنه، وهو عام في الأفعال والأشخاص، وهو في المشركين ومن لاذ بهم واستحسن ما هم عليه وخدمهم وازدرى أهل الإسلام أعظم لأن قبح الشيء من قبح متعلقه، وهذه الجملة فيها أقسام ولها تفاصيل.

منها هجر الكفار والمشركين والقرآن من أوله إلى آخره ينادي على ذلك ومصلحته تمييز أولياء الله من أعدائه وقريب من هذا هجر أهل البدع والأهواء وهو نص الإمام أحمد وغيره من السلف على البعد عنهم ومجانبتهم وترك الصلاة عليهم، وقال: أهل البدع إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم، فتجب مفارقتهم بالقلب واللسان والبدن إلا من داع الدين مجاهد عليه بالحجة من أمن الفتنة قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ الآية والآيات والأحاديث وكلام العلماء في هذا كثير.

قال بعض المحققين: ويكفي العاقل قوله تعالى بعد نهيه عن موالاة المشركين: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ الآية. وقد حكى ابن كثير رحمه الله تعالى الإجماع على أن تارك الهجرة عاص مرتكب محرماً على ترك الهجرة ولا يكفي بغضهم بالقلب بل لا بد من إظهار العداوة والبغضاء، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

فأنظر إلى هذا البيان الذي ليس بعده بيان حيث قال: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا﴾ أي ظهر، هذا هو إظهار الدين فلا بد من التصريح بالعداوة وتكفيرهم جهاراً والمفارقة بالبدن، ومعنى العداوة أن تكون في عدوة والضد في عدوة أخرى كان أصل البراءة المقاطعة بالقلب واللسان والبدن وقلب المؤمن لا يخلو من عداوة الكافر وإنما النزاع في إظهار العداوة فإنها قد تخفى لسبب شرعي وهو الإكراه مع الاطمئنان، وقد تخفى العداوة من مستضعف معذور عذره القرآن، وقد تخفى لغرض دنيوي وهو الغالب على أكثر الخلف، هذا إن لم يظهر منه موافقة، ودعوى من أعمى الله بصيرته وزعم أن إظهار الدين هو عدم منعهم ممن يتعبد أو يدرس دعوى باطلة فزعمه مردود عقلاً وشرعاً وليهن من كان في بلاد النصارى والمجوس والهند ذلك الحكم الباطل لأن الصلاة والأذان والتدريس موجود في بلدانهم وهذا إبطال للهجرة والجهاد وصد الناس عن سبيل الرشاد.

والثاني مسلم ترخص لنفسه وآثر دنياه واختار أوطانهم لعذر من الأعذار الثمانية، فهجر هذا الصنف من الناس هو من باب هجر أهل المعاصي الذي ترجم له البخاري وغيره، ولا يهجر هجر الكفار بل له حقوق في الإسلام منها مناصحته والدعاء له إلا أنا لا نظهر له محبة وملاطفة كالذين آمنوا وعملوا الصالحات بحيث إنه لا يرى له ذنباً ويغتر به

غيره، وقد هجر النبي ﷺ الثلاثة مع إيمانهم وأجلى عمر صبيغاً إلى وطنه وأمر بهجره ونهى الناس عن كلامه، ولم يزل الصحابة رضي الله عنهم يهجرون في أقل من هذا، وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والترمذي والدارقطني والطبراني من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا بريء من مسلم يقيم بين ظهراني المشركين»، وأخرجه أيضاً ابن ماجه ورجال إسناده ثقات وله شاهد من حديث معاوية بن حيدة مرفوعاً: «لا يقبل الله من مسلم عملاً أو يفارق المشركين» أخرجه النسائي، وحديث سمرة مرفوعاً: «من جامع المشرك» إلى آخره رواه أبو داود. ويشهد لصحة هذه الأحاديث قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ فنحن نتبرأ مما تبرأ منه رسول الله ﷺ ونجانبه شاء العاصي أم أبى.

وقد ذكر محي السنة البغوي كلاماً يحسن ذكره ههنا قال: فأما هجر أهل العصيان وأهل الريب في الدنيا فيشرع إلى أن تزول الريبة عن حالهم وتظهر توبتهم؛ قال كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا وذكر خمسين ليلة، وجعل محمد بن إسماعيل رحمه الله حد التبين توبة العاصي؛ وقال عبد الله بن عمر: لا تسلموا على شربة الخمر؛ وقال أبو الدرداء: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ثم تقبل على نفسك فتكون لها أشد مقتاً، انتهى كلامه رحمه الله.

والأصل الجامع لهذا أن معرفة استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد خوفاً ورجاء وإجلالاً ومحبة وتعظيماً لا تبقي في القلب السليم محبة لأعدائه وموادة، لأن المحبة أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله؛ فلما غلب على الناس حب الدنيا وإيثارها أنكروا هذا ونسوا ما كانوا عليه أولاً ﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ جهلاً منهم بحقيقة الإسلام ولوازمه وقواعده العظام، ولو لم يكن في هذا إلا سد الذرائع المفضية إلى عقد

المصالحة بين المسلم والمشرك لكان كافياً، ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم وإيثار الدنيا فتح بعض المنتسبين أبواباً على حصن الإسلام إيثاراً لموافقة العوام، وليت هؤلاء احتاطوا لأديانهم بعض ما احتاطوا لرياساتهم وأموالهم، وما أحسن ما قيل:

قد كنت عدتي التي أسطو بها ويدي إذا عض العدو ساعدي
فدهيت منك بضد ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد

وأما من يسافر إلى بلدان المشركين للتجارة فهؤلاء إن لم يصدر منهم موالاة ومداهنة وملاطفة للمشركين والمرتدين فهم أخف حالاً ممن تقدم ذكرهم، وهم مشتركون معهم في التحريم متفاوتون في العقوبة، لأن الإقامة تصدق على القليل والكثير والحكم منوط بالإقامة والمجامعة في النصوص، لكن كلما خَفّت المفسدة خف الحكم، وقد يكون المسافر أخبث من المقيم، وشاهدنا من فسقة المسافرين من أهل القصيم وغيره من المنكرات العظيمة ما لا يحصى من ترك الصلاة وشرب المسكرات وتحسين طرائق المشركين والطعن في أهل الدين ما لا يحكم لأكثرهم معه بإسلام، حتى أن التُرك وبعض أهالي مصر يتحاشون من فعل فسقة نجد، ولا شك أن بغض هذا الصنف ومقته والنفرة منه هو عين المصلحة وليس هجر هذا الجنس من الهجر المندوب بل من الواجب لأن المفسدة عظمت بهم، فهم ومن يترخص لهم من المنتسبين أعظم بلية من العدو البعيد.

والقاعدة الكلية في هذا ترجيح ما يفضي إلى ضعف الشر وخفته وإعزاز الحق وقمع الباطل وارتداع المخالف. قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه القاعدة: ولهذا كان ﷺ يتألف أقواماً ويهجر، آخرين ولبعضهم شعراً:

صعبت تكاليف الشريعة فانثنى وسطاً عليها كل خب لاه
فاشدد يديك بحبل ملة أحمد لا تخدعن بمنصب أو جاه
وأسلك طريق اللطف في تبليغها متجرداً فيها لوجه الله

الرسالة السابعة

المورد العذب الزلال
في نقض شبه أهل الضلال

للعلامة المجدد الثاني

الشيخ عبد الرحمن بن
حسن بن محمد بن عبد الوهاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرِّف الأمور بأمره، ومستدرج العاصين بمكره، الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، الظاهر على خلقه فلا ينازع، الحكيم فيما يريد فلا يدافع.

أحمده على إعزازه لأوليائه، ونصرته لأنصاره، وخفضه لأعدائه، حمد من استشعر الحمد باطن سره، وظاهر جهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى بالمعادة فيه والموالاة ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك وخافض الشرك، وقامع الكذب والإفك.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً، وبعد: فاعلم أيها الطالب للسلامة، الساعي في أسباب تحصيل الفوز والكرامة، أني وقفت على رسالة لمن لم يُسَمِّ نفسه، مشعرةً بأنه من بلاد الخرج، متضمنة لأنواع من الكذب والمرج، جامعة لأمور من الباطل لا يسع مسلماً السكوت عليها، خشية أن يفتن بها بعض الجاهلين فيعتمد عليها، فإن كل عصر لا يخلو من قائل بلا علم، ومتكلم بغير إصابة ولا فهم، وقد جعل الله في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم، كما قال الإمام أحمد رحمه الله في كتابه الرد على الجهمية: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون مَن ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بدين الله أهل العمى، ويحيون

بكتاب الله الموتى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وتائه ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم».

وقد عنَّ لي الجواب، لتمييز الخطأ من الصواب، فلا بد من ذكر مقدمة نافعة لتكون هي المقصودة بالذات رجاء أن تكون سبباً موصلاً إلى رضوان الله، يستبصر بها طالب الهدى من عباد الله، وذلك بتوفيق الله الذي لا إله سواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اعلم أيها المنصف أن دين الله القويم، وصراطه المستقيم، إنما يتبين بمعرفة أمور ثلاثة عليها مدار دين الإسلام، وبها يتم العمل بأدلة الشريعة والأحكام، ومتى اختلت وتلاشت وقع الخلل في ذلك النظام.

الأول: أن تعلم أن أصل دين الإسلام وأساسه، وعماد الإيمان ورأسه، هو توحيد الله تعالى الذي بعث به المرسلين، وأنزل به كتابه الحكيم المبين.

قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾.

وهذا هو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله.

فإن أصل دين الإسلام إلا يعبد إلا الله، وألا يعبد إلا بما شرع، لا بالأهواء والبدع.

وقد قال شيخنا رحمه الله إمام الدعوة الإسلامية، والداعي إلى الملّة الحنيفية:

أصل دين الإسلام وقاعدته أمران:

الأمر بعبادة الله والتحريض على ذلك والموالاة فيه، وتكفير من تركه والنهي عن الشرك في عبادة الله والتغليظ فيه، والمعاداة فيه وتكفير من فعله. والمخالف في ذلك أنواع ذكرها رحمه الله. وهذا التوحيد له أركان

ومقتضيات وفرايض ولوازم، لا يحصل الإسلام الحقيقي على الكمال والتمام إلا بالقيام بها علماً وعملاً، وله نواقض ومبطلات تنافي ذلك التوحيد. فمن أعظمها أمور ثلاثة:

الأول: الشرك بالله في عبادته، كدعوة غير الله ورجائه والاستعانة به والاستغاثة والتوكل، ونحو ذلك من أنواع العبادة. فمن صرف منها شيئاً لغير الله كفر ولم يصح له عمل. وهذا الشرك هو أعظم محبطات الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾. ففي هذه الآية نفي للشرك وتغليظه والأمر بعبادة الله وحده. ومعنى قوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي لا غيره، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر عند العلماء.

الأمر الثاني: انشراح الصدر لمن أشرك بالله، وموادة أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. فمن فعل ذلك فقد أبطل توحيده، ولو لم يفعل الشرك بنفسه. قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

قال شيخ الإسلام: أخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يوادُّ كافراً، فمن وادَّه فليس بمؤمن. قال: والمشابهة مظنَّة الموادّة فتكون محرمة.

وقال العماد بن كثير رحمه الله في تفسيره: قيل نزلت في أبي عبيدة حين قَتَلَ أباه يوم بدر، أو «ابناءَهم» في الصدِّيق يومئذ همَّ بقتل ابنه عبد الرحمن، أو «إخوانهم» في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير، أو «عشيرتهم» في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وحمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ. قال: وفي وقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سرٌّ بديع، وهو أنهم لما سخطوا على

القرايب والعشاير في الله، عوّضهم الله بالرضا عنهم ورضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم.

ونوّه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما ذكر عن أولئك من أنهم حزب الشيطان ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. قلت: هم الذين والوا أهل الضلال وسخطوا على أهل الإيمان.

الأمر الثالث: موالاة المشرك والركون إليه ونصرته وإعانته باليد أو اللسان أو المال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وهذا خطاب الله تعالى للمؤمنين من هذه الأمة، فانظر أيها السامع أين تقع من هذا الخطاب وحكم هذه الآيات.

ولما أعانت قريش بني بكر على خزاعة سراً وقد دخلوا في صلح رسول الله ﷺ، انتقض عهدهم وغضب رسول الله ﷺ لذلك غضباً لله وتجهز لحربهم ولم ينبذ عليهم. ولما كتب حاطبٌ كتاباً يخبرهم بذلك إخباراً أنزل الله تعالى في ذلك هذه السورة، ابتدأها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ثم أمر تعالى بالتأسّي بخليله عليه السلام وإخوانه من المرسلين بالعمل بدينه الذي بعثهم به، فقال:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي من إخوانه من المرسلين ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

فذكر خمسة لا يقوم التوحيد إلا بها علماً وعملاً.

وعند القيام بهذه الخمسة ميّز الله الناس لما ابتلاهم بعدوهم، كما

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

وحذر الله تعالى عباده عن تولهم عدوهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾.

وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ۝١٣٩﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾.

فتأمل ما في هذه الآيات، وما رتَّب الله سبحانه وتعالى على هذا العمل من سخطه والخلود في عذابه وسَلْبِ الإيمان وغير ذلك. قال شيخ الإسلام في معنى قوله: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآية.

فثبوت ولايتهم توجب عدم الإيمان، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾.

والسِّين حرف تنفيس تفيد استقبال الفعل، فدلَّ على أنهم وعدوهم ذلك سراً بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٢٨﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، والمقصود بيان عظم هذا الذنب عند الله وما رتّب عليه من العقوبات عاجلاً وآجلاً، نسأل الله الثبات على الإسلام والإيمان، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان.

وقد ذكر شيخنا رحمه الله في مختصر السِّيرة له عن سيرة الواقدي، أن خالد بن الوليد لما قدم العرض قدم مائتي فارس فأخذوا نجاعة بن مرارة في ثلاثة عشر رجلاً من قومه بني حنيفة، فقال لهم خالد بن الوليد: ما تقولون في صاحبكم.

فشهدوا أنه رسول الله.

فضرب أعناقهم حتى إذا بقي سارية بن عامر قال: يا خالد إن كنت تريد بأهل اليمامة خيراً أو شراً فاسْتَبْقِ نجاعة.

وكان شريفاً فلم يقتله.

وترك سارية أيضاً فأمر بهما فأوثقا في مجامع من حديد، فكان يدعو نجاعة وهو كذلك فيتحدث معه وهو يظن أن خالداً يقتله، فقال:

- يابن المغيرة، إن لي إسلاماً والله ما كفرت.

فقال خالد: بين القتل والترك منزلة وهي الحبس حتى يقضي الله في أمرنا ما هو قاض.

ودفعه إلى أم متمم زوجته وأمرها أن تحسن إساره.

فظن نجاعة أن خالداً يريد حبسه ليخبره عن عدوّه، وقال: يا خالد لقد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام، وأنا اليوم على ما كنت عليه بالأمس، فإن يك كذّاباً قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

فقال: يا نجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه، وكان رضاك بأمر هذا الكذّاب وسكوتك عنه - وأنت من أعز أهل اليمامة - إقرارٌ له ورضاءٌ بما

جاء به. فهل أبديت عذراً فتكلمت فيمن تكلم. فقد تكلم ثمامة فردَّ وأنكر، وتكلم اليشكري، فإن قلت أخاف قومي فهلا عمدت إليَّ أو بعثت رسولاً!

فتأمل كيف جعل خالد سكوت نجاعة رضاء بما جاء به مُسَيْلِمَة وإقراراً، فأين هو ممن أظهر الرضا وظاهر وأعان وجدَّ وشمَّر مع أولئك الذين أشركوا مع الله في عبادته وأفسدوا في الأرض، فالله المستعان.

الأمر الثاني من الأمور التي لا يصلح الإسلام إلا بها: العمل بشرائعه وأحكامه، وبالقيام بذلك يقوم الدين وَتَسْتَقِيمُ الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾.

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا

﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وفي هذا المعنى قال أبو تمّام شعراً:

وعبادة الأهواء في تطويحها ... بالدين مثل عبادة الأوثان

وهذا هو الغالب على كثير من الناس رد الحق لمخالفة الهوى ومعاوضته بالآراء، وهذا من نقص الدين وضعف الإيمان واليقين.

الأمر الثالث: وهو تخصيص من عموم ما قبله. أداء الأمانات، واجتناب المحرمات والشهوات، والجد في أداء الفرائض والواجبات والعبادات، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله. وقد وقع الخلل العظيم في ذلك كما قال تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ الآية.

وبذلك وقعت الغفلة والإعراض عن كتاب الله تعالى، واشتغل أكثر الناس بدنياهم عن طاعة مولاهم، وزهدوا في كل ما يعود نفعه إليهم في دنياهم وأخراهم مما يوجب رضا ربهم ومولاهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ الآية.

فيجب على من نصح نفسه ممن جعل الله له القدرة والسلطان ونفوذ الكلمة أن يهتم بحفظ هذه الثغور الثلاثة، فإنها ثغور الإسلام، وقد سعى في نقضها من ليس له فيه رغبة.

ومن أسباب حفظها الإخلاص لله، والصدق والملجأ إليه، وتعظيم أمره ونهيه، والتوكيل عليه، وتمييز الخبيث من الطيب، فإن الله تعالى ميزهم لعباده لما ابتلاهم. فعليك ببغض أعداء الله والاهتمام بما يرضيه، ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه، وخشيته ومراقبته فإنه أوثق عرى الإيمان، والله المستعان.

فصل

في الإشارة إلى ما تضمنته لا إله إلا الله من نفي الشرك وإبطاله، وتجريد التوحيد لله تعالى، والإشارة إلى بعض ما تنقض به عرى الدين

والباعث على ذلك ما بلغني عن رجل كان قبل طروق الفتن يغلو في التكفير ويكفر بأشياء لم يكفر بها أحد من أهل العلم، ثم إنه قال بعد ذلك لما غرق في الفتن ـ أعاذنا الله من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن ـ: من قال لا إله إلا الله فهو المسلم المعصوم، وإن قال من قال.

فأقول وبالله التوفيق:

اعلم أن لا إله إلا الله كلمة سلام، ومفتاح دار السلام، وقد سماها الله كلمة التقوى والعروة الوثقى، وهي كلمة الإخلاص التي جعلها إبراهيم عليه السلام باقية في عقبه، ومضمونها نفي الإلهية عما سوى الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧)﴾.

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ إلى قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾.

وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

والقرآن من أوله إلى آخره يقرِّرُ أن دين الله الذي بعث به رُسُلَهُ وأنزل به كُتبه هو إخلاصُ العِبادة بجميع أنواعها لله وحده دون كل ما سواه، والبراءة من الشرك وأهله ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي شرك، وهذا لا يخفى على من له أدنى بصيرة، فهذا هو مدلول لا إله إلا الله. وقد عرف ذلك كفار قريش فما انقادوا له، فإنهم لمَّا دعاهُم رسول الله ﷺ إلى أن يقولوا لا إله إلا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾.

وقد تفاوت الناس في هذا التوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله فهماً وعلماً واعتقاداً وعملاً أعظم تفاوت، فمنهم من يقولها عن علم ويقين صادقاً مخلصاً من قلبه، وأدّى حقوقها وعمل بمقتضاها من المعاداة لأهل الشرك بالله والموالاة لأهل التوحيد متقدِّمهم ومتأخرهم، واستقام على ذلك ولم يأت بما يبطلها. وهؤلاء هم المسلمون المؤمنون الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، فأدُّوا شكر ما أنعم الله به عليهم بالإخلاص له والبراءة من كل دين يخالف ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآية.

والمراد الربوبية الخالصة، وهي أن يتخذوا خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم معبوداً دون كل ما سواه. أخرج ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، قال: «قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم».

ومنهم من يقول لا إله إلا الله ولا عرف مدلولها من النفي والإثبات، فيثبت بفعله ما دلت هذه الكلمة العظيمة على نفيه بإشراكه بالله في الإلهية، وينفي ما دلت على إثباته من إفراده الرب تعالى بالإلهية وينكر ذلك، ويعادي من دعا إلى التوحيد وعرَّف به، وذلك من فرط جهله بمعنى ما

يقول كما هو الغالب على أكثر من يقول لا إله إلا الله، فإذا قال الموحِّد: لا تجوز العبادة إلا لله تعالى فلا يُدعى إلا الله ولا يُرجى ولا يُتوكل إلا عليه، وأمثال ذلك من أنواع العبادة، أنكرته قلوبهم وألسنتهم.

قال النووي في شرح حديث سعد في شأن الرجل الذي قال فيه سعد لرسول الله ﷺ: ما لك عن فلان إني لأراه مؤمناً؟ قال: أو مسلماً قال: وفيه دلالة لمذهب أهل الحق في قولهم إن الإقرار باللسان لا ينفع إلا إذا اقترن به الاعتقاد بالقلب خلافاً للكرامية وغلاة المُرْجِئَة في قولهم يكفي الإقرار. وهذا خطأ ظاهر يرده إجماع المسلمين والنصوص في إكفار المنافقين وهذا صفتهم، انتهى.

قلت: فإذا دان المرءُ بالشرك بالله وأنكر التوحيد فهذا أعدل شاهد على أنه ليس في قلبه من الإيمان شيء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وأمثال ذلك من الآيات صح.

فليتأمل الناصح لنفسه ما قرره الله تعالى في كتابه من أدلة التوحيد كقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ومنهم المنافقون وقد كانوا مع المسلمين يقولون لا إله إلا الله ويشهدون أن محمداً رسول الله، ويُصَلُّونَ ويُزَكُّونَ ويصومون ويجاهدون مع المسلمين ولم يظاهروا عليهم عدوًا، ومع هذا وغيره أكذبهم الله لما جاءوا رسوله وقالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فأكّدوا شهادتهم بالمؤكدات إنَّ واللام، فقال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

ووجه الدلالة من هذه الآيات أن شهادتهم وأعمالهم لم تنفعهم مع قيام المنافي لذلك، فإنهم قام بهم من الجهل والشك والريب وغير ذلك ما صاروا به كفاراً في الدرك الأسفل من النار، ومن صفاتهم ما ذكر الله في سورة البقرة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ الآية.

وقال في سورة النساء: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾.

وقال: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

والمقصود من القول، لا ينفع إلا مع علم القلب وإيمانه ويقينه، والأعمال تُصَدِّقُ ذلك إذا كانت على مقتضى الإيمان، وأما مع الإتيان بِالمُنافِي فإنه أعدل شاهد على كذب ذلك القول، إذ لو كان صادقاً لعمل بمدلول ذلك. ومدلول اللفظ هو المعنى المطابق للدال وهو اللفظ، وكل قول يستعمل دال ومدلوله المعنى الذي وضع ذلك اللفظ للدلالة عليه، إذا عرف ذلك فإن منهم من يقول لا إله إلا الله عارفاً بمدلولها لكن قد يعرض له ما يمنعه من الاستقامة على العلم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

فتأمل ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآيات، وكان يمنعني من سياق كلامهم وجوده وشهرته مع أن قصدي الاختصار.

ولما توفي رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب ولم يتركوا قول لا إله إلا الله، ومنهم بنو حنيفة كفروا بتصديق مسيلمة في كذبه، وقصة

عمر مع أبي بكر مشهورة في الصحاح والسنة والمسانيد، وتأمل قوله الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ﴾.

وسبب نزولها وفيمن نزلت مشهور في كتب التفسير والحديث.

وكان أولئك النفر مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك يصلون وينفقون ويجاهدون فكفرهم الله تعالى بما قالوه، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية.

وسبب نزولها ومن نزلت فيهم معروف لا يحتاج إلى أن نذكره.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ فليتق الله المرء في نفسه ويخاف من عقوبات الذنوب.

وكذلك قول الله تعالى عن أهل مسجد الضّرار: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ﴾. وهو أبو عامر الفاسق..

وهؤلاء ومن قبلهم يقولون لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وفي الظاهر هم كانوا في عداد الأنصار قبل أن يُظْهِرَ الله ما أَسَرُّوهُ من الكفر، وقال الله في شأنهم: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي بالموت. والكتاب والسنة مملوءان بمثل هذه الأدلة، وفيما ذكرناه كفاية للمسترشدين، وبالله التوفيق.

أيظن من وقع منه مثل ما وقع من أولئك أنه يسلم من هذه العقوبات، وليس معه براءة من الله، وهو يعلم أن ما كُلِّفَ به أولئك كلِّف به من بعدهم، وما عوقبوا به عوقب به من بعدهم إذا عمل بأعمالهم ونسج

على منوالهم؟ نسأل الله الثبات في الدين واتباع سبيل المؤمنين. ومن تدبَّر القرآن مسترشداً مصيخاً مصيغاً علم أن الرسل إنما بعثوا إلى الناس بالدعوة إلى أن يعلموا بالتوحيد، ويؤدوا ما افترض الله عليهم، ويجتنبوا ما نهاهم عنه من عبادة ما سواه، ويخلصوا أعمالهم لله وحده.

والقرآن العظيم من أوله إلى آخره يقرر هذا التوحيد وينهى عن الشرك بالله في عبادته التي لا يصلح أن يُتَعَبَّد بها غيره. فانظر واستمع تجده يقرر الإخلاص وشرايعه، وينفي الشرك وتوابعه بأوضح بيان. وكذلك الأحاديث والسِّيَر ترشد إلى ذلك وتقرِّرهُ على أكمل الوجوه وأحسن البيان، لكن لما اشتدت غربة الدِّين بعموم المفسدين وقع الريب والشك بعد الإيمان، وانتقض أكثر عُرَى الإسلام بانقراض عصر الأئمة الأعلام، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عُرَى الإسلام عُرْوَةً عُروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

ومما انتقض من عراه الحب في الله والبغض في الله والمعاداة والموالاة لله وفي الله، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»، وأنت ترى حال الكثير حبه لهواه وبغضه لهواه، ولا يسكن إلا لمن يلائمه في طبعه وهواه، وأن غرَّه وأغراه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحاصل أن كل قول وعمل يحبه الله ويرضاه فهو من مدلول لا إله إلا الله، إمَّا مطابقة وإمَّا تضمُّناً وإمَّا التزاماً، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى، والتقوى أن يتقي العبد سخط الله وعقابه وعذابه بترك الشرك والبراءة منه ومن أهله، وإخلاص العبادة الله تعالى وامتثال ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، متبعاً في ذلك كله ما شرعه الله ورسوله. وقد عرفها السلف رضي الله عنهم. قال مطلق بن حبيب: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وأخرج الترمذي وابن ماجه بإسناده عن عبد الله بن يزيد عن النبي ﷺ، قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لابأس به حذراً مما به البأس».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾، قال أبو بكر الصديق: فلم يلتفتوا عنه يَمنةً ولا يَسْرَةً، أي لم يلتفتوا بقلوبهم إلى ما سواه بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون إلا الله ولا يحبون إلا له.

وقال شيخنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: سألني الشريف عما نُقَاتِلُ عليه وما نكفِّر به؟ فقال في الجواب: إنا لا نقاتل إلا على ما أجمع عليه العلماء كلهم، وهو الشهادتان بعد التعريف إذا عرف ثم أنكر، فنقول: أعدانا معنا على أنواع:

الأول: من عرف من التوحيد دين الله ورسوله، وأن هذه الاعتقادات في الحجر والشجر والبشر الذي هو دين غالب الناس أنه الشرك الذي بعث الله رسوله بالنهي عنه، وقاتل أهله ليكون الدين كله لله، ولا يلتفت إلى التوحيد ولا يعلمه ولا دخل فيه ولا ترك الشرك فهذا كافر نقاتله، لأنه عرف دين الرسول فلم يتبعه، وعرف دين المشركين فلم يتركه، مع أنه لم يبغض دين الرسول ولا من دخل فيه ولا يمدح الشرك ولا يزينه.

الأمر الثاني: من عرف ذلك ولكن تبين في سب دين الرسول مع إدعائه أنه عامل به، وتبين في مدح عبد يوسف والأشقر وأبو علي والخضر وفضلهم على من وحَّد الله وترك الشرك، فهذا أعظم كفراً من الأول، وفيه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾. الآية، وعمن قال الله فيهم: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ الآية.

الثالث: من عرف التوحيد وأحبه واتبعه، وعرف الشرك وتركه، ولكن يكره من دخل في التوحيد ويحبُّ من بقي على الشرك، فهذا أيضاً كافر،

وفيه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهل بلده يصرحون بعداوة التوحيد واتباع أهل الشرك ويسعون في قتالهم، وعذره أن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه، فهذا أيضاً كافر، فإنهم لو أمروه بترك صيام رمضان ولا يمكنه ذلك إلا بفراق وطنه فعل، ولو أمروه أن يتزوج امرأة أبيه ولا يمكنه مخالفتهم إلا بذلك فعل، وأما موافقتهم على الجهاد بماله ونفسه مع أنهم يريدون قطع دين الله ورسوله ﷺ، فأكبر مما ذكرنا بكثير، فهذا كافر ممن قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ﴾ الآية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

وهذا شروع في الجواب المشار إليه سابقاً وقد كنت عزمت على أن أتتبع كلامه وأجيب عنه تفصيلاً، ثم إنه عَرَضَ لي ما يجب أن يكون هو المقصود بالذات مما قدمته حمايةً لجانب التوحيد والشريعة، ثم بدا لي أن أقتصر في جواب الرجل لما في الاقتصار من رعاية الصبر والاصطبار، لأنا لو أجبناه بكل ما يليق في الجواب لم نسلم من أمثاله ممن نسج على منواله، كما هو الواقع من أكثر البشر قديماً وحديثاً مع كل من قام بالحق ونطق بالصدق.

فكل من كان أقوم في دين الله كان أذى الناس إليه أسرع، والعداوة له أشد وأفظع، وأفضل خلق الله رسله وقد عالجوا من الناس أشد الأذى حكمة بالغة. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة جداً ينبيك عن تفصيل هذا ما ذكره الله في كتابه عن أنبيائه لما دعوا أممهم إلى التوحيد كيف قيل لهم وما خوطبوا به، وتأمل ما جرى لخيار هذه الأمة كالخلفاء الراشدين وسادات أصحاب سيد المرسلين من أعدائهم كالروافض والخوارج ونحوهم، وما جرى لأعيان التابعين ومن بعدهم من أعيان الأئمة كالإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزاعي وأمثال هؤلاء ممن لا يمكن حصرهم، ولو ذكرنا جنس ما جرى لهؤلاء من الأذى لطال الجواب، والقصد الاقتصار، ومن أراد الوقوف على ذلك فعليه بالسيَّر والتاريخ، ولله

درّ أبي تمام حيث يقول شعراً:

وإذا أراد الله نشرَ فضيلة ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حسُودِ

وقال أبو الطيب شعراً:

وثياب صدْقكَ عند الناس كذبهم ... وهَلْ يُطَابَق مُعْوَجٌ بمعْتَدِلِ

إذا علمت ذلك فإن هذا الرجل ذكر عن الشيخ عبد الرحمن بن حسين أنه لا يصلي بهم، ولا يقدم من يهدونه، ولا يقطع خصومه، وعَدُوُّه من نظر في كتاب، أو نطق بصواب.

هذا كلامه في عد هذه الأمور من المثالب، والبصير إذا تأمل رآها من المناقب لأن المسلم لا يجوز أن يحمل إلا على الخير فيما خفي عذره فيه حتى يتبين ما يدفع الاحتمال. وهذه العيوب الخمسة محتملة لأمور:

الأول: منها يحتمل أنه فعله تأثماً من الصلاة بالناس لعذر خفي عليهم أوجب ذلك.

وأما الثاني: فيحتمل أنه إنما فعله نصحاً لهم وطلباً للسلامة من تبعة ذلك، ولا يخفى أن نظره لهم خير من نظرهم لأنفسهم، فإن جهّال العامّة لا يهتدون غالباً إلى ما يصلح دينهم.

وأما الثالث: ففيه التثبُّتُ في الفتيا، فإن الإفتاء في دين الله بلا علم حرام، فلا بد للمفتي والقاضي من التأمُّل والمراجعة، وإلا أصيبت مقاتله، والعامة لا يعجبهم ذلك، والعالم عندهم من يبادرهم بالحكم والإفتاء من غير تأنٍّ ولا مراجعة، وهذا من فرط جهلهم وعدم علمهم كما يتبين من حال هذا المعترض.

وأما الرابع والخامس: ففيه حماية جانب العلم وصيانته عن مثل هؤلاء الجهّال الذين لا يعلمون، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، فإن صيانة العلم عن تخبيط الجاهلين أمر لا بدَّ منه.

فانظر كيف وقع من أمثالهم ممن تتبَّع الرخص، أعاذنا الله من ذلك، وما أحسن ما قال بعض العلماء رحمه الله:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس خُلْفٌ فيه
ما العلم نصبكَ للخلافِ سَفاهَةً ... بين الرسول ورأي كل فقيه

وهذا الضرب من الناس أفسدوا بدعواهم العلم على كثير من العامة دينهم، لما قلدوهم لهواهم وأحسنوا بهم الظن وفاقاً لدنياهم، فتأمل تجد ما ذكرته واقعاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فلفرط عداوة هذا الرجل عدَّ هذه الأمور الخمسة من المثالب، وهي كما ترى صالحة لأن تُعَدَّ من المناقب. كما قيل إذا كان من فيهم قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب. ثم إنه أخذ يحذِّرُ الإمام من أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأنه لا يجوز له أن يصغي إليهم ولا يأخذ منهم ولا يلين لهم جانبه إلى غير ذلك، ويحلف جهد يمينه أن الحامل له على ذلك هذا القول محض النصيحة بلا عدل.

فأقول: يكفيك دليلاً على كذب هذا وغشِّه وسخافة عقله وقلة دينه وكثرة جهله، ما عبَّر به في هذا القيل، أما كان يعرف ما عليه المسلمون وما كانوا ينصحون به الإمام، فإن كل من يُعرف بإسلام حسن يوصيه بضد هذا، ولا ريب عندهم أن هذا كلام لا يقوله إلا رجل سوء، فسل من شئت من غير أهل الفساد وكل إناء بالذي فيه ينضح، وفيما قص الله عن أنبيائه تسلية لعبده المسلم إذا كان له أعداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

فيؤخذ من هذا أن من قال الحق ودعا إليه فلا بد أن يتصدَّى له من يوقع الأذى عليه، وما ذاك إلا لصعوبة الحق على النفوس ومخالفته الأهواء، وإيثار الشهوات على التقوى، نسأل الله الثبات على الإيمان والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

ولقد أحسن من قال في مثل هذه الحال شعراً:

يُقْضَى على المرء في أيام محنته حتَّى يرى حسناً ما ليس بالحسَن

وقائل هذا إنما أخذه من كتاب الله تعالى وهو مذكور في عدة آيات من الكتاب ترشد إلى أن من لم يُرد الله به خيراً يرى أن نفس الخطأ هو عين الصواب. ثم إن هذا المعترض زعم أن ابن ثنيان يطعمهم الحرام. فالجواب أن يقال: وهذا من جهله، وقلة دينه وعقله، لأن هذا الكلام شاهد على قائله أنه لا يعرف شيئاً من الأحكام، ولا يتصور الواقع وذلك لا يخلو إما أن يكون صدر عن سوء طويَّة وفساد رويَّة، أسوة أمثاله ممن لم يستضئ بنور التوحيد، الذي هدى الله إليه الكثير من أهل نَجْد وغيرهم أحرارهم والعبيد، أو أنه مُغْفِل عن هذا الشأن لحال أهل المهن وأرباب الدنيا في كل زمان.

فلو سألت أحدهم عن الدين الذي بعث الله به المرسلين، لما أحسن التعبير عنه ولا عرف حقيقة الإسلام بيقين، ولا ريب أن هذا قصارى حال المشار إليه لدلالة كتابه عليه. فإن هذا كلام من لا يدري ما يقول، من غير تصور ولا معقول، فلا بد والحالة هذه من بيان يكشف ما قد يلتبس على بعض الجهال من ذلك الهَذَيان.

فأقول: من المعلوم عند الموافق والمخالف أن أئمة المسلمين الذين أقام الله بهم هذا الدين، بعدما اشتدَّت غربته من بين الظلمة والمفسدين، أن الله بفضله ورحمته أقامهم بالحق المبين، فدعوا إلى التوحيد وأنكروا كل شرك وشك وتنديد، ونشروا أعلام الجهاد حتى أدخل الله بدعوتهم كل حاضر من قومهم وباد، فأخذوا تلك الأموال من أهل البغي والفساد، بسيف الحق والجهاد، فهو بحمد الله من طيب الحلال بلا تردد ولا إشكال.

فقد أحل الله لرسوله ﷺ ولأمته الغنائم، وقد غنم الصحابة رضي الله عنهم أموال من ارتد من العرب، أو شكَّ في الحق واضطرب، وكل ما لا

يؤيد بالدليل، فلا التفات إليه ولا تعويل، على أن الكثير من تلك الأموال، التي أخذت على هذا الوجه الحلال، وصارت من جملة بيت المال، قد تركت في أيدي الغاصبين لها حين تبدلت الحال. فلما قام هؤلاء الولاة، واجتمع عليهم الناس في هذه الأوقات، لم يبق في أيديهم من أموال الفَيء إلا القليل، لتغلُّب الناس عليها من ظلمة ذلك الجيل، فإن كان «ابن ثنيَّان» استولى عليها فقد فاته منها الكثير، وذلك أمر بيِّن شهير، وإن كان قد أخذ غير ذلك بتأويل الجهاد، أو ممن يمنع زكاته من أهل تلك البلاد، أسوة أمثاله من الولاة المتقدمين، كالأمويين والعباسيين، وعلى هذا فدعوى أن مجموع ما أخذه كله حرام من جملة الهذيان في الكلام، فإن القول بحلّها هو الصواب المقرر في كتب الأحكام، كما نصَّ عليه الصحابة والأئمة بعدهم في جوايز السلطان، فإنها أحبّ إلى بعضهم من صلاة الإخوان، ولأنها حلال لآل رسول الله ﷺ دون الزكاة في المأثور والمنقول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وامتد الضلال في الأرض لأهل الأهواء من اتخاذ دين لم يشرعه الله، أو تحريم ما لم يحرمه الله.

إذا عرف ذلك فلا يخفى حال من سلف من الولاة، المتغلبين على هذه الجهات قبل أن يظهر عليها أهل الإسلام، إنهم يقاتلون عليها بغير الحق المبين، ويأخذون الأموال ظلماً وعدواناً بيقين، وفي تلك المدة وقفوا الأوقاف وليس بأيديهم إلا تلك الأموال، فهل يصح والحالة هذه ما كان هذا أصله من تلك الأوقاف، وكذا أموال التجار، فإنهم يعاملون فيها بالربا في جميع القرى والأمصار، ويكون لتلك الأموال والمعاوضة بها امتداد وانتشار من غير سؤال عنها ولا استفسار، ومثل هذا ما يأخذه الأعراب المعتدون من أموال الغير وبها يمتارون، فما قال هذا المجترئ على شيء من ذلك أنه حرام أو أن فيه إشكالاً في حال من الأحوال، وكذلك ما وقع في هذه الديار من المعاملات الربوية، ولا ريب أنه بليَّة وأي بليَّة، وأمر خامس ظاهر في أناس من ظهور أمارات الخيانة عليهم، ونسبتها لقوة

القرين إليهم، وكل ذلك لا عتب فيه ولابأس، وأما الثلب والسب منه والعتاب فإنما يتوجه إلى خصوص أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإن لم يكن لهم مدخل في الأموال، ولا عمل لهم فيها بحال.

أعوذ بربِ الناس من كل طاعن   علينا بسوء أو مُلحٌ بباطل

والعارف لا يخفى عليه موجب هذه العداوة، فإن قيل ما قولكم في حكم ما ذكرتموه من هذه الأموال، أمن الحرام هي أم من الحلال، قلنا: القول فيها يتوقف على البحث عن كل فرد منها والاستفصال، ولكن من حيث عدم العلم بأعيانها عن طريق الإجمال، فالمأثور عن السلف والأئمة في جوايز السلطان، وما كان على هذا المنوال أنه من قسم الحلال إلا ما علم أنه بعينه حرام وما لا فلا يمنع من أخذه ممن أعطاه إياه، إذا كان الآخذ يستحقه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: ليس أحد من المسلمين إلا ولَهُ في هذه الدراهم حق، وكيف أقول إنها سحت الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وكثير من الصحابة يقبلون جوائز معاوية؟ قال: ولأن جوايز السلطان لها وجه في الإباحة والتحليل، فإن لها جهات كثيرة من الفيء والصدقة وغيرها. انتهى من المغني.

قال ابن رجب: ورُوي في ذلك آثار كثيرة عن السلف، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعاملون المشركين وأهل الكتاب مع علمهم أنهم لا يجتنبون الحرام كله. وقال ابن مسعود: «الهناء لكم، والوزر عليهم».

قلت: وما زال العلماء في كل عصر يقبلون جوائز الأمراء، ويأخذون حقهم من بيت المال، فلم ينكر ذلك أحد من أهل الورع ولا غيرهم من العلماء، إذا عرف ذلك فهنا أمر ينبغي الإشارة إليه، وهو أن يقال: ما حكم هذه الأموال لما كانت بأيدي أناس تغلبوا عليها بعد أئمة المسلمين، وجاروا على الناس وصدوهم عن الحق وأفسدوا في الأرض بالمعاصي؟

فإن عُلِمَ أن ما بأيديهم هو عين ما غصبوه فالحكم فيه كالحكم في الأموال المغصوبة، وكذا ما علم أن صاحبه أخذه على وجه الخيانة، فينبغي أن يجتنب. فينظر حال هذا الرجل المعترض فإن كان متحاشياً من أخذ هذه الأموال، ويتباعد عمن كانت في يده ولم يبق إلا أنه جهل حكم تلك الأموال، فالأمر أهون، وإن كان لا يتحاشى من الحرام الذي هذا وجهه، ويحرم الحلال الذي عرف وجهه، صار محلاً لإساءة الظن به، خصوصاً إذا عرف أنه لا سبب بينه وبين أولاد الشيخ يقتضي هذه العداوة إلا الدين الذي يعرفون به ويدعون إليه، فقد كان بعض أهل نجد لما أخرج الله ضغائنهم توصلوا إلى مسبَّة دين الله بمسبَّة أهله، كما فعل أشباههم من الماضين ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم إن هذا المعترض قال في أولئك الذين وجَّه الطعن إليهم: نظروا إلى سد باب القبلة ومصر ولم ينظروا إلى أبواب السماء. يعني أنهم رضوا لمتولي أمرهم أن يداهن أهل تلك الجهات.

فالجواب: أين أنت يا هذا لما كان أهل مصر ببلاد نَجْد، هل صحبتهم وأقمت فيهم أم فارقتهم وخالفتهم؟ فارجع العيب إلى نفسك، إن كنت إذ ذاك في عدادهم.

ونقول أيضاً في الجواب: لا يخلو هذا الرجل من حالتين، إما أن يكون من أبْلَهَ الناس وأشدهم غباوة وأجهلهم بالناس وأحوالهم، ولا معرفة له بالواقع أصلاً، وإما أنه يتعمَّد الكذب ولا يبالي، ويظن أن ولي الأمر لا يعرف الحال، فلعله أن ينقدح في قلبه من ذلك شك، أو إشكال، وإلا فمن المعلوم من رأيهم لولاة الأمر ونصحهم لهم التنبيه على أن هذا الأمر لا يصلح مع حاله، وأن الموازرة لا تصل إلى هذا الحد الذي يفعلونه، وأنه كان يكفيهم ما فعلوه معهم كف أيديهم، وقد كانوا يوصون الأئمة بتقوى الله والعمل بكتابه وسنة رسوله، واتباع شرعه وتنفيذ أحكامه والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من فضل الله تعالى عليهم وعلى الناس.

ومن ادَّعى ما ليس فيه كذَّبته شواهد الامتحان، ومن كانت هذه حالهم فلا يتعرض لسبِّهم وعداوتهم إلا من يكره هذه الأفعال، فإن العداوة لها أسباب أعظمها اختلاف الدين، والناس إنما يتميزون بأعمالهم لا بأقوالهم، فرب ناطق بالحق وهو لا يحبه ولا يقبل أهله، بل ربما نطق بالحق وهو لا يعرف حقيقة ما يقوله، فعلى من نصح نفسه من أئمة المسلمين أن يبذلوا الجهد في إقامة الدين، ويصرفوا الهمَّة إلى معرفة التوحيد بالصدق واليقين، وأن يحملوا الناس على ذلك ويجاهدوهم على ما هنالك، وأن يحبُّوا في ربهم ويبغضوا فيه، ويعادوا لأجله ويوالوا فيه.

وليحذروا من أمور ثلاثة توجب الذم والإثم والعقوبة:

الأول: ترك الحق بعد ظهوره وتبيُّنِهِ.

الثاني: التقصير في طلبه ليتبين له.

الثالث: الإعراض عن طلب معرفته لهوى أو كسلاً أو نحو ذلك.

وهذه الثلاثة الأشياء هي الآفة العظمى، ومن أجلها يضيع الدين. وقد انقسم الناس في هذا الزمان إلى هذه الأقسام، وكل قسم منهم معجب بنفسه ويظن أنه في رتبة الكمال من العلم والدين. وهذا من خدع الشيطان وغروره فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

فتأمل هذه الآية وما فيها من الامتنان والترغيب في اتباع ما جعله الله عليه مما شرعه له، وما فيها من التحذير والإنذار، فما أعظم خطر هذا، وما أحوج العبد إلى ذلك خصوصاً إن نظر العبد بعين البصيرة إلى ما انتحله

أكثر الناس من الشرك بالله في عبادته، وما أجروا عليه من أنواع الظلم والفساد، فما أكثر المغرورين بالجهل والأهواء وطاعة النفس والشيطان، وقد حدثت هذه الأمور في هذه الأمة في زمن من سلف من الأئمة وبينوا ذلك وأنكروا وحذروا وأنذروا، رحمة الله عليهم، كما قال العلاَّمة ابن القيِّم رحمه الله تعالى وعفا عنه:

ولقد رأينا من فريق يدعي ... الإسلام شركاً ظاهر التِّبيان
جعلوا له شركاء وَألّهوهم ... وساووهم به في الحب لا السلطان
والله ما ساووهم بالله بل ... زادوا لهم حباً بلا كتمان

وكل من تدبر القرآن وفهم أدلة التوحيد وعرف حقيقة الشرك الذي بعث الله الرسل بإزالته والنهي عنه، وألهمه الله رشده، علم يقيناً أنه هو الذي عليه أكثر الجهال من هذه الأمة، حيث جعلوا أرباب القبور من الأموات محطاً لرحالهم في طلب الحاجات وتفريج الكربات، وتألفهم قلوبهم بالخشية والإجلال والتعظيم، والالتجاء إليهم والتوكل عليهم، وغير ذلك من العبادة التي لا تصلح إلا لفاطر الأرض والسموات، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

ثم بيَّن ضدَّ ذلك وهو ما عليه أهل الإشراك فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

فأقام الحجة على هذه الأمة، وبين دينه الذي رضيه لنفسه ورضيه لعباده، وبين الدِّين الذي انتحله المشركون وأخبر عن ضلالهم وسوء مآلهم وأبان أنهم ما أرادوا مما عبدوا إلا القربة والشفاعة، وبين أنواع العبادة التي صرفها المشركون لآلهتهم وأخبر أن ذلك لا ينبغي إلا للواحد القهار، فأقام الحجة على عباده وقطع بهذا البيان كل حجة واعتذار، وأعذر إليهم على لسان البشير النذير ﷺ: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا

وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقد بلى الله أخبار الناس بما جرى في هذه الأعوام، وميّز بها من قاتل أهل الإسلام وسبهم ممن والاهم وأحبهم، والله يعلم أنا لم نرد بهذا تشيين أحد أو عداوته، ولكنا تأثيماً من كتمان العلم، ورغبنا في إرشاد العباد إلى طاعة ربهم ومعبودهم لما ابتلينا بأناس من أهل نجد يقولون على الله بلا علم، ويتكلمون في أشياء من غير دراية ولا فهم، فكان الواجب على من منحه الله علماً أن ينشر منه ما تيسّر وقت الاحتياج إليه، وخصوصاً في هذه الأزمنة لمّا قلّ العلم وكثر الجهل وغلبت الأهواء واشتغل الناس فيه بمحبة دنياهم وإيثارها على طاعة مولاهم والعمل لأخراهم، والله تعالى هو المرجوّ المسؤول أن يرفع عنا وعن المسلمين العقوبة، وأن يكتب لنا المثوبة بتحري رضاه، وأن يوفقنا للاستقامة على طاعته وتقواه، وأن يحقق لنا ولإخواننا ما طلبناه ورجوناه، إنه هو البر الرحيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

واعلم أن هذا الرجل وأمثاله لما امتلأت قلوبهم بالعداوة والبغضاء ظهرت على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم وأتوا بكل بليّةٍ ورميّة كما تقدم، طمعوا فيما هو أعظم من ذلك، وأكبر ضرراً مما هنالك، فأوردوا على الجُهّالِ شُبُهَات تحسيناً لما قد فعلوه وتزييناً لسبيلهم الذي سلكوه أسوة بمن مضى من أمثالهم.

قال العِمَادُ في التفسير: قال قتادة في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ إذاً والله لا يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبَّرهُ القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك.

والعارف إذا نظر إليها علم أنهم أقرُّوا على أنفسهم وعلى الذين وَالُوهم وزادوهم بما قد لا يصرح به غيرهم فيهم ابتداء.

فمن ذلك قول بعضهم إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية. يشير إلى أنه معذور بإقامته مع هؤلاء كما عذر من أقام من المؤمنين بمكة مع المشركين.

فيقال له: أولاً: إن هؤلاء الذين سماهم الله مؤمنين لم يظاهروا على المؤمنين مشركاً ولا منافقاً ولا باغياً ولا ظالماً، ولا سبُّوا مؤمناً ولا عادوه، ومنهم مَن قَيَّده أهله بمكة ومنعوه من الخروج كأبي جندل بن سهيل، فإنه خرج يوم الحديبية من مكة يَرْسُفُ في قُيوده. فلو أن أحداً منهم سبَّ المسلمين أو غالبهم أو أعان عدوَّهم انتقض إسلامه بلا ريب، لكن الله تعالى حفظهم من هذه الأمور وعذرهم باستضعافهم وعجزهم.

ولهذا ثبت في الصحيح وغيره أن رسول الله ﷺ كان يدعو لهم في الفريضة، كما أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحدٍ أو يدعو لأحدٍ قنَتَ بعد الركوع، وربَّما قال إذا قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين».

قوله: «والمستضعفين من المؤمنين» هو من عطف العام على الخاص بلا ريب، ومن المحال أن يسمِّيهم الله ورسوله مؤمنين وقد وقع منهم ما ينافي الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فَعُلِمَ من هذه الآية أن أولئك المستضعفين من المؤمنين لما كانوا بمكة مع قريش أنهم لم يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين، ولم يطعموا منهم بموادة ولا ركون وحاشاهم من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

فلهذا وصفهم الله بالإيمان، وقد أخبر تعالى عن أن الإيمان ينتفي بموالاة أعدائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قال بعض المفسرين في الآية الأولى: الممتنع أن تجد قوماً من المؤمنين يُوَادُّونَ من حَادَّ الله ورسولَهُ، وقد تقدَّم ذلك في كلام شيخ الإسلام ابْنِ تَيْمِيَةَ رحمه الله.

ويقال أيضاً: إن الله تعالى بيَّن حال الذين عذرهم عن الهجرة وميزهم بالوصف ممن لم يعذرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

قالَ في شرح البخاري: والسؤال للتوبيخ، أي لم تركتم الجهاد والهجرة والنصرة؟ قالوا: ﴿كُنَّا﴾... ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن الأسود قال: قطع علي أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه، فلقيني عكرمة فأخبرته فنهاني أشد النهي وقال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من الملسمين كانوا مع المشركين يأتي السهم فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ الآية.

فتأمل كيف ترتَّبَ عليهم هذا الوعيد وأوجب لهم النار، وقد روي أنهم مكرهون على تكثير سواد المشركين فقط، فكيف بمن كثر سوادهم بغير إكراه وإيمان، وظاهَرَ وقال وفعل من غير استضعاف؟ أترى بقي مع هذا شيء من الإيمان والحالة هذه؟ ثم إن الله تعالى بيَّن في هذه الآية من خرج من هذا الوعيد بأوصاف لا تخفى على البليد، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

فذكر أنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً وهم العاجزون عن الهجرة من كل وجه، وهؤلاء هم الذين دعا لهم رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة المتقدم، بخلاف من لم يعجز عن الهجرة بل اختارهم ورغب فيهم وسكن إليهم ووافقهم وتأيد بهم واسنصر، مثل عبد الله بن أبي سرح ومقيس بن صبابة الليثي وأمثالهما، ممن تزين له الباطل كَجَبَلَةَ بن الأيهم الغساني، وأمثال هؤلاء كثيرون، نسأل الله الثبات على الإسلام والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

الأمر الثاني: استدلالهم على جواز الإقامة مع المشركين وتركهم الهجرة، بأن الصحابة هاجروا إلى الحبشة وفيها نصارى، فيقال أولاً لا يجوز عند أدنى من له معرفة أن يستدل على ترك الهجرة بأن الصحابة هاجروا، وكيف يجوز في عقل من له أدنى مسكة من عقل أن يستدل لترك شيء بأن ذلك الشيء الذي ترك قد فعله غيره، وقد عرفت أن الله توعد من ترك الهجرة بالوعيد الشديد وبرئ منه ورسوله ﷺ، وأثنى على من هاجر ووعدهم على الهجرة بخير الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

وأي جهل أعظم من جهل مَن يُسَوِّي بين حسنات المقربين والأبرار، وسيئات العصاة الأشرار! ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

وأيضاً فإن الصحابة رضي الله عنهم هاجروا إلى الحبشة لما لم يجدوا إذ ذاك دار إسلام، ففعلوا ما أمكنهم فعله من طاعة الله وتقواه، وأهل الحبشة وإن كانوا نصارى فهم أقرب مودَّة للذين آمنوا من اليهود والذين أشركوا، ثم إنَّه حصل بتلك الهجرة من سلامة دينهم وظهوره والدعوة إلى الله وإسلام النجاشي وبعض أساقفته وإكرامهم إياهم، وغيظ عدوهم من المشركين ومراغمتهم ما هو من مقاصد الدين، فتأمل، وهذا سياق قصة مهاجرة الحبشة.

قال أبو نعيم منتقاه من سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق: حدثنا محمد بن مسلم الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن، عن الحارث بن هشام، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النَّجاشي آمَنَّا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهبوا للنجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدْم، فجمعوا له أُدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أَهْدَوا إليه هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هدية قبل أن تكلِّما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه ثُمَّ اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، عند خير جار. إلى أن قالت: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، وقال له: أيها الملك، كنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف، وكنا

على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأَمَرَنَا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأَمَرَنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت فعدَّد عليه أمور الإسلام - فصدَّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحللْنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا وعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجَوْنَا ألا نُظْلَمَ عندك أيها الملك.

قالت:

- فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: اقرأ عليَّ..

فقرأ عليه صدر آية (كهيعص).

قالت:

- فبكى النجاشي حتى اخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد...

ثم ساقت القصة.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت: لما مات النجاشي كان يُتحدث أنه لا يزال على قبره نور. انتهى.

وذكر ابن إسحاق في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الآية.

وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت، فقال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه، والآيات في سورة المائدة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وَوُلِدَ بها ثلاثة وثمانين رجلاً، فعبدوا الله وحمدوا جوار النجاشي، فقال عبد الله بن الحارث بن قيس السهمي:

يا راكباً بَلِّغَا عَنِّي مُغَلْغَلَةً	من كان يرجو بلاغ الله والدين
إنا وجدنا بلاد الله واسعة	تنجي من الذل والمخزاء والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز	ي في الممات وعبد غير مأمون
إنا تبعنا نبيَّ الله واطَّرحوا	قول النبي وغالوا في الموازين
فاجعل عذابك في القوم الذين غلوا	وعائذاً إن يعلوا فيضعون

قال السهيلي رحمه الله: وفي هذا من الفقه الخروج من الوطن وإن كان الوطن مكة على فضلها، إذا كان الخروج فراراً بالدين. فإن الحبشة كانوا نصارى وسُمِّيَ الصحابة بهذه الهجرة مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى الله عليهم بالسَّبق فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

وجاء في التفسير أنهم الذين صَلُّوا القبلتين وهاجروا الهجرتين، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة لما كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم، وأن يخلىٰ بينهم وبين عبادة ربهم آمنين مطمئنين.

وهذا حكم مستمر، متى غلب المشركون على بلد وأوذي على الحق مؤمن، ورأى الباطل ظاهراً قاهراً للحق، ورجا أن يكون في بلد آخر، أي بلد كان يبين فيه دينه، ويظهر فيه عبادة ربه، فإن الخروج على هذا الوجه حتم على المؤمن وهذه الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة. انتهى ملخصاً.

وكل من له أدنى معرفة ألا يفهم من هذه القصة إلا أنها حجة عظيمة على من ترك الهجرة الواجبة من وجوه لا تخفى على البليد، اللهم إلاَّ من ابتلي بسوء الفهم وفساد التصور وكابَرَ العقل والشرع فلا حيلة فيه، يا ربنا نسألك الثبات على الإسلام.

وأورد أيضاً حديث: «أنا بريء من مسلم بين أظهر المشركين».

لمقامه فيهم، والحجة منه أنه سماه مسلماً، فيفيد أن إقامته بين أظهر المشركين لا تخرجه عن الإسلام، فالجواب أن براءة النبي ﷺ ممن جلس بين ظهرانيهم إنما كان عقوبة له على مجرد الإقامة بين أظهرهم، وأما إيواؤهم ونقض العهد لهم، ومظاهرتهم ومعاونتهم والاستبشار بنصرهم، وموالاة وليهم ومعاداة عدوهم من أهل الإسلام، فكل هذه الأمور زائدة على الإقامة بين أظهرهم، وكل عمل من هذه الأعمال قد توعَّد الله عليه بالعذاب والخلود فيه، وسلب الإيمان وحلول السخط به، وغير ذلك مما هو مضمون الآيات المحكمات التي تقدمت.

وكل ذنب من هذه الذنوب له عقوبة تخصه، وكل ما ازداد منه زاد الله له في العقوبة، فإن من لم يؤمن بتلك الآيات المحكمات ويعتدي بصدور تلك الأعمال منه، فما أشبه حاله بحال من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

واعلم أن هؤلاء المشركين لم يرضوا من هذا وأمثاله بمجرد الموالاة

والنصرة، دون عبادتهم وتسويتهم لهم بالله في التعظيم والإجلال والتَّودُّد إليهم، فمن ذلك الانحناء لهم، والإشارة باليد إلى أشرف أعضاء السجود وهو الجبهة والأنف، وكل ذلك من خصائص الإلهية وذلك أمر لا محيد لهم عنه، كما قال تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ ولهذا لم يجدوا من مفارقتهم بدّاً حتى ذهبوا إلى غار في رأس جبل خوفاً من ذهاب دينهم، فآثروا الله على كل ما سواه.

قال شيخنا في هذه القصة فيه اعتزال أهل الشرك واعتزال معبوداتهم وقوله: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ فيه شدة صلابتهم في دينهم حيث عزموا على ترك الرياسة الكبرى والنعمة العظيمة واستبدلوا بها كهفاً في رأس جبل.

قلت: ومثل ذلك ما ذكره الله عن سحرة فرعون لما استنارت قلوبهم بالإيمان قالوا لفرعون لعنه الله: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

واعلم أن حقيقة هؤلاء المشبهة أن الله تعالى أمرهم بقتال المشركين فقاتلوا معهم، وأمرهم بالبعد عنهم فآووهم وقربوا منهم، وأمرهم بمعاداتهم فوالوهم، وأمرهم ببغضهم فوادُّوهم، وأمرهم بأن ينصروا أهل الإسلام فنصروا الكفرة عليهم، ونُهُوا عن مداهنتهم فداهنوهم، ونهاهم عن كتمان ما أنزل الله في هذا وغيره فكتموا وشبهوا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ الآية.

فجمعوا بين الكتمان والردّ على مَن بيَّن ولم يكتم والتشبيه والمجادلة بالباطل، فتركوا ما أوجبه الله عليهم وارتكبوا ما حرَّم عليهم، وهذا ظاهر

جداً لا يرتاب فيه من له أدنى معرفة بالناس وما وقع منهم فلا يأمنهم ويقربهم بعد هذه العظائم إلاَّ مَن سَفِهَ نفسه.

ولهم شبهة أخرى، وهي أن أبا بكر استأجر عبد الله بن أُرَيْقِط في طريق الهجرة إلى المدينة وكان هادياً خريتاً يدلهم على الطريق، فأحسن رسول الله ﷺ صحبته. فتكون صحبته للعسكر، وإعانتهم على المسلمين ونصرتهم لا بأس بها.

فيقال أولاً قد ذكرت في الشبهة التي قبل هذه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا بريء من مسلم بين أظهر المشركين» وهذا يناقض ما استدللت به هنا، وحاشا رسول الله ﷺ أن يبرأ من صاحب عمل وهو يفعله، ومثل هذا قوله: «من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله»، والآيات المحكمات صريحة في التحذير من موالاتهم ناطقة بالوعيد الشديد على موادتهم ونصرتهم.

إذا عُرفَ هذا فالفرق بين الدليل والمدعي أبعد مما بين المشرق والمغرب، وذلك أن ابن أُرَيْقِط أعان رسول الله ﷺ على أَبَرِّ البر بعد الإسلام، وأفرض الفرائض بعد الإيمان، وسعى لرسول الله ﷺ في مصالحه التي يتوصل بها إلى رضا مولاه، ومراغمة أعداه، ولا ريب أن هذا لو صدر من ابن أريقط بنية كان من أفضل الأعمال، فإذا أسلم كتب له ذلك من أفضل حسناته على حديث حكيم: «أسلمت على ما أسلفت من خير» يخالف من أوى المشركين ورضي بهم بدلاً من المسلمين وأعانهم واستنصر لهم، وفرح بنصرهم وظهورهم ودعا الناس إلى متابعتهم. فالفرق بين الفعلين كالفرق بين فعل أبي طالب من النصرة والحياطة والحماية، وفعل أبي جهل وأمثاله أعظم الكفر الموصل إلى الدركات في العذاب، وحلول المثلات. فأين من أعان الباطل ووادَّ أهله ونصرهم وظاهرهم، ممن أعان المسلمين وسعى في مصالحهم وراغم عدوهم؟

سارت مُشَرِّقَةً وسِرْتُ مُغَرِّباً   شتَّانَ بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّب

فابن أريقط فعل كما فعل سراقة بن مالك، فقد فعل من النصيحة في حال كفره ما يُحْمَدُ به باطناً وظاهراً، بخلاف من والى المشركين ونصح لهم وعادى المسلمين ولب عليهم. فإنه قد وقع في الوعيد والسخط والمقت وفساد الدين ومفارقة المؤمنين، والله أعلم بما يؤول إليه حال أعيان أولئك، لكنه يخشى عليهم أن يصيبهم مثل ما قص الله في شأن بلعام وأهل مسجد الضِّرار فقد كانوا قبل ذلك في عداد الأنصار، فيا مُقلِّب القلوب ثبت قلوبنا على الإيمان، ولا ريب أن عدول هذا المستدل عن الآيات المحكمات وصحيح الأخبار، ترك للمحكم واتباع للمتشابه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ الآية.

وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم».

وحاصل ما قدمنا من الجواب عما أورده المشبه هنا يتضمن خمسة أوجه:

الأول: أن ابن أُرَيْقِط أجير. ومن شأن الأجير أن يخدم المستأجر؛ لأنه ملك منافعه بعقد الإجارة، والأجير تحت المستأجر.

الوجه الثاني: أن ذلك الرجل مُستأجَر في مصحلة دينية هي من أكبر مصالح الدين، فإعانته المسلم وقت الحاجة إليه لا محذور فيها لكونها مصلحة محض، فكيف يجوز أن يستدل بذلك على ما هو أعظم المفاسد في الدين من موالاة المشركين وإعانتهم على باطلهم والصدّ عن سبيل الله؟

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدَّانِ يجتمعان

الوجه الثالث: أن استئجار الكافر للمصلحة نظير استرقاق الكافر، وذلك جائز بخلاف العكس فإنه لا يجوز لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. وهذا المشبه كأمثاله صاروا لأهل الباطل كالمماليك في طاعتهم ومتابعتهم وإعانتهم اختياراً منهم لا اضطراراً.

الوجه الرابع: أن ما فعله ابن أريقط لا يُعَابُ عَليه عقلاً وشرعاً، بل قد يثاب عليه في حال كفره بالدين إن لم يكن أسلم، ولعله والله أعلم صار سبباً لإسلامه لقربه من الإسلام بإعانته أهله على طاعة ربهم، فإنه يتروح لذلك بقول الجن في شعرهم:

هما نزلاها بالهدى فاهتدت به   فقد فاز من أمسى رفيق محمد

وهذا بخلاف من أعان على معصية الله والصدِّ عن سبيله، فأين من كان مع أهل الحق ممن كان مع عدوهم؟ وهل سمعت بتفاوت أعظم من هذا التفاوت؟

والله ما استويا ولن يتلاقيا   حتى تشيب مفارق الغربان

الوجه الخامس: أن ما فعله ابن أُرَيْقِط يغيظ كفار قريش وإغاظة الكفار يحبها الله، بخلاف من يفعل معهم ما يسرهم ويغيظ عدوهم من المؤمنين، فأين هذه من هذا لو كانوا يعلمون؟ والبصير يعلم أن هذا التشبيه من هؤلاء على العوام، صد لهم عن سبيل الله، وإنه من آثار عقوبات تلك الأعمال.

اللهم إنا نعوذ بك أن نفتن عن ديننا أو نُرَدّ على أعقابنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلَّم تسليماً كثيراً. وهذا آخر ما تيسَّر جمعه، والله أسأل أن يعمَّ نفعه.

أملاه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أجزل الله لهم الثواب.

وكتبه الفقير إلى الله تعالى حمد بن عتيق.

تمت كتابته يوم الخميس أول يوم من جمادى الأولى سنة واحد وستين ومائتين وألف.

الرسالة الثامنة

أصل دين الإسلام وقاعدته

للشيخ الإمام العلامة

عبد الرحمن بن حسن بن

الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب

رحمهم الله تعالى أجمعين

أصل دين الإسلام وقاعدته

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العلامة عبد الرحمن ابن حسن بن الشيخ المجدد الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى أجمعين:

قوله: «أصل دين الإسلام وقاعدته أمران: «الأول» الأمر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والتحريض على ذلك، والموالاة فيه، وتكفير من تركه».

قلت: وأدلة هذا في القرآن أكثر من أن تحصر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى معنى «لا إله إلا الله» الذي دعا إليه العرب وغيرهم، و«الكلمة» هي لا إله إلا الله، ففسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ فيه معنى (لا إله) وهي نفي العبادة عما سوى الله تعالى. قوله: (إلا الله) هو المستثنى في كلمة الإخلاص، فأمره تعالى أن يدعوهم إلى قصر العبادة عليه وحده ونفيها عمن سواه. ومثل هذه الآية كثير يبين أن الإلهية هي العبادة، وأنها لا يصلح منها شيء لغير الله، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ معنى ﴿وَقَضَىٰ﴾ أمر ووصى، قولان ومعناهما واحداً، وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ فيه معنى (لا إله) وقوله: (إلا الله) وهذا هو توحيد العبادة وهو دعوة الرسل إذ قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فلا بد من نفي الشرك في العبادة رأساً،

والبراءة منه وممن فعله، كما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ فلا بد من البراءة من عبادة ما كان يعبد من دون الله.

وقال عنه عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيجب إعتزال الشرك وأهله بالبراءة منهما كما صرح في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾. والذين معه هم الرسل كما ذكر ابن جرير.

وهذه الآية تتضمن من جميع ما ذكره شيخنا رحمه الله تعالى من التحريض على التوحيد ونفي الشرك، والموالاة لأهل التوحيد، وتكفير من تركه بفعل الشرك المنافي له، إن من فعل الشرك فقد ترك التوحيد؛ فإنهما ضدان لا يجتمعان، فمتى وجد الشرك انتفى التوحيد، وقد قال تعالى في حق من أشرك: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فكفره تعالى باتخاذ الأنداد وهم الشركاء في العبادة، وأمثال هذه الآيات كثير، فلا يكون المرء موحداً إلا بنفي الشرك والبراءة منه وترك من فعله.

ثم قال رحمه الله تعالى: «الثاني» الإنذار عن الشرك في عبادة الله تعالى، والتغليظ في ذلك، والمعاداة فيه، وتكفير من فعله.

فلا يتم مقام التوحيد إلا بهذا، وهو دين الرسل، أنذروا قومهم عن الشرك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

قوله: «في عبادة الله» العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

قوله: «والتغليظ في ذلك» وهذا موجود في الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ ولولا التغليظ لما جرى على النبي ﷺ وأصحابه من قريش ما جرى من الأذى العظيم كما هو مذكور في السير مفصلاً فإنه باداهم بسبب دينهم وعيب آلهتهم.

قوله رحمه الله تعالى: «والمعاداة فيه» كما قال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، والآيات في هذا كثيرة جداً كقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ والفتنة الشرك، ووسم تعالى أهل الشرك بالكفر فيما لا يحصى من الآيات، فلا بد من تكفيرهم أيضاً. هذا هو مقتضى «لا إله إلا الله» كلمة الإخلاص، فلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكاً في عبادته كما في الحديث الصحيح: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»، فقوله: «وكفر بما يعبد من دون الله»، تأكيد للنفي فلا يكون معصوم الدم والمال إلا بذلك، فلو شك أو تردد لم يحرم دمه وماله.

فهذه الأمور هي تمام التوحيد لأن «لا إله إلا الله» قيدت في الأحاديث بقيود ثقال: بالعلم، والإخلاص، والصدق، واليقين، وعدم الشك. فلا يكون المرء موحداً إلا باجتماع هذا كله واعتقاده وقبوله ومحبته والمعاداة فيه والموالاة، فبمجموع ما ذكره شيخنا رحمه الله يحصل ذلك.

ثم قال رحمه الله تعالى: «والمخالف في ذلك أنواع؛ فأشدهم مخالفة من خالف في الجميع فقبل الشرك واعتقده ديناً، وأنكر التوحيد واعتقده باطلاً، كما هو حال الأكثر، وسببه الجهل بما دل عليه الكتاب والسنة من معرفة التوحيد وما ينافيه من الشرك والنديد واتباع الأهواء، وما عليه الآباء، كحال من قبلهم من أمثالهم من أعداء الرسل فرموا أهل التوحيد بالكذب والزور، والبهتان والفجور، وحجتهم ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

وهذا النوع من الناس والذين بعده قد ناقضوا ما دلت عليه كلمة الإخلاص، وما وضعت له، وما تضمنته من الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به جميع أنبيائه ورسله وأنفقت دعوتهم عليه. كما لا يخفى فيما قص الله عنهم في كتابه.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ومن الناس من عبد الله وحده، ولم ينكر الشرك ولم يعاد أهله». قلت: ومن المعلوم أن من لم ينكر الشرك لم يعرف التوحيد ولم يأت به، وقد عرفت أن التوحيد لا يحصل إلا بنفي الشرك، والكفر بالطاغوت المذكور في الآية.

ثم قال رحمه الله: «ومنهم من عاداهم ولم يكفرهم» فهذا النوع أيضاً لم يأت بما دلت عليه «لا إله إلا الله» من نفي الشرك وما تقتضيه من تكفير من فعله بعد البيان إجماعاً، وهو مضمون سورة الإخلاص و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ وقوله في آية الممتحنة ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ ومن لم يكفر من كفره القرآن فقد خالف ما جاءت به الرسل من التوحيد وما يوجهه.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ومنهم من لم يحب التوحيد، يبغضه» فالجواب أن من لم يحب التوحيد لم يكن موحداً، لأنه هو الدين الذي رضيه الله لعباده كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ فلو رضي به الله تعالى وعمل به لأحبه، ولا بد من المحبة لعدم حصول الإسلام بدونها، فلا إسلام إلا بمحبة التوحيد، قال الشيخ أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى: الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه، فمن أحب الله تعالى أحب دينه، ومن لا فلا، والمحبة يترتب عليها كلمة الإخلاص، وهي من شروط التوحيد.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ومنهم من لم يبغض الشرك ولم يحبه». قلت ومن كان كذلك فلم ينف ما نفته «لا إله إلا الله» من الشرك والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه، فهذا ليس من الإسلام في شيء أصلاً، ولم يعصم دمه ولا ماله كما دل عليه الحديث المتقدم.

وقوله رحمه الله تعالى: «ومنهم من لم يعرف الشرك ولم ينكره ولم ينفه» ولا يكون موحداً إلا من نفى الشرك وتبرأ منه وممن فعله وكفرهم، والجهل بالشرك لا يحصل شيء مما دلت عليه «لا إله إلا الله»، ومن لم يقم بمعنى هذه الكلمة ومضمونها فليس من الإسلام في شيء لأنه لم يأت بهذه الكلمة ومضمونها عن علم ويقين وصدق وإخلاص ومحبة وقبول وانقياد، وهذا النوع ليس معه من ذلك شيء، وإن قال: «لا إله إلا الله» فهو لا يعرف ما دلت عليه وما تضمنته.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ومنهم من لم يعرف التوحيد ولم ينكره»، فأقول: هذا كالذي قبله، لم يرفعوا رأساً بما خلقوا له من الدين الذي بعث الله به رسله، وهذه الحال حال من قال الله فيهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

وقوله رحمه الله تعالى: «ومنهم ـ وهو أشد الأنواع خطراً ـ من عمل بالتوحيد ولم يعرف قدره، ولم يبغض من تركه ولم يكفرهم». فقوله رحمه الله تعالى: «وهو أشد الأنواع خطراً» لأنه لم يعرف قدر ما عمل به، ولم يأت بما يصحح توحيده من القيود الثقال التي لا بد منها، لما علمت من أن التوحيد يقتضي نفي الشرك والبراءة منه معاداة أهله وتكفيرهم مع قيام الحجة عليهم، فهذا قد يغتر بحاله، وهو لم يأت بما عليه من الأمور التي دلت عليها كلمة الإخلاص نفياً وإثباتاً.

وكذلك قوله رحمه الله تعالى: «ومنهم من ترك الشرك وكرهه ولم يعرف قدره» فهذا أقرب من الذي قبله، لكن لم يعرف قدر الشرك لأنه لو عرف قدره لفعل ما دلت عليه المحكمات، كقول الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ فلا بد لمن عرف الشرك وتركه من أن يكون كذلك من الولاء، والبراءة من العابد والمعبود، وبغض الشرك وأهله وعداوتهم.

وهذان النوعان هما الغالب على أحوال كثير ممن يدعي الإسلام، فيقع منهم من الجهل بحقيقته ما يمنع الإتيان بكلمة الإخلاص، وما اقتضته على الكمال الواجب الذي يكون به موحداً. فما أكثر المغرورين الجاهلين بحقيقة الدين.

فإذا عرفت (ذلك عرفت) أن الله كفر أهل الشرك ووصفهم به في الآيات المحكمات بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾، وكذلك السنة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فأهل التوحيد والسنة يصدقون الرسل فيما أخبروا، ويطيعونهم فيما أمروا، ويحفظون ما قالوا ويفهمونه ويعملون به، وينفون منه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويجاهدون من خالفهم جهاداً إلى الله وطلباً للجزاء من الله لا منهم. وأهل الجهل والغلو لا يميزون بين ما أمروا به ونهوا عنه، ولا بين ما صح عنهم ولا ما كذب عليهم، ولا يفهمون حقيقة مرادهم، ولا يشعرون طاعتهم، بل هم جهال بما أتوا به معظمون لأغراضهم».

قلت: ما ذكره شيخ الإسلام يشبه حال هذين النوعين الأخيرين. انتهى.

وذكر ابن القيم في مختصر طبقات المكلفين ما يلي: «الطبقة السابعة عشرة، طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم الذين هم معهم تبعاً لهم يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم وسوف يتبرأ المتبوعون ممن تبعهم على كفرهم يوم القيامة، وتنقطع صلتهم بهم ولا يغني عنهم تقليدهم شيء.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

الرسالة التاسعة

الرد على الجهمي

للشيخ عبد الرحمن بن حسن
ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

رحمهم الله تعالى أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي الصادق الأمين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد فقد وردت علينا أسئلة من عُمان صدرت من جهمي ضال يستعجز بها بعض المسلمين، فينبغي أن نجيب عنها بما يفيد طالب العلم وما لا فائدة فيه لا يحتاج إلى الاشتغال بالجواب عنه فما ينبغي أن نجيب عنه قوله: إن الاسم مشتق من السمو أو السمة واشتقاق الاسم من هذين ذكره العلماء رحمهم الله تعالى في كتبهم، لكن يتعين أن نسأل عن كيفية هذا الاشتقاق وما معنى الاشتقاق الذي يذكره العلماء فنطلب منه الجواب عن هذين الأمرين وإن كانا مذكورين في كتب النحاة وغيرهم، وقد ذكرته في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد.

وأما سؤاله عن الفرق بين القضاء والقدر، فالقدر أصل من أصول الإيمان كما في سؤال جبريل عليه السلام وما أجابه به رسول الله ﷺ حين سأله، قال الإيمان أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونؤمن بالقدر خيره وشره. وفي الحديث الصحيح: «أن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة» أي جرى بما يكون مما يعلم الله تعالى فإنه تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

وأما القضاء فيطلق في القرآن ويراد به إيجاد المقدر كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا

دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ ويطلق ويراد به الإخبار بما سيقع مما قدر كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أخبرهم في كتابهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين، ويطلق ويراد به الأمر والوصية كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أي أمر ووصى، ويطلق ويراد به الحكم كقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ ويطلق ويراد به القدر ونحو ذلك.

وأما ما زعمه من أن الأدلة الدالة على استوائه على عرشه لا تمنع أن يكون مستوياً على غيره، فالجواب أن نقول: قد أجمع أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً على أنه لا يجوز أن يوصف الله بما لم يصف به نفسه، ولا وصفه به رسوله ﷺ؛ ومن وصفه بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فهو جهمي ضال مضل، يقول على الله بلا علم، وقد ذكر سبحانه استوائه على عرشه في سبعة مواضع من كتابه في سورة (الأعراف) وفي سورة (يونس) وفي سورة (الرعد) وفي سورة (طه) وفي سورة (الفرقان) وفي سورة (السجدة) وفي سورة (الحديد) ولم يذكر تعالى أنه استوى على غير العرش، ولا ذكره رسوله ﷺ، فعلم أنه ليس من صفاته التي يجوز أن يوصف بها، فمن أدخل في صفات الله ما لم يذكر في كتاب الله ولا في سنة رسوله فهو جهمي يقول على الله ما لا يعلم، وقد قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾، ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، لا يجوز أن يوصف إلا بذلك كله لكماله تعالى في أوصافه، فله الكمال المطلق في كل صفة وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ فذكر العرش عند هذه الصفة من أدلة فوقيته تعالى كما هو صريح فيما تقدم من الآيات، وكقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ الآية.

وذكر النبي ﷺ في معنى قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الآية: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء». فقوله فليس فوقك شيء نص في أنه تعالى فوق جميع المخلوقات، وهو الذي ورد عن الصحابة والتابعين من المفسرين وغيرهم في معنى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ إن معنى استوى استقر وارتفع وعلا وكلها بمعنى واحد، لا ينكر هذا إلا جهمي زنديق يحكم على الله وعلى أسمائه وصفاته بالتعطيل، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

والنصوص الدالة على إثبات الصفات كثيرة جداً، وقد صنف أهل السنة من المحدثين والعلماء مصنفات كباراً، ومن ذلك (كتاب) السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ذكر فيه أقوال الصحابة والتابعين والأئمة، (وكتاب التوحيد) لإمام الأئمة محمد بن خزيمة، (وكتاب السنة) للأثرم صاحب الإمام أحمد، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي في رده على المريسي، و(كتاب السنة) للخلال، و(كتاب العلو) للذهبي وغير ذلك مما لا يحصى كثرة ولله الحمد والمنة. ونذكر بعض الأحاديث الصريحة في المعنى، فمن ذلك ما رواه بن أبي حاتم عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبرئيل على الملائكة كلما مر على سماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرئيل فيقول جبرئيل قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبرئيل فينتهي جبرئيل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

ففي هذا الحديث التصريح بأن جبرئيل ينزل بالوحي من فوق السموات السبع فيمر بها كلها نازلاً إلى حيث أمره الله، وهذا صريح

بأن الله تعالى فوق السموات على عرشه بائن من خلقه، كما قال عبد الله بن المبارك لما قيل له: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على عرشه بائن من خلقه؛ وهذا قول أئمة الإسلام قاطبة خلافاً للجهمية الحلولية والفلاسفة، وأهل الوحدة وغيرهم من أهل البدع. فرحم الله أهل السنة والجماعة المتمسكين بالوحيين.

وصح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي فهو عنده فوق العرش».

وفي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ ذكر سبع سموات وما بينهما ثم قال: «وفوق ذلك بحر بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ما بين أظلافهن وركبهن كما بين سماء إلى سماء ثم فوق ظهورهن العرش ما بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء والله تعالى فوق ذلك».

وفي حديث ابن مسعود الذي رواه عبد الرحمن بن مهدي شيخ الإمام أحمد عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عن عبد الله بن مسعود قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام وبين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام وبين الكرسي والماء خمسمائة عام والعرش فوق الماء والله تعالى فوق العرش لا يخفي عليه شيء من أعمالكم.

والجهمية جحدوا هذه النصوص وعاندوا في التكذيب فصاروا بذلك كفاراً عند أكثر أهل السنة والجماعة، وهذا القدر الذي ذكرنا كاف في بيان ما عليه أهل السنة والجماعة من علو الله تعالى على جميع المخلوقات، واستوائه على عرشه، وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على ذلك، ولو ذهبنا نذكر ما ورد في ذلك لاحتمل مجلداً فالحمد لله الذي حفظ على الأمة دينها في كتابه وسنة رسوله وبنقل العلماء الذين هم في هذه الأمة

كأنبياء بني إسرائيل وهدانا إلى ذلك، فأبطل الله بالعلماء كل بدعة وضلالة حدثت في هذه الأمة فيا لها من نعمة ما أجلها في حق من تلقى الحق بالقبول وعرفه ورضي به، نسأل الله أن يجعلنا شاكرين لنعمه مثنيين بها عليه، فله الحمد لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه خلقه.

فأهل السنة والجماعة عرفوا ربهم بما تعرف به إليهم من صفات كماله اللائقة بجلال الله، فأثبتوا له تعالى ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، وعرفوه بأفعاله وعجائب مخلوقاته؛ وبما أظهره لهم من عظيم قدرته وبما أسبغه عليهم من عظيم نعمه فعبدوا رباً أحداً صمداً إلهاً واحداً، هو الله لذي الإلهية وصفه فالخلق خلقه، والملك ملكه، لا شريك له في إلهيته ولا في ربوبيته ولا في ملكه تعالى وتقدس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ ونزهوه عما تنزه عنه وعن كل ما فيه عيب ونقص، وعن كل ما وصفته الجهمية وأهل البدع مما لا يليق بجلاله وعظمته.

وأما الجهمية فعطلوه من صفات الكمال وصاروا إنما يعبدون عدماً لأنهم وصفوه بما ينافي الكمال، يوقع في النقص العظيم فشبهوه بالناقصات تارة، وبالمعدوم تارة فهم أهل التشبيه كما عرفت من حالهم وضلالهم ومحالهم.

وأما ما أورده هذا الجهمي الجاهل من آيات العلم كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فلا منافاة بين استوائه على عرشه وإحاطة علمه بخلقه، والسياق يدل على ذلك. أما الآية الأولى فهي مسبوقة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ذكر استوائه على عرشه وذكر إحاطة علمه بما في الأرض والسموات ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي بعلمه المحيط بما كان وما يكون.

وأما الآية الثانية فهي كذلك مسبوقة بالعلم وختمها تعالى به فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلم أن المراد علمه بخلقه وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾.

وهذا المعنى الذي ذكرناه هو الذي عليه المفسرون من الصحابة والتابعين والأئمة وجميع أهل السنة والجماعة، وأما الجهمية وأهل البدع فحرموا معرفة الحق لانحرافهم عنه وجهلهم به وبالقرآن والسنة، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

ثقل الكتاب عليهم لما رأوا   تقييده بشرائع الإيمان

ومن المعلوم أنه لا يقبل الحق إلا من طلبه، وأما أهل البدع فأشربوا في قلوبهم ما وقعوا فيه من البدع والضلال، جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. فإذا عرف ذلك (فيتعين) أن نسأل هذا الجهمي وغيره من المبتدعة عن أمور لا يسع مسلماً أن يجهلها لأن الإسلام يتوقف على معرفتها، فمن ذلك ما معنى كلمة الإخلاص لا إله إلا الله؟ وما الإلهية المنفية بلا النافية للجنس؟ وما خبرها؟ وما معنى الإلهية التي ثبتت لله وحده دون ما سواه؟ وما أنواع التوحيد وألقابه وأركانه؟ وما معنى الإخلاص الذي أمر الله به عباده وأخبرهم أنه له وحده؟ وما تعريف العبادة التي خلقوا لها؟ وما أقسام العلم النافع الذي لا يسع أحداً جهله؟ وما معنى اسم الله تعالى الذي لا يسمى بهذا الاسم غيره؟ وما صفة اشتقاقه من المصدر الذي هو معناه؟

فالجواب عن هذا مطلوب، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسالة العاشرة

الكلمات النافعة
في المكفرات الواقعة

تأليف العلامة الشيخ

عبد الله ابن شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب

رحمهما الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه رحمة للعالمين، وحجة على المعاندين، الذي أكمل به الدين، وختم به الأنبياء والمرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فهذه فصول وكلمات نقلتها من كلام العلماء المجتهدين من أصحاب الأئمة الأربعة هم أئمة أهل السنة والدين، في بيان بعض الأفعال والأقوال المكفرّة للمسلم المخرجة له من الدين، وأن تلفظه بالشهادتين وانتسابه إلى الإسلام وعمله ببعض شرائع الدين لا يمنع من تكفيره وقتله وإلحاقه بالمرتدين.

والسبب الحامل على ذلك أن بعض من ينتسب إلى العلم والفقه من أهل هذا الزمان غلط في ذلك غلطاً فاحشاً قبيحاً، وأنكر على من أتى به من أهل العلم والدين إنكاراً شنيعاً، ولم يكن لهم بإنكار ذلك مستند صحيح لا من كلام الله ولا من كلام رسوله ولا من كلام أئمة العلم والدين، إلا أنه خلاف عاداتهم وأسلافهم، عياذاً بالله من الجهل والخذلان والتعصب.

وأذكر من ذلك ما مست إليه الحاجة وغلط فيه من غلط من المنسوبين إلى العلم في هذا الزمان، الذين غلبت عليهم الشقاوة والجهل والتعصب والخذلان، لما جُبلوا عليه من مخالفة الكتاب والسنة، وعمل

السلف والأئمة المهديين، حُبِ الرياسة وشهوات الدنيا، والطمع فيما في أيدي الناس والفسقة المعاندين، نسأل الله أن يوفقنا لما يرضاه من العمل، ويجنبنا ما يسخطه من الزلل، إنه لم يخيب من رجاه، ولا يرد سؤال من دعاه، فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أن هذه المسائل ممّا ينبغي للمؤمن الاعتناء به، لئلا يقع في شيء منها وهو لا يشعر، وليتبين له الإسلام والكفر حتى يتبين له الخطأ من الصواب، ويكون على بصيرة في دين الله ولا يغتر بأهل الجهل والارتياب، وإن كانوا هم الأكثرون عدداً، فهم الأقلون عند الله وعند رسوله والمؤمنين قدراً.

وقد اعتنى العلماء رضي الله عنهم بذلك في كتبهم، وكتبوا لذلك في كتب الفقه في كل مذهب من المذاهب الأربعة وهو (باب حكم المرتد)، وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، وذكروا أنواعاً كثيرة كل نوع يكفر به المسلم ويبيح دمه وماله، وسأذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما يكفي ويشفي لمن هداه الله وألهمه رشده، وأجعل كلام كل طائفة من أتباع الأئمة الأربعة ـ أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ـ على حده، ليسهل ذلك على من أراد الاطلاع عليه. ونبدأ بكلامهم في الشرك الأكبر وتكفيرهم لأهله حين وقع في زمانهم من بعض المنتسبين إلى الإسلام والسنة، لأنه هو المهم، فنقول:

أما كلام الشافعية: فقال ابن حجر رحمه الله تعالى في (كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر):

(الكبيرة الأولى) الكفر أو الشرك أعاذنا الله تعالى منه. ولما كان الكفر أعظم الذنوب كان أحق أن يبسط الكلام عليه وعلى أحكامه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت، ثم ذكر أحاديث كثيرة ثم قال:

(تنبيهات): منها بيان الشرك وذكر جملة من أنواعه لكثرة وقوعها في الناس وعلى ألسنة العامة من غير أن يعلموا أنها كذلك، فإذا بانت لهم فلعلهم أن يجتنبوها لئلا تحبط أعمال مرتكبي ذلك، ويخلدوا في أعظم العذاب وأشد العقاب، ومعرفة ذلك أمر مهم جداً، فإن من ارتكب مكفراً تحبط جميع أعماله، ويجب عليه قضاء الواجب منها عند جماعة من الأئمة كأبي حنيفة، ومع ذلك فقد توسع أصحابه في المكفرات وعدوا منها جملاً مستكثرة جداً وبالغوا في ذلك أكثر من بقية أئمة المذاهب. هذا مع قولهم بأن الردة تحبط جميع الأعمال، وبأن من ارتد بانت منه زوجته وحرمت عليه.

فمع هذا التشديد بالغوا في الاتساع في المكفرات، فتعين على كل ذي مسكة في دينه أن يعرف ما قالوه حتى يجتنبه ولا يقع فيه فيحبط عمله ويلزمه قضاؤه وتبين منه زوجته عند هؤلاء الأئمة، بل عند الشافعي رحمه الله تعالى أن الردة وإن لم تحبط العمل لكنها تحبط ثوابه فلم يبق الخلاف بينه وبين غيره إلا في القضاء فقط.

ثم ذكر أنواع الكفر نوعاً نوعاً، وسيأتي بقية كلامه إن شاء الله تعالى في ذلك. لكن تأمل رحمك الله قوله: لكثرة وقوعها في الناس على ألسنة العامة من غير أن يعلموا أنها كذلك، وأن الشرك والردة قد وقع فيه كثير من أهل زمانه، يتبين لك مصداق ما قلنا إن شاء الله تعالى.

وقال النووي في شرح مسلم: وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح باسم غير الله كمن ذبح للصنم أو للصليب أو لموسى أو عيسى أو للكعبة ونحو ذلك. وكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلماً

أو نصرانياً أو يهودياً نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان ذلك كفراً، فإن كان الذابح قبل ذلك مسلماً صار بالذبح مرتداً. انتهى.

فتأمل قوله: فإن قصد مع ذلك الخ تجده صريحاً في أن المسلم إذا قصد بالذبح لغير الله تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له أنه يصير كافراً مرتداً. والله أعلم.

فصل

وأما كلام الحنفية فقال في كتاب تبيين المحارم المذكورة في القرآن: (باب الكفر) وهو الستر وجحود الحق وإنكاره، وهو أول ما ذكر في القرآن العظيم المعاصي، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ الآية، وهو أكبر الكبائر على الإطلاق فلا كبيرة فوق الكفر.

إلى أن قال: واعلم أن ما يلزم به الكفر أنواع: نوع يتعلق بالله سبحانه، ونوع يتعلق بالقرآن وسائر الكتب المنزلة، ونوع يتعلق بنبينا ﷺ وسائر الأنبياء والملائكة والعلماء، ونوع يتعلق بالأحكام.

فأما ما يتعلق بالله سبحانه وتعالى إذا وصف الله سبحانه بما لا يليق به: بأن شبه الله سبحانه بشيء من المخلوقات، أو نفى صفاته، أو قال بالحلول والاتحاد، أو معه قديم غيره، أو معه مدبر مستقل غيره، أو اعتقد أنه سبحانه جسم، أو محدث، أو غير حي، أو أعتقد أنه لا يعلم الجزئيات، أو سخر باسم من أسمائه، أو أمر من أوامره، أو وعيده، أو وعده، أو أنكرهما، أو سجد لغير الله تعالى، أو سب الله سبحانه، أو ادعى أن له ولداً وصاحبة، أو أنه متولد بشيء كائن عنه، أو أشرك بعبادته شيئاً من خلقه، أو افترى على الله سبحانه وتعالى الكذب بادعائه الإلهية والرسالة، أو نفي أن يكون خالقه ربه وقال ليس لي رباً، أو قال لذرة من الذرات هذه خلقت عبثاً أو هملاً، وما أشبه ذلك مما لا يليق به (سبحانه

وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) يكفر في هذه الوجوه كلها بالإجماع، سواء فعله عمداً أو هزلاً، ويقتل إن أصر على ذلك، وإن تاب تاب الله عليه وسلم من القتل. انتهى كلامه بحروفه.

فتأمل رحمك الله تصريحه بأن من أشرك في عبادة الله غيره أنه يكفر بالإجماع، ويقتل إن أصر على ذلك. والعبادة التي لا تصلح إلا لله ولا يجوز أن يشرك معه فيها غيره أنواع: منها الدعاء لجلب خير أو دفع ضر، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقال: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾﴾، وقال رسول الله ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

ومن أنواع العبادة الصلاة فلا يُصلى إلا لله، ولا يُسجد ولا يُركع إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ أي أخلص لربك الصلاة والنحر لا شريك له في ذلك، وقال النبي ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله». وقد قرن الله بين هاتين العبادتين - الصلاة والنسك - في هاتين الآيتين، فإذا كان من صلى لغير الله أو ركع لغير الله أو سجد لغير الله فقد أشرك في عبادة الله غيره، فكذلك من ذبح القربان لغير الله فقد أشرك في عبادة الله غيره.

ومن أنواع العبادة أيضاً الخشية، فلا تجوز الخشية إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فجعل الطاعة لله ولرسوله، وجعل الخشية والتقوى لله وحده.

ومن أنواع العبادة التوكل وهو إسناد العبد أمره إلى الله وحده لا

شريك له في جميع أموره الدينية والدنيوية، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فمن توكل على غير الله فقد أشرك في عبادة الله غيره.

ومن أنواع العبادة الاستعانة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وقال النبي ﷺ لابن عباس: «إذا استعنت فاستعن بالله»، فمن استعان بغير الله فقد أشرك في عبادة الله غيره.

ومن أنواع العبادة النذر، فلا ينذر إلا لله وحده، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ وقال النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

والحاصل أن «العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من أقوال العباد وأفعالهم، أمرهم به في كتابه على لسان رسوله ﷺ، وقد صرح هذا الحنفي في كتابه الذي قدمته لك أن من أشرك في عبادة الله غيره فهو كافر بالإجماع سواء فعله عمداً أو هزلاً، وأنه يقتل إن أصر على ذلك، وإن تاب تاب الله عليه، وسلم من القتل. والله أعلم.

وذكر أيضاً أن ما يكون فعله كفراً بالاتفاق إذا فعله المسلم تحبط جميع أعماله ويلزمه إعادة الحج ولا يلزمه إعادة الصلاة والصوم لأنهما يسقطان عن المرتد ويكون وطؤه مع امرأته حراماً وزناً، وإن أتى بكلمة الشهادة بحكم العادة ولم يرع عما قاله لا يرتفع الكفر. والله أعلم.

وقال الشيخ قاسم في شرح الدرر: النذر الذي يقع من أكثر العوام ـ بأن يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلاً: يا سيدي فلان إن رد غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي لك من الذهب والطعام أو الشمع كذا ـ باطل إجماعاً لوجوه: (منها) أن النذر للمخلوق لا يجوز، (ومنها) أن ذلك كفر ـ إلى أن قال ـ وقد ابتلي الناس بذلك ولا سيما في مولد أحمد البدوي. ا.هـ. فصرح بأن هذا النذر كفر يكفر به المسلم، والله أعلم.

ومن كلام الشافعية أيضاً ما قاله الإمام المحقق ناصر السنة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم محدث الشام المعروف بأبي شامة في كتاب: (الباعث، على إنكار البدع والحوادث) ومواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهد بالصلاح والولاية، فيحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون ذلك إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي بين عيون وشجر، وحائط وحجر.

وفي مدينة دمشق صانها الله تعالى مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغيرة والشجرة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق وسفيان بن عيينة عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، وكانت لقريش شجرة خضراء عظيمة يأتونها كل سنة فيعلقون عليها سلاحهم ويعكفون عندها ويذبحون لها ـ وفي رواية ـ خرجنا مع النبي ﷺ قبل حنين وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بشجرة عظيمة خضراء فتنادينا من جنبتي الطريق ونحن نسير إلى حنين: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «هذا كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم» أخرجه الترمذي بلفظ آخر والمعنى واحد، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في كتابه: فانظروا رحمكم الله تعالى أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدونها الناس ويعظمون من شأنها ويرجون البرء والشفاء من قبلها وينوطون بها أسلحتهم ويضربون عليها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها.

قلت: ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ إسحاق الحينباثي رحمه الله تعالى ـ أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة ـ حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذر عليه نكاح أو ولد قال: امضوا بي إلى عين العافية فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبد الله: فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها فخرجت فوجدته قد هدمها وأذّن الصبح عليها ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأساً. فما رفع لها رأس إلى الآن.

قلت: وأدهى من ذلك وأمر إقدامهم على قطع الطريق السابلة يجيزون في أحد الأبواب الثلاثة القديمة العادية التي هي من بناء الجن في زمن نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، أو من بناء ذي القرنين، وقيل فيها غير ذلك ما يؤذن بالتقدم على ما نقلناه في كتاب تاريخ مدينة دمشق حرسها الله تعالى وهو الباب الشمالي ذكره لهم بعض من لا يوثق به أحد شهور سنة ست وثلاثين وستمائة أنه رأى مناماً يقتضي أن ذلك المكان دفن فيه بعض أهل البيت، وقد أخبرني عنه ثقة أنه اعترف له أنه افتعل ذلك، فقطعوا طريق المنارة فيه وجعلوا الباب بكماله أصل مسجد مغصوب، وقد كان الطريق يضيق بسالكيه فتضاعف الضيق والحرج على من دخل ومن خرج، ضاعف الله عذاب من تسبب في بنائه، وأجزل ثواب من أعان على هدمه وإزالته اتباعاً لسنة النبي ﷺ في هدم مسجد الضرارِ المرصد لأعدائه من الكفار.

قلت: فلم ينظر الشرع إلى كونه مسجداً، وهدمه لمَّا قصد به السوء والردى، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الآية، أسأل الله الكريم معافاته من كل ما يخالف رضاه، وأن لا يجعلنا ممن أضله فاتخذ إلهه هواه. انتهى.

فتأمل رحمك الله تعالى كلام هذا الإمام وتصريحه بأن الذي تفعله

العامة في زمانه في العمد والشجر والمواضع المخصوصة أنه مثل فعل المشركين بذات أنواط، وكذلك تصريح أبي بكر الطرطوشي وكان من أئمة المالكية بأن كل شجرة يقصدها الناس ويعظمون من شأنها فهي ذات أنواط، وكذلك تأمل قوله، ولقد أعجبني ما فعله الشيخ أبو إسحاق ببلاد إفريقية في المائة الرابعة في هدمه تلك العين التي تسمى عين العافية لما رأى الناس يقصدونها ويتبركون بها، يتبين لك أن الشرك قد حدث في هذه الأمة من زمان قديم، وأن أهل العلم رضي الله عنهم ينكرون ذلك أشد الإنكار، ويهدمون ما قدروا عليه مما يفتتن به الناس وأن هذا مِمّا حدث بعد القرون الثلاثة المفضلة، وأن ذلك ليس من الدين بإجماع أهل العلم، ويجب على من قدر على ذلك إزالته، فويل للأمراء والقضاة القادرين على إزالته والنهي عنه.

وتأمل أيضاً كلام أبي شامة في المسجد الذي بنى على قارعة الطريق، وتمنيه هدمه وإزالته، وتشبيهه إياه بمسجد الضرار، وكان أبو شامة رحمه الله تعالى في أوائل القرن السابع، ومعلوم أن الأمر لا يزيد إلا شدة، والله أعلم.

فهذا ما وقفنا عليه من كلام الشافعية والحنفية (والمالكية) في هذه المسألة.

فصل

وأما كلام الحنابلة فقال الإِمام أبو الوفا بن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج أو كتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا، وكذا إلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبدا اللات والعزى. انتهى كلامه. فتأمل قوله: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع وتشبيهه إياهم بمن عبد اللات والعزى.

وقال الشيخ تقي الدين في الرسالة السنية لما ذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمره ﷺ بقتالهم قال: فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه ممن انتسب إلى الإسلام من مرق مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام، وذلك بأسباب: منها الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح ونحوه، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح جعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني، أو ارزقني، أو اجبرني، أو أنا في حسبك، أو نحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله تعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا يجعل معه إله آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فبعث الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الآية، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح وعزيراً والملائكة إلى أن قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وكان ﷺ يحقق التوحيد ويعلمه أمته، حتى قال رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده» ونهى عن الحلف بغير الله وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وقال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يُحذّر ما فعلوا، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»، ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه

لا يشرع بناء المساجد على القبور ولا الصلاة عندها، وذلك لأن من أكبر أسباب عبادة الأوثان كان تعظيم القبور.

ولهذا اتفق العلماء على أن من سلم على النبي ﷺ عند قبره أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها، لأنه إنما يكون لأركان بيت الله فلا يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق، كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملاً إلا به ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾، وقال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» والإله هو الذي يؤلهه القلب عبادة واستعانة ورجاء له وخشية وإجلالاً. انتهى كلامه.

فتأمل أول الكلام وآخره، وتأمل كلامه فيمن دعا نبياً أو ولياً مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني ونحوه، أنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، تجده صريحاً في تكفير أهل الشرك قتلهم بعد الاستتابة وإقامة الحجة عليهم، وأن من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية فقد اتخذه إلهاً مع الله، لأن الإله هو المألوه الذي يألهه القلب أي يقصده بالعبادة والدعوة والخشية والإجلال والتعظيم، وإن زعم أنه لا يريد إلا الشفاعة والتقرب عند الله، لأنه بين أن هذا هو مطلوب المشركين الأولين، واستدل على ذلك بالآيات الصريحات القاطعات. والله أعلم.

وقال رحمه الله تعالى في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم): وكانت الطواغيت الكبار التي تشد لها الرحال ثلاثة: اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى. وكل واحد منها لمصر من أمصار العرب، فكانت اللات لأهل الطائف ذكروا أنه في الأصل رجل صالح يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره..

وأما العزى فكانت لأهل مكة قريباً من عرفات، وكانت هناك شجرة يذبحون عندها ويدعون..

وأما مناة فكانت لأهل المدينة، وكانت حذو قديد من ناحية الساحل. ومن أراد أن يعرف كيف كانت أحوال المشركين في عبادة أوثانهم ويعرف حقيقة الشرك الذي ذمه الله تعالى وأنواعه حتى يتبين له تأويل القرآن فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ وأحوال العرب في زمانه وما ذكره الأزرقي في أخبار مكة وغيره من العلماء، ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسمونها ذات أنواط قال بعض الناس: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «الله أكبر إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم»، فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين سلاحهم، فكيف بما هو أطم من الشرك بعينه؟ - إلى أن قال -: فمن ذلك أمكنة بدمشق مثل مسجد الكف يقال أنه كف علي بن أبي طلب رضي الله عنه حتى هد الله ذلك الوثن، وهذه الأمكنة كثيرة موجودة في أكثر البلاد، وفي الحجاز منها مواضع. انتهى كلامه.

فتأمل رحمك الله تعالى كلام هذا الإمام في اللات والعزى ومناة وجعله بعينه هذا الذي يفعل بدمشق وغيرها من البلاد في ذلك، وتأمل قوله على حديث ذات أنواط وتدبره فإنه نافع جداً.

وقال رحمه الله تعالى في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾: ظاهره أن ما ذبح لغير الله سواء لفظ أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم وقال فيه باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فإن عبادة الله بالصلاة والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، والعبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة، فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه لحرم، وإن قال بسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في

الذبيحة مانعان، ومن هذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح للجن. انتهى كلامه.

فتأمل رحمك الله تعالى هذا الكلام وتصريحه فيه بأن من ذبح لغير الله من هذه الأمة فهو كافر مرتد لا تباح ذبيحته، لأنه يجتمع فيها مانعان: الأول أنها ذبيحة مرتد، وذبيحة المرتد لا تباح بالإجماع، والثاني أنها مما أهل به لغير الله، وقد حرم الله ذلك في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، وتأمل قوله: ومن هذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح للجن. والله أعلم.

(فصل): وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح المنازل في باب التوبة: «وأما الشرك هو نوعان: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويغضبون لتنقص معبوديهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده على لسانه إن قام وإن قعد وإن عثر وإن استوحش، وهو لا ينكر ذلك ويزعم أنه حاجته إلى الله وشفيعه عنده، وهكذا كان عباد الأصنام سواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وهؤلاء اتخذوها من البشر.

قال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله زلفى، وما أعز من يتخلص من هذا بل ما أعز من لا يعادي من أنكره، والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين

الشرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله وأخبر أن الشفاعة كلها له.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ والقرآن مملوء من أمثال هذه الآية، ولكن أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته ويظنه في قوم قد خلوا ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين المرء وبين فهم القرآن، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية، فتنتقض بذلك عرى الإسلام، ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والبدعة سنة والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً. فالله المستعان.

«ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى والاستعانة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله.

وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله لم يجعل سؤال غيره سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليها ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق

بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا وأنهم أمروهم به، وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم!

ولله در خليله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية، وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وتقرّب بمقتهم إلى الله». انتهى كلامه رحمه الله.

فتأمل رحمك الله كلام هذا الإمام، وتصريحه بأن من دعا الموتى وتوجه إليهم واستغاث بهم ليشفعوا له عند الله فقد فعل الشرك الأكبر الذي بعث محمد ﷺ بإنكاره وتكفير من لم يتب منه وقتاله ومعاداته، وإن هذا قد وقع في زمانه، وأنهم غيروا دين الرسول ﷺ وعادوا أهل التوحيد الذين يأمرونهم بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

وتأمل قوله أيضاً: وما أعز من يتخلص من هذا، بل ما أعز من لا يعادي من أنكره، يتبين لك الأمر إن شاء الله تعالى، ولكن تأمل أرشدك الله تعالى قوله: وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من عادى المشركين لله إلى آخره، يتبين لك أن الإسلام لا يستقيم إلا بمعاداة أهل هذا الشرك، فإن لم يعادهم فهو منهم وإن لم يفعله، والله أعلم.

وقال رحمه الله في كتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) في الكلام على غزوة الطائف وما فيها من الفقه قال: وفيها أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة. وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أو أعظم شركاً عندها وبها، والله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق أو ترزق وتحيي وتميت، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما كان يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وأخذوا مأخذهم شبراً شبراً وذراعاً بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر واشتد اليأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من الأمة المحمدية قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ومنها جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات وأعطاها أبا سفيان يتألفه بها وقضى منها دين عروة والأسود، وكذلك الحكم في أوقافها، فإن وقفها والوقف عليها باطل، ومال ضائع، فإن الوقف لا يصح إلا في قربة، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام، ومن اتبع سبيلهم، والله أعلم. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

فتأمل رحمك الله تعالى هذا الكلام وما فيه من التصريح بأن هذا الذي يفعل عند المشاهد والقباب التي على القبور في كثير من البلدان إنه هو الشرك الأكبر الذي فعله المشركون، وأن كثيراً منها بمنزلة اللات والعزى ومناة بل أعظم شركاً من شرك أهل اللات والعزى ومناة، وتصريحه بأنهم فعلوا فعل المشركين، واتبعوا سبيلهم حذو القذة بالقذة. وتأمل قوله: وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، والله أعلم.

وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى ـ لما سئل عن قتل التتار مع التمسك بالشهادتين، ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام ـ فقال: كل طائفة

ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم، مع سابقة مناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما، فاتفق الصحابة على القتال على حقوق الإسلام عملاً بالكتاب والسنة.

وكذلك ثبت عن النبي ﷺ من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج والأمر بقتالهم، وأخبر أنهم شر الخلق والخليقة، مع قوله: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم» فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب، فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء والأموال أو الخمر أو الزنا أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو ضرب الجزية على أهل الكتاب أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها والتي يكفر الواحد بجحودها. فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء، وإنما اختلف العلماء في الطائفة الممتنعة إذا أصرت على ترك بعض السنن كركعتي الفجر أو الأذان أو الإقامة عند من لا يقول بوجوبها، ونحو ذلك من الشعائر، فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا؟

فأما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها، وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين على الإمام أو الخارجين عن طاعته، كأهل الشام مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله، عنه فإن أولئك خارجون عن طاعة إمام معين أو خارجون عليه لإزالة ولايته، وأما المذكورون فهم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي

الزكاة وبمنزلة الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولهذا افترقت سيرته رضي الله عنه في قتاله أهل البصرة وأهل الشام وفي قتاله لأهل النهروان، فكانت سيرته مع البصريين والشاميين سيرة الأخ مع أخيه، ومع الخوارج بخلاف ذلك؛ وثبتت النصوص عن النبي ﷺ بما استقر عليه إجماع الصحابة من قتال الصديق رضي الله عنه لمانعي الزكاة، وقتال علي للخوارج. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

فتأمل رحمك الله تعالى تصريح هذا الإمام في هذه الفتوى بأن من امتنع عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة كالصلوات الخمس والصيام والزكاة أو الحج، أو ترك المحرمات كالزنا أو تحريم الدماء والأموال أو شرب الخمر أو المسكرات أو غير ذلك، أنه يجب قتل الطائفة الممتنعة عن ذلك حتى يكون الدين كله لله ويلتزموا جميع شرائع الإسلام، إن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائع الإسلام، وأن ذلك مما اتفق عليه الفقهاء من سائر الطوائف، الصحابة فمن بعدهم، وأن ذلك عمل بالكتاب والسنة.

فتبين لك أن مجرد الإعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، وأنهم يقاتلون قتال كفر وخروج عن الإسلام كما صرح به في آخر الفتوى بقوله: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين على الإمام بل هم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي الزكاة. والله أعلم.

وقال الشيخ رحمه الله تعالى في آخر كلامه على كفر مانعي الزكاة: والصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد لها؟ هذا لم يعهد عن الصحابة بحال، بل قال الصديق لعمر رضي الله عنهما: والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. فجعل المبيح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب.

وقد روي أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب لكن يخلون بها،

ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم سيرة واحدة وهي قتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، والشهادة على قتلاهم بالنار، وسموهم جميعاً أهل الردة، وكان من أعظم فضائل الصديق عندهم أن ثبته الله على قتالهم، ولم يتوقف كما توقف غيره حتى ناظرهم فرجعوا إلى قوله.

وأما قتال المقرين بنبوة مسيلمة فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم، وهذه حجة من قال إن قاتلوا الإمام عليها كفروا وإلا فلا، فإن كفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنة، بخلاف من لم يقاتل الإمام عليها، فإن من الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل له: منع ابن جميل، فقال: «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله» فلم يأمر بقتله ولا حكم بكفره.

وفي السنن من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: «ومن منعها فإنا آخذوها وشطر إبله» الحديث، انتهى.

فتأمل كلامه وتصريحه بأن الطائفة الممتنعة عن أداء الزكاة إلى الإمام أنهم يقاتلون، ويحكم عليهم بالكفر والردة عن الإسلام، وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم وإن أقروا بوجوب الزكاة وصلوا الصلوات الخمس، وفعلوا جميع شرائع الإسلام غير أداء الزكاة، وأن ذلك ليس بمسقط للقتال لهم والحكم عليهم بالكفر والردة، وأن ذلك قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الصحابة رضي الله عنهم. والله أعلم.

وقال الشيخ رحمه الله تعالى في كتاب (الصارم المسلول، على شاتم الرسول): قال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة يعدل بالشافعي وأحمد: أجمع المسلمون أن من سب الله أو رسوله أو دفع شيئاً مما أنزل الله أنه كافر بذلك وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله.

وقال محمد بن سحنون أحد الأئمة من أصحاب مالك: أجمع العلماء على أن شاتم الرسول ﷺ كافر، وحكمه عند الأئمة القتل، ومن شك في كفره كفر، قال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن على من سبه

القتل، وقال الإمام أحمد فيمن سبه: يقتل، قيل: فيه أحاديث؟ قال: نعم، منها حديث الأعمى الذي قتل المرأة، وقول ابن عمر: من شتم النبي ﷺ قتل، وعمر بن عبد العزيز يقول: يقتل. وقال في رواية عبد الله: لا يستتاب، إن خالد بن الوليد قتل رجلاً شتم النبي ﷺ ولم يستتبه. انتهى.

فتأمل رحمك الله تعالى كلام إسحاق بن راهويه ونقله الإجماع على أن من سب الله أو سب رسوله ﷺ أو دفع شيئاً مما أنزل الله فهو كافر ـ وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله ـ يتبين لك أن من تلفظ بلسانه بسب الله تعالى أو بسب رسوله ﷺ فهو كافر مرتد عن الإسلام، وإن أقر بجميع ما أنزل الله، وإن كان هازلاً بذلك لم يقصد معناه بقلبه، كما قال الشافعي رضي الله عنه: من هزل بشيء من آيات الله فهو كافر، فكيف بمن هزل بسب الله تعالى أو بسب رسوله ﷺ؟

ولهذا قال الشيخ تقي الدين: قال أصحابنا وغيرهم: من سب الله كفر ـ مازحاً أو جاداً ـ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية. قال: وهذا هو الصواب المقطوع به. ا.هـ.

ومعنى قول إسحاق رحمه الله تعالى «أو دفع شيئاً مما أنزل الله» أن يدفع ويرد شيئاً مما أنزل الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من الفرائض أو الواجبات أو المسنونات أو المستحبات، بعد أن يعرف أن الله أنزله في كتابه أو أمر به رسوله ﷺ أو نهى عنه ثم دفعه بعد ذلك فهو كافر مرتد وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله من الشرع إلا ما دفعه وأنكره لمخالفته لهواه أو عادته أو عادة أهل بلده، وهذا معنى قول العلماء رضي الله عنهم: من أنكر فرعاً مجمعاً عليه فقد كفر فإذا كان من أنكر النهي عن الأكل بالشمال أو النهي عن إسبال الثياب ـ بعد معرفته أن الرسول ﷺ نهى عن ذلك ـ فهو كافر مرتد ولو كان من أعبد الناس وأزهدهم، فكيف بمن أنكر إخلاص العبادة لله وحده، وإخلاص الدعوة والاستغاثة والنذر والتوكل وغير

ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله وحده، ولا يصلح منها شيء ملك مقرب ولا نبي مرسل، التي أرسل الله جميع كتبه لأجل معرفتها والعمل بها، التي هي أعظم شعائر الإسلام الذي هو معنى لا إله إلا الله، فمن أنكر ذلك وأبغضه وسبه وسب أهله وسماهم الخوارج فهو الكافر حقاً الذي يجب قتاله حتى يكون الدين كله لله بإجماع المسلمين كلهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(فصل) وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في الإغاثة: قال ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً»، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفي اتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة ما يغضب لأجله من في قلبه وقار الله وغيرة على التوحيد، ولكن: ما لجرح بميت إيلام:

(منها) الصلاة إليها والطواف بها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم. وكل من شم أدنى رائحة من العلم يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى ذلك، وأنه ﷺ أعلم بعاقبة ما نهى عنه ما يؤول إليه، وإذا لعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد يعبد الله فيها فكيف بملازمتها واعتياد قصدها؟

ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر، فنهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ونهى عن تسريجها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى أن نتخذها عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً، وأمر بتسويتها كما في صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه، وهؤلاء يرفعونها ويجعلون عليها القباب، ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه كما في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه، ونهى عن الكتابة عليها كما رواه الترمذي في صحيحه عن جابر،

ونهى ألا يزاد عليها غير ترابها كما رواه أبو داود عن جابر، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن ويزيدون على ترابها بالجص والآجر والأحجار، وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، وصنفوا لها (مناسك حج المشاهد) ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام. فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه الرسول ﷺ لأمته وما شرعه هؤلاء.

والنبي ﷺ أمر بزيارة القبور لأنها تذكر بالآخرة، وأمر الزائر أن يدعو لأهل القبور، ونهاه أن يقول هجراً. فهذه الزيارة التي أذن الله فيها لأمته وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع، أم تجدها لمضادة لما هم عليه من كل وجه أو لا أحسن ما قال الإمام مالك «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»، ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم عرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء جعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا. وقد نص على ذلك الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة للدعاء حتى لا يدعو عند القبر فإن الدعاء عبادة.

وبالجملة فالميت قد انقطع عمله فهو محتاج إلى من يدعو له، ولهذا شرع في الصلاة عليه من الدعاء ما لم يشرع مثله للحي؛ ومقصود الصلاة على الميت الاستغفار له والدعاء له. وكان ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول: «سلوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل» فبدل أهل البدع والشرك به قولاً غير الذي قيل لهم: فبدلوا الدعاء له بدعائه نفسه، والشفاعة له بالاستشفاع به، والزيارة التي شرعت إحساناً إلى الميت إلى الزيارة بسؤال الميت والإقسام به على الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد.

وذكر ابن إسحاق عن أبي العالية قال: لما فتحنا (تُستر) وجدنا في

بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فحملنا المصحف إلى عمر، فدعا كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه. قرأته مثل ما أقرأ القرآن، فيه سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد، قلت: فما صنعتم بالرجل، قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه عن الناس أن لا ينبشوه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم أبرزوا السرير فيمطرون. قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: دانيال. قلت: منذ كم مات؟ قال: من ثلاثمائة سنة. قلت: ما تغير من شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع.

ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف وعبدوه، فهم قد اتخذوا من قبور من لا يدانيه أوثاناً وجعلوا لها سدنة. وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير، فقطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشجرة التي بويع رسول الله ﷺ تحتها. ولما رأى عمر الناس يذهبون فسأل عن ذلك فقيل: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، يصلون فيه. قال: إنما كان أهلك من كان قبلكم بمثل هذا كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمدها.

وقد أنكر رسول الله ﷺ على الصحابة لما سألوه شجرة يعلقون عليها أسلحتهم بخصوصها ثم ذكر حديث ذات أنواط. فإذا كان اتخاذ الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها واتخاذها إله مع الله، وهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بالعكوف حول القبر ودعائه والدعاء عنده والدعاء به؟ وأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدع يعلمون؟

ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره علم أن بين السلف وبينهم أبعد مما بين المشرق والمغرب، والأمر والله أعظم مما ذكرنا.

وفي صحيح البخاري عن أم الدرداء قالت: دخل أبو الدرداء مغضباً، فقلت: ما لك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يصلون جميعاً. ا.هـ.

فتأمل رحمك الله تعالى كلام الشيخ رحمه الله تعالى وتصريحه بأن عبادة الأوثان قد وقعت في زمانه وتصريحه بعد ذكره لقصة دفن دانيال بأن أهل زمانه المتأخرين قد اتخذوا من قبور من لا يدانيه في المرتبة والفضل والصلاح أوثاناً، وأنهم لو وجدوه لجاهدوا عليه بالسيوف وعبدوه من دون الله، يتبين لك ما أصبح غالب الناس اليوم فيه من عبادة غير الله، ودعائهم، والاستغاثة بهم في الشدائد وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، والإخلاص لهم في العبادات في أوقات الشدائد عند ركوبهم في البحر وغيره الذي لم يفعله المشركون الأولون كما أخبرنا الله عنهم بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

فتأمل رحمك الله تعالى ما ذكر الله تعالى عن هؤلاء المشركين من إخلاص الدعوة لله في أوقات الشدائد، ثم تأمل ما يفعله المشركون في زماننا مما ذكرت لك، يتبين لك غربة الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ في هذه الأزمان.

فإذا كان كلام أهل العلم، وتصريحهم بأن الشرك بالله غلب على أكثر النفوس، وأن القليل الذي تخلص منه، بل القليل من لا يعادي من أنكر الشرك، فما ظنك بزمانك هذا؟ ومعلوم أن الأمر لا يزداد إلا شدة وغربة، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه» أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، ولكن الأمر كما قال الشيخ رحمه الله تعالى ومن له خبرة بما بعث الله به

رسوله ﷺ ومما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره علم أن بينهما أبعد مما بين المشرق والمغرب، وهذه هي الفتنة التي قال فيها ابن مسعود رضي الله عنه: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، يتخذها الناس سنة، إذا غيرت قيل غيرت السنة؟ والله أعلم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: والناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب للشرك والأزلام لطلب علم ما استأثر الله به، هذه للعلم وتلك للعمل. ودين الله تعالى مضاد لهذا وهذا. وعمّى الصحابة قبر دانيال بأمر عمر رضي الله عنه، ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بويع رسول الله ﷺ تحتها أرسل فقطعها. قال عيسى بن يونس: هو عندنا من حديث ابن عون عن نافع، فإذا كان هذا فعله في الشجرة التي ذكرها الله في القرآن وبايع تحتها الصحابة رسول الله ﷺ فماذا حكمه فيما عداها؟

وأبلغ من ذلك أن رسول الله ﷺ هدم مسجد الضرار، ففيه دليل على هدم المساجد التي هي أعظم فساداً منه كالبنية على القبور، وكذلك قبابها، فتجب المبادرة إلى هدم ما لعن رسول الله ﷺ فاعله، والله يقيم لدينه من ينصره ويذب عنه.

وكان بدمشق كثير من هذه الأنصاب فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام، وحزب الموحدين وكان العامة يقولون لشيء منها إنه يقبل النذر، أي يقبل العبادة من دون الله، فالنذر عبادة يتقرب بها الناذر إلى المنذر له، ولقد أنكر السلف التمسح بحجر المقام الذي أمر الله أن يتخذ منه مصلى، قال قتادة في الآية: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ذكر لنا من رأى أثر أصابعه فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق.

وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب فتنة أصحاب القبور، وهي أصل فتنة عباد الأصنام كما ذكر الله في سورة نوح في قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ الآية. ذكر السلف في

تفسيرها أن هؤلاء أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم. وتعظيم الصالحين إنما هو باتباع الصالحين واتباع ما دعوا إليه دون اتخاذ قبورهم أعياداً وأوثاناً، فأعرضوا عن المشروع واشتغلوا بالبدع. ومن أصغى إلى كلام الله وتفهمه أغناه عن البدع والآراء، ومن بعد عنه فلا بد أن يتعوض عنه بما لا ينفعه، كما أن من عمر قلبه بمحبة الله وخشيته والتوكل عليه أغناه عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه، والمعرض عن محبة الله عبد الصور شاء أم أبي، والمعرض عن اتباع السنة مبتدع شاء أم أبى.

وهذه الأمور المبتدعة عند القبور (أنواع): أبعدها عن الشرك أن يسأل الميت خاصة كما يفعله كثير، وهؤلاء من جنس عباد الأصنام، ولهذا قد يتمثل لهم الشيطان في صورة الميت كما يتمثل لعباد الأصنام، وهذا يحصل للمشركين وأهل الكتاب، وكذلك السجود للقبر وتقبيله والتمسح به.

والنوع الثاني أن يسأل الله به، وهذا يفعله كثير من المتأخرين، وهو بدعة إجماعاً. والنوع الثالث أن يظن أن الدعاء عنده مستجاب، وأنه أفضل من الدعاء في المسجد، فيقصد القبر لذلك، فهذا أيضاً من المنكرات إجماعاً، وما علمت فيها نزاعاً بين أئمة الدين، وإن كان كثير من المتأخرين يفعله.

وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم، وعبادتها في الأرض من قبل نوح عليه السلام، وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة في عبادتها طبق الأرض. قال إمام الحنفاء عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ .وكفى في معرفة أنهم أكثر أهل الأرض ما صح عن النبي ﷺ أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقال:

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾، وقـال: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها، وهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم ولا يزيدهم ذلك إلا حباً لها وتعظيماً، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر عليها، والله أعلم.

فتأمل رحمك الله كلام الشيخ في الأنصاب والأزلام والقباب المبنية على القبور، وأنه يجب المبادرة إلى هدمها، وأنها أعظم ضرراً من مسجد الضرار الذي قال الله تعالى في أهله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، وأمـر رسول الله ﷺ بهدمه وتحريقه، ونهى الله نبيه عن الصلاة فيه، وقوله: والله يقيم لدينه من ينصره ويذب عنه، وكان بدمشق كثير من هذه الأنصاب فيسر الله تعالى كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الموحدين، ومراده بذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى فإنه هدم مواضع كثيرة بدمشق مما يعبده العامة من دون الله وينذرون له ويقولون إنه يقبل النذر أي يقبل العبادة وذلك لأن النذر عبادة لله، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾ الآية.

فإذا عرفت أن النذر عبادة وصرفته لغير الله فقد أشركت في عبادة الله غيره، وقد أقام الله تعالى في زماننا هذا ـ وهو آخر القرن الثاني عشر من الهجرة النبوية ـ من بعث الله به دين الإسلام وإخلاص العبادة لله وحده بعد اندراسه، وهو الشيخ الإمام العالم، ذو الفضل والمكارم، والأخلاق السنية، والأعمال المرضية السنية، محيي السنة النبوية، وقامع البدعة الشركية، محمد بن عبد الوهاب، أسكنه الله الجنة التي هي أحسن المآب، وبَرّد مضجعه وأجزل له الثواب، فنصر الله به الدين القويم، وبين بسببه صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء

والصالحين، وأزال الله به الشرك وعبادة الأوثان، من أرض نجد محل الكفر والطغيان، ويسر الله كسر تلك الأوثان على يده وأيدي أتباعه من الموحدين، وحزب الله المفلحين، وكان قبل ذلك في كل أرض وبلد من أرض نجد أوثان وأشجار تعبد من دون الله وينذر لها ويذبح لها القربان ويعظمونها أعظم من تعظيم الله، كقبر زيد بن الخطاب في الجبيلة، وشجرة في قربوة من بلد الدرعية، وشجرة أخرى لأهل الطرفية، وغار يقال له غار بنت الأمير من أسفل بلد الدرعية، وقبر يقال له قبر المغربي.

وأعظم من ذلك عبادتهم تاجاً وشمسان مع شهادتهم عليهم بالفجور، ولكن يزعمون إنهم أولياء لا تضرهم الذنوب، ويهابونهم أعظم مما يهابون الله؛ ومنهم من يدعو الجن ويذبح لهم، وفي كل بلد من ذلك شيء عظيم. فأزال الله ذلك كله بشيخ الإسلام، وأقام الله به الحجة على أهل زمانه، وعرف التوحيد جميع أهل عدوانه، وأقروا أنه دين الله ورسوله، وأن الذي هم عليه الشرك بالله، ولم يزدهم ذلك إلا بغضاً له وعداوة، وسعوا في إزالته وعداوته بكل ممكن حسداً له لما أظهر الله الدين على يده، حتى أظهره الله عليهم ونصره ونصر أتباعه على من خذلهم وخالفهم، مع ضعفهم وقلة عددهم وقوة عدوهم وكثرتهم، وأدخل الله جميع أهل نجد في الإسلام ودانوا به واجتمعوا عليه حاضرتهم وباديتهم، فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله، ونسأل الله العظيم المنان أن يثبتنا على الإسلام، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يعيذنا من التفرق والاختلاف إنه على كل شيء قدير.

الاستغاثة: العبادات مبناها على الاتباع لا على الابتداع، فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». وفي الصحيح وغيره: ويقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن

الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك، ولهذا قال الفقهاء: العبادات مبناها على التوقيف، كما في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه أنه قبل الحجر الأسود وقال: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته وموالاته ومحبته، وضمن لنا بطاعته ومحبته وإكرامه محبته لنا ومغفرته وهدايتنا وإدخالنا الجنة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وأمثال ذلك في القرآن كثير. ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا الباب عما مضت به السنة وكان عليه سلف الأمة.

وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان: (أحدهما) أن لا نعبد إلا الله، (والثاني) أن لا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة، وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وجاءت السنة أن يسأل الله بأسمائه وصفاته فيقال: أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال، يا حي يا قيوم، وأسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وكذلك قوله: اللهم إني أسألك

بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك العظيم، وجدك الأعلى، وكلماتك التامة. مع أن هذا الدعاء الثاني في جواز الدعاء به قولان للعلماء.

وقال الشيخ أبو الحسن القدوري: قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة رحمه الله: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك. وهو قول أبي يوسف، قال أبو يوسف: بمعقد العز من عرشك هو الله، فلا أكره هذا، وأكره بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت والمشعر الحرام.

قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق، فلا تجوز. يعني وفاقاً. وقال البلدجي في شرح المختار: ويكره أن يدعو الله إلا به، فلا يقول أسألك بحق فلان أو بملائكتك أو بأنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق. أو يقول في دعائه أسألك بمعقد العز من عرشك. وعن أبي يوسف أنه يجوز.

قلت: وهذا من أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما يقتضي المنع أن يسأل الله تعالى بغيره. وأما سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غير نبي فهو من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله تعالى به ولا رسوله ﷺ، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت: سيدي فلان أنا في حسبك، أو اقض حاجتي، كما يقوله بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين، ولا أحد من الصحابة استغاث النبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء، لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبورهم الأنبياء، ولا الصلاة عندها.

ولما قحط الناس في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى

بالعباس وتوسل بدعائه وقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك ـ إذا أجدبنا ـ بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري. وكذلك معاوية رضي الله عنه لما استسقى بأهل الشام توسل بيزيد بن الأسود الجرشي. فهذا الذي ذكره عمر رضي الله عنه توسل منهم بدعاء النبي ﷺ وشفاعته في حياته، ولهذا توسلوا بعده بدعاء العباس ودعاء يزيد بن الأسود، وهذا هو الذي ذكره الفقهاء في كتاب الاستسقاء فقالوا: يستحب أن يستسقى بالصالحين، وإذا كانوا من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل.

وقد كره العلماء كمالك وغيره أن يقوم الرجل عند قبر النبي ﷺ يدعو لنفسه، وذكروا أن هذا من البدع التي لم يفعلها السلف، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية.

وفي التفسير الصحيح عن مجاهد (يبتغون إلى ربهم الوسيلة قال: عيسى بن مريم وعزير والملائكة. وكذلك عن إبراهيم النخعي قال: كان ابن عباس يقول في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هو عزير والمسيح والشمس والقمر.

وكذلك شعبة روى عن السدي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: عيسى وأمه والعزير. وعن عبد الله بن مسعود قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية، ثبت ذلك عنه في صحيح البخاري. وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر، والسلف رضي الله عنهم في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله: ما معنى لفظ الخبز؟ فيريه رغيفاً فيقول: هذا. فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه. وليس مرادهم بذلك

تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين، فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعواً وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، لكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تناول من دعا الملائكة والجن، ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكونون وسائط فيما يقدره الله تعالى بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله تعالى من دعائهم وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله. ولا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر نكرة تعم أحوال التحويل، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة أو دعا الجن، فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

وقد نص الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق، قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله، وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك.

ومما يبين حكمة الشريعة وعظم قدرها وأنها كما قيل كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، أن الذين خرجوا عن المشروع زين لهم الشيطان أعمالهم حتى خرجوا إلى الشرك، فطائفة من هؤلاء يصلون للميت ويستدبر أحدهم القبلة ويسجد للقبر ويقول أحدهم: القبلة قبلة العامة، وقبر الشيخ فلان قبلة الخاصة. وهذا يقوله من هو أكثر الناس عبادة وزهداً، وهو شيخ متبوع ولعله من أمثل أتباع شيخه بقوله في شيخه، وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق والاجتهاد في العبادة والزهد يأمر المريد أول ما يتوب أن يذهب إلى قبر الشيخ فيعكف عليه عكوف أهل التماثيل عليها.

وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب ما لا يجده أحدهم في مساجد الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وآخرون يحجون للقبور، وطائفة صنفوا كتاب مناسك حج المشاهد كما صنف أبو عبد الله محمد بن النعمان الملقب بالمفيد أحد شيوخ الإمامية كتاباً في ذلك وذكر فيه من الحكايات المكذوبة على أهل البيت ما لا يخفى كذبه على من له معرفة بالنقل، وآخرون يسافرون إلى قبور المشايخ وإن لم يسموا ذلك منسكاً وحجاً، فالمعنى واحد.

ومن هؤلاء من يقول: وحتى النبي الذي تحج إليه المطايا، فيجعل الحج إلى النبي لا إلى بيت الله عز وجل، وكثير من هؤلاء أعظم قصده من الحج قصد قبر النبي ﷺ لا حج البيت، وبعض الشيوخ المشهورين بالدين والزهد والصلاح صنف كتاباً بأسماء الاستغاثة بالنبي ﷺ في اليقظة والمنام. وهذا الضال استعان بهذا الكتاب، وقد ذكر في مناقب هذا الشيخ أنه حج مرة وكان قبر النبي ﷺ منتهى قصده ثم رجع ولم يذهب إلى مكة وجعل هذا من مناقبه، فإن كان مستحباً فينبغي لمن يجب عليه حج أن يجعل المدينة منتهى قصده ولا يذهب إلى مكة فإنه زيادة كلفة ومشقة مع ترك الأفضل، وهذا لا يقول به عاقل.

وبسبب الخروج عن الشريعة صار بعض أكابر الشيوخ عند الناس ممن يقصده الملوك والقضاة والعلماء على طريقة ابن سبعين قيل عنه إنه كان يقول: البيوت المحجوبة ثلاثة: مكة، وبيت المقدس، والبلد الذي للمشركين بالهند، وهذا لأنه كان يعتقد أن دين اليهود حق ودين النصارى حق وجاءه بعض إخواننا العارفين قبل أن يعرف حقيقته فقال له: أريد أن أسلك على يديك. فقال: على دين اليهود أو النصارى أو المسلمين؟ فقال له: واليهود والنصارى ليسوا كفاراً؟ فقال: لا تشدد عليهم، ولكن الإسلام أفضل.

ومن هؤلاء من يرجح الحج إلى المقابر على الحج إلى البيت، ومنهم من يرجح الحج إلى البيت لكن قد يقول أحدهم: إنك إذا زرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً كان كحجة، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات يسافرون إليها وقت الموسم فيعرفون بها كما يعرف المسلمون بعرفات، كما يفعل هذا في المغرب والمشرق، ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذي يعظمه أفضل من الحج، ويقول أحدهم لأحد المريدين وقد حج سبع حجج إلى بيت الله العتيق: اتبعني زيارة قبر الشيخ بالحجج السبع؟ فشاور الشيخ، فقال: لو بعته لكنت مغبوناً! ومنهم من يقول: من طاف بقبر الشيخ سبعاً كان كحجة، ومنهم من يقول: زيارة المغارة الفلانية ثلاث مرات كحجة، ومنهم من يحكي عن الشيخ الميت أنه قال: كل خطوة إلى قبري كحجة، ويوم القيامة لا أبيع بحجة. وأنكر بعض الناس ذلك فتمثل له الشيطان بصورة الشيخ في منامه وزجره عن إنكار ذلك.

وهؤلاء وأمثالهم صلاتهم ونسكهم لغير رب العالمين، فليسوا على ملة إمام الحنفاء، وليسوا من عمار مساجد الله الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فعمار مساجد الله لا يخشون إلا الله، وعمار مشاهد القبور يخشون غير الله ويرجون غير الله، حتى أن طائفة من أرباب الكبائر الذين لا يخشون الله فيما يفعلونه من القبائح كان [أحدهم] إذا رأى قبة الميت أو الهلال الذي على رأس القبة يخشى من فعل الفواحش، ويقول أحدهم لصاحبه: ويحك هذا هلال القبة؛ فيخشون المدفون تحت الهلال ولا يخشون الذي خلق السموات والأرض وجعل أهلة السماء مواقيت للناس والحج.

وهؤلاء إذا نوظروا خوفوا مناظرهم كما صنع المشركون بإبراهيم. قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وآخرون وقد جعلوا الميت بمنزلة الإله، والشيخ الحي التعلق به كالنبي، فمن الميت تطلب قضاء الحاجات وكشف الكربات، وأما الحي فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه، وكأنهم في أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلهاً، وعزلوا محمداً ﷺ أن يتخذوه رسولاً، وقد يجيء الحديث العهد بالإسلام أو التابع لهم الحسن الظن بهم وغيره يطلب من الشيخ الميت إما دفع ظلم ملك يريد أن يظلمه أو غيره ذلك فيدخل ذلك السادن فيقول قد قلت للشيخ، والشيخ يقول للنبي، والنبي يقول لله، والله قد بعث رسولاً إلى السلطان فلان. فهل هذا إلا محض دين المشركين والنصارى، وفيه من الكذب والجهل ما لا يستجيزه كل مشرك ونصراني ولا يروج عليه!

ويأكلون من النذور والمنذور وما يؤتى به إلى قبورهم ما يدخلون به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعرضون بأنفسهم ويمنعون غيرهم، إذ التابع لهم يعتقد أن هذا هو سبيل الله ودينه، فيمتنع بسبب ذلك من الدين الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه، والله تعالى لم يذكر في كتابه المشاهد، بل ذكر المساجد وأنها خالصة له، قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ الآية. ولم يذكر بيوت الشرك كبيوت الأصنام والمشاهد، ولا ذكر بيوت النار. لأن الصوامع والبيع لأهل الكتاب، فالممدوح من ذلك ما كان مبنياً قبل النسخ والتبديل، كما أثنى على اليهود والنصارى والصابئين الذين كانوا قبل النسخ والتبديل، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات.

فبيوت الأوثان وبيوت النيران وبيوت الكواكب وبيوت المقابر لم

يمدح الله شيئاً منها ولم يذكر ذلك إلا في قصة من لعنهم النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فهؤلاء الذين اتخذوا مسجداً على أهل الكهف كانوا من النصارى الذين لعنهم النبي ﷺ حيث قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ـ وفي رواية ـ «والصالحين» ودعاء المقبورين من أعظم الوسائل إلى ذلك.

وقد قدم بعض شيوخ المشرق وتكلم معي في هذا، فبينت له فساد هذا، فقال: أليس قد قال النبي ﷺ: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»؟ فقلت: هذا مكذوب باتفاق أهل العلم، لم يروه عن النبي ﷺ أحد من علماء الحديث. وبسبب هذا وأمثاله ظهر مصداق قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن».

وهؤلاء الغلاة المشركون إذا حصل لأحدهم مطلوبه ولو من كافر لم يقبل على الرسول، بل يطلب حاجته من حيث يظن أنها تُقضى، فتارة يذهب إلى ما يظنه قبر رجل صالح ويكون فيه قبر كافر أو منافق، وتارة يعلم أنه كافر أو منافق ويذهب إليه، كما يذهب قوم إلى كنيستهم أو إلى مواضع يقال لهم إنها تقبل النذر، فهذا يقع فيه عامتهم.

وأما الأول فيقع فيه خاصتهم، حتى أن بعض أصحابنا المباشرين لقضاء القضاة لما بلغه أني أنهى عن ذلك صار عنده من ذلك شبهة ووسواس، لما يعتقده من الحق فيما أذكره، ولما عنده من المعارضة، لذلك قال لبعض أصحابنا سراً: أنا جربت إجابة الدعاء عند قبر بالقرافة، فقال له ذلك الرجل: فأنا أذهب معك إليه لنعرف قبر من هو، فذهبا إليه، فوجدا مكتوباً عليه (قبر علي)، فعرفوا أنه إما رافضي وإما إسماعيلي.

وكان بالبلد جماعة كثيرون يظنون في العبيديين أنهم أولياء الله الصالحون، فلما ذكرت لهم أن هؤلاء كانوا منافقين زنادقة، وخيار من فيهم

الرافضة، جعلوا يتعجبون ويقولون: نحن نذهب بالفرس التي فيها مغل إلى قبورهم فتشفى عند قبورهم. فقلت لهم: هذا من أعظم الأدلة على كفرهم، وطلبت طائفة من سياس الخيل. فقلت: أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المغل أين تذهبون بها؟ فقالوا: في الشام نذهب بها إلى قبور اليهود والنصارى، وإذا كنا بأرض الشمال نذهب بها إلى القبور التي ببلاد الإسماعيلية كالعليقة والمنيعة ونحوهما. وأما في مصر فنذهب بها إلى دير هنا للنصارى، ونذهب إلى قبور هؤلاء الأشراف ـ وهم يظنون أن العبيديين أشراف لما أظهروا أنهم من أهل البيت. فقلت: هل تذهبون بها إلى قبور صالحي المسلمين مثل الليث بن سعد والشافعي وابن القاسم ونفيسة وغير هؤلاء؟ فقالوا: لا. فقلت لأولئك: اسمعوا، إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار والمنافقين، وبينت لهم سبب ذلك، فقلت: لأن هؤلاء يعذبون في قبورهم والبهائم تسمع أصواتهم، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، فإذا سمعت ذلك فزعت فبسبب الرعب الذي يحصل لها فتنحل بطونها فتروث، فإن الفزع يقتضي الإسهال. فتعجبوا من ذلك. وهذا المعنى كثيراً ما كنت أذكره للناس، ولم أعلم أن أحداً قاله، ثم وجدته قد ذكره بعض العلماء.

والمقصود هنا أن كثيراً من الناس يعظم قبر من يكون في الباطن كافراً أو منافقاً ويكون هذا عنده والرسول من جنس واحد، لاعتقاده أن الميت يقضي حاجته إذا كان رجلاً صالحاً، وكلا هذين عنده من جنس من يستغيث به. وكم من مشهد يعظمه الناس وهو كذب، بل يقال إنه قبر كافر، كالمشهد الذي بسفح جبل لبنان الذي يقال إنه قبر نوح، فإن أهل المعرفة يقولون إنه قبر بعض العمالقة، وكذلك مشهد الحسين الذي بالقاهرة وقبر أبي كعب الذي في دمشق اتفق العلماء أنه كذب، ومنهم من قال هما قبران لنصرانيين، وكثير من المشاهد متنازع فيها، وعندها شياطين تضل بسببها من تضل.

ومنهم من يرى في المنام شخصاً يظن أنه المقبور، ويكون ذلك

شيطاناً تصور بصورته أو بغير صورته، كالشياطين التي تكون بالأصنام وكالشياطين الذين يتمثلون لمن يستغيث بالأصنام والموتى والغائبين، وهذا كثير في زماننا وغيره، مثل أقوام يرصدون بعض التماثيل التي بالبرابي بديار مصر بإخميم وغيرها يرصدون التمثال مدة لا يتطهرون طهور المسلمين، ولا يصلون صلاة المسلمين، ولا يقرأون حتى يتعلق الشيطان تلك الصورة فيراها تتحرك فيضع فيها شمعة أو غيرها، فيرى شيطاناً قد خرج له فيسجد لذلك الشيطان حتى يقضي بعض حوائجه، وقد يمكنه من فعل الفاحشة به حتى يقضي حوائجه، ومثل هؤلاء كثير من شيوخ الترك الكفار يسمونه البوي وهو المتخنث إذا طلبوا منه بعض هذه الأمور أرسلوا له من ينكحه وينصبون له حركات عالية في ليلة ظلماء وقربوا له خبزاً وميتة وغنوا غناء يناسبه بشرط أن لا يكون عندهم من يذكر الله ولا هناك شيء فيه من ذكر الله، ثم يصعد ذلك الشيخ المفعول به في الهواء ويرون الدف يطير في الهواء ويضرب من مد يده إلى الخبز، ويضرب الشيطان بآلات اللهو وهم يسمعون ويغني لهم الأغاني التي كانت تغنيها آباؤهم الكفار، ثم قد يغيب، ولذلك الطعام فيرونه وقد نقل إلى بيت البوي وقد لا يغيب ويقربون له ميتة يحرقونها بالنار ويقضي بعض حوائجهم.

ومثل هذا كثير جداً للمشركين فالذي يجري عند المشاهد من جنس ما يجري عند الأصنام، وقد ثبت بطرق متعددة أن ما يشرك به من دون الله من صنم وقبر وغير ذلك قد يكون عنده شياطين تضل من أشرك به، وإن تلك الشياطين لا يقضون إلا بعض أغراضهم، وإنما يقضونها إذا حصل منهم الشرك والمعاصي ما يحبه الشيطان، فمنهم من يأمر الداعي أن يسجد له، ومنهم من يأمره بالفواحش وقد يفعلها الشيطان، وقد ينهاه عما أمر الله به من التوحيد والإخلاص والصلوات الخمس وقراءة القرآن ونحو ذلك، والشياطين تغوي الإنسان بحسب ما تطمع منه فإن كان ضعيف الإيمان أمرته بالكفر وإلا أمرته بما هو فسق أو معصية، وإن كان قليل العلم أمرته بما لا يعرف أنه مخالف للكتاب والسنة.

وقد وقع في هذا النوع كثير من الشيوخ الذين لهم نصيب وافر من الدين والزهد والعبادة، لكن لعدم علمهم بحقيقة الدين الذي بعث الله به رسوله طمعت فيهم الشياطين حتى أوقعوهم فيما يخالف الكتاب والسنة، وقد جرى لغير واحد من أصحابنا المشايخ يستغيث بأحدهم بعض أصحابه فيرى الشيخ قد جاء في اليقظة حتى قضى ذلك المطلوب، وإنما هي شياطين تتمثل للمشركين الذين يدعون غير الله، والجن بحسب الانس: فالكافر للكافر والفاجر للفاجر والجاهل للجاهل، وأما أهل العلم والإيمان فاتباع الجن لهم كاتباع الانس يتبعونهم فيما أمر الله تعالى به ورسوله، وقد حدثني بعض الثقات عن هذا الشخص ـ يعني ابن البكري الذي جوز في كتابه الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث بالله ـ أنه كان يقول: إن النبي ﷺ علم مفاتيح الغيب التي قال فيها النبي ﷺ: «خمس لا يعلمها إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير» وأظنه ذكر عنه أنه قال: علمها بعد أن أخبر أنه لا يعلمها إلا الله.

وآخر من جنسه يباشر التدريس وينسب إلى الفتيا كان يقول: إن النبي ﷺ يعلم ما يعلمه الله ويقدر الله عليه، وأن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن، ثم انتقل في ذرية الحسن إلى الشيخ إبي الحسن الشاذلي، وقالوا: هذا مقام القطب والغوث الفرد الجامع.

وكان شيخ آخر معظم عقد أتباعه يدعي هذه المنزلة ويقول إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، وإنه يزوج عيسى بابنته، وأن نواصي الملوك والأولياء بيده: يولي من شاء، ويعزل من شاء. وإن الرب يناجيه دائماً، وإنه الذي يمد حملة العرش وحيتان البحر. وقد عزرته تعزيراً بليغاً في يوم مشهود بحضرة من أهل المسجد الجامع يوم الجمعة بالقاهرة، فعرفه الناس وانكسر بسببه أشباهه من الدجاجلة.

ومن هؤلاء من يقول: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ أن الرسول ﷺ هو الذي يسبح بكرة وأصيلاً، ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله، فيجعلون الرسول معبوداً. ومنهم من يأتي قبر الميت الرجل أو المرأة الذي يحسن الظن لنفسه فيقول: اغفر لي وارحمني ولا توقفني على زلة، ونحو هذا الكلام، إلى أمثال هذه الأمور التي يتخذ فيها المخلوق إلهاً.

ولما استقر هذا في نفوس عامتهم نجد أحدهم إذا سئل عمن ينهاهم: ما يقول هذا؟ فيقول: فلان عنده مائم إلا الله. لما استقر في نفوسهم أنهم يجعلون مع الله إلهاً آخر. وهذا كله وأمثاله وقع ونحن بمصر.

وآخر يقول معظماً لمن يدعو إلى التوحيد: قد جعل الآلهة إلهاً واحداً. وهؤلاء الضالون مستخفون بتوحيد الله، ويعظمون دعاء غير الله من الأموات، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به كما أخبر تعالى عن المشركين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية، فاستهزءوا بالرسول لما نهاهم عن الشرك. وقال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ وذكر رحمه الله أشياء كثيرة.

وما زال المشركون يسفهون الأنبياء ويصفونهم بالجنون والضلال والسفاهة كما قال قوم نوح لنوح وعاد لهود عليهما السلام: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ فأعظم ما سفهوه لأجله وأنكروه هو التوحيد، وهكذا تجد من عليه شبة من هؤلاء من بعض الوجوه إذا رأى من يدعو إلى توحيد الله وإخلاص الدين له وأن لا يعبد الإنسان إلا الله ولا يتوكل إلا

عليه استهزأ بذلك لما عنده من الشرك، وكثير من هؤلاء يخربون المساجد، فتجد المسجد الذي بني للصلوات الخمس معطلاً مخرباً ليس له كسوة إلا من الناس وكأنه خان من الخانات، أما المشهد الذي بني على الميت فعليه الستور وزينة الذهب والفضة والرخام والنذور تغدو وتروح إليه فهل هذا إلا من استخفافهم بالله وآياته ورسوله وتعظيمهم للشرك؟ فإنهم اعتقدوا أن الميت الذي بني له المشهد والاستغاثة به أنفع لهم من دعاء الله تعالى والاستغاثة به في البيت الذي بني لله عز وجل؛ ففضلوا البيت الذي بني لدعاء المخلوق، وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم منه، مضاهاة لمشركي العرب الذين ذكر الله حالهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ كما يجعلون لله زرعاً وماشية ولآلهتهم زرعاً وماشية، فإذا أصيب نصيب آلهتهم أخذوا من نصيب الله تعالى فوضعوه فيه وقالوا: الله غني وآلهتنا فقيرة، فيفضلون ما يجعل لغير الله على ما يجعل لله، وهكذا هؤلاء الوقوف والنذور التي تبذل عندهم للمشاهد أعظم مما تبذل عندهم للمساجد ولعمارة المساجد والجهاد في سبيل الله، وهؤلاء إذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه بكى عنده وخضع ويدعو ويتضرع ويحصل له الرقة والتواضع والعبودية وحضور القلب ما لا يحصل له في الصلوات الخمس والجمعة وقيام الليل وقراءة القرآن، فهل هذا إلا من حال المشركين المبتدعين، لا الموحدين المخلصين المتبعين لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟

ومثل هذا أنه إذا سمع أحدهم سماع الأبيات يحصل له الحضور والخشوع والبكاء ما لا يحصل له مثله عند سماع آيات الله تعالى، فيخشع عند سماع المبتدعين المشركين، ولا يخشع عند سماع المتقين المخلصين، بل إذا سمعوا آيات الله اشتغلوا عنها وكرهوها واستهزءوا بها وبمن يقرأها ما يحصل لهم به أعظم نصيب من قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ

﴿ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾، وإذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، كأنهم صم عمي، وإذا سمعوا الأبيات حضرت قلوبهم وسكتت ألسنتهم وسكنت حركاتهم حتى لا يشرب العطشان منهم ماء.

ومن هؤلاء من إذا كانوا في سماعهم فأذن المؤذن قال: نحن في شيء أفضل مما دعانا إليه، ومنهم من يقول كنا في الحضرة فإذا قمنا إلى الصلاة صرنا إلى الباب، وقد سألني بعضهم عمن قال ذلك من هؤلاء الشيوخ الضلال فقلت: كذب، كان في حضرة الشيطان فصار على باب الله، فإن البدع والضلال فيها من حضور الشيطان ما قد فصل في غير هذا الموضع.

والذين يجعلون دعاء الموتى من الأنبياء والأئمة والشيوخ أفضل من دعاء الله أنواع متعددة، منهم من تقدم ومنهم من يحكي أنواعاً من الحكايات: حكاية أن بعض المريدين استغاث بالله ولم يغثه واستغاث بشيخه فأغاثه، وحكاية أن بعض المأسورين في بلاد العدو دعا الله فلم يخرجه فدعا بعض المشايخ الموتى فجاءه فأخرجه إلى بلاد الإسلام، وحكاية أن بعض الشيوخ قال لمريده: إذا كانت لك إلى الله حاجة فتعال الى قبري، وآخر قال: فتوسل إلى الله بي، وآخر قال: قبر فلان هو الترياق المجرب.

فهؤلاء وأشباههم يرجحون هذه الأدعية على أدعية المخلصين لله مضاهاة لسائر المشركين. وهؤلاء تتمثل لكثير منهم صورة شيخه الذي يدعوه فيظنه إياه أو ملكاً على صورته، وإنما هو شيطان أغواه. ومن هؤلاء ممن إذا نزلت به شدة لا يدعو إلا شيخه ولا يذكر إلا اسمه قد لهج به كما يلهج الصبي بذكر أمه فيستنصر به أحدهم فيقول: يا فلان، وقد قال الله تعالى للموحدين: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾.

ومن هؤلاء من يحلف بالله ويكذب ويحلف بشيخه وإمامه ويصدق

ولا يكذب، فيكون شيخه عنده وفي صدره أعظم من الله، فإذا كان دعاء الموتى مثل الأنبياء والصالحين يتضمن هذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، فأي الفريقين أحق بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله: من كان يأمر بدعاء الموتى والاستغاثة بهم مع ما يترتب على ذلك من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، أو من كان يأمر بدعاء الله وحده لا شريك له كما أمرت رسله ويوجب طاعة الرسول ﷺ ومتابعته في كل ما جاء به؟

وأيضاً فإن هؤلاء الموحدين من أعظم الناس إيجاباً لرعاية جانب الرسول ﷺ تصديقاً له فيما أخبر، وطاعة له فيما أمر، واعتناء بمعرفة ما بعث به، والتمييز بين ما روى عنه من الصحيح والضعيف والصدق والكذب، واتباع ذلك دون ما خالفه، عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وأما أولئك الضلال أشباه المشركين والنصارى فعمدتهم إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو منقولات عمن لا يحتج بقوله، إما أن تكون كذباً عليه، وإما أن تكون غلطاً منه، إذ هي نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم. وإن اعتصموا بشيء مما ثبت عن الرسول ﷺ حرفوا الكلم عن مواضعه وتمسكوا بمتشابهه وتركوا محكمه، كما يفعل النصارى، وكما فعل هذا الضال: أخذ لفظ الاستغاثة ـ وهي تنقسم لاستغاثة الحي وبالميت والاستغاثة بالحي تكون فيما يقدر عليه وما لا يقدر عليه ـ فجعل حكم ذلك كله واحداً، ولم يكفه حتى جعل السؤال بالشخص من مسمى الاستغاثة أيضاً، ولم يكفه ذلك حتى جعل الطالب إنما طلب من الله لا منه، فالمستغيث به مستغيث بالله، ثم جعل الاستغاثة بكل ميت من نبي وصالح جائزة، واحتج على هذه الدعوى العامة الكلية ـ التي أدخل فيها من الشرك والضلال ما لا يعلمه إلا ذو الجلال ـ بقضية خاصة جزئية كسؤال الناس للنبي ﷺ في الدنيا والآخرة أن يدعو الله لهم وتوجههم إلى الله بدعائه وشفاعته، ومعلوم إن هذا الذي جاءت به السنة حق لا ريب فيه ولكن لا يلزم من ذلك ثبوت جميع تلك الدعاوى العامة وإبطال نقيضها، إذ الدعوى الكلية لا تثبت بدليل جزئي، لا

سيما عند الاختلاف والتباين، وهذا كمن يريد أن يثبت حل جميع أنواع الملاهي لكل أحد والتقرب بها إلى الله لكون جاريتين غنتا عند عائشة رضي الله عنها في بيت النبي ﷺ يوم عيد مع كون وجهه كان مصروفاً إلى الحائط لا إليهما، أو يحتج على استماع كل قول بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ولا يدري أن القول هنا هو القول كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية وإلا فمُسلّم لا يسوغ إستماع كل قول، ونهى الله عز وجل عن الجلوس مع الخائضين في آياته، وخوضهم نوع من القول فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ الآية.

وهذا الضال يجوز عنده أن يستغاث بالرسول في كل ما يستغاث بالله على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى في طلب الغوث، وهذا عنده ثابت للصالحين، وهو ثابت عند هذا الضال بعد موته ثبوته في حياته لأنه عند الله في مزيد دائم لا ينقص جاهه، فدخل عليه الخطأ من وجوه:

(منها) أنه جعل المتوسل به بعد موته في الدعاء مستغيثاً به، وهذا لا يعرف في لغة أحد من الأمم لا حقيقة ولا مجازاً مع دعواه الإجماع على ذلك، فإن المستغاث به هو المسؤول المطلوب منه لا المسؤول به.

(الثاني) ظنه أن توسل الصحابة به في حياته كان توسلاً بذاته لا بدعائه وشفاعته، فيكون التوسل به بعد موته كذلك، وهذا غلط، لكنه يوافقه طائفة من الناس، بخلاف الأول فإني ما علمت أحداً وافقه عليه.

(الثالث) أنه أدرج سؤاله أيضاً في الاستغاثة به، وهذا صحيح جائز في حياته، وهو قد سوى في ذلك بين محياه ومماته ﷺ، وهنا أصاب في لفظ الاستغاثة لكن أخطأ في التسوية بين المحيا والممات، وهذا ما علمته

بنقل عن أحد من العلماء لكنه موجود في كلام بعض الناس مثل الشيخ يحيى الصرصري ففي شعره قطعة منه، والشيخ محمد بن النعمان له كتاب المستغيثين بالنبي عليه السلام في اليقظة والمنام، وهذا الرجل قد نقل منه فيما يغلب على ظني، وهؤلاء لهم صلاح ودين لكنهم ليسوا من أهل العلم العالمين بمدارك الأحكام، الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام، وليس لهم دليل شرعي ولا نقلي عن عالم مرضي، بل عادة جروا عليها كما جرت عادة كثير من الناس بأنه يستغيث بشيخه في الشدائد ويدعوه. وكان بعض الشيوخ الذين أعرفهم ـ ولهم فضل وعلم وزهد ـ إذا نزل بهم أمر خطا إلى جهة الشيخ عبد القادر خطوات معدودة واستغاث به، وهذا يفعله كثير من الناس، ولهذا لما نبه من نبه من فضلائهم تنبهوا وعلموا أن ما كانوا عليه ليس من دين الإسلام، بل هو مشابهة لعباد الأصنام.

لكن هؤلاء كلهم لا يعد نفي هذا والنهي عنه كفراً، إلا مثل هذا الأحمق الضال، الذي حاق به وبيل النكال، فإنه من غلاة أهل البدع الذين يبتدعون القول ويكفرون من خالفهم فيه كالخوارج والروافض والجهمية، فإن هذا القول الذي قاله لم يوافقه عليه أحد من علماء المسلمين لا الأولين ولا الآخرين، وقد طاف بجوابه على علماء مصر ليوافقه واحد منهم فما وافقوه، وطلب منهم أن يخالفوا الجواب الذي كتبته فما خالفوه، وقد كان بعض الناس يوافقه على جواز التوسل بالنبي الميت، لكنهم لم يوافقوه على تسميته استغاثة، ولا على كفر من أنكر الاستغاثة به، ولا جعل هذا من السب، بل عامتهم وافقوا على منع الاستغاثة به بمعنى أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، وما علمت عالماً نازع في أن الاستغاثة بالنبي وغيره من المخلوقين بهذا المعنى لا تجوز، مع أن قوماً ما كان لهم غرض وفيهم جهل بالشرع قاموا في ذلك قياماً عظيماً واستغاثوا بمن كان له غرض من ذوي السلطان، وجمعوا الناس وعقدوا مجلساً عظيماً ضل فيه سعيهم، وظهر فيه جهلهم، وخاب فيه قصدهم، وظهر فيه الحق لمن يعاونهم من

الأعيان، وتمنوا أن ما فعلوه ما كان، لأنه كان سبباً لظهور الحق مع الذي عادوه وقاموا عليه، وسبب الانقلاب الخلق إليه؛ وكانوا كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، مع فرط تعصبهم وكثرة جمعهم وقوة سلطانهم، ومكايد شيطانهم.

وهذه الطريقة التي سلكها هذا وأمثاله هي طريقة أهل البدع الذين يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم كالخوارج المارقين، وكذلك الروافض الذين كفروا من خالفهم من الصحابة وجمهور المؤمنين، حتى كفروا أبا بكر وعمر وعثمان ومن والاهم وأئمة السنة والجماعة.

وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة، ويعدلون فيمن خرج عنها ولو ظلمهم، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الآية، فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم وإن كان ذلك المخالف يكفرهم، لأن الكفر حكم شرعي فليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله، لأن الكذب والزنا حرام لحق الله، وكذلك التكفير حق لله فلا يكفر إلا من كفر الله ورسوله، وأيضاً فإن تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها، وإلا فليس كل من جهل شيئاً من الدين يكفر، ولهذا لما استحل طائفة من الصحابة والتابعين الخمر ـ كقدامة بن مظعون وأصحابه، وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحاً على ما فهموه من آية المائدة ـ اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابون فإن أصروا على الاستحلال كفروا، وإن أقروا به جلدوا، فلا يكفرهم بالاستحلال ابتداء لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق، فإذا أصروا على

الجحود كفروا، وقد ثبت في الصحيحين حديث الذي قال لأهله: إذا أنا مت فاسحقوني ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين. فأمر الله البر فرد ما أخذ منه، وأمر البحر فرد ما أخذ منه، وقال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك يا رب. فغفر له.

فهذا اعتقد أنه إذا فعل ذلك لا يقدر الله على إعادته، وأنه لا يعيده، أو جوز ذلك وكلاهما كفر، لكن كان جاهلاً لم يتبين له الحق بياناً يكفر بمخالفته فغفر الله له. ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن يكون الله تعالى فوق العرش: أنا لو وافقتكم كنت كافراً، لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم.

وهو قد احتج بحديث الأعمى الذي قال: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة. وهذا الحديث لا حجة فيه لوجهين: أحدهما أنه ليس هو استغاثة بل توجهاً به، والثاني أنه إنما توجه بدعائه وشفاعته، فإنه طلب من النبي ﷺ الدعاء وقال في آخره: «اللهم فشفعه في» فعلم أنه شفع له، فتوسل بشفاعته لا بذاته كما كان الصحابة يتوسلون بدعائه في الاستسقاء وكما توسلوا بدعاء العباس بعد مماته.

وكذلك في أول الحديث أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فيدل الحديث على أن النبي ﷺ شفع له ودعا له، وأن النبي ﷺ أمره أن يدعو الله تعالى وأن يسأله قبول شفاعته.

وقوله: يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، خطاب لحاضر في قلبه، كما نقول في صلاتنا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، كما يستحضر الإنسان من يحبه ويبغضه في قلبه ويخاطبه، وهذا كثير.

وما ذكره من توسل آدم وحكاية المنصور فجوابها على وجهين:

أحدهما أن هذا لا أصل له ولا تقوم به حجة ولا إسناد لذلك، والثاني أنه لم يدل على التوسل بذاته ولا على الاستغاثة. وأما اشتكاء البعير إليه فهذا كاشتكاء الآدمي إليه، وما زال الناس يستغيثون به في حياته كما يستغيثون به في القيامة.

وقد قلنا إنه طلب منه ما يليق بمنصبه فهذا لا نزاع فيه، والطلب منه في حياته والاستغاثة به في حياته فيما يقدر عليه لم ينازع فيهما أحد. فما ذكره لا يدل على مورد النزاع، ولكن هذا أخذ لفظ الاستغاثة ومعناها العام فجعل يشبه به، وهذا إنما يليق بمن قال: لا يستغيث به أحد حياً ولا ميتاً في شيء من الأشياء، ومعلوم أن العاقل لا يقول هذا في آحاد العامة فضلاً عن الصالحين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين فضلاً عن سيد الأولين والآخرين، فإنه ما من أحد إلا يمكن أن يستغاث به في بعض الأشياء فكيف أفضل الخلق وأكرمهم على الله؟ ولكن النفي عاد إلى الشيئين: إلى الاستغاثة به بعد الموت، وأن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

وأما قول هؤلاء الجهال فهو يستلزم الردة عن الدين، والكفر برب العالمين، ولا ريب أن أصل قول هؤلاء هو من باب الشرك بالله الذي هو الكفر الذي لا يغفره الله تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ الآية، وقد قال غير واحد من السلف: هذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، وقد ذكروا ذلك بعبارات متقاربة في كتب الحديث والتفسير وقصص الأنبياء كما ذكره البخاري في صحيحه وجماعة من أهل الحديث، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ الآية، فيقول أهل الضلال: هذا يقوله هو نفسه، وأما نحن فليس لنا أن نقول هو بشر، بل نقول كما قال فلان وفلان ومن زعم أن محمداً بشر كله فقد كفر. وهذا يقوله قوم منهم، وهو تشبه بقول النصارى في المسيح، يقولون: هو ليس بشراً كله، بل المسيح عندهم اسم يتناول اللاهوت

والناسوت، والإلهية والبشرية به جميعاً، وهذا يقوله طائفة من غلاة الصوفية والشيعة يقولون باتحاد اللاهوت والناسوت في الأنبياء والصالحين كما تقول النصارى في المسيح.

ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعوا أحداً من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم بلفظ الاستغاثة ولا غيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ﷺ، ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه، ولهذا ما بينت هذه المسألة قط لمن يعرف دين الإسلام إلا تفطن لها وقال: هذا أعظم ما بينه لنا؛ لعلمه بأن هذا أصل الدين، وكان هذا وأمثاله في ناحية أخرى يدعون الإسلام ويدعون الأموات أعظم، لأنهم إنما يقصدون الميت في ضرورة نزلت بهم فيدعون دعاء المضطر راجين قضاء حاجاتهم بدعائه والدعاء به عند قبره، بخلاف عبادتهم لله ودعائهم إياه فإنهم يفعلون في كثير من الأوقات على وجه التكلف والعادة، حتى أن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرهم، قال بعض الشعراء:

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر

أو قال:

عوذوا بقبر أبي عمر ينجيكم من الضرر

فقلت لهم: هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال لانهزموا كما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، فإنه قضى أن العسكر ينكسر لأسباب اقتضت ذلك، والحكمة كانت لله عز وجل في ذلك، ولهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لم يقاتلوا في تلك المرة لعدم القتال الشرعي الذي أمر الله به ورسوله، فلما كان بعد ذلك جعلنا نأمر بإخلاص

الدين لله والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بملك مقرب ولا نبي مرسل. فلما أصلح الناس أمورهم وصدقوا في الاستغاثة بربهم نصرهم على عدوهم نصراً لم يتقدم له نظير، ولم يهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلاً، لما صح من توحيد الله وطاعة رسوله ما لم يكن قبل ذلك، فإن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، كما قال تعالى في يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية.

وروي أن النبي ﷺ يوم بدر كان يقول: «يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث» وفي لفظ: «أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»، وهؤلاء يدعون الميت والغائب فيقول أحدهم: بك أستغيث، بك أستجير، أغثنا، أجرنا. ويقول: أنت تعلم ذنوبي، ومنهم من يقول للميت: اغفر لي وارحمني وتب علي ونحو ذلك، ومن لم يقله من عقلائهم فإنه يقول: أشكو إليك ذنوبي، وأشكو إليك عدوي، وأشكو إليك جور الولاة، وظهور البدع، وجذب الزمان وغير ذلك. فيشكو إليه ما حصل من ضرر في الدين والدنيا، مقصوده بالشكوى أن يشكيه فيزيل ذلك الضرر، وقد يقول مع ذلك، أنت تعلم ما نزل بنا من الضرر، وأنت تعلم ما فعلته من الذنوب، فيجعل الميت أو الحي الغائب عالماً بذنوب العباد وجزئياتهم التي يمتنع أن يعلمها بشر حي أو ميت.

ثم منهم من يطلق سؤاله والشكوى ظاناً أنه يقضي حاجته كما يخاطب بذلك ربه بناء على أنه يمكنه ذلك بطريق من الطرق، وأنه وسيلة وسبب وإن كان السائل لا يعلم وجه ذلك، وعقلاؤهم يقولون مقصودنا أن يسأل الله لنا، ويظنون أنهم إذا سألوه بعد موته أن يسأل الله لهم فإنه يسأل ويشفع كما يسأل ويشفع لما سأله الصحابة رضي الله عنهم الاستسقاء وغيره، وكما يشفع يوم القيامة إذا سئل الشفاعة، ولا يعلمون أن سؤال الميت أو الغائب غير مشروع البتة، ولم يفعلهما أحد من الصحابة، بل

عدلوا عن سؤاله وطلب الدعاء منه إلى سؤال غيره وطلب الدعاء منه، وأن الرسول ﷺ وسائر الأنبياء والصالحين وغيرهم لا يطلب منه بعد موته من الأمور ما كان يطلب منه في حياته. والله أعلم. اهـ. ملخصاً.

فتأمل رحمك الله تعالى كلامه ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة لعلك أن تعرف دين الإسلام الذي بعث الله به جميع رسله وأنزل به جميع كتبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ الآية.

ثم تأمل ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى من أنواع الشرك الأكبر الذي قد وقع في زمانه لمن يدعي العلم والمعرفة وينتصب للفتيا والقضاء، لكن لما نبههم الشيخ على ذلك وبين لهم أن هذا هو الشرك الذي حرمه الله ورسوله تنبهوا وعرفوا أن ما هم عليه شرك وضلال، وانقادوا للحق - وأن بعضهم لما بين له ذلك قال: هذا أحسن ما بينه لنا - يتبين لك غربة الإسلام وهذا مصداق ما تواترت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، الحديث.

وتأمل أيضاً ما وقع من هذا الرجل وتجويزه الاستغاثة بغير الله، وأنه يجوز الاستغاثة بغير الله وأنه يجوز الاستغاثة بالنبي ﷺ في كل ما يستغاث الله به واحتجاجه على ذلك بمتشابه القرآن والسنة، ويكفر من قال لا يستغاث إلا بالله، وبالأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، من كشف الشدائد، وإنزال الفوائد. ثم تأمل رد الشيخ رحمه الله تعالى بالآيات المحكمات، والبراهين القاطعات، من الأحاديث الصريحات، يتبين لك الأمر إن هداك الله، وتنزاح عنك الشبهة التي أدخلت كثيراً من الناس النار، وهي الاغترار بما عليه الآباء والأجداد وما استمر عليه عمل كثير من أهل البلاد.

ومن أعجب ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى عن هؤلاء المشركين في زمانه أن أحدهم يسجد للقبر ويستدبر القبلة ويقول أحدهم: القبلة قبلة العامة، وقبر الشيخ فلان قبلة الخاصة. قال رحمة الله عليه: هذا يقوله من أكثر الناس عبادة وزهداً، وهو شيخ متبوع. قلت: كالذي يشاهد اليوم في زماننا يفعل في مشهد علي وغيره من المشاهد والمساجد المبنية على القبور من الرقة والخشوع والبكاء أعظم مما يجدون في بيوت الله، بل إذا قام أحدهم في الصلاة بين يدي الله نقرها نقر الغراب، ومنهم من يحلف بالله اليمين الغموس كاذباً، فإذا قيل له احلف وتربة فلان أو بفلان أبى أن يحلف كاذباً، فيكون فلان أو تربته والشيخ فلان أعظم في صدره من الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون ما أعظمها من مصيبة، تالله إنها فتنة عمّت فأعمت، وربت على القلوب والأسماع فأصمّت.

وتأمل أيضاً رحمك الله تعالى قول الشيخ رحمه الله تعالى: وهذا ما علمته ينقل عن أحد من العلماء. لكنه موجود في كلام بعض الناس مثل الشيخ يحيى الصرصري والشيخ محمد بن النعمان، وإن هؤلاء وأشباههم ليسوا من أهل العلم العالمين بمدارك الأحكام، الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الإِسلام، ومعرفة الحلال من الحرام، فإن الشيخ يحيى الصرصري الحنبلي في شعره قطعة من دعوة الرسل والاستغاثة بهم، كذلك غيره من المصنفين في الزيارة، فإياك أن تغتر بذلك أو تقلدهم في ذلك، فإنه ليس لهم في ذلك مستند صحيح لا من كتاب ولا سنة ولا نقل عن عالم مرضي، بل كما قال الشيخ رحمه الله تعالى عادة جروا عليها فلا يقتدى بهم في ذلك، وإنما يقتدى في الدين بكلام رب العالمين وكلام رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

فهل تجد أحد الصحابة أو التابعين لهم بإحسان أتى رسول الله ﷺ بعد موته واستغاث به أو استشفع به إلى ربه وقال: يا رسول الله اشفع لي إلى ربك واقض ديني أو فرج كربتي أو انصرني أو اغفر لي ذنبي، بل

جردوا التوحيد لله تعالى وحموا جانبه، ولهذا كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وغيره من الصحابة إذا سلم على النبي ﷺ يقف فيقول: السلام عليك يا رسول الله، ثم يقف فيقول: السلام عليك يا أبا بكر، ثم يقف فيقول: السلام عليك يا أبت.

وإذا أراد أحدهم الدعاء جعل ظهره إلى جدار القبر واستقبل القبلة إذا أراد أن يدعو حتى لا يدعو عند القبر.

وذكر الإمام أحمد وغيره أنه يستقبل القبلة ويجعل القبر عن يساره لئلا يستدبره وذلك بعد تحيته والصلاة والسلام عليه، ثم يدعو لنفسه. وذكروا أنه إذا حيَّاه وصلى عليه يستقبل وجهه - بأبي هو وأمي ﷺ - فإذا أراد الدعاء جعل الحجرة عن يساره واستقبل القبلة ودعا الله.

وذكر أصحاب مالك أنه يدنو من القبر فيسلم على النبي ﷺ، ثم يدعو مستقبل القبلة يوليه ظهره، وقيل لا يوليه ظهره وإنما اختلفوا لما فيه من استدباره ﷺ، وأما إذا جعل الحجرة عن يساره فقد زال المحذور بلا خلاف.

وقال مالك في المبسوط: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يصلي ويسلم فهذا هو هدي السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان والأئمة الأربعة، وما أحسن ما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوا من البدع الشرك وغيره، ولهذا كرهت الأئمة استلام القبر وتقبيله، وبنوا بناء منعوا الناس أن يصلوا إليه والله أعلم.

وتأمل أيضاً قول الشيخ رحمه الله تعالى في آخر الكلام: ولا ريب أن أصل قول هؤلاء هو الشرك الأكبر، والكفر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وأن ذلك يستلزم الردة عن الدين، والكفر برب العالمين. كيف صرح بكفر من فعل هذا أو ردته عن الدين إذا قامت عليه الحجة من الكتاب

والسنة، ثم أصر على فعل ذلك. وهذا لا ينازع فيه من عرف دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ. والله أعلم.

فصل

وقال في الإقناع وشرحه (باب حكم المرتد) وهو الذي يكفر بعد إسلامه نطقاً أو اعتقاداً أو شكاً أو فعلاً ولو مميز، فتصح ردته كإسلامه لا مكرهاً لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ ولو هازلاً لعموم قوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية.

وأجمعوا على وجوب قتل المرتد، فمن أشرك بالله تعالى كفر بعد إسلامه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أو جحد ربوبيته أو وحدانيته كفر لأن جاحد ذلك مشرك بالله تعالى، أو جحد صفة من صفاته أو اتخذ له صاحبة أو ولداً كفر، أو ادعى النبوة أو صدق من ادعاها بعد النبي ﷺ كفر، لأنه مكذب لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أو جحد نبياً أو كتاباً من كتب الله أو شيئاً منه، أو جحد الملائكة أو واحداً ممن ثبت أنه ملك كفر لتكذيبه القرآن، أو جحد البعث كفر، أو سب الله ورسوله كفر، أو استهزأ بالله وكتبه أو رسله كفر، لقوله: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.

قال الشيخ: أو كان مبغضاً لرسوله أو لما جاء به اتفاقاً أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً، لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أو أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين الذي شرعه الله كفر للآية السابقة، أو وجد منه امتهان للقرآن كفر، وإن أتى بقول يخرجه عن الإسلام مثل أن يقول يهودي أو نصراني فهو كافر، أو سخر بوعد الله أو وعيده فهو كافر، لأنه كالاستهزاء بالله، أو لم يكفر من دان بغير الإسلام أو شك في كفرهم - إلى أن قال - ومن قال أنا محتاج إلى محمد ﷺ في علم الظاهر دون علم الباطن، أو قال إن من الأولياء من يسعه الخروج عن شريعته كما

وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر، ومن سب الصحابة رضي الله عنهم أو واحداً منهم واقترن بسبه دعوى أن علياً إله أو أن جبريل غلط فلا شك في كفر هذا، بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره، وأما من لعن أو قبح مطلقاً فهذا محل الخلاف، توقف أحمد في تكفيره وقتله.

ويحرم تعلم السحر وتعليمه وفعله، وهو عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو عقله أو قلبه من غير مباشرة، وله حقيقة، فمنه ما يقتل ومنه ما يمرض، ومنه ما يأخذ الرجل عن امرأته، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجته، ومنه ما يبغض أحدهما إلى الآخر ويحبب بين اثنين، ويكفر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته كالذي يركب الجماد من مكة وغيرها فيطير به في الهواء.

وأما الذي يعزم على الجن ويزعم أنه يجمعها فتعطيه فلا يكفر، ويعزر تعزيراً بليغاً دون القتل، كذلك الكاهن والعراف ـ والكاهن هو الذي له رئي من الجن يأتيه بالأخبار. والعراف الذي يخرص كالمنجم ـ والضارب بحصى أو شعير ـ والنظر في ألواح الأكتاف إذا لم يعتقد إباحته وأنه لا يعلم به الأمور المغيبة عزر ويكف عنه وإلا كفر.

وقال في شرحه ـ عند قوله أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر إلخ ـ قال: وقد عمت به البلوى في زمنه في مصر والشام. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، آمين.

تمت (الكلمات النافعة) ولله الحمد

الرسالة الحادية عشرة

العقيدة الواسطية

شيخ الإسلام

تقي الدين أبي العباس احمد بن تيمية

كتبها سنة ٦٩٨ المتوفي سنة ٧٢٨

العقيدة الواسطية

تصنيف شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني
المتوفى في سنة ٧٢٨هـ بدمشق رحمه الله تعالى
كتبها سنة ٦٩٨هـ إجابة لطلب أحد قضاة واسط

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مزيداً.

أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره.

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكفرون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفو له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه.

ثم رسله صادقون مصدوقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ [أي لا يكرثه ولا يثقله] وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح..

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾، وقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤)﴾، وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥)﴾، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧)﴾، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ

مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾.

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤)﴾، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)﴾، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)﴾، وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)﴾، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾.

وقوله عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾، ﴿مَا اتَّخَذَ

ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾، في سبعة مواضع: في سورة الأعراف قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقال في سورة يونس عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقال في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقال في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾، وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وقال في سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ﴾.

وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقــولــــه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقــولــه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وهذا الباب في كتاب الله كثير، من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق.

فصل

«ثم في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم»

فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه، وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها.

فمن ذلك مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني أستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» متفق عليه.

وقوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته...» الحديث متفق عليه.

وقوله ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخلان الجنة» متفق عليه. وقوله ﷺ: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره، ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» حديث حسن.

وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله ـ وفي رواية: عليها ـ قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول قط قط» متفق عليه.

وقوله ﷺ: «يقول تعالى: يا آدم. فيقول لبيك وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» متفق عليه.

وقوله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه وليس بينه وبينه ترجمان». وقوله ﷺ في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك؛ أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين؛ أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك، على هذا الوجع فيبرأ» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

وقوله ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» حديث صحيح. وقوله ﷺ: «والعرش فوق الماء والله فوق العرش؛ وهو يعلم ما أنتم عليه» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

وقوله للجارية: «أين الله؟»، قالت: في السماء. قال: «من أنا؟»، قالت: «أنت رسول الله»، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم.

وقوله ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت» حديث حسن. وقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قبل وجهه ولا عن يمينه فإن الله قبل وجهه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه» متفق عليه.

وقوله ﷺ: «اللهم رب السموات السبع والأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، خالق الحب والنوى، منزل التوارة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، فاقض عني الدين وأغنني من الفقر» رواه مسلم.

وقوله لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته». متفق عليه.

وقوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون

في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا» متفق عليه.

إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به، فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرقة الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية، وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج.

فصل

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون؛ كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

وليس معنى قوله وهو معكم أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة؛ وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة؛ وخلاف ما فطر الله عليه الخلق. بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله ـ من أنه فوق العرش وأنه معنا ـ حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف. ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماء تقله أو تظله وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره.

فصل

وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ الآية. وقوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو عَليّ في دنوه قريب في علوه.

فصل

ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود؛ وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً، وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف.

فصل

وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله

الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحواً ليس بها سحاب وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله تعالى.

فصل

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت: فيؤمنون بفتنة القبر، وبعذاب القبر ونعيمه. فأما الفتنة فإن الناس يمتحنون في قبورهم فيقال للرجل: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقول المؤمن: ربي الله والإسلام ديني ومحمد ﷺ نبيي.

وأما المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيُضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها لصُعق ـ ثم بعد هذه الفتنة ـ إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق؛ فتنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وتنشر الدواوين ـ وهي صحائف الأعمال ـ فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد

أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها. وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، طوله شهر وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

والصراط منصوب على متن جهنم وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف خطفاً ويلقى في جهنم. فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم؛ فمن مر على الصراط دخل الجنة، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ؛ وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته. وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات: أما الشفاعة الأولى يشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم الشفاعة حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة؛ وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها.

ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة.

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب

والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء. وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذاك ما يشفي ويكفي فمن ابتغاه وجده.

وتؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين:

[فالدرجة الأولى] الإيمان بأن الله تعالى عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فأول ما خلق الله القلم. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذا التقدير ـ التابع لعلمه سبحانه ـ يكون في مواضع جملة وتفصيلاً، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ونحو ذلك. فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية وقديماً ومنكروه اليوم قليل.

[وأما الدرجة الثانية] فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه.

لا يكون في ملكه ما لا يريد وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه.

ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم. وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها.

فصل

ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

ولا يسلبون الفاسق المليّ الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾، وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليها فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن.

ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم.

فصل

ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر. «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة، ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم كما دلت عليه الآثار وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة مع أن

بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما ـ بعد إتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر ـ أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكنوا وربعوا بعلي، وقدم قوماً علياً، وقوم توقفوا، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي.

وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ـ ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله.

ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»، وقال أيضاً للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»، وقال: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»

ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده أول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها من المنزلة العالية، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال فيها النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغيِّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذرون إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا

يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر؛ حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون وأن المُد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم؛ ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه؛ أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته؛ أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه. فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران؛ وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور.

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح. ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما منّ الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله.

ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة.

فصل

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً

وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة».

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدى محمد ﷺ على هدى كل أحد، ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة، وإن كان (لفظ) الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين. والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين.

والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة.

فصل

ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إمامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً، ويحافظون على الجماعات ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه، وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضاء بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل

والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها، وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ.

لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وفي الحديث عنه أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص على الشوب هم أهل السنة والجماعة وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»، فنسأل الله أن يجعلنا منهم وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه الوهاب، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

خاتمة الطبع

الحمد لله خلق الخلق لعبادته ووفق من أراد سعادته لطاعته، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحابته.

أما بعد، فإن العقيدة الواسطية تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية التي ألفها إجابة لطلب القاضي رضي الدين الواسطي من أحسن ما ألفه الأئمة في بيان معتقد أهل السنة، فليس في يد الطلبة اليوم أحسن منها ولا مثلها، فإنه رحمه الله بيّن فيها القول الحق في مسألة القرآن وأنه كلام الله منزل غير مخلوق وأن ألفاظه وحروفه ومعانيه عين كلام الله وأن الله يتكلم بمشيئته وإرادته.

كما أنه رحمه الله بَيّن القول الصحيح في وجوب إثبات الصفات الإلهية كاستواء الله على عرشه وعلوه على خلقه ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ومجيئه يوم القيامة ونظر المؤمنين إليه سبحانه في عرصات القيامة بعد دخولهم الجنة، ووضح معنى قرب الله من عباده ومعنى كونه معهم أين ما كانوا وبين أن ذلك كله حق ثابت على ما يليق بعظمة الله تعالى.

وذكر قول أهل الحق في الإيمان بالقدر ورد قول المعتزلة والجبرية، وبين أصول أهل السنة التي عليها بنوا عقائدهم وأعمالهم إلى غير ذلك من قواعد العقائد المؤيدة بنصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فهي جديرة بالاعتناء بها حفظاً ودرساً ومطالعة.

فلهذا علقت عليها حواش تفصل مجملها وتوضح مشكلها وتسهل فهمها لقرائها، وقد امتازت هذه الطبعة الأخيرة بزيادات لم توجد في

الطبعات التي قبلها لا سيما ما ذكرناه من نظم هذه العقيدة من الطويل جزاه الله خيراً وأثابه الجنة بمنه تعالى وكرمه.

وسمت همة الفاضل النجيب الشيخ عمر عبد الجبار لطبعها فجزاه الله خيراً ووفقه لنشر أمثالها من مؤلفات أهل السنة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة كما أخبر به النبي الصادق المصدوق ﷺ تسليماً كثيراً، قاله بلسانه وكتبه ببنانه.

محمد بن عبد العزيز بن مانع

الرسالة الثانية عشرة

درجات الصاعدين
إلى مقامات الموحدين
في علم التوحيد

محمد بن احمد الحفظي
ابن عبد القادر البكري

أحد علماء نجد الأعلام ـ رحمه الله تعالى ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فقد ثبت بالأدلة القاطعة أن أساس دعوة الرسل من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ هو إفراد الله تعالى بالعبادة ونفي الشريك عنه فيها، وأن الإقرار بتوحيد الربوبية دون إفراد الله بالعبادة لا تثبت به عصمة الدم والمال، وأن ما وقع فيه من ابتلي به من المتأخرين من نداء غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه غيره هو عين ما أنكرته نصوص الوحي على المشركين الأولين.

وقد خفي هذا على كثير من المنتسبين إلى العلم وغيرهم في العصور الأخيرة واستمر ذلك الخفاء إلى أن قام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بعرض هذا الوضع الخطير على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وعلى منهج السلف الصالح، فتأكد من مخالفة ذلك الوضع للجميع مما حمله على القيام بتجديد الدعوة إلى ما كان عليه الأمر قبل هذا التدهور وإلى إعادة الحق إلى نصابه مهما كلف ذلك من تضحيات، وألف في إيضاح الحق مؤلفات فيها من الأدلة ما يشفي ويكفي ولا يبقي مجالاً للشك، فنفع الله بذلك من أراد له الخير.

وكان من المنتفعين بتلك المؤلفات صاحب هذه الرسالة «درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين» الذي قام بتتبعها حتى جمع منها هذه النبذة التي أوضحت الحق وأدمغت شبهة كل معاند رغم اختصارها، لهذا عزمنا على طبعها وإن لم نعثر على اسم المؤلف رغبة في نشر الحق والدعوة إليه، أثاب الله المؤلف ووفقنا لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

(دار الإفتاء ـ بالرياض)

ملاحظة: تم التعرف على اسم المؤلف ووضع عليها.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الغني الحميد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد المبعوث بالقرآن المجيد، وآله وصحبه وصالحي العبيد.

أما بعد، فهذه ثمان درجات يرقى بها المستفيد إلى معارج علم التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ويصعد عليها السالك إلى مدارج حكم التفريد، ويجاوز بها دركات الشرك والتنديد، ويطلع عليها الجاهل من أسفل سافلين إلى أعلى عليين.

وسميتها: (درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين).

الدرجة الأولى

إن أصل البعثة ورأس الدعوة هو توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بالعبادة ونفي الشريك فيها، والدليل على ذلك قوله تعالى في أول آية بعث بها النبي ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)﴾.

وفي التفاسير أن الرجز الأوثان، والهجر هو الترك.

وفي الحديث النبوي ما يدل على أن عبادة الشيء تصيره وتنافي قوله ﷺ: «لا تجعل قبري وثناً يعبد».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾.

قيل أمرهم بلا إله إلا الله، ذكره البغوي رحمه الله في تفسيره.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾.

والطاغوت اسم عام لما يعبد من دون الله، فطاغوت كل قوم

معبودهم من دون الله، أو متبوعهم على غير بصيرة من الله، أو مطاعهم في معصية الله، أو حاكمهم بغير ما أنزل الله، وهذه الأدلة في بيان دعوة كل رسول.

وأما التفصيل فقال سبحانه وتعالى: في سورة نوح عليه السلام، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾.

فأنظر إلى أن معنى الإنذار الأمر بالعبادة التي هي التوحيد والتقوى والطاعة.

وذكر سبحانه في السورة ما قال نوح وما قال له قومه حتى ذكر ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ وهذه أسماء قوم صالحين ماتوا جميعاً فحزنوا عليهم فنصبوا صورهم وكانوا يعكفون عليها ويعبدونهم بعد طول المدة، وكان أول شرك بني آدم وسببه الغلو في هذه الصور أصنام قريش أيضاً.

وقال سبحانه وتعالى في إبراهيم الخليل عليه السلام في سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾. ففي هذه الآيات أن عبادة أصنامهم هي العكوف وأنهم لا ينفعون ولا يضرون وإنما حملهم على ذلك

اتباع آبائهم، وأن إبراهيم عليه السلام قال إن العابد والمعبود عدو له إلا رب العالمين.

قال سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

وهذه الآية فيها وجوب البراءة منهم والكفر بهم وظهور العداوة والبغضاء حتى يؤمنوا بالله وحده.

فالغاية التي تنتهي عندها هذه الأمور هي الإخلاص في العبادة والتصديق بالله والإذعان له.

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ وهذه هي الكلمة الباقية في عقبه وهي معنى لا إله إلا الله، إذ مجاز (أنني برآء) النفي وقوله (إلا الذي فطرني) الإثبات، ذكر هذه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات.

وقال في سورة النحل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

ومعنى الخطاب يقتضي العموم، فهذه ملة أبينا إبراهيم أيها السالكون، وهذه سنة نبينا عليه السلام أيها المتبعون، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وهاهنا تسكب العبرات إذا كنت من أهل الاعتبارات لمعاني العبارات.

والحجة التي أوتيها إبراهيم على قومه قال مجاهد هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ذكره البغوي في صحيحه في كتاب التفسير.

وقيل هي التي احتج بها إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب وغيرها.

وقال أصدق القائلين: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾.

وذكر لوطاً عليه السلام ثم قال عز من قائل عليماً: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ إلى آخر ما قصّه الله في سورة الأعراف من دعوة الرسل عليهم السلام.

وختم ذلك بذكر نبينا محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

وقال سبحانه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ فتفكر في الدعوة ما هي؟ فقد قص الله علينا في كتابه العزيز دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

والله سبحانه وتعالى يقول في سورة هود: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقيل الحكاية جند من جنود الله أي لا ترد ولا تقاوم.

فانظر أيضاً ما في أنباء الرسل من الفوائد العظيمة: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

وفي أول صحيح البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث أبي سفيان في قصة هرقل أنه قال: «ما يأمركم به؟ قلت يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم».

وحديث عمرو بن عبسة في صحيح مسلم في قوله: ما أرسلك الله به؟ قال عليه السلام: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأصنام وأن يوحد الله ولا يشرك به شيء».

فانظر إلى ما ذكر في الصحيحين من معنى الدعوة والرسالة وأنه توحيد الإلهية وترك الشرك ورفض ما عليه الأقدمون إذا كانوا يشركون، وتفكر فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه بعد النبوة وقبل الهجرة وما كانوا يدعون الناس إليه ويفهمونهم عنه والقرآن ينزل عليه عشر سنين والناس ما

بين مقبل ومدبر والموالاة والمعاداة قائمة بين المقر والمنكر ومكث على ذلك عشر سنين من أطاعه واتبعه فيها فهو الموحد الناجي ومن عصاه وخالفه فهو المشرك الهالك، وليس إذ ذاك صلاة ولا صيام فضلاً عن غيرهما من شرائع الإسلام. ولا هناك نهي عن شيء من الكبائر تقام فيه الحدود والأحكام ومات على ذلك من الفريقين كثير، فريق في الجنة وفريق في السعير.

فإذا تفكرت ظهرت لك الفائدة وعاد عليك النظر بأحسن عائدة وتبين لك أن الذي طلبه منهم توحيد الإلهية وإفراد الله بها وأن الذي ينهاهم عنه هو الشرك بالله في العبادة من الذبح والاعتقاد والعكوف ونحوها وأنهم مشركون بذلك يعاديهم ويحاديهم فيه من نظر إلى بقية المعاصي الكبائر والصغائر، وأن أصحابه هم الموحدون بترك ذلك وصرفه لله دون غيره يواليهم عليه ويدعوهم إليه من غير نظر إلى غيره من الطاعات الواجبات والمندوبات، وبهذا التقرير يحصل التأثير وتنقشع ظلم الجهل بهذا التنوير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

الدرجة الثانية

إن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية الذي هو الإقرار بأفعال الله وصفاته واتصافه بذلك دون غيره كالخالقية والرازقية والملكوتية وغيرها من صفات الربوبية، وأن غيره مربوب له ومخلوق له ومرزوق ومتصرف فيه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وإنهم مقرون بذلك وأن ذلك الإقرار لم يدخلهم في الإسلام ولم يحرم دماءهم وأموالهم لانتفاء شرطه، وشرطه هو من توحيد الآلهية والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾ ويفهم من الآية تفريقهم بين الربوبية والإلهية وأنهما حيث اجتمعا افترقا وحيث افترقا اجتمعا، وعلى هذا سؤال القبر في قوله من ربك أي من إلهك؟ لأن توحيد الربوبية لا يمتحن به وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي إلهاً.

وأما افتراقهما فقوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ (٢) إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ (٣)﴾ فاعرف هذا.

وقال سبحانه في سورة المؤمنين: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ والاستفهام هنا للتقرير وقد أخبرنا بما يقولون العليم الخبير.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

وتفسير هذه الآية إيمانهم بتوحيد الربوبية وشركهم في توحيد الألوهية، وهنا اجتمع الشرك والإيمان اللغوي.

وقال تعالى: في سورة الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾.

بل هذا فرعون مع دعواه أقبح دعوى يقول فيه حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾.

وقال إبليس اللعين: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾.

فبعث الله النبي يدعوهم إلى الله بأن يفردوه بالعبادة كما أفردوه بالربوبية، وأن يفردوه بكلمة لا إله إلا الله معتقدين معناها عاملين بمقتضاها لا يدعون مع الله أحداً.

ولم ينكر المشركون على الرسل إلا طلبهم إفراد العبادة لله وحده ولم ينكروا الله ولا أنه يعبد بل أنكروا كونه يفرد: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾.

وعبادتهم العكوف عند مقابرهم والهتف بها عند شدائدهم والذبح لها

مع اعتقادهم أن صفات الربوبية لله وحده ليس لشركائهم منها شيء وأنهم يريدون التقرب بذلك والشفاعة عند الله، فبين شرك أهل زماننا وشرك الأولين فروق أربعة:

الأول: أنهم لا يشركون في توحيد الربوبية، ولا يشركون في الشدة ويريدون الشفاعة والقربة، ويطلبون من الله سبحانه بواسطتهم، مشركو أهل زماننا يفارقونهم في هذه الأربعة.

والدليل الأول ما مَرّ آنفاً في إقرارهم بتوحيد الربوبية.

والدليل على أنهم لا يشركون في الشدة قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا (٦٧)﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾.

وهذه اللام لام العاقبة عند النحويين أي عاقبة شركهم الكفر والتمتع.

ودليل أنهم يريدون الشفاعة ويطلبون القربة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ والتقدير أي قائلين ما نعبدهم إلى آخره.

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وهذه الأدلة هي دليل المسألة الرابعة أنهم يريدون من الله سبحانه لا منهم، بل أرادوا الواسطة واتخاذ الوسائط في هذا شرك.

وتأمل أيها الناظر حال مشركي زماننا في هذه الأربع أنهم أشركوا في صفات الربوبية وفي الشدة وطلبوا من معابدهم وأرادوا المطالب منهم، ويا عجباه من هذا والفطرة السليمة والعقول المستقيمة تدل على ضرورة لو أن الشياطين اجتالت قلوب المشركين وغيرت الفطرة وهذا هو الواقع، وقد أشرقت المطالع وظهرت الأدلة للقارئ والسامع والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

الدرجة الثالثة

أن الإلهية هي العبادة، وأن العبادة معناها التوحيد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد، وقال تعالى في سورة الذرايات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي يوحدون. وقال رب الأرباب في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ أي نوحدك ونطيعك وتقدم المعمول يفيد الحصر والاختصاص كما ذكره علماء البيان ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ وهذا يتضمن الأمر بالعبادة لله وحده والنهي عن الشرك، فالضمير الظاهر المقدم يفيد النهي عن الشرك وفعل الأمر يفيد وجوب العبادة لله تعالى مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وقال عز من قائل عليماً في سورة البقرة أول آية فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي وحدوا ربكم كما قاله المفسرون.

وقال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى آخر السورة التي تسمى سورة الإخلاص، أي إخلاص التوحيد العملي.

فالعبادة فيها هي التوحيد وهو الدين المرضي أيضاً، وكرر النفي ليعم الماضي والمستقبل، والتكرير يوجب التأثير خصوصاً والشرك العملي يحتاج قلعه إلى مثل هذا.

والمراد هنا أن العبادة هي الإلهية المختصة بالله، والعبادة في اللغة

غاية التذلل والخضوع، وشرعاً ما أمر الشارع به من أفعال العباد وأقوالهم المختصة بجلال الله وعظمته وهي اسم جنس يشتمل على أنواع كثيرة وأصل العبودية الخضوع. والذل والتعبد والتذلل والعبادة والطاعة، ومنها الاستغاثة والذبح والنذر ونحوها، وقد يجتمعان ويفترقان أعني الطاعة والعبادة.

فإذا قيل أن الذم والتكفير ورد فيمن عبد الأصنام والأشجار والأحجار وعبد الطاغوت من الكهان والشياطين، فكيف يكون ما أنزل فيهم فيمن عبد الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين؟

فالجواب: إن ما يعبد به الأصنام من الدعاء والذبح والاعتقاد هو الذي يفعل للأولياء وغيرهم، والذي يطلب منهم هو الذي يطلب من هؤلاء المذمومين، وفعل المشركين الآخرين هو فعل أولئك، فقد استوت الكفتان وتشابهت الطائفتان، وإذا استوى الأصل والفرع في العلة استويا في الحكم فكيف إذا وجد النص المقدم على القياس ارتفع الإشكال والالتباس، وإذا لم يبق إلا النظر بين عبادة الصالح والطالح فهاك الدليل والواضح: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾.

والدليل العام قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾، وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

ففي هذه الآية نفي ما يتعلق به المشركون من الملك والشريك والظهير والشفاعة بغير إذنه، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

وقد ذكر السلف أن هذه نزلت فيمن يعبد عزيراً أو المسيح ونحوهما. ولفظة الذين من صيغ العموم.

وأما الدليل الخاص فقال سبحانه فيمن عبد الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

فإن قيل قد كانوا يعبدون الملائكة فكيف قال يعبدون الجن؟

قيل معنى يعبدون هنا يطيعون الجن في عبادة الملائكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

الدرجة الرابعة

إن الإله هو المعبود بإجماع أهل العلم، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ يعني معبود يعبد في السماء ويعبد في الأرض، قاله قتادة ولا يصح غيره. وقال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي إله معبود في السموات ومعبود في الأرض، وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، وقال في سورة ص حكاية عن قريش أنه لما قال ﷺ: أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ: قولوا لا إله إلا الله، فنفروا من ذلك وقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ ذكر هذا البغوي رحمه الله.

وقال سبحانه في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، وقال في سورة الطور: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾، وقال تعالى في سورة طه حكاية عن قول موسى للسامري: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ

نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾، فلما عكف السامري على العجل صار إلهاً له بزعمه لأن العكوف عبادة.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي شركاء، وقال ابن مسعود وابن عباس، أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله.

وقال سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾، وقال مجاهد عند قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ لا يحبون غيري.

وقال في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ ففي تفسير الآية عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن عبادتهم طاعتهم في المعصية.

وقال أبو العالية: ومنه قولهم لا نسبق علماؤنا ما أحلوه حل وما حرموه حرم. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لما حللوا لهم الميتة وقالوا ما ذبح لغير الله حلال.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾، قال ابن جرير: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله.

وفي سورة الذاريات: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾، وقال تعالى في سورة الشعراء حكاية عن قول فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، وقال في سورة العقود: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾، وقال فيها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾، ففي هذه الدرجة تعريف الإله أنه المعبود. وقيل هو الذي يطاع محبة وخوفاً ورجاء وتوكلاً وهو اسم صفة لما يعبد.

ومن أعظم أنواع العبادة الدعاء والمحبة كحب الله والطاعة في غير المعصية والعكوف، وفيها أنه يكفر من سمى الله غير الله وقال ثالث ثلاثة فإذا عبده ولم يسمه إلهاً وسماه نبياً صالحاً أو ولياً أو إماماً أو شجراً أو حجراً فالأسماء لا تغير المعاني عن حقيقتها، كما لو سمى الخمر لبناً. وقصة ذات أنواط فيها البيان التام، فإنهم لم يسموها إلا ذات أنواط ولم يقولوا صريحاً اجعل لنا إلهاً فقال عليه السلام! إنها السنن، قلتم كما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون، رواه الترمذي.

وكذلك عابد الشيء يسمى عبد إله بدليل الحديث الصحيح تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم إلى آخره، فبسبب التعلق به أطلق عليه اسم العبودية.

وقد قال ابن العربي المالكي أن الأحكام تعلق بمسميات الأسماء لا بألقابها ولا بالتسمية.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ ﴾.

الدرجة الخامسة

إن الدعاء من العبادة بل هو مخها ورأسها وأفضلها.

وفي الحديث: أكرم شيء على الله الدعاء، وورد أفضل العبادة، الدعاء أخرجه الحاكم وصححه. وورد الدعاء هو العبادة، أخرجه الترمذي.

وهذا يدل على الحصر، أي حصر الخبر في المبتدأ لأجل الفصل بينهما بالضمير. فإن دلت قرينة على عدم الحصر فيكون للتمييز بأفضلية ما أو للمبالغة والاهتمام بشأن الشيء، وقد سبق أن معنى العبادة التوحيد، والدعاء عبادة، فدعاء غير الله شرك.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

فقد جمع في هاتين الآيتين دعاء العبادة ودعاء المسألة وأنهما مختصتان بالله تعالى.

وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ وسبب النزول يبين أن الدعاء هو النداء والمسألة لأنهم قالوا: هل ربنا قريب فنناجيه أو بعيد فنناديه؟ فنزلت هذه الآية الكريمة، ذكره في تفسير الجلالين.

وقال في سورة الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

ففي التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال سجد رسول الله ﷺ بمكة ذات ليلة فجعل يقول في سجوده يا الله يا رحمن، فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين، فأنزل الله هذه الآية. وانظر في أسباب النزول محط أرباب العقول.

وفي سورة نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾.

فهذه نصوص صريحة أن الدعاء عبادة وأنه النداء وأنه المنهي عنه وأن المنادي يكون إلهاً للمبادي وإن ذلك شرك، وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ففيه أن الدعاء قولهما: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

وهنا الشرك في مجرد التسمية، وهنا يقال شركاء في طاعته لا في عبادته.

وتكريرنا الاستدلال على أن الدعاء هو النداء لأن أهل التفاسير يحملون الدعاء على أحد خمسة معاني بحسب المقام عند كل آية.

وأصل الدعاء في اللغة الإيمان، وفي القاموس: الدعاء الرغبة إلى الله، وعرف بأنه رفع الحاجات إلى رفيع الدرجات.

وقد ورد الوعيد الشديد في ذم من سأل الناس من أموالهم خصوصاً إذا كان معه ما يكفيه أو ما يغشيه أو يغذيه، فكيف بمن يسأل الأموات قضاء الحاجات؟ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

وقال في سورة الأحقاف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

وقال في سورة يونس: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

وقال في سورة المؤمنين: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

فيفهم من الآيات أن من دعا غير الله ضال ظالم لنفسه مشرك كافر، وهذه اللام لام العاقبة أي عاقبة شركهم الكفر والتمتع.

فإن قيل أن الداعي إنما أراد التقرب إلى الله بدعوته والشفاعة إلى الله.

فالجواب إن هذا عين ما أراده المشركون بدليل قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، وختم الثانية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فإن قيل إنهم يظنون إنهم على هدى لا أنهم على ضلالة.

فالجواب: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ففيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على حق هو والجاحد المعاند سواء، وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما القسط هنا بلا إله إلا الله، وفسره الضحاك بالتوحيد.

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي تفسير البغوي رحمه الله عند قوله تعالى في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ قال: أي أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله تعالى، انتهى.

ففيه أن الدعاء هو الدين، والإخلاص فيه هو التوحيد، ودعوة غير الله شرك.

فإن قيل إن الدعاء لغير الله يكون من الشرك الأصغر مثل الطيرة والحلف بغير الله لأنه قد ورد أنها شرك وفسروها بالأصغر.

فالجواب: إن الحلف يكون تارة من الأكبر إذا قصد به تعظيم المخلوق كتعظيم الله.

وأيضاً لا مساواة لأن الحلف والطيرة لم يقع النهي عنهما إلا بعد مدة في الإسلام، ووقع من الصحابة بعد إسلامهم كالتشريك بالواو أيضاً، وأما الدعاء لاعتقاد النفع والضر من المدعو من دون الله لقضاء الحاجات وإغاثة اللهفان وشفاء المريض وقضاء الغرض فهو الذي كان عليه المشركون وهذه عبادتهم وشركهم والعكوف والذبح ونحوهما فروع هذه المطالب، ونتيجة إشكال دعوة الميت والغائب يجعلون به وسائط بينهم وبين الله والوساطة في

هذا منتفية وفيها تشبيه للخالق بالخلق وهي شرك محض، والبعثة والدعوة لتوحيد الإلهية وهو العبادة وأن تكون كلها لله وهذا هو المراد عند القول أن دعاء غير الله شرك أكبر، ومن قال لا إله إلا الله ودعا غير الله على ما ذكرنا فقد هدم مبناه ونقض ما قاله ونفاه ولم تصح بينة على دعواه، والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناءها أدعياء.

والله سبحانه يقول في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

الدرجة السادسة

في بيان أن هذا كفر وشرك أكبر يحل الدم والمال ويخلد صاحبه في النار إذا بلغته الدعوة وقامت عليه الحجة وأبى وعاند مصراً على شركه معلناً بكفره إذا كان من الأكبر الذي لا يغفر، فأما أنه شرك فلأن لفظ الشرك معناه هو أن تعبد غير الله مع الله وهذا هو الواقع، ولفظ الكفر هو الجحود والتكذيب بما علم مجيء الرسول ﷺ به ضرورة، فهذه الأسماء وهذه المسميات بينهم ما بين الأمهات والبنات.

وقد ذكر ابن هشام في السيرة إنما كانت عبادة المشركين العكوف والدعاء ونحوهما من الذبح والطواف.

وفي زاد المعاد لابن القيم رحمه الله تعالى في المغازي في فصل قدوم وفد خولان وهم عشرة أنه قال لهم رسول الله ﷺ: ما فعل عم أنس وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه، قالوا: أبشر بدلنا الله به ما جئت به وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به ولو قدمنا عليه لهدمناه إن شاء الله فقد كنا منه في غرور وفتنة، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أعظم ما رأيتم من فتنة، قالوا لقد رأيتنا أسنتنا حتى أكلنا الرمة فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا به مائة ثور ونحرناها لعم أنس غداة واحدة وتركناها تردها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع فجاءنا الغيث من ساعتنا ولقد رأينا العشب يواري الرجال ويقول قائلنا أنعم علينا عم أنس وذكر والرسول ﷺ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له وجزءاً لله بزعمهم إلى آخر القصة وفيها وكنا نتحاكم إليه، انتهى.

وقد ذكر قطرب في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ إن على بمعنى اللام، أي وما ذبح لأجل النصب.

فإن جادل مجادل وأنكر منكر وكابر مكابر في هذا الأمر الظاهر. قيل له: بين لي الشرك الذي حرمه الله تعالى ونهانا عنه ما هو؟ وما الذي كان يعبد به المشركون أصنامهم المنقوشة وأنصابهم المنصوبة وغيرها من معبوداتهم، فإنه لا يجد جواباً أبداً، لا أن يقول عبادة الله وعبادة غيره، أما بالدعاء عبادة الله أما بالذبح أو بغيرهما من العبادات وأصح الشهادات ما شهدت به الأعداء.

أو يقول لا أدري، فقل له: أتنكر ما لا تعرف وتجحد ما لا تدري؟ وكذلك تقول له في العبادة التي فرض الله علينا وأمرنا بها وخلقنا لها وهي حقه علينا ومستحقه لدينا إن صرفناها إليه وعبدناه بها كنا من الموحدين وإن صرفناها لغيره وعبدناه بها صرنا من المشركين. فإن عرفها وبينها وإلا فبين له ذلك بأقسامها من الاعتقادية والقولية والفعلية والبدنية والمالية: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

والله سبحانه قد بين لنا الأحكام وفصل لنا الحلال والحرام، وأحاطت الشريعة المحمدية بدقائق العلوم واشتملت على الفروع والأصول بالمنطوق والمفهوم، وقد تركنا ﷺ على البيضاء ليلها كنهارها، وما طائر في الجو إلا وجعل لأمته منه ذكراً.

وقد أفادت السنة بكيفية الاستجمار بالأحجار كيف وصفها كيف، بل في سنن أبي داود في آداب التخلي قولهم: لقد علمكم نبيكم حتى الخراءة، فما بالك أيها الإنسان بمسألة عظيمة مهمة لأجلها أُعدت الجنة للمتقين وبُرّزت الجحيم للغاوين، لا يبينها ويوضحها ويمتنها ويشرحها؟ كلا والله لقد بلغ البلاغ المبين ﷺ صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وكتب المغازي والسير تدل على ذلك، وأن هذا الذي قاتل عليه النبي ﷺ المشركين وحاربهم عليه ولم تكن عبادتهم للأصنام ونحوها إلا

الدعاء لهم والتعلق عليهم والاعتقاد فيهم والالتجاء إليهم والعكوف عندهم.

وأما أنه يخلد صاحبه في النار فالدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾.

والدليل على القتال فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

قال الحسين بن الفضل: هذه الآية نسخت كل آية فيها الإعراض والصبر على الأذى من الأعداء، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي عن الكفر والشرك.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي وحده لا يعبد غيره.

وقيل أن يكون الدين خالصاً لله لا شريك فيه. وفي تفسير الجلالين أن الفتنة هنا هي الشرك.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، وفي الصحيح: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.

قال النووي رحمه الله: قال الخطابي: فمعلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب لأنهم يقولون لا إله إلا الله ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف.

وذكر القاضي عياض رحمه الله أن اختصاص عصمة النفس والمال لمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وهذه فائدة

فاستفدها. وفي الأحاديث النبوية قيود وشروط لفوائد لا إله إلا الله إذا تأملها الإنسان خاف على أهل الإيمان فضلاً عن أهل الشرك والطغيان، منها أن لا يشك فيها ولا يرتاب، ولا يتكبر ولا يجور، ولا يستخف بها، وأن تحجزه عن المعاصي، وأن يقولها مخلصاً من قلبه. وقد ورد احفظوا العلم بقيوده، بل أئمة المذاهب الأربعة قد صرحوا بوجوب قتال مانع الزكاة وتارك الأذان وصلاة العيدين لأنهما من شعائر الإسلام، بل نقل بعضهم الإجماع على قتال طائفة ممتنعة عن فريضة من الفرائض المشهورة.

وذكر النووي رحمه الله في شرحه على الأربعين أن الواحد كذلك مع أنه يدخل في اسم الطائفة.

وفي الحديث عن بريدة بن الحصيب في وصيته ﷺ للغزو: «اغزوا باسم الله قاتلوا من كفر بالله»، أخرجه أبو داود. والله يقول لخير الخلق أجمعين: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

الدرجة السابعة

إذا قيل هذه الآيات نزلت في المشركين عبدة الأصنام المحاربين لله ولرسوله ﷺ ولا تكون في غيرهم ولا تشتمل على سواهم.

فالجواب: إن الجامع بين المشركين الأولين والآخرين موجود وهو الشرك. فالحكم في ذلك واحد لا فرق فيه لعدم الفارق ووجود الجامع، وفي الحديث: «حكمي على الواحد كحكمي على الجماعة».

وفي أصول الفقه أن العبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب، ويلزم من هذا الاعتراض أن يقال: فكل حكم نزل على سبب مخصوص في قضية سالفة فهو لا يتعداها إلى غيرها، وهذا باطل وتعطيل لجريان الأحكام الشرعية على جميع البرية، فإن آيات الحدود والجنايات والمواريث والديانات نزلت في قضايا قد مضت ومضى أهلها الذين نزلت فيهم وحكمها عام إلى يوم القيامة لأن العام لا يقصر على السبب وخطابات الشرع تتعلق بالمكلف المعدوم تعلقاً معنوياً. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في مثل ذلك فيما نزل على بني إسرائيل وأنه علينا مثلهم قال: ما أشبه الليلة بالبارحة.

قال بعضهم: نعم الإخوة بنو إسرائيل إذا كان كل حلوة لكم ولهم كل مرة.

وفي الأصول أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا ورد تقريره في شرعنا، وهذه المسائل ورد شرعنا بتقريرها ونطق القرآن والسنة بتكريرها، وإنما هذا الجواب على السؤال وإلا فما نهى عنه رسول الله ﷺ مشركي العرب

وقاتلهم عليه ونزل القرآن فيه آيات محكمات غير منسوخة للأول والآخر والآيات النازلة فيمن قبلنا من الأمم مع أن شرعنا وسنة نبينا ﷺ أغنت وأقنت، وكفت وشفت، وأعادت وأبدت، وظهرت ومضت، فللّه الحمد رب السموات والأرض ورب العالمين.

وفي تفسير آخر البقرة أنهم قالوا: كلفنا من العمل ما لا نطيق، فقال النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال من قبلكم سمعنا وعصينا»، فشبه ما قالوا من الكلام بقول سلف من الأنام.

وعن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا رأى مخيلة تغير وجه وتلون ودخل وخرج وأقبل وأدبر فإذا أمطرت السماء سري عنه. قالت: وذكرت له الذي رأيت فقال: وما يدريك لعله كما قدم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ أخرج الحديث البغوي بسنده ومثله في صحيح البخاري.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في بحث الشرك الأكبر الآية التي في سورة سبأ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

والقرآن مملوء من أمثالها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته ويظنونه في قوم قد خلوا ولم يعقبوا وارثاً وهذا الذي يحول بين المرء وبين فهم القرآن كما قال عمر رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

الدرجة الثامنة

في ذكر من قال إن هذا شرك يحل الدم والمال ويوجب الحرب والقتال بعد قيام الحجة وبلوغ الدعوة ووصول العلم وظهور الكفر منه، وهذه الأشياء قيود وشروط لما أطلقه في هذا المبحث ولا تكفير بالظن أيضاً.

فاعلم أن الاستقصاء غير ممكن وليس بعد كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ كلام يطلب الاستدلال، وماذا بعد الحق إلا الضلال ومن أصدق من الله حديثاً والسنة النبوية هي الحجة عند النزاع، والمراد إذا تتابعت الأشياع فمن استدل بها واعتمدها فقد أفلح ومن استعملها ووزن بها فميزانه الأرجح: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ وقد سمعت ما مر من الآيات البينات والأحاديث الواردات.

وإذا البينات لم تغن شيئاً ... فالتماس الهدى بهن عناء
وإذا ضلت العقول على العلم ... فماذا تقوله النصحاء

ولكن سنذكر من كلام العلماء ما يدل أنهم ورثة الأنبياء ومصابيح الظلماء.

فأولهم صديق هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه فإنه قال في قتال أهل الردة: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، بل قال: لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه.

ولما كفر من كفر من العرب في خلافته قاتلهم عليه واستحل دماءهم وأموالهم بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم، فصار إجماعاً وأكبر شيء

في ردتهم على تنوعها قولهم أن مسيلمة الكذاب نبي فكيف بمن قال أن غير الله إله يعبد أو عبده وإعتقد فيه الآلهية وجعله متصفاً بها وإن لم يقلها بلسانه، ووافقه عمر على قتال من فرق بين الصلاة والزكاة بعد أن توقف عنهم ثم ظهر الدليل فسلكوا سواء السبيل.

وقال بكفر تارك الصلاة جماعة من الصحابة والتابعين، ففي كتاب الترغيب والترهيب للمنذري عن ابن حزم: أنه جاء كفر تارك الصلاة عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ وأبي هريرة.

قال المنذري: وقد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير تارك الصلاة متعمداً حتى يخرج وقتها، منهم ابن مسعود وابن عباس وابن عمر، ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل وإسحاق وابن مبارك، هذا في تركها وقد صنف القحيطي في ذلك مؤلفاً.

وأما جحودها فكون ذلك كفراً مسألة وفاق بين العلماء فكيف بمن ترك التوحيد وجحد حق الله على العبيد أو جعل المخلوق في مرتبة الخالق وسبه بالشرك والتنديد.

وقد ورد الوعيد الشديد فيمن تكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى لها بأساً.

وفي روايات لا يرى بها بأساً لا يتبين فيها لا يظن أن تبلغ به ما بلغته فتفطن لها فإنها مفيدة، بل في قصة غزوة تبوك أن الذين تكلموا بالكفر ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ أنهم اعتذروا بالمزح والخوض واللعب ولم يعتذروا ونزل قوله: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقد حكم الصحابة بكفر من استحل الخمر متأولاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ ومن أولئك قدامة بن مظعون لكنهم تابوا ورجعوا عما تأولوه كما وقع لحاطب بن أبي بلتعة مما ذكره الله في سورة المائدة وهمَّ عمر بقتله لولا ما ذكر من العذر. فما بالك بمن استحل الشرك ولو كان أصغر؟ فإن استحلال المحرم القطعي كفر إجماعاً.

وكذلك حكم ابن مسعود رضي الله عنه في زمن عثمان رضي الله عنه بكفر الذين تكلموا في مسجد بني حنيفة في الكوفة بأن مسيلمة مصيب في دعواه.

وحكم علي رضي الله عنه بكفر الذين غلوا فيه وإعتقدوا فيه صفات الآلهية ثم حرقهم بالنار.

فهذه سيرة الخلفاء الراشدين فيمن كان يقول لا إله إلا الله ثم صدر عنه ما ينافيها وينقض بنياتها فيها وإن كانوا من قبل ما بين معتذر ومتأول وتائب إنما الغرض التكفير وإن ذلك كفر وشرك وإن كانوا من قبل مسلمين.

وأما ما حصل بعد الخلفاء فمن ذلك حكمهم بقتل الجعد بن درهم وجهم بن صفوان لتعطيلهم رب العالمين من الصفات التي نطقت بها الأديان ولقولهم أن القرآن مخلوق وأن الأمر أنف حتى صار أهل الكلام من فرق الضلال وأفتى الشافعي بتحريمه.

وأما أتباع الأئمة الأربعة فأقاويلهم في ذلك كثيرة وأسلوب أهل كل مذهب أن يجعلوا باباً مستقلاً يسمونه باب الردة أو باب حكم المرتد ويفسرونه بأنه المسلم الذي كفر بعد إسلامه، ثم يسردون المكفرات ويطيلون فيها المقالات.

ومن أوسعهم في ذلك الحنفية.

وأما الحنابلة فحصرها بعضهم في أربع مائة مسألة كل واحدة تنقض الإسلام وتلحق فاعلها بعبدة الأوثان.

والشافعية والمالكية لهم في ذلك مباحث طويلة مثل ذلك.

ولابن حجر الهيتمي مؤلف سماه (الإعلام بقواطع الإسلام) وفي مؤلفه (الزواجر) نبذة من ذلك، ولابن المقري في مؤلفاته نحو ذلك، وشارح المنهاج للنواوي أوضحوا تلك الحوالك. ونقل الإمام ابن تيمية

والشيخ ابن حجر الإجماع على كفر من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم، وبعض ما ذكروا في الردة في مسائل فرعية ليست من القواعد الإسلامية ولا من الستة الأصول الإيمانية، فما ظنك بمسألة توحيد الله سبحانه بالعبادة التي هي أصل الأصول ومركز دائرة المنقول والمعقول والقطب الذي تدور عليه رحى الحاصل والمحصول، والأساس الذي عليه بناء مدينة العلم التي فيها النزول والحلول والصراط المستقيم الذي عليه السير والوصول.

فإن قيل: كيف يقاتلون وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ويفعلون كثيراً من شرائع الإسلام، وقد ورد في الصحيح: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله».

فالجواب: أنه ورد في صحيح البخاري: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، فجعل الغاية التي ينتهي إليها القتال الثلاثة الأمور المذكورة في الحديث لأن القول المجرد عن الاعتقاد والعمل غير مفيد وإلا فقد قال اليهود ذلك والمراد معناها لا مجرد لفظها وأن يقولها عن قوله عليه السلام ملتزمين معناها من النفي والإثبات عاملين بمقتضاها غير فاعلين ما ينافيها من الشرك.

فإن قيل: فكيف إذا كانوا يأتون بالثلاثة المذكورة لكنهم يصرفون بعض العبادة إلى غير الله مثل الاعتقاد في القبوريين ونحو ذلك.

فالجواب: أن القصص المذكورة آنفاً فيمن جرى عليه القتل في زمن الخلفاء هو فيمن كان يفعل الثلاثة الأمور ويناقضها بما يوجب قتله.

فإن قيل: هؤلاء لا يعلمون ذلك وأنه ينافي حسن المسالك.

فالجواب: أن المقرر إنما هو تكفير من بلغته الدعوة وقامت عليه الحجة وأبى وعاند بعد العلم مصراً على شركه فمن حين ظهرت هذه

الدعوة النجدية إلى توحيد الإلهية وجردت عليها السيوف فمن ردها وأباها فالكلام عليه واللوم متوجه إليه، وهي الآن بحمد الله قد غارت وطارت، والقرآن العظيم أكبر حجة على من بلغه والمسائل الواضحة التي يشترك في معرفتها الخاص والعام مثل توحيد الله بالعبادة وأنه لا شريك له فيها يدل عليها القرآن دلالة صريحة معقولة للتالي والسامع مع هداية العقل إلى ذلك ودلالته عليه وفهم الحجة غير بلوغها، وللعلماء أقوال في هذا المجال وقد نص القرآن العظيم على ذم قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وأما الأموات فقد أفضوا إلى ما قدّموا وقد ورد النهي عن إيذاء الأحياء بسبب الأموات وهذا فيمن عمله منهم عمل المشركين وفعله فعل الكافرين.

وأما من يعلم صلاحه وتوحيده فذلك الناجي سواء تقدم أو تأخر. ومن لا يعلم حاله أصلاً فكيف عنه اللسان جد الآن تكفير المعين يحتاج إلى ثبوت إقامة الحجة عليه.

وفي نجاة أهل الفترات مباحث واختلافات، والشأن كل الشأن في حال أهل هذا الزمان، وهذا أمر مستفيض وشيء مشهور على علم التوحيد وأنه فرض لازم وعلى الشرك أنه حرام محض ولكنها حصلت غلطات شنيعة وعادات فظيعة وأعمال كفرية وأقوال شركية وردة صريحة وأفعال قبيحة تتابع فيها كثير من الناس وقلد بعضهم بعضاً إلا قليلاً من الأكياس، وكادت تنطمس آثار مباني الشريعة وتنهدم مغانيها المنيعة وما أتوا الناس إلا من قبل الرياسات.

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

حتى بزغ قمر التجديد وطلعت شمس التوحيد بدعوة شيخ الإسلام (محمد بن عبد الوهاب) أسكنه الله جنة المآب، فنوّر الظلام وأجلى الله به القتام وبيّن سبل السلام إلى بلوغ المرام، وألف المؤلفات في التوحيد بجميع العبادات مع إقامة الحجج القاطعة والإنصاف التام في المناظرة

والمراجعة، فعاد قارح الإسلام به جذعاً ورجع دارس الأحكام به متتجعاً.

وكان رحمه الله سُنياً أثرياً متبعاً، وأجاب دعوته ولباه وآوى غربته السعيد المسعود (محمد بن سعود) على قلة من الأعوان وابتكار لهذا الشأن ثم وازره بمجهوده وبطوقه وعاضده حتى استوى على سوقه الإمام (عبد العزيز بن محمد بن سعود) حتى أورى قبس القابس من أنوار التوحيد وأروىٰ عطش العاطش من شراب التجريد.

ثم ولي الخلافة على المسلمين فأحسن قراها بالهدى والتمكين الإمام (سعود بن عبد العزيز) أيده الله فزع جميع المسلمين بقرآنه وسلطانه وزعزع صقع المشركين بتوحيده وإيمانه في سياسة شرعية وسيرة عمرية وصارت جزيرة العرب بولايته عليها في سرور وطرب أمام ناصح فنصح الله له؛ بلغه الله ما أُمّ له وما أمّله وهذه النسخة المجموعة والفوائد المسموعة قطرة من مطرة من سحائب الدعوة وذرة من درة من عجائب أولئك الصفوة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل سائر الصالحين.

وحسبنا الله ونعم الوكيل. ١٣٣٧هـ.



الرسالة الثالثة عشرة

الجواب المفيد
في حكم
جاهل التوحيد

تأليف

أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد الحميد

مقدمة

إن الحمد لله، نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونصلي ونسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه... وبعد:

فلقد عالجنا في البحثين السابقين نقطتين من أهم النقاط التي انحرفت فيها المفاهيم السائدة عن الحق الواضح، مما أدّى إلى تقديم الإسلام لأبناء هذا الجيل مشوهاً مبتوراً، ناقصاً هزيلاً، بل مقطوع الصلة بالدين الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، اللهم إلا من بعض الشكليات الفرعية دون الأصول.

كان بحثنا الأول عن حقيقة معنى التوحيد، وبيان المعنى الحقيقي والأصيل للعبودية لله عز وجل، والتي هي أصل دعوة الرسل جميعاً، فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. كما بيّنا أصل الإسلام الذي لا يكون دين الله إلا به.

وكان بحثنا الثاني عن ضبط حقيقة الإيمان، وأنه قول وعمل يزيد وينقص، وناقشنا فيه عناصر الإيمان، من المعرفة والتصديق والانقياد القلبي والالتزام العملي باللسان والجوارح، كما أوضحنا معنى الإصرار، والرد للشريعة، ثم رددنا مزاعم المرجئة من أن الإيمان مجرد كلمة تقال باللسان وكفى! أو أنه مجرد عمل قلبي بحت. وكذلك رددنا مزاعم الخوارج الذين أدخلوا في أصل الإسلام ما ليس منه، وحدوا له حدوداً جديدة حسبوها من أصل الدين، بينما هي كمالاته وواجباته.

كذلك أمكن لنا تحديد المقاييس الدقيقة التي نستطيع بها ضبط الواقع القائم، سواء كان واقع فرد معين أم واقع مجتمع ما. حيث إن من لم يستوعب هذه الأصول ويفهمها على وجهها الصحيح فإنه يفقد القدرة على ضبط أي واقع، بل يختلط عليه الأمر اختلاطاً شديداً، فيحسب الكافر مسلماً، ويرمي المسلم بالكفر، ويموه عليه المنافق بما يؤذيه، ويضره في دينه ودنياه، وهو غير عالم لحقيقته، بل غير واع لما يجري حوله.

إن من الأهداف الأساسية للشريعة الإسلامية التي نبه عليها القرآن الكريم: ضبط الواقع القائم دائماً ضبطاً شرعياً، لكي يتميز الخبيث من الطيب، ويعرف الكافر من المسلم، ويتبين الفاسق من العابد، فيمكن حينئذ معاملة كلٍّ بما يستحقه، حسب ما شرعه الله سبحانه وتعالى لذلك من ضوابط وحدود.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

إن هذا الأمر قد صار من أهم الأمور وأخطرها، في هذه العصور المنكودة بالذات، وذلك لاختلاط الحق فيها بالباطل والحابل بالنابل اختلاطاً شديداً، حيث رفع فيها الكافرون شعار الإسلام، بينما هم يخفون وراءه كل العداء والحقد للإسلام ولأهله.

وسنحاول هنا بمشيئة الله أن نعالج بهذا البحث، قضية صارت ـ بقدر الله ـ واحدة من أخطر القضايا التي يتعرض لها الفكر الإسلامي، ومن ثم العمل الإسلامي في وقتنا هذا. وهي قضية تأثير عارض «الجهل» على صحة الإسلام أو فساده وبطلانه، ودائرة تأثيره على التكليف، وما يصلح أن يكون فيه عذراً وما لا يصلح.

ولقد أصبح من الأمور الواضحة الآن مدى تأثير هذه القضية على

الواقع الحالي لبعض «دعاة الإسلام»، من حيث تقييمهم للواقع الحالي، ومن ثم من حيث منطلقهم في الدعوة إلى دين الله. بل إن الأمر تعدى ذلك إلى فهمهم الأصلي لحقيقة التوحيد وأصل الإسلام، فكان من لازم قولهم ونتيجته ومساقه ما نعيذهم منه ونأباه لهم.

كما أن هؤلاء «الدعاة» قد أظهروا الواقع الإسلامي، وكأن فيه خلافاً وصراعاً بين اتجاهين قائمين في الفكر الإسلامي، أقل ما يقال فيهما أنهما يمثلان «موضع خلاف» بين الأئمة، فيسوغ لكل مسلم أن يأخذ بأي الاتجاهين شاء! بل تعدى الأمر بالبعض إلى اعتبار أن أحد الاتجاهين ما هو إلا «بدعة منكرة»، وخروج على مذهب أهل السنة والجماعة!

فهذا الخلاف - بزعمهم - إن صح أن فيه خلافاً معتبراً - هو خلاف أصليّ لا فرعي؟ تنبني عليه أخطاء جسيمة في الدعوة إلى دين الله، بل إن الأمر قد يتعدى عند البعض إلى الإخلال بفهم أصول التوحيد نفسها، واعتبار من يسقط منها أصلاً، ما يزال «مسلماً» رغم سقوطه في الشرك وتلبسه به.

ويرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً، ما يعرف بقضية «تكفير المعين». وهي قضية محسومة عند الأئمة الأعلام، ولكن التناول المريض لبعض النقول، والخطأ في تحقيق المناط الذي ينطبق عليه بعض النصوص، أثار حولها شبهات لا وجود لها في حقيقة الأمر، وذلك نتيجة لعدم الدراسة المتأنية في بعض الأحيان، ولغير ذلك من الأسباب في أحيان أخرى كثيرة!

والله تعالى نسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد.

الفصل الأول
مقدمات ضرورية

(أ) إنّ من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن مدار النجاة يوم القيامة إنما هو في تحقيق الإسلام الحقيقي لله ظاهراً وباطناً، وهو ما يستلزم الانقياد والطاعة له سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة إلاّ نفس مسلمة».

كما أن عصمة الدم والمال بالإسلام في الدنيا مترتبة على صحة الإسلام في الظاهر، والله يتولى السرائر. قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»، وقال ﷺ - في رواية: «إنما أمرت بالظاهر - أو إنما نحكم بالظاهر - والله يتولى السرائر».

ولقد عالجنا هذه النقطة باستفاضة في البحثين السابقين، موضحين لكل معاني الشهادة المعتبرة سواء على الحقيقة أو في أحكام الظاهر. فمن مات على غير الإسلام، فليس بمتقبل منه دينه عند الله عز وجل - بنص الكتاب والسنة - كائناً ما كان الدين الذي مات عليه.

(ب) وقد سبق أن بيّنا بوضوح واستفاضة حدود دائرة الملة الإسلامية، وقلنا إن الدين ينقسم إلى أصل وفروع:

* **أصل**: وهو التوحيد أو الإيمان المجمل أو كلمة السواء أو أصل الإسلام. وهذا لم يختلف فيه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا نزلت بغيره الرسالات كلها.

* **فروع**: وهي فروع الشرائع المختلفة بين كل رسول، حسب زمانه وأمراض قومه، وحسب ما شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى.

فأصل الدين هذا هو الذي يحد الدائرة التي يدخل بها الفرد في الإسلام، بحيث يصح شرعاً أن يعتبر من المسلمين المتقبل دينهم عند الله عز وجل.

(ج) ثم إن هناك عوارض تعرض على الإنسان المكلف، تسقط عنه التكليف سواءً بصورة كلية أو بصورة جزئية، وسواءً فيما يتعلق بالإسلام كأصل أو بفروع الشريعة. وتؤدي هذه العوارض إلى رفع العقوبة عنه، أو إلى عدم اعتبار تصرفاته في بعض الأحيان.

وتنقسم هذه العوارض إلى قسمين:

١ ـ عوارض لا تأتي من قبل المكلفين أنفسهم مثل:

* الجنون.
* العته.
* النسيان.
* الإغماء.
* النوم.

٢ ـ عوارض تأتي من قبل المكلفين أنفسهم مثل:

* السفه.
* الجهل.
* السكر.
* الخطأ.
* الإكراه.

وكل عارض من هذه العوارض باب كامل، يشتمل على أبحاث تفصيلية تتناول تحديد معناه، وأشكاله، وتأثيره، وكلها تؤدي إلى رفع العقوبة كلياً أو جزئياً بشكل من الأشكال.

وما يعنينا هنا في هذا البحث هو مناقشة تأثير عارض «الجهل» على التكليف الشرعي؛ سواء على أصل الإسلام أو على فروع الشريعة، وبيان مذاهب العلماء فيه.

وستتضمن مناقشاتنا بعض الاعتبارات الهامة، منها:

١ ـ اعتبار الجهل من حيث موضوعه:

* الجهل بالتوحيد أو أصل الدين.

* الجهل بأصول الشريعة، والمتواتر من الأخبار، والصفات التي تعرف بالنقل، ومواضع الإجماع، والمعلوم من الدين بالضرورة.

* الجهل بأصول اعتقادية ثبتت بأحاديث آحاد، رغم اعتبارها من أصول أهل السنة والجماعة.

٢ ـ اعتبار الجهل من حيث مكان المكلف، سواءً في:

* دار الإسلام، أو حيث تتوفر مظنة العلم.

* دار الحرب، أو حيث لا تتوفر مظنة العلم.

٣ ـ اعتبار الجهل من حيث صحة الإسلام وأثره عليه، سواء:

* الإسلام على الحقيقة، أي في أحكام الثواب والعقاب الأخروي عند الله تعالى.

* الإسلام على الظاهر، أي في إجراء الأحكام في الدنيا.

(د) وقبل ذلك، فمن الضروري أن نوضح معاني الجهل التي تعنينا في هذا البحث. فإن الجهل يأتي في الشرع بمعنيين أساسيين وردا في القرآن الكريم:

١ ـ فقد العلم:

كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾. أي الغير العالم بحقيقة حالهم.

٢ ـ سفه العقل وتدني النفس وسوء التقدير:

كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. وعلى هذا المعنى أكثر ما ورد لفظ الجهل في القرآن الكريم.

وقد يطلق على الصغير الغير الواعي «جاهل» لعدم استيعابه الحجة والفهم لها. كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قال القرطبي: «أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار تجهلون».

والجهل المقصود بدراستنا هنا، هو الجهل بمعناه الأول: أي فقد العلم. وأما الجهل بمعنى سفه العقل والنفس، فهذا إن استتبعه الكفر فيكون الأول أحد أسبابه، ويكون كذلك أسباب أخرى للكفر مع عدم فقد العلم، كالتكذيب أو الإعراض أو الاستكبار.

الفصل الثاني
تأثير عارض الجهل على التوحيد

أصل الدين هو معرفة الله عز وجل وعبادته وحده لاشريك له.

وهذا لا عذر فيه بالجهل، سواءً وجدت مظنة العلم ـ كدار الإسلام ـ أم لم توجد ـ كدار الحرب ـ وسواءً ثبتت إقامة الحجة أم لم تثبت. ويجب اعتبار الجاهل فيه كافراً في ظاهر الأمر.

وهذا القدر متفق عليه بين الأئمة:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

قال ﷺ: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي».

وقال ابن عباس: (إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم ميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً).

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة ـ وفي رواية على هذه الملّة ـ فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه».

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وعن أبي بن كعب: (قال الله: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً).

يقول الإمام ابن كثير: (وذهب طائفة من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد).

ويقول: (إن المراد بهذا أن يجعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك).

ويقول: (وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد) ا.هـ.

ويقول الإمام البغوي: (يقول إنما أخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنا ذرية من بعدهم أي كنا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم، فتجعلوا هذا عذراً لأنفسكم وتقولوا.. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾. أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين؟ فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي نبين الآيات ليتدبرها العباد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى التوحيد) ا.هـ.

ويقول ابن كثير: (ولهذا قال ـ أن يقولوا ـ أي لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أي عن التوحيد غافلين) ا.هـ.

ويقول ابن كثير: (يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه) ا.هـ.

ويقول القرطبي: (قوله ﴿شَهِدْنَآ﴾ أي من قول بني آدم، والمعنى شهدنا أنك ربنا وإلهنا).

ويقول أيضاً: (﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى لست تفعل هذا، ولا عذر للمقلد في التوحيد) ا.هـ.

ويقول الطبري: (يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم أيها المقرون بأن الله ربكم كيلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلة منه، ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ اتبعنا مناهجهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ بإشراك من أشرك من آبائنا واتباعنا مناهجهم على جهل منا بالحق) ا.هـ.

ويقول البيضاوي: (أي كراهة أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، أي لم ننبه عليه بدليل.. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، فاقتدينا بهم، لأن التقليد عند الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً) ا.هـ.

ويقول صاحب المنار: (والمعنى: واذكر أيها الرسول ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً بعد بطن، فخلقهم الله على فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدث، وأن فوق العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات، والعلل والمعلومات، سلطاناً أعلى على جميع الكائنات، هو الأول والآخر، وهو المستحق للعبادة وحده) ا.هـ.

ويقول: (قالوا: بلى شهدنا، أي بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا) ا.هـ.

ويقول صاحب المنار أيضاً: (بيّن سبحانه سبب هذا الإشهاد وعلته فقال: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي فعلنا هذا منعاً

لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأن تقولوا - إذا أنتم أشركتم به - إنا كنا غافلين عن هذا التوحيد للربوبية وما يستلزمه من توحيد الإلهية بعبادة الرب وحده، والمراد أنه تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ جاهلين ببطلان شركهم، فلم يسعنا إلا الإقتداء بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم، مع عذرنا بتحسين الظن بهم، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آبائهم وأجدادهم، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل بعد ما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبني آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم، ولعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم، والآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة بالشرك بالله تعالى، ولا بفعل الفواحش والمنكرات التي تنفر منها الفطرة السليمة، وتدرك ضررها وفسادها للعقول المستقلة، وإنما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أن لا يعرف إلا منهم، وهو أكثر العبادات التفصيلية) ا.هـ.

يقول الإمام ابن القيم: (فيكون تأويل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وإذ يأخذ ربك، وكذلك قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ويشهدهم بما ركبه فيهم من العقل الذي يكون به الفهم، ويجب به الثواب والعقاب. وكل من ولد وبلغ الحدث وعقل الضر والنفع، وفهم الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق في التوحيد بما ركب فيه من العقل، وأراه من الآيات والدلائل) ا.هـ.

يقول ابن القيم: (ولما كانت آية الأعراف هذه في سورة مكية ذكر فيها الميثاق والإشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقروا بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك، وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحجة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الإهلاك) ا.هـ.

ويقول: (قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ فذكر حكمتين في هذا التعريف والإِشهاد (أحدهما) أن لا يدّعوا الغفلة. (والثانية) أن لا يدّعوا التقليد. فالغافل لا شعور له، والمقلد متبع في تقليده لغيره) ا.هـ.

ويقول ابن القيم: (أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليهم بهذا الإِشهاد في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٨٧﴾، أي فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الإِقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم، وهذا كثير في القرآن) ا.هـ.

ويقول ابن القيم: (﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل الآيات ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإِيمان) ا.هـ.

٢ - روى الإِمام مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا حفص بن غياث عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: قلت: «يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

وروى الإِمام أحمد بسنده حديثاً طويلاً في قدوم وفد بني المنتفق على رسول الله ﷺ، جاء فيه: «فقلت: يا رسول الله، هل لأحد مما مضى من خير في جاهليتهم؟ فقال رجل من عرض قريش: والله إن أباك المنتفق لفي النار. قال: فكأنه وقع حر بين جلد وجهي ولحمه مما قال لأبي على رؤوس الناس، فهممت أن أقول: وأبوك يا رسول الله؟ ثم إذا الأُخرى أجمل، فقلت: يا رسول الله وأهلك؟ قال: وأهلي، لعمر الله حيث ما أتيت على قبر عامري أو قرشي أو دوسي، قل: أرسلني إليك محمد، فأبشر بما يسوءك، تجر على وجهك وبطنك في النار، قال: فقلت: يا

رسول الله، وما فعل بهم ذلك وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون. قال ﷺ: ذلك بأن الله بعث في آخر كل سبع أمم نبياً، فمن عصى نبيه كان من الضالين، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين».

وروى مسلم في صحيحه: عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: «يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار. قال: فلما قفّى الرجل دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار».

فيتضح من الأحاديث السابقة أن جهل من مضى قبل بعثة الرسول ﷺ بالتوحيد، لم يكن عذراً لهم سواء في الحكم عليهم في الدنيا بظاهر أمرهم، أو في حقيقة أمرهم عند الله تعالى. وذلك بإخبار الرسول ﷺ أنهم في النار.

٣ ـ وروى الإمام أحمد، عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ «رأى رجلاً في يده حلقة من صفر. فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة. فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً». يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب في تعليقه على الحديث: (فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة). اهـ.

فإذا كان الرجل لم يعذر بالجهالة في أمر من أمور الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر؟!.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرّ رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرّب. قال: ليس عندي شيء أقرّب. قالوا له: قرب ولو ذباباً. فقرب ذباباً، فخلوا سبيله فدخل النار. وقالوا للآخر: قرّب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة».

يقول صاحب فتح المجيد: (وفي هذا الحديث التحذير من الوقوع في الشرك وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجب النار).

ويقول: (إن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك ـ أي أنه كفر بهذا الفعل فقط ـ وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل دخل النار في ذباب) ا.هـ.

٤ ـ وأورد الإمام القرافي المالكي كلاماً هاماً في (الشرح) ثم قال في نهايته: (... ولذلك لم يعذره الله بالجهل في أصول الدين إجماعاً) ا.هـ.

ولقد أورد القرافي الكلام أكثر تفصيلاً في (الفروق) فقال: (اعلم أن الجهل نوعان: النوع الأول: جهل تسامح صاحب الشرع عنه في الشريعة فعفا عن مرتكبه، وضابطه أن كل ما يتعذر الاحتراز عنه عادة فهو معفوٌّ عنه، وله صور: أحدها من وطئ امرأة أجنبية بالليل يظنها امرأته أو جاريته عفي عنه لأن الفحص عن ذلك مما يشق على الناس.

ثم أورد صوراً أخرى، إلى أن قال:.. النوع الثاني: جهل لم يتسامح صاحب الشرع عنه في الشريعة فلم يعف عن مرتكبه، وضابطه أن كل ما لا يتعذر الاحتراز عنه ولا يشق لم يعف عنه. وهذا النوع يطرد في أصول الدين، وأصول الفقه، وفي بعض أنواع من الفروع.

أما أصول الدين فلأن صاحب الشرع لما شدد في جميع الاعتقادات تشديداً عظيماً، بحيث أن الإنسان لو بذل جهده واستفرغ وسعه في رفع الجهل عنه في صفة من صفات الله، أو في شيء يجب اعتقاده من أصول الديانات ولم يرتفع ذلك الجهل، لكان بترك ذلك الاعتقاد آثماً كافراً، يخلد في النيران على المشهور في المذاهب) ا.هـ.

ويقول وهبة الزحيلي: (النوع الثاني من الجهل: جهل لم يتسامح به صاحب الشرع في الشريعة، فلم يعف عن مرتكبه.. وهذا النوع يجري في أصول الدين أو الاعتقاديات، وأصول الفقه وبعض الأحكام الشرعية.

أما أصول الدين فلا يعتبر الجهل فيها، وإنما يجب معرفة العقيدة الصحيحة بالتعلم والسؤال، ومن اعتنق عقيدة مع الجهل فقد أثم إثماً مهيناً، لأن المشرع قد شدد في عقائد أصول الدين تشديداً عظيماً، حتى إن الإنسان لو بذل جهده واجتهد في تعرف العقيدة الحقة ولم يؤده اجتهاده إلى ذلك، فهو آثم كافر على المشهور في المذاهب، ولا يعذر بخطئه في الاجتهاد) ا.هـ.

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: (القسم الأول: جهل لا يعذر فيه صاحبه ولا شبهة فيه.. إلى أن قال: وقد ذكر علماء الأصول من ذلك جهل غير المسلم بالوحدانية) ا.هـ.

٥ ـ يقول صاحب معارج القبول: (إن أنواع الكفر لا تخرج عن أربعة: كفر جهل وتكذيب، وكفر جحود، وكفر عناد واستكبار، وكفر نفاق. فأحدها يخرج من الملة بالكلية، إلى أن يقول: وإن انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق، فكفر الجهل والتكذيب.

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾..) ا.هـ.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في صدد شرحه لمعنى التوحيد والشرك: (.. وأفادك أيضاً الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل، فلا يعذر بالجهل) ا.هـ.

ويقول الإمام ابن القيم: (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً؛ فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله إما عناداً أو جهلاً وتقليداً لأهل العناد) ا.هـ.

ويقول الإمام الصنعاني عن مشركي هذه الأيام مثل عبدة الأضرحة والأولياء: (فإن قلت: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين، كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلت: نعم، قد حصل منهم ما حصل من أولئك وساووهم في ذلك، بل زادوا في الاعتقاد والانقياد والاستعباد، فلا فرق بينهم.

فإن قلت: هؤلاء القبوريون يقولون نحن لا نشرك بالله تعالى ولا نجعل له نداً، والإلتجاء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم ليس شركاً.

قلت: نعم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، لكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك. فإن تعظيمهم الأولياء، ونحرهم النحائر لهم شرك، والله تعالى يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ أي لا لغيره كما يفيده تقديم الظرف، ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

وقد عرفت بما قدمناه قريباً أنه صلى الله عليه وسلم قد سمى الرياء شركاً، فكيف بما ذكرناه؟

فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم: هو عين ما فعله المشركون وصاروا به مشركين، ولا ينفعهم قوله: نحن لا نشرك بالله شيئاً، لأن فعلهم أكذب قولهم.

فإن قلت: هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه.

قلت: قد صرح الفقهاء في كتب الفقه في باب الردة: أن من تكلم بكلمة الكفر يكفر، وإن لم يقصد معناها. وهذا دال على أنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام، ولا ماهية التوحيد، فصاروا حينئذ كفاراً كفراً أصلياً.

فإن قلت: فإذا كانوا مشركين وجب جهادهم، والسلوك فيهم ما سلك رسول الله ﷺ في المشركين.

قلت: إلى هذا ذهب أئمة العلم، فقالوا: يجب أولاً دعاؤهم إلى التوحيد) ا.هـ.

الفصل الثالث
تأثير عارض الجهل في الإسلام على الحقيقة

أما عن اعتبار الجهل وتأثيره في حقيقة التوحيد، أي في أحكام الآخرة عند الله من ثواب وعقاب؛ ففيه تفصيل، حيث اختلف العلماء في أمرين:

أولاً: مناط التكليف «أي في حساب الآخرة»:

١ ـ ذهب البعض إلى أن العقل وحده هو مناط التكليف في هذا، وأن الإنسان قد فطر على إدراك التوحيد وحده، فيجب عليه أن يصل إلى الحق بالنظر والاستدلال، وأنه سيحاسب في الآخرة على هذا الأساس حتى ولو لم يأته رسول من الله عز وجل. ومن هؤلاء: المعتزلة، وجمهور الحنفية، وغيرهم.

يقول الإمام أبو حنيفة: (لا عذر لأحد من الخلق في جهله معرفة خالقه، لأن الواجب على جميع الخلق معرفة الرب سبحانه وتعالى، وتوحيده، لما يرى من خلق السموات والأرض، وخلق نفسه، وسائر ما خلق الله تعالى؛ فأما الفرائض فمن لم يعلمها ولم تبلغه، فإن هذا لم تقم عليه حجة حكيمة) ا.هـ.

ويقول العلامة الشنقيطي: (قد قال قوم: إن الكافر في النار، ولو مات في زمن الفترة، وممن جزم بهذا القول ـ أي أن أهل الفترة الذين ماتوا على الكفر فهم في النار ـ النووي في شرح مسلم.

وحكى القرافي في شرح التنقيح الإجماع على أن موتى أهل الجاهلية في النار لكفرهم، كما حكاه عنه صاحب «نشر البنود») ا.هـ.

وأجاب أهل هذا القول عن آية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وأمثالها من عدة وجوه.

الأول: أن التعذيب المنفي في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ..﴾ الآية وأمثالها، إنما هو التعذيب الدنيوي، كما وقع في الدنيا من العذاب بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم موسى، وأمثالهم. وإذاً فلا ينافي التعذيب في الآخرة. ونسب هذا القول القرطبي، وأبو حيان، والشوكاني، وغيرهم في تفاسيرهم إلى الجمهور.

الثاني: أن محل العذر بالفترة المنصوص في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ الآية وأمثالها. في غير الواضح الذي لا يلتبس على عاقل. أما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل، كعبادة الأوثان فلا يعذر فيه أحد لأن جميع الكفار يقرون بأن الله هو ربهم وهو خالقهم ورازقهم، ويتحققون أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع ولا على دفع ضر، لكنهم غالطوا أنفسهم، فزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها شفعاؤهم عند الله، من أن العقل يقطع بنفي ذلك.

الثالث: أن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا مثلاً قبل نبينا ﷺ، كإبراهيم وغيره، وأن الحجة قائمة عليهم بذلك. وجزم بهذا النووي في شرح مسلم، ومال إليه ابن قاسم العبادي في (الآيات البينات).

الرابع: ما جاء من الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، الدالة على أن بعض أهل الفترة في النار، كما قدمنا بعض الأحاديث الواردة بذلك في صحيح مسلم وغيره.

٢ ـ وذهب الآخرون ـ ومنهم جمهور أهل السنة ـ إلى أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً في الدنيا أو في الآخرة إلا بعد قيام الحجة الرسالية عليه.

يقول الإمام ابن القيم: (إن الله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.. وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة) ا.هـ.

ويقول الإمام الشنقيطي: (إن الله جل وعلا لا يعذب أحداً من خلقه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره، فيعصي ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار) ا.هـ.

ويقول: (والآيات القرآنية مصرحة بكثرة، على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، بل إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليهِ الحجة بإنذار بالرسل، فمن ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾، فإنه قال فيها: حتى نبعث رسولاً، ولم يقل حتى نخلق عقولاً، وننصب أدلة، ونركّز فطرة) ا.هـ.

ويقول الشنقيطي: (وهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تدل على عذر أهل الفترة بأنهم لم يأتهم نذير، ولو ماتوا على الكفر.

وبهذا قالت جماعة من أهل العلم، وذهبت جماعة أخرى من أهل العلم إلى أن كل من مات على الكفر فهو في النار ولو لم يأته نذير) ا.هـ.

ثانياً: إمكان وجود من لم تبلغه دعوة التوحيد:

«أي في الدنيا بأية صورة من الصور».

١ ـ فقد ذهب فريق إلى منع وقوع ذلك شرعاً ـ وإن أجازه عقلاً؛ واستدلوا بعموم ما جاء في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾.

وقال ﷺ في حديث وفد بني المنتفق: «.. ذلك بأن الله بعث في آخر كل سبع أمم نبياً، فمن عصى نبيه كان من الضالين، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين».

وهؤلاء منعوا من وجود من أطلق عليهم «أهل الفترة» وهم الذين وجدوا في فترة بين رسولين، أي في زمن انقطاع الوحي، وطول الزمان الذي اندرست فيه الشرائع كلية، وانطمست فيه آثار الرسالة، ولم يصححوا حديث الأربعة الذين يختبرهم الله عز وجل يوم القيامة.

وقد روى الحديث الإمام ابن كثير في تفسيره من عدة أوجه، منها ما جاء عن الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، ثنا معاوية بن هشام، ثنا أبي عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول: رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم: أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً».

يقول القرطبي في تفسير آية الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾: (وفي هذا الدليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلاف المعتزلة القائلين بأن العقل يقبح ويحسن ويبيح ويحظر. والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا، أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار.

وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا﴾.

قال ابن عطية: والذي يعطيه النظر أن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد، وبث المعتقدات في بنيه، مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر، توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد غرق الكفار.

وهذه الآية أيضاً يعطي احتمال لفظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفترات «الذين قدر وجودهم بعض أهل العلم».

وأما ما روي من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قال المهدوي: وروي عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولاً إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم، فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية.

قلت: هذا موقوف وسيأتي مرفوعاً في آخر طه، ولا يصح.. قال: ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم) ا.هـ.

كما نقل هذا القول الإمام ابن كثير في تفسيره عن الحافظ بن عبد البر حافظ المغرب بلا منازع، فقال: (قال ـ يعنى ابن عبد البر ـ: أحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها، لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها) ا.هـ.

فالراجح ـ عند أصحاب هذا المذهب ـ هو عدم وجود من لم تبلغه

دعوة التوحيد في الدنيا قبل موته بأية صورة من الصور، وذلك لعموم الأدلة القرآنية الدالة على إرسال الرسل وإقامة الحجة في الدنيا على كل شخص، وأن الدنيا هي دار التكليف ولا تكليف بعدها.

وأما عن آية الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فيقال فيها:

* إما أنها تعم حكم الدنيا والآخرة، فيكون الله سبحانه وتعالى يقرر فيها حقيقة إرادتها مشيئته وحكمته، مدللاً بها على كمال عدله المطلق جل وعلا، بمعنى أن الله حين يعذب الكافرين في الآخرة، فإنه قد أقام عليهم الحجة، ولا شك في الدنيا، وأعذر إليهم أولاً فأرسل إليهم الرسل والنذر مبلغين عنه عز وجل، كما قرر سبحانه في الآيات الأخرى الكثيرة، والتي ذكرناها آنفاً.

فالآية على هذا تقرر حقيقة سبق وأن تحققت فعلاً في الدنيا بإرسال الرسل إلى كافة الناس، فهي لا تضع شرطاً إذاً للعذاب على من بلغه الرسول دون من لم يبلغه ـ فالجميع قد بلغهم ـ وذلك بمقتضى نصوص أخرى ثابتة في نفس محل الخلاف تنفي وجود من لم يأته نذير.

* وإما أنها تجري على أحكام الدنيا فقط، بمعنى الإهلاك وعذاب الاستئصال الأرضي، وهو قول الجمهور كما ذكرنا. أو أنها لا تجري إلا على ما لا يعرف إلا بالشرع من أحكام الفروع، بمعنى أنه «لا تكليف إلا بشرع»، فتكون هذه الآية وأمثالها هي الدليل على هذه القاعدة.

ويقول النيسابوري: (وما كنا معذبين ـ في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفة وجوبها إلا بالشرع ـ إلا بعد مجيء الشرع) ا.هـ.

ويقول الطبرسي: (إن الآية على التخصيص فيما لا يعرف إلا بالشرع من واجبات وفرائض وفروع الشريعة) ا.هـ.

وأما عن حديث الأربعة المحاجون يوم القيامة، فإلى جانب قول من قال من الأئمة بعدم صحته، كالقرطبي وابن عطية وابن عبدالبر وغيرهم،

فإن مسألة تخصيص عام القرآن بحديث الآحاد مسألة مختلف فيها؛ فقد جعل الإمام الشافعي والإمام أحمد خبر الآحاد الصحيح السند مخصصاً لعام القرآن مطلقاً. أما الإمام أبو حنيفة فلم يخصص به العام مطلقاً، لأن دلالة العام عنده قطعية. وأما الإمام مالك فقد خصص به العام إن عاضده قياس أو عمل أهل المدينة، ومنع من تخصيصه بغير ذلك، وضعَّف الخبر في هذه الحالة.

فإذا كان حديث الأربعة يعارض نصوصاً أخرى عامة، فيجب التوقف فيه وتوكيل أمره إلى الله عز وجل؛ خاصة وأن سنده لم تثبت صحته بإطلاق ودون مخالفة. وقد توقف مثلاً الإمام مالك في حديث ولوغ الكلب رغم صحته عنده وروايته له بنفسه، وذلك لمعارضته قاعدة قطعية عنده، وهي أن علة الطهارة هي الحياة، إلى جانب قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وكذلك ردت عائشة رضي الله عنها حديثاً لأبي هريرة رضي الله عنه في عذاب الميت ببكاء أهله عليه، وذلك لمخالفته لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٢ ـ وذهب الفريق الآخر إلى جواز وقوع ذلك شرعاً وعقلاً، فقدروا وجود «أهل الفترة» وكان مستندهم في ذلك هو حديث الأربعة السابق ذكره، فصححوه وقالوا به.

ومن هؤلاء الإمام ابن كثير حيث قال في تفسيره: (إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما نص على ذلك غير واحد من أئمة العلم، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يقوى بالحسن والصحيح، وإذا كانت أحاديث الباب متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر) ا.هـ. ثم نسب نفس القول إلى الأشعري والبيهقي وغيرهما.

كذلك صحح الحديث ابن حزم في الأحكام فقال: (أما من لم يبلغه ذكره ﷺ، فإن كان موحداً، فهو مؤمن على الفطرة الأولى صحيح الإيمان لا عذاب عليه في الآخرة، وهو من أهل الجنة، وإن كان غير موحد فهو

من الذين جاء النص بأنه يوقد له نار يوم القيامة، فيؤمرون بالدخول فيها، فمن دخلها نجا، ومن أبى هلك) ا.هـ.

وهو ما يراه الإمام ابن القيم حيث يقول: (الأصل الثالث: إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة دون بقعة، وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه، كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر له ترجمان، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما) ا.هـ.

ويقول الإمام الشنقيطي: (الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة التي هي: هل يعذر المشركون بالفترة أو لا؟ هو أنهم معذرون بالفترة. فوجه الجمع بين الأدلة هو عذرهم بالفترة، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعُذِّب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا، لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل. وبهذا الجمع تتفق الأدلة، فيكون أهل الفترة معذورين، وقوم منهم من أهل النار بعد الامتحان، وقوم منهم من أهل الجنة بعده أيضاً) ا.هـ.

ويقول الشنقيطي أيضاً: (وقال ابن كثير رحمه الله تعالى أيضاً قبل هذا الكلام بقليل ما نصه: ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في عرصات المحشر، فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم الله فيه بسابق السعادة. ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد حرصت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة، والشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة،

وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «الاعتقاد»، وكذلك غيره من محققي العماء والحفاظ والنقاد. انتهى الغرض من كلام ابن كثير رحمه الله تعالى وهو واضح جداً فيما ذكرنا) ا.هـ.

ويقول الشنقيطي: (إن الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن بلا خلاف، لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما. ولا وجه للجمع بين الأدلة إلا هذا القول بالعذر والامتحان، فمن دخل النار فهو الذي لم يمتثل ما أمر به عند ذلك الامتحان، ويتفق بذلك جميع الأدلة، والعلم عند الله تعالى) ا.هـ.

وحتى على قول هذا الفريق من العلماء ـ أي من قدَّروا وجود أهل الفترة، أو من لم تبلغه دعوة التوحيد ـ فلا وجه لتطبيق مقتضى هذا القول على من هم في أيامنا هذه؛ أي عند «تحقيق مناط» هذ الحكم، بالمصطلح الأصولي.

فزمان الفترة هو زمان اندرست فيه الشرائع كلية، وانطمست كل أعلام النبوة وآثارها، ولم يعرف قول نبي ولا شرعيته، ولم يجد الناس من يهديهم إلى الدين الحق إذا جهدوا في البحث عنه، فلم يتمكنوا منه لعدم توفر إمكانية العلم.

فأين هذا من زماننا الذي يتلى فيه القرآن في كل مكان ليل نهار، وتقام فيه المساجد في كل منطقة وحيّ، وتنتشر فيه الكتب التي تعلِّم الناس دينهم بالملايين مطروحة بين أيديهم، غير الأئمة الأعلام الذين أقاموا الحجة كاملة على أبناء عصرهم قديماً وحديثاً، فمنهم من استشهد ودفع حياته رخيصة في سبيل دينه، ومنهم من تحمَّل في سبيل الحق كل بلاء وإساءة، فظل صامداً منادياً بالحق مجاهراً به في كل وقت وفي كل مكان.

وصدق الله العظيم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

فقياس أهل زماننا على أهل الفترة لا يصح مطلقاً بأي وجه من الوجوه، وإنما أهل الفترة ـ على هذا القول ـ قد انقطع وجودهم في الأرض منذ أن ربطت أجزاؤها بعضها ببعض بشتى وسائل الاتصالات الحديثة التي تكفل انتقال الأفكار والأخبار في مثل لمح البصر.

فمناط وجود «أهل الفترة» غير متحقق في عالمنا اليوم ـ إن صح وجودهم مطلقاً ـ فلا يجوز الاحتجاج بهم؛ وهذا من قبيل ما ذكرناه سابقاً وكثيراً من أنه يجب أن تحمل أقوال العلماء والأئمة من السلف والخلف، كل قول على مناطه الحقيقي المقصود، حتى لا تضيع الحقائق، فنطبق أحكاماً على من ليس مكلفاً بها أصلاً، ونخرج من مقتضاها من هو مكلف بها في حقيقة أمره!

ثم إن القائلين بهذا القول ـ أي وجود أهل الفترة ـ قد قسموا أهل الفترة إلى قسمين:

* قسم متابع لما عليه أهل الشرك، مستنيم لهم، غير عامل على البحث عن غير دينهم، سواءً وجد غير هذا في زمانه أم لم يوجد.

* وقسم عرف ما عليه أهل زمانه من الشرك والمنكر، فرفضه، ولكنه لم يجد ديناً يتعبد به إلى الله، لعدم وجود آثار الرسالة في هذا الزمان.

فالقسم الأول غير معذور، ولا يدخل في مقتضى آية الإسراء أو حديث الأربعة.

والقسم الآخر: فصاحبه إما أن يكون موحداً، ولكنه يجهل أية شريعة يتقرب بها إلى الله، وذلك لعدم وجودها في زمانه، فهذا ناجٍ يوم القيامة، ومثاله «المتحنفين» من العرب قبل بعثة الرسول ﷺ.

وإما أن يكون تاركاً لما عليه قومه من عبادة غير الله متوقفاً عنه، ولكنه لم يصل إلى الدين الصحيح بعد أن جهد في طلبه وتحصيله فلم

يتمكن، فهذا الذي يدخل في مقتضى الآية وحديث أهل الفترة.

يقول الإمام الشاطبي: (.. ونظيره مسألة أهل الفترات العاملين تبعاً لآبائهم، واستنامة لما عليه أهل عصرهم من عبادة غير الله وما أشبه ذلك، لأن العلماء يقولون في حكمهم إنهم على قسمين:

* قسم غابت عليه الشريعة، ولم يدر ما يتقرب به إلى الله تعالى، فوقف عن العمل بكل ما يتوهمه العقل أن يقرب إلى الله، ورأى ما أهل عصره عاملون به مما ليس لهم فيه مستند إلا استحسانهم، فلم يستفزه ذلك على الوقوف عنه، وهؤلاء هم الداخلون الجنة حقيقة تحت عموم الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

* وقسم لابس ما عليه أهل عصره من عبادة غير الله، والتحريم والتحليل بالرأي، فوافقوهم في اعتقاد ما اعتقدوه من الباطل؛ فهؤلاء نص العلماء على أنهم غير معذورين، مشاركون لأهل عصرهم في المؤاخذة، لأنهم رافقوهم في العمل والموالاة والمعاداة على تلك الشرعة، فصاروا من أهلها..) ا.هـ.

ويزيد الإمام ابن القيم الأمر إيضاحاً فيقول ـ في معرض كلامه عن «كفر الجهل والاتباع» ما نصه: (وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لم يتمكن من العلم بوجه، فهم قسمان أيضاً:

*** أحدهما: مريد للهدى مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكم أرباب الفترات ومن لم تبلغه الدعوة.**

*** والثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه.**

فالأول يقول: يا رب، لو أعلم ديناً خيراً مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه؛ ولكني لا أعرف سوى ما أنا عليه، ولا أقدر عليه، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه، لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه

سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته. وكلاهما عاجز: فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزاً وجهلاً. والثاني: كما لم يطلبه، بل مات على شركه، ولو كان طلبه لعجز عنه. ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض) ا.هـ.

ويجب أن نلاحظ أخيراً، أن كل ما نقلناه من خلاف بين العلماء في هذا الفصل، إنما هو في أحكام الآخرة فقط، أي في مآل الجهل يوم القيامة في أحكام الثواب والعقاب عند الله سبحانه وتعالى، وأما بالنسبة لأحكام الدنيا فلا خلاف بين العلماء في اعتباره كافراً في ظاهر أمره، وذلك لجريان الأحكام في الدنيا على هذا الأساس.

يقول الإمام ابن القيم: (والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق، أما كون زيد بعينه أو عمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد:

* أن كل من دان بدين غير الإسلام فهو كافر.

* وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى الله، وهذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر..) ا.هـ.

فهذا نص للإمام ابن القيم هو فصل الخطاب في موضوعنا، فنحن كمسلمين أولاً، وكدعاة إلى دين الله ثانياً، لا نتكلم عن أحكام الثواب والعقاب، فهذا أمر موكول إلى الله سبحانه وتعالى وحده أولاً وآخراً، ولكننا نتحدث عن الإسلام والكفر باعتبارهما حكمين شرعيين تعبدنا الله بهما في أحكام الدنيا.

فيجب التمييز جيداً بين المقامين: مقام الظاهر، ومقام الحقيقة، مقام أحكام الدنيا، ومقام أحكام الآخرة من ثواب وعقاب.

الفصل الرابع
تأثير عارض الجهل في أصول الشريعة

وهذا الفصل يشتمل على تأثير عارض الجهل بأصول الشريعة ـ بمعنى القواعد القطعية فيها ـ سواءً الثابتة بالنص أم بالاستقراء الكليّ للنصوص استقراءً مفيداً للقطع.

ويدخل في حكمها: المتواتر من الأخبار، والصفات الثابتة التي لا تعرف إلا بالعقل، ومواقع الإجماع، والمعلوم من الدين بالضرورة من مسائل الفروع.

وهذا القسم كله: لا يكفر الجاهل به «قبل إقامة الحجة عليه»، على تفصيل:

* فإن كان المكلف في مكان تتوفر فيه مظنة العلم ـ كدار الإسلام ـ كان آثماً ولم يعذر بجهله، ويقام عليه الحد إن انبنى على قوله عمل فيه حد، سواءً كان متأوّلاً أم غير متأوّل.

* وإن كان المكلف في مكان لا تتوفر فيه مظنة العلم ـ كدار الحرب ـ لم يكن آثماً وعذر بجهله، فإن أقيمت عليه الحجة فأنكر، كفر بذلك.

أما من مظنة العلم، فيكفي فيها إمكان العلم ـ بانتشاره مثلاً ـ ولا يشترط تحقق العلم فعلاً.

يقول عبد القادر عودة: (ويكفي في العلم بالتحريم إمكانه، فمتى بلغ الإنسان وكان عاقلاً وميسر له أن يعلم ما حرم عليه، إما برجوعه للنصوص

الموجبة للتحريم، وإما بسؤال أهل الذكر، اعتبر عالماً بالأفعال المحرمة، ولم يكن له أن يعتذر بالجهل، أو يحتج بعدم العلم. ولهذا يقول الفقهاء: لا يقبل في دار الإسلام العذر بجهل الأحكام؛ ويعتبر المكلف عالماً بالأحكام بإمكان العلم فعلاً، ومن ثم يعتبر النص المحرم معلوماً للكافة ولو أن أغلبهم لم يطلع عليه أو يعلم عنه شيئاً، ما دام العلم به ممكناً لهم؛ ولم تشترط الشريعة تحقق العلم فعلاً..) ا.هـ.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: (وارتكاب ما نص القرآن نصاً قطعياً على تحريمه معتقداً حله، وكذلك ما تواتر وثبت بالإجماع فإن الجهل بهذا إثم) ا.هـ.

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي: (أما الجهل فلا يعفى عنه ويعتبر الجاهل كالمتعمد، لأن المكلف بالأمور الشرعية لا يجوز له أن يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله تعالى فيه، لقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ حيث نهى الله تعالى نبيه عليه السلام عن اتباع غير المعلوم، فدل على أنه لا يجوز الشروع في شيء حتى يعلم حقيقته.

وكذا قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». ومن هنا قال الإمام مالك: إن الجهل في الصلاة أو في سائر العبادات، الجاهل كالمعتمد لا كالناسي) ا.هـ.

ويقول عن أصول الفقه في الدين والقواعد القطعية: (أما أصول الفقه فملحقة بأصول الدين، لا يعذر المجتهد بخطئه فيها وإنما يأثم.. إلا أن المخطئ فيها لا يكون كافراً، وإنما يكون مبتدعاً فاسقاً) ا.هـ.

وينقل عن الشافعي قوله في الرسالة: (لا يسع أحداً غير مغلوب على عقله جهلها في دار الإسلام، أي الفروع التي اشتهرت وعرفت من المتواتر وغيرها) ا.هـ.

وكذلك ينقل عن الحنفية في تقسيمهم لعارض الجهل: (٢ - جهل لا

يصلح عذراً لكنه دون جهل الكافر، كجهل من خالف في اجتهاده القرآن والسنة من علماء الشريعة، أو العمل بالغريب من السنة، كاستباحة متروك التسمية عمداً بالقياس على الناسي) ا.هـ.

ومن الحوادث المشهورة في التاريخ الإسلامي حادثة قدامة بن مظعون مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (استعمل عمر قدامة بن مظعون على البحرين، وكان ممن شهد بدراً مع النبي ﷺ، وهو خال ابن عمر وحفصة زوج النبي ﷺ، فقدم الجارود من البحرين فقال: يا أمير المؤمنين إن قدامة بن مظعون قد شرب مسكراً، وإني إذا رأيت حداً من حدود الله حق عليّ أن أرفعه إليك. . فشهد عليه أبو هريرة والجارود وامرأته هند بنت الوليد، فقال عمر: يا قدامة، إني جالدك. فقال قدامة: والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني يا عمر. قال: ولِمَ يا قدامة؟ قال: إن الله عز وجل قال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . .﴾ الآية، فقال عمر: إنك أخطأت التأويل يا قدامة، إذا اتقيت اجتنبت ما حرم الله، ثم جلده) ا.هـ.

وهذا الحادث وإن كان منصباً على الخطأ في التأويل، فهو بوجه من الوجوه يدل على أن الحكم الصحيح في المسألة كان خافياً على قدامة فلم يعرفه، وأداه سوء تأويله إلى هذا الاجتهاد الذي لم يقبل منه، وذلك لوجود مظنة العلم - ولو بسؤال أهل الذكر كعمر وعلي وابن عباس وغيرهم - وهذا كله راجع إلى القاعدة العامة وهي سقوط العذر بالجهل في وجود مظنة العلم.

فإن قامت الحجة على جاهل هذه الأمور:

* سواءً الجاهل بها حيثما تتوفر مظنة العلم «الآثم الغير المعذور».

* أم الجاهل بها حيث لا تتوفر مظنة العلم «المعذور الغير الآثم» كدار الحرب أو الناشئ في بادية بعيداً عن المسلمين مثلاً.

فأنكر أياً منها بعد بيان الحجة والإعلام بالدليل، كان كافراً بلا خلاف.

والمدار في كفر منكرها بعد العلم بها هو أن منكرها إنما ينكر ما ثبت بصورة قطعية.

فالأخبار ينظر إليها عامة من وجهين:

(أ) **الثبوت**: وهي إما قطعية وإما ظنية.

(ب) **الدلالة**: وهي إما قطعية وإما ظنية.

* فمنها قطعي الثبوت قطعي الدلالة: وهو الذي لا شك في صحة سنده، ولا يتحمل وجهاً آخر لمعناه.. مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* ومنها قطعي الثبوت ظني الدلالة: وهو ما لا شك في صحة سنده، ولكن معناه يحتمل أوجهاً متعددة.. مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾.

* ومنها ظني الثبوت قطعي الدلالة: مثل الأخبار التي ثبتت بخبر الواحد ولكن معناها واضح بين لا تأويل له. كخبر التعديل في حديث المسيء صلاته لأنه عليه الصلاة والسلام أمر الأعرابي بالإعادة ثلاثاً فقال له كل مرة: ارجع فصل فإنك لم تصل ثم علمه الصلاة.

* ومنها ظني الثبوت ظني الدلالة: مثل معظم أحاديث الآحاد في فروع الشريعة، والتي تحتمل التخصيص أو التقييد كخبر الترتيب في الوضوء، لأنه معارض بما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه نسي مسح الرأس في الوضوء، فتذكر بعد فراغه فمسحه.

فالأول من هذه الطرق ـ أي قطعي الثبوت قطعي الدلالة ـ هو الذي يكفر منكره بلا خلاف.

وكذلك القواعد القطعية في أصول الشريعة التي ثبتت قطعيتها بالنص أو بالاستقراء الكلي للنصوص، وكل ما هو في مقام القطعية مثلها، كالمعلوم من الدين بالضرورة من مسائل الفروع مثل تحريم الخمر والزنا، ووجوب الصوم والحج والزكاة.

وقد حكى البغدادي ـ في صدد شرحه لعقيدة أهل السنة ـ إجماعهم على كفر من أنكر حجية المتواتر من الأخبار فقال: «وأكفروا من أنكر من السمنية وقوع العلم من جهة التواتر».

وقال: (الفضيحة السادسة عشرة من فضائحه ـ يقصد النظّام ـ قوله بأن الخبر المتواتر مع خروج ناقليه عند سامع الخبر عن الحصر مع اختلاف همم ناقليه واختلاف دواعيهم يجوز أن يقع كذباً).

ويقول: (كذلك كفروا النظام في إنكاره حجية الإجماع).

يقول صاحب المنار: (لا نكفر موحداً بجهل بعض هؤلاء الرسل إذا كان يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إجمالاً، وباليوم الآخر وبالقدر، وبأركان الإسلام العملية، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وسائر ما لا يزال معلوماً من الدين بالضرورة، كما أننا لا نكفر من أنكر بجهل غير ذلك مما يخفى عن العوام من أخبار القرآن وأحكامه وآدابه، كخبر أهل سبأ، وحكم إرث الكلالة، وأدب الاستئذان والسلام قبل دخول بيوت الناس.

وأما من جحد شيئاً من ذلك بعد العلم بأنه منصوص في القرآن غير متأول فيكفر، لأنه كذب كلام الله تعالى) ا.هـ.

وقد ذكر الإمام ابن القيم نفس المعنى في (المدارج) في معرض حديثه عن الجحود حيث قال: (والخاص المقيد، أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه أو خبراً أخبر الله به.. إلى قوله: وأما من جحد ذلك جهلاً أو تأويلاً يعذر فيه صاحبه فلا يكفر صاحبه به..) ا.هـ.

وهذا الذي قررناه، هو ما جاءت كل نصوص الإمام ابن تيمية تقرره، والتي يقول فيها بعدم تكفير المعين إلا بعد إقامة الحجة عليه.

فإن إنكار أمر من الأمور السابق تقريرها يعتبر في حد ذاته كفراً، إلا أنه عند عدم وجود مظنة العلم يعذر الجاهل في هذه الأمور، لأنها تحتاج كلها إلى الإبلاغ بشرع فتقام الحجة أولاً بالشكل الواضح القاطع، فإذا أنكر بعدها كفر.

فعلى هذا المعنى إذن ـ وفي هذا القسم من الشريعة ـ تتنزل كل نصوص الإمام ابن تيمية التي يتوقف فيها عن تكفير الجهال بأعيانهم حتى تقام الحجة عليهم أولاً.

من ذلك مثلاً قول الإمام ابن تيمية: (إذا تبين ذلك فمن ترك بعض الإيمان الواجب في الجملة لعجزه عنه، إما لعدم تمكنه من العلم، أو لعدم تمكنه من العمل، لم يكن مأموراً بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل) ا.هـ.

فهذا نص في أنه إنما يتكلم عن «الإيمان الواجب» والذي يعني به الإمام ابن تيمية دائماً في كتاباته جملة أحكام الفروع، دون «الإيمان المجمل» ـ أي التوحيد ـ حسب تعبير الإمام نفسه.

وقد أزال الإمام محمد بن عبد الوهاب هذا الإشكال في رسالة له، أوضح فيها أن شيخ الإسلام ابن تيمية إنما يتوقف عن تكفير المعين حتى تقوم عليه الحجة في المسائل الخفية فقط، وليس في كل الأمور وتحت أي ظرف.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (وأنا أذكر لفظه الذي احتجوا به على زيغهم. قال رحمه الله: أنا من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير أو تبديع أو تفسيق أو معصية، إلا إذا علم أنه قامت عليه الحجة

الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارةً وفاسقاً تارة وعاصياً أخرى. ا.هـ. وهذه صفة كلامه في المسألة في كل موضع وقفنا عليه من كلامه، لا يذكر عدم تكفير المعين إلا ويصله بما يزيل الإشكال، أن المراد بالتوقف عن تكفيره قبل أن تبلغه الحجة، وأما إذا بلغته الحجة حكم عليه بما يقتضيه تلك المسألة من تكفير أو تفسيق أو معصية.

وصرح رضي الله عنه أن كلامه في غير المسائل الظاهرة، فقال في الردِ على المتكلمين، لما ذكر أن بعض أئمتهم توجد منه الردة عن الإسلام كثيراً، قال: وهذا إن كان في المقالات الخفية، فقد يقال إنه فيها مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها. ولكن هذا يصدر عنهم في أمور يعلم الخاصة والعامة من المسلمين أن رسول الله ﷺ بعث بها وكفر من خالفها، مثل عبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سواه من الملائكة والنبيين وغيرهم، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام، ومثل إيجاب الصلوات الخمس وتعظيم شأنها، ومثل تحريم الفواحش والربا والخمر والميسر، ثم تجد كثيراً من رؤوسهم وقعوا فيها فكانوا مرتدين) ا.هـ.

وعلى هذا المعنى تُحمل كل نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية التي أشبهت على الكثيرين، من أنه لا يكفر الجاهل ابتداءً حتى تبلغه الحجة، رغم أن مقالته كفر في ذاتها ـ كقوله مثلاً: «إن الخمر حلال»، فهذا القول مكفر بذاته، ولكن في حالة عدم وجود مظنة العلم، كالقادم حديثاً من دار الحرب أو الناشئ مثلاً في بادية بعيداً عن المسلمين ـ ولكون القول واقع على فرع من فروع الشريعة أو غيرها مما يجب فيه ورود الخبر والإعلام به. وجب التوقف عن تكفيره حتى يبلغه النص الثابت في ذلك، فإن استمر في إنكاره كفر بلا خلاف.

وأما عن قول ابن تيمية الذي نقله عنه صاحب مجموعة التوحيد: (ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأحد أن يدعو أحداً من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها،

كما أنه لم يشرع لأحد السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك، بل تعلم أنه نهى عن هذه الأمور كلها، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ﷺ. ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين ما جاء به الرسول مما يخالفه) ا.هـ.

فقد أوضح بعدها مباشرة أن توقف ابن تيمية في تكفير هؤلاء إنما كان لمصلحة واقعة في دعوة هؤلاء إلى ترك ما هم عليه من شرك وعدم نفرتهم، أي أنه كان موقفاً عملياً أملته ضرورات واقعية مر بها الإمام، ولم يكن حكماً فقهياً يتبناه.

قال: «قلت: فذكر رحمه الله ما أوجب له عدم إطلاق الكفر عليهم على التعيين خاصة إلا بعد البيان والإصرار، فإنه ـ أي الكفر ـ قد صار أمة واحدة، ولأن من العلماء من كفّره بنهيه لهم عن الشرك في العبادة! فلا يمكن أن يعاملهم إلا بمثل ما قال، كما جرى لشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في ابتداء دعوته، فإنه إذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب رضي الله عنه قال: الله خير من زيد، تمريناً لهم على نفي الشرك بلين الكلام، نظراً إلى المصلحة وعدم النفرة، والله سبحانه وتعالى أعلم) ا.هـ.

فهي إذن طريقة في الدعوة، ومصلحة واقعة، لا دخل لها بالحكم الفقهي للقائل، فلا يمكن بمثل هذا النص ـ وأشباهه ـ أن نرد كل ما ذكرنا من أدلة ـ وبينها نصوص لشيخ الإسلام نفسه فنظلم أنفسنا ونتهم عقولنا ونظلم الأئمة أنفسهم معنا بسوء تأويلنا لكلامهم؛ فكيف وهذا النص وغيره مفسر على وجهه والحمد لله.

الفصل الخامس
تأثير عارض الجهل في الأصول الاعتقادية

وهي الأمور التي تعتبر من أصول الاعتقاديات عند أهل السنة، ولكنها لم تثبت بطريقة قطعية، فهي ظنية الثبوت عند البعض.

وما كان مثل هذا فلا يكفر جاهله قبل إقامة الحجة عليه، والجمهور على عدم تكفيره حتى لو أنكره بعد إقامة الحجة عليه ـ وذلك لعدم قطعية الدليل - بل يعتبر مبتدعاً أو فاسقاً.

يقول صاحب المنار: (فما كان غير قطعي الرواية، احتمل أن يكذبه مكذب للجهل بالرواية أو لعدم تصديقه لبعض رواته، وما كان غير قطعي الدلالة احتمل أن يكذب مكذب ببعض معانيه، لاعتقاده أن هذا المعنى غير مراد، فهذا ما يخرج بغير العلم القطعي؛ ولذلك يشترط العلماء في ذلك أن يكون مجمعاً عليه، معلوماً من الدين بالضرورة، ويشترطون أن يكون المكذب غير متأول، إذ لا يتأول إلا ما كان غير قطعي الدلالة عنده، ولهذا لم يكفر سلف الأمة من خالفهم في فهم آيات الصفات وغيرها من فرق المبتدعة متأولاً، ولكن السلف والخلف يكفرون من يكذب الرسول ﷺ بشيء يعتقد هو أنه جاء به عن الله تعالى، وإن لم يكن في الواقع قطعي الرواية والدلالة، إذ مدار الكفر عن التكذيب) ا.هـ.

وقد صنف أهل السنة هذه الأمور في أصول عقائدهم.

فقد ذكر ابن حزم مثلاً في مقدمة «المحلى» في معرض كلامه عن أصول العقيدة عند أهل السنة، مسألة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة

فقال: (المسألة الثالثة والستون: اعتقاد أن الله تعالى يراه المسلمون يوم القيامة بقوة غير هذه القوة) ا.هـ.

وقد استدل أهل السنة على هذا ببعض نصوص القرآن والسنة، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. وقوله ﷺ في الصحيح: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا ـ وكان ناظراً إلى القمر ـ لا تضامون في رؤيته).

وبالرغم من هذا لم يكفروا من أنكر الرؤية من المعتزلة وغيرهم، حيث تأولوا الآية والحديث، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

ولقد عدّهم مصنفو الفرق داخلين في فرق المسلمين المختلفة بلا خلاف معتبر.

يقول البغدادي: (وأما القدرية المعتزلة عن الحق، فقد افترقت عشرين فرقة.. ثم ذكرها بأسمائها.. ثم قال: إلا فرقتين. الخابطية والحمارية، فهما ليسا من فرق الإسلام) ا.هـ.

فعدُ بقية فرق المعتزلة من فرق الإسلام عنده، رغم إجماعهم على نفي الرؤية.

ويقول ابن حزم في المسألة التاسعة والثلاثين: (وإن عذاب القبر حق، ومساءلته الأرواح بعد الموت حق، ولا أحد يحيا بعد موته إلى يوم القيامة. لما رواه مسلم عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، قال: نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام: ا.هـ.

ويقول البغدادي في بيان الركن الحادي عشر من عقائد أهل السنة: (وقالوا بإثبات السؤال في القبر، وبعذاب أهل القبر لأهل العذاب، وقطعوا بأن المنكرين لعذاب القبر يعذبون فيه) ا.هـ.

ويقول في منكري الشفاعة: (والمنكرون للشفاعة يحرمون من الشفاعة) ا.هـ.

فذهب إلى عدم تكفيرهم، بينما حكى تكفير أهل السنة لبعض أصحاب المقالات الأخرى.

وهكذا القول في كل أمور الأصول الاعتقادية لأهل السنة، والثابتة بطرق ظنية، فلا يكفر منكرها حتى بعد إقامة الحجة عليه إن كان متأولاً، فإن أنكرها غير متأول لها بعد ثبوتها عنده كفر بذلك لأنها تعتبر هنا قطعية بالنسبة إليه.

يقول القاضي عياض: (قال القاضي أبو بكر: وأما مسائل الوعد والوعيد، والرؤية، والمخلوق، وخلق الأفعال، وبقاء الأعراض، والتولد، وشبهها من الدقائق ـ فالمنع في إكفار المتأولين فيها أوضح؛ إذ ليس في الجهل بشيء منها جهل الله تعالى، ولا أجمع المسلمون على إكفار من جهل شيئاً منها) ا.هـ.

الفصل السادس
شبهات وإيضاحات

وبعد.. فقد علم بالضرورة أنه إذا تقرر أصل من الأصول، وجب تنزيل كل النصوص ـ التي قد تبدو بظاهرها أنها مخالفة لهذا الأصل ـ على مقتضى هذا الأصل، وفهمها على ضوئه.

وليس هذا من قبيل الالتواء بالمعاني أو فرض مفهوم معين أو مسبق على النصوص ـ كما قد يظن البعض ـ ولكنها أصول الفقه وقواعد الفهم السليم هي التي تملي هذا النظر وتقرره.

فإن تأصيل أصل معين وتقريره، لا يكون إلا بضم شواهد كثيرة من الشريعة تشهد لهذا الأصل ويقوم بها، وتجعل منه قاعدة عامة ومقررة يرجع لها في فهم سائر النصوص والحوادث الجزئية الأخرى، فإذا ما وجد نص واحد أو حادثة واحدة تخالف ـ بظاهرها ـ هذا الأصل، وجب فهمها على ضوء هذا الأصل وتنزيلها على مقتضاه؛ لأن معارضة نص واحد أو حادثة واحدة للأصل المقرر، تعني معارضة نص واحد لنصوص أخرى كثيرة، وحوادث أخرى كثيرة مجتمعة على معنى واحد يقرره هذا الأصل، فلا يعطل هذا بذاك.

ولا تكون هذه المعارضة قائمة أو ذات اعتبار إلا إذا اجتمعت شواهد وأدلة كثيرة تشهد لهذا المعنى المخالف بحيث ينتظم منها أصل آخر يقوى على معارضة الأصل الأول، وفي هذه الحالة فقط يجب المقارنة ـ تبعاً لقواعد أصولية أخرى ـ للترجيح بين هذين الأصلين.

أما إذا ما خالف الأصل المقرر نص هنا أو كلام لفقيه هناك، فتوقفنا عنده وعدنا إلى التشكك في الأصل الذي تقرر، فهذا ما لا يصح لا في قواعد الشريعة ولا في قواعد الفهم المستقيم.

ولقد قدمنا بهذه الكلمة لنبين بعدها ما نرد به على بعض شبهات قد عرضت، ونبين أيضاً بعض الإيضاحات الواجب ذكرها في هذا المقام.

فمن الشبهات التي أوردها البعض على الأصل الذي تقرر سابقاً، حديث الرجل الذي ذرّ رماد جسده، وحادثة ذات أنواط، وغيرها من الجزئيات التي اعتقدها البعض مخالفة لأصلنا المقرر بينما هي مفهومة على وجهها كما سنرى في عرضنا لها.

أما عن الإيضاحات، فهي تتصل ببعض نصوص وأقوال لبعض الفقهاء، استخرجت من كتب ورسائل لهؤلاء الفقهاء، فهم منها البعض عكس أصلنا المقرر سابقاً، مثل بعض أقوال للإمام ابن تيمية في بعض كتبه، أو ابن حزم أو القاسمي أو غيرهم مما سنعرض له إن شاء الله.

والأخرى.. أنه إذا جاءت نصوص للفقيه أو الإمام توافق أصلاً مقرراً، ثم جاءت لنفس الفقيه أو الإمام في مواضع أخرى نصوص تشتبه علينا، أو تبدو بظاهرها مخالفة لنفس الأصل، لوجب علينا حمل المتشابه من هذه الأقوال على الوجه الذي يوائم الأصل، والذي شهدت له أقوال الإمام نفسه في مواضع أخرى؛ وإلا كان ذلك اتهاماً منا لهذا الإمام بالتناقض والتضارب في أقواله، وليس ثمة ما يدعو إلى ذلك طالما اتسق المنهج، واستقام النظر.

أما عن تفصيلات الشبهات والإيضاحات، فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: الشبهات

(أ) أما عن حديث الرجل الذي ذر رماد جسده:

وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال

رجل لم يعمل حسنة قط لأهله إذا مات، فأحرقوه ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم. فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لِمَ فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب، وأنت أعلم. فغفر له».

فلقد أشكل هذا الحديث بظاهره على بعض الناس فقالوا: هذا رجل جهل صفة من صفات الله اللازمة لكمال ربوبيته، ومع هذا فقد غفر الله له، فيكون قد عذر بجهله!

فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: فقد تأول العلماء هذا الحديث وصرفوه على غير ظاهره:

١ ـ فذهب البعض إلى أن قول الرجل إنما هو من مجاز كلام وبديع استعمالها، الذي صورته مزج الشك باليقين، وهو يسمى «تجاهل العارف». كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. فصورته صورة الشك، والمراد به اليقين.

٢ ـ وذهبت طائفة إلى أن الرجل إنما وصى بذلك تحقيراً لنفسه وعقوبة لها، لعصيانها وإسرافها، رجاءَ أن يرحمه الله تعالى، مع العلم بأن ذلك ليس جائزاً في شريعة الإسلام.

٣ ـ وقالت طائفة: لا يصح حمل هذا على أنه نفي قدرة الله، فإن الشاك في قدرة الله تعالى كافر، وقد قال في آخر الحديث: إنه إنما فعل هذا من خشية الله تعالى، والكافر لا يخشى الله تعالى، ولا يغفر له.

قال هؤلاء: فيكون له تأويلان: أحدهما: أن معناه لئن قدر على العذاب، أي قضاه يقال له: قدر بالتخفيف، وقدر بالتشديد بمعنى واحد.

والثاني: إن قدر هنا بمعنى ضيق. قال الله تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾، أي لن نضيق عليه.

ثانياً: وقالت طائفة: اللفظ على ظاهره، ولكن هذا الرجل قاله وهو غير ضابط لكلامه، ولا قاصد لحقيقة معناه ولا معتقد لها، بل قاله وهو في حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف وشدة الجزع، بحيث ذهب تيقظه وتدبر ما يقوله، فصار في معنى الغافل والذاهل والناسي، وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها، وهو نحو قول القائل الآخر الذي غلب عليه الفرح حين وجد راحلته «أنت عبدي وأنا ربك»، فلم يكفر بذلك، للدهش والغلبة والسهو.

ثالثاً: وذهب البعض إلى الأخذ بظاهر الحديث دون تأويل وقالوا: إن هذا الرجل جهل صفة من صفات الله تعالى؛ ونحن نعلم أن العلماء قد اختلفوا في تكفير جاهل الصفة، فقال القاضي: وممن كفره ابن جرير الطبري وقاله أبو الحسن الأشعري أولاً. وقال آخرون: لا يكفر بجهل الصفة، ولا يخرج عن اسم الإيمان، بخلاف من جحدها. وإليه رجع أبو الحسن الأشعري، وعليه استقر قوله، لأنه لم يعتقد ذلك اعتقاداً يقطع بصوابه ويراه ديناً وشرعاً، وإنما يكفر من اعتقد أن مقاله حق.

فنقول: هل الجهل المقصود هنا والذي هو محل الخلاف، هو الجهل بأية صفة من صفات الله تعالى؟ أم الجهل ببعض الصفات التي لا تثبت إلا بالشرع عند طائفة من العلماء؟

الواضح طبعاً أن الخلاف المقصود إنما هو في جهل بعض الصفات، وليس أياً منها بإطلاق، وإلا فهل يعذر مثلاً من جهل أن الله حيّ أو أنه واحد أحد أو أنه خالق أو عالم؟ فأي إله يعبد إذن؟!

فإن قيل: هذا الرجل جهل صفة القدرة، فعذر بجهله. قلنا: فما الذي دفع العلماء إذن إلى صرف الحديث عن ظاهره واللجوء إلى تأويله، إذا كان الأمر عندهم بهذه البساطة؟ ألا يكفي أن يقولوا مثلاً: هو جاهل فعذر بجهله؟ وما كانت بهم حاجة إلى كل هذه التأويلات؟ إلا أن يكون العلماء قد رأوا أن هذه «قضية عين» لا تقوى على معارضة قواعد كلية ثابتة وأدلة مستفيضة، سبق أن تقررت عندهم في صورة أصل كلي، مما أوجب

أن تتنزل هذه القضية على مقتضى هذا الأصل. وخاصة أن الحديث نفسه يحتمل أوجهاً كثيرة غير هذا الوجه الذي يعارض الأصل المقرر؟

وأخيراً: نقول: أنه حتى لو ثبت خطأ الرجل وظنه أن الله لن يعيده إذا فعل في نفسه ما فعل. فالواضح من النصوص أن الرجل لم يكن مشركاً؛ فلم يلتبس الرجل بالشرك جاهلاً أن الله هو المستحق للعبادة وحده، فعذر بذلك! بل كان الرجل على التوحيد، فلم يعبد أحداً مع الله بأية صورة من صور العبادة، ثم عذره الله بجهله في الشرك بالله!!

قالت طائفة من العلماء: (كان هذا الرجل في فترة حين ينفع مجرد التوحيد، ولا تكليف قبل ورود الشرع على المذهب الصحيح) ا.هـ.

فالجهل بإحدى الصفات شيء، والجهل بالموصوف شيء آخر.

يقول العز بن عبد السلام: (وقد رجع الأشعري رحمه الله عند موته عن تكفير أهل القبلة، لأن الجهل بالصفات ليس جهلاً بالموصوفات، وقد اختلف في عبارات والمشار إليه واحد.

وقد مثل رحمه الله ما ذكره، بمن كتب إلى عبيده يأمرهم بأشياء وينهاهم عن أشياء، فاختلفوا في صفاته مع اتفاقهم على أنه سيدهم. فقال بعضهم: هو أكحل العينين، وقال آخرون: هو أزرق العينين، وقال بعضهم: هو أدعج العينين، وقال بعضهم هو ربعة، وقال آخرون: بل هو طوال، وكذلك اختلفوا في لونه أبيض أو أسود أو أسمر أو أحمر، فلا يجوز أن يقال: إن اختلافهم في صفته اختلاف في كونه سيدهم المستحق لطاعتهم وعبادتهم.

فكذلك لا يكون اختلاف المسلمين في صفات الإله اختلافاً في كونه خالقهم وسيدهم المستحق لطاعتهم وعبادتهم.

وكذلك اختلف قوم في صفات أبيهم، مع اتفاقهم على أنه أصلهم الذي خلقوا من مائهِ ولا يكون اختلافهم في أوصافه اختلافاً في كونه نشأوا عنه، وخلقوا منه) ا.هـ.

(ب) وأما عن قول إبراهيم عليه السلام فيما جاء عن رب العزة في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وكذلك قوله عن القمر والشمس.

فقد قالوا: وهذا نبي الله كان جاهلاً بصفات الله كلها، ومع ذلك لم يسمه الله ولا أحد من الناس كافراً بالرغم من قوله هذا!

فنقول وبالله التوفيق.

قال القاضي عياض في باب عصمة الأنبياء: (أما عصمتهم قبل النبوة فللناس فيه خلاف، والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك..) إلى أن يقول: (ولا يشبه عليك يقول إبراهيم عن الكوكب والقمر والشمس «هذا ربي»؛ فإنه قد قيل: كان هذا في سن الطفولية وابتداء النظر والاستدلال وقبل لزوم التكليف).

وذهب معظم الحذّاق من العلماء والمفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مبكتاً لقومه ومستدلاً عليهم. وقيل: معناه الاستفهام الوارد مورد الإنكار، والمراد «فهذا ربي»؟

قال الزجاج: (قوله «هذا ربي» أي على قولكم، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾، أي عندكم. ويدل على أنه لم يعهد شيئاً من ذلك ولا أشرك قبل بالله طرفة عين قول الله عز وجل عنه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾، أي من الشرك.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾. قيل إنه إن لم يؤيدني الله بمعونته أكن مثلكم في ضلالتكم وعبادتكم على معنى الإشقاق والحذر، وإلا فهو معصوم في الأزل من الضلال) ا.هـ.

نقول: أو أن ذلك بمعنى الضلال عن معرفة كيفية التعبد لله تعالى، وفروع الشريعة اللازمة لذلك، كما امتنَّ الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، أي ضالاً عن القرآن والشريعة فهداك إليها.

(ج) وأما عن حادثة ذات أنواط:

فقد جاء عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل خيبر ونحن حديثو عهد بكفر. وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط. فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال ﷺ: الله أكبر، كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، لتركبن سنن من كان قبلكم».

قالوا: «فهذا برهان دال على أن الجاهل معذور بجهله حتى تقوم عليه الحجة» على أساس أنهم كانوا جاهلين بمعاني الربوبية والألوهية!

فنقول وبالله التوفيق:

هذا قول مردود وبيّن البطلان لمن كان له أدنى إحاطة بمعاني النصوص. فإن ما طلبه الحديثو العهد بالإسلام من رسول الله ﷺ، إنما كان من قبيل المشابهة للكفار، حيث أرادوا منه أن يجعل لهم شجرة يتبركون بها كما يفعل المشركون بشجرتهم.

والمشابهة للكفار لا تقتضي كفر المشابه لهم في كل الأحوال. وهو عين ما ذكره الإمام الشاطبي نفسه الذي نقلوا عنه في إسنادهم للحديث.

يقول الشاطبي: (إلا أنه لا يتعين في الاتباع لهم أعيان بدعهم، بل قد تتبعها في أعيانها، وتتبعها في أشباهها. فالذي يدل على الأول قوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، فقد قال فيه: «حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه»، والذي يدل على الثاني قوله: «فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط. فقال عليه الصلاة والسلام: هذا كما قالت بنو إسرائيل.. الحديث». فإن اتخاذ ذات أنواط يشبه اتخاذ الآلهة من دون الله، لا أنه هو بنفسه) ا.هـ.

فسبحان الله، ألم يقرأ من نقل نص الحديث عن الشاطبي ما قاله هو نفسه بعد سطور قليلة؟! فهو يجعل قولهم من باب المشابهة لا أنه نفس الفعل، ولو أنه نفس الفعل لما كان شك في كفرهم بذلك القول أو غيره، وإنما المشابهة هنا بدعة معصية لا تقتضي التكفير.

وهذا عين ما ذكره الإمام ابن تيمية في تعليقه على نفس الحديث. قال: (فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أطم من ذلك من مشابهتهم المشركين، أو هو الشرك بعينه) ا.هـ.

فجعل الإمام ابن تيمية فعلهم بدعة غير مكفرة، لا أنها شرك جهلوه، فعذرهم فيه رسول الله ﷺ!

هكذا فهمها أكابر الأئمة، فما لنا ومن فهمها فهماً خادماً لغرضه وهواه؟!.

(د) وأما عن قول الحواريين فيما جاء عن رب العزة في سورة المائدة:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

فقد قال بعضهم: فهؤلاء الحواريون الذين أثنى الله عليهم قد قالوا بالجهل لعيسى عليه السلام: هل يستطيع ربك.. ولم يبطل ذلك إيمانهم.

فنقول وبالله التوفيق: قد ورد في هذه الآية قراءتان:

* أحدهما: «هل تستطيع ربك»، وهي قراءة الكسائي وعلي بن أبي طالب وعائشة وابن عباس ومعاذ وجماعة من الصحابة، وسعد بن جبير، ومجاهد رضي الله عنهم أجمعين.

* الثانية: «هل يستطيع ربك»، وهي القراءة المثبتة في المصحف وكلا القراءتين صحيح.

فمن أخذ بالقراءة الأولى فلا إشكال هناك، إذ يكون المعنى: هل يعطيك ربك إن سألته؟ بمعنى استجاب إن أجاب، وهو قول السدي.

ومن أخذ بالقراءة الأخرى من الأئمة، فقد أوّل المعنى وفهمها حسب ما يقتضي تبرئة الحواريين مما نسب إليهم من الكفر، بجهل قدرة الله تعالى.

وهذا التأويل عام وشامل عند جميع أئمة التفسير وإليك المثال:

يقول القرطبي: بعد أن ذكر قول من قال إنهم شكوا في قدرة الله: (قلت: وهذا فيه نظر، لأن الحواريين خلصاء الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه، وأن يبلغوا ذلك أهلهم، فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى؟) ا.هـ.

ويقول القرطبي أيضاً: (وقيل: إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه، لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي؟ وقد علمت أنه يستطيع. فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى ذلك وغيره علم دلالة وخبر، فأرادوا

علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾) ا.هـ.

ويقول القرطبي: (قلت: هذا تأويل حسن؛ وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين) ا.هـ.

ويقول: (قال ابن الحصار: وقوله سبحانه مخبراً عن الحواريين لعيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليس بشك في الاستطاعة، وإنما هو تلطف في السؤال وأدب مع الله عز وجل) ا.هـ.

وينقل القرطبي أيضاً عن ابن الحصار: (والحواريون كانوا هم خيرة من آمن بعيسى، فكيف يظن بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كل شيء ممكن؟) ا.هـ.

ويقول القرطبي: (وأما قراءة «التاء»، فقيل: المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك؟ وهذا قول عائشة ومجاهد ـ رضي الله عنهما ـ قالت عائشة: كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا (هل يستطيع ربك)، قالت: ولكن (هل تستطيع ربك).

وروي عنها أيضاً أنها قالت: كان الحواريون لا يشكون أن الله يقدر على إنزال مائدة ولكن قالوا: (هل تستطيع ربك).

وعن معاذ بن جبل قال: أقرأنا النبي ﷺ: (هل تستطيع ربك) قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مراراً يقرأ بالتاء (هل تستطيع ربك).

وقال الزجاج: (المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله. وقيل: هل تستطيع أن تدعو ربك وتسأله، والمعنى متقارب) ا.هـ.

وقال الطبرسي في «مجمع البيان»: (قيل فيه أقوال، أحدها: أن يكون المعنى هل يفعل ربك ذلك بمسألتك إياه لتكون علماً على صدقك؟، ولا يجوز أن يكونوا شكّوا في قدرة الله تعالى على ذلك لأنهم كانوا عارفين مؤمنين.

الثاني: المراد هل يقدر ربك، وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله.

الثالث: أن يكون معناه هل يستجيب ربك لك؟ وإليه ذهب السدي في قوله: هل يطيعك ربك إن سألته؟ وهذا على أن يكون استطاع بمعنى أطاع، كما يكون استجاب بمعنى أجاب).

وقال الزجاج: (ويحتمل أن يكون أرادوا تثبيتاً، كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾) ا.هـ.

وقال النيسابوري في تفسيره: (من قرأ بالتاء والنصب فظاهر، والمراد تستطيع سؤال ربك: أي هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله، ومن قرأ بالياء والرفع فمشكل، لأنه تعالى حكى عنهم أنهم «قالوا آمنا»، فكيف يتصور مع الإيمان شك في اقتدار الله؟ وأجيب بوجوه منها: أن حكاية الإيمان عنهم لا توجب كمالهم وإخلاصهم!!

ومنها: أنهم طلبوا مزيد اليقين والاطمئنان، ولهذا قالوا: (وتطمئن قلوبنا).

ومنها: أنهم أرادوا معرفة هل هو جائز في الحكمة أو لا.

ومنها قول السدي: السين زائدة، بمعنى هل يطيع ربك.

ومنها: لعل المراد جبريل لأنه كان يربيه.

ومنها: المراد بالاستفهام التقرير، بمعنى أن ذلك أمر جليّ لا يجوز للعاقل أن يشك فيه، كما تقول: هل يستطيع السلطان إطعام هذا الفقير؟) ا.هـ.

وقد ذكر الطوسي في تفسيره عين ما ذكره النيسابوري.

وقال الآلوسي في تفسيره: (قولهم (هل يستطيع ربك) لم يكن عن تحقيق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته سبحانه، لأنهم لو حققوا

وعرفوا لم يقولوا ذلك، إذ لا يليق مثله بالمؤمن بالله عز وجل. وتعقب هذا القول الحلبي بأنه خارق للإجماع!

وقال ابن عطية: لا خلاف أحفظه في أنهم كانوا مؤمنين، وأيّد ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾، وبأن وصفهم بالحواريين ينافي أن يكونوا على الباطل، وبأن الله تعالى أمر المؤمنين بالتشبه بهم والاقتداء بسنتهم في قوله تعالى: ﴿كُونُوٓا أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾.

وبأن رسول الله ﷺ مدح الزبير: إن لكل نبي حوارياً، وإن حواريي الزبير».

ومن ذلك أجيب عن الآية بأجوبة، فقيل: إن معنى (هل تستطيع) أي هل يفعل؛ كما تقول للقادر على القيام هل تستطيع أن تقوم، مبالغة في التقاضي، قال به الحسن، وقيل: المعنى هل يطيع ربك، فيستطيع بمعنى يطيع، وقيل: إن سؤالهم للاطمئنان والتثبت. وقرأ الكسائي وعلي وعائشة وابن عباس ومعاذ وجماعة من الصحابة هل تستطيع ربك ا.هـ.

مما سبق كله نعلم أن من أخذ بقراءة (هل يستطيع ربك) قد صرف المعنى إلى وجوه أخرى كثيرة، وعلى هذا إجماع المفسرين. وأن القول الذي نقلوه عن عدم علم الحواريين يعتبر ـ بتعبير الحلبي ـ خارق للإجماع! فلا نعلم ـ بل ونعجب ـ لماذا اختاروا هذا الوجه الخارق للإجماع لفهم الآية؟!

(هـ) وأما عن الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. فقال ما شاء الله تعالى أن يقول. فقيل: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه».

قالوا: فهذا رسول الله ﷺ يعلمنا أن الشرك نوعان: ما هو معلوم لنا، وما خفي علينا. ثم قالوا: فصح أن الجاهل معذور «في الشرك» بجهله!

فنقول وبالله التوفيق: اتفقتم معنا في أن الشرك شركان: شرك أكبر، وهو في الواقع على أصل الإسلام أو التوحيد، وشرك أصغر وهو ما لا يخرج بصاحبه عن دائرة الملة.

ونحن كلامنا كله عن الشرك الأكبر، بينما استدلالكم بهذا الحديث يقع على الشرك الأصغر، الذي قد يجهل المرء بعض صوره مما يجب العلم به بالبلاغ. فهو استدلال في غير موضعه أصلاً.

ثانياً: الإيضاحات

(أ) إيضاح لقول الإمام ابن حزم في كتابه «الفصل»:

فقد جاء في معرض كلام الإمام ابن حزم في هذا الكتاب: (وكذلك من قال إن ربه جسم فإنه كان جاهلاً أو متأولاً فهو معذور لا شيء عليه، ويجب تعليمه، فإذا قامت عليه الحجة من القرآن والسنة فخالف ما فيها عناداً فهو كافر يحكم عليه بحكم المرتد) ا.هـ.

قد سبق أن ذكرنا الخلاف بين الأئمة في تكفير جاهل بعض الصفات وقلنا: إن من الأئمة من حكم بكفر جاهل الصفة مثل الطبري والأشعري في أحد قوليه: ومنهم من لم يكفر جاهل الصفة مثل الأشعري في قوله الآخر. فهذا موضع خلاف خارج عن مقتضى القضية، وإنما قضيتنا فيما اتفق عليه من أصل الإسلام ـ أي التوحيد ـ وهل يعذر الجاهل فيه، ويعتبر رغم تلبسه بالكفر ـ مسلماً؟!

كذلك فقول ابن حزم المذكور إنما هو في صفة من الصفات التي لا تعرف إلا بالنقل، فإنه ليس من المستحيلات أن تنسب صفة الجسمية إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع تنزيهه في نفس الوقت عن مشابهة خلقه.

فكون الله عز وجل له يد ليست كأيدينا وله عين ليست كأعيننا وله نفس ليست كأنفسنا، فلا مانع ـ عقلاً ـ أن يكون له ـ سبحانه وتعالى ـ جسماً ليس كجسمنا.

ولكن لأن الشريعة قد وردت بنسبة صفات أخرى إلى الله سبحانه وتعالى، ليس بينها صفة الجسمية ـ كما أنها تنافي التنزيه الواجب له سبحانه وتعالى، فلزم نفي هذه الصفة عن الله عز وجل، ولزم البلاغ أولاً بأن الشريعة قد وردت بنفي هذه الصفة قبل أن يكفر الجاحد أو المعاند.

ويرد ابن حزم على من يكفر المتأولين من أهل الإسلام استناداً إلى الآية القرآنية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ بقوله: (.. ثم نقول لهم لو نزلت هذه الآية في المتأولين من جملة أهل الإسلام ـ كما تزعمون ـ لدخل في جملتها كل متأول مخطئ في تأويل في فتيا، ولزمه تكفير جميع الصحابة رضي الله عنهم، لأنهم قد اختلفوا.. الخ) ا.هـ.

ويقول ابن حزم: (وأما من كفر الناس بما تؤول إليه أقوالهم فخطأ، لأنه كذب على الخصم وتقويل له ما لم يقل به..) ا.هـ.

فهذا بيان جليّ في أن مناقشة ابن حزم في هذا الباب إنما هي لقضية أخرى غير قضيتنا، وهي قضية تكفير المتأولين من أهل الإسلام، ممن يوافق على أصل الدين ـ أي التوحيد ـ ولكنه يختلف في أصل كلي في الاعتقاديات أو غيرها من الأحكام الشرعية.

وابن حزم نفسه هو الذي يقول ـ في موضع آخر ـ بأن من الناس من يكفر بقول أو فعل من أفعال الجوارح دون جحد منه بالقلب ودون أن يشعر بأنه قد كفر بذلك.

يقول ابن حزم معلقاً على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ

﴿أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾. يقول: (فهذا نص جلي وخطاب للمؤمنين بأن إيمانهم يبطل جملة وأعمالهم تحبط برفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ دون جحد كان منهم أصلاً، ولو كان منهم جحد لشعروا له، والله تعالى أخبرنا بأن ذلك يكون وهم لا يشعرون، فصح أن من أعمال الجسد ما يكون كفراً مبطلاً لإيمان فاعله جملة ومنه ما لا يكون كفراً) ا.هـ.

فهذا ابن حزم يؤكد أن هناك من يكفر وهو لا يدري أنه كفر، وهذا لا يكون إلا ممن يجهل أن فعله هذا قد أوقعه في الكفر، إذ لو أنه يعلم لكان قد شعر أنه يكفر بهذا الفعل، فصح أنه يجهل أن فعله هذا كفر.

وهذا القول لابن حزم في هذه المسألة يؤكد أنه في الموضع الآخر لم يكن يناقش قضية التوحيد؛ أو قضية السقوط جهلاً في شرك أكبر ينقل عن الملة لخرقه أصل الإسلام، وإنما هو الجهل مثلاً الواقع على صفة من الصفات المختلف في حكم الجاهل بها.

فلا يصح الاستدلال بمثل هذه النقول عن ابن حزم في معرض بحث قضيتنا أو الاعتراض بها، بل الصحيح والواجب هو دراسة أقوال الإمام كلها في مواضعها المختلفة لمعرفة وجهة نظره مكتملة.

(ب) إيضاح لقول القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل»:

فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. قول القاسمي نقلاً عن القاضي أبي بكر بن العربي: (فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة ولو عمل الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً فإنه يعذر بالجهل والخطأ حتى تتبين له الحجة التي يكفر تاركها بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعاً جلياً قطعياً يعرفه كل المسلمين من غير نظر وتأمل) ا.هـ.

والحق أن من قرأ نص كلام القاسمي جيداً في تفسيره وما نقله عن الإمام ابن العربي، وابن القيم، وابن تيمية في نفس الموضع، وفهم ما سبق أن تقرر من قواعد في هذا البحث عن أقسام الجهل من حيث موضوعه، لتعرف بسهولة على وجه هذا القول كما سنبينها بمشيئة الله تعالى.

فقد نبه القاسمي في أول «التنبيه» الذي سرده أنه لا يريد بكلامه الشرك الأكبر المخرج عن الملة، بل هو يتحدث عن المعاصي التي يطلق عليها شركاً من باب التغليظ، واستشهد بكلام الإمام البخاري فقال:

(حيثما وقع في حديث: من فعل كذا فقد أشرك أو فقد كفر ـ لا يراد به الكفر المخرج عن الملة، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذي تجري عليه أحكام الردة، والعياذ بالله تعالى، وقد قال البخاري: باب كفران العشير وكفر دون كفر. قال القاضي أبو بكر بن العربي في (شرحه): مراده أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيماناً، كذلك المعاصي تسمى كفراً. لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد به الكفر المخرج عن الملة. فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً. .) إلى آخر النص المنقول آنفاً.

فسبحان الله، أليس من الواضح البين أنه إنما يتحدث عن المعاصي التي تسمى شركاً أو كفراً من باب التغليظ، ولا يتحدث عما هو شرك أكبر يخرج عن الملة، كدعاء غير الله دعاء عبادة أو السجود لصنم مثلاً؟!.

وكذلك ما نقله القاسمي عن الإمام ابن القيم في نفس الموضع، فواضح فيه تماماً أنه يتحدث عن أصحاب الفرق وأهل البدع من الموافقين على التوحيد أو أصل الإسلام، ولكنهم مخالفون في بعض الأصول الكلية.

يقول القاسمي: (وقال ابن القيم في طرق أهل البدع: الموافقون على أصل الإسلام ولكنهم مختلفون في بعض الأصول. كالخوارج، والمعتزلة، والقدرية، والرافضة، والجهمية، وغلاة المرجئة ـ فهؤلاء أقسام: أحدها ـ الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له. فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى. .) ا.هـ.

فها هو ابن القيم يصرح أن يتحدث عن «أهل البدع الموافقون على أصل الإسلام» ولكنهم خالفوا في بعض الأصول، وقد سبق أن أوضحنا أنها من الأصول الاعتقادية أو الشرعية التي لا يكفر جاهلها أو منكرها ـ عند بعض أهل السنة ـ إلا بعد البلاغ وإقامة الحجة: كالمعتزلة مثلاً الذين خالفوا في إثبات الشفاعة والصراط والميزان، أو أثبتوا إرادة الله في خلق أفعاله، وغير ذلك من المقالات الخفية التي قد تخفى على العامة، والتي اختلف أهل السنة في كفر قائلها.

وأما عن قول ابن القيم بعد هذا عن رؤوس البدع ودعاتها: (.. الثالث: أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى، ويترك تعصباً أو معاداة لأصحابه، فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقاً وتكفيره محل اجتهاد) ا.هـ.

فهذا هو الحق الذي ذكره كذلك الإمام الشاطبي فيمن خالف في أصل من الأصول الكلية، فذكر أن تكفيره اجتهاد وخلاف بين الأئمة، وكان ذلك أثناء مناقشته لقضية تكفير أهل الفرق والابتداع.

وإليك بعض النقول التي أوردها القاسمي نفسه، وفي نفس الموضع، والتي تدل على أن القضية المطروحة هي كما ذكرنا قضية الخلاف في تكفير المتأولين وأصحاب الأهواء والبدع من الاثنتين والسبعين فرقة.

يقول الإمام ابن تيمية: (من كان في قلبه الإيمان بالرسول وبما جاء به، وقد غلط في بعض تأويله من البدع ولو دعا إليها، فهذا ليس بكافر أصلاً) ا.هـ.

ثم شرع يناقش قضية تكفير الخوارج وغيرهم من الفرق.

ويقول ابن تيمية أيضاً: (التكفير إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة، أو بإنكار الأحكام المتواترة المجمع عليها) ا.هـ.

ويقول ابن تيمية: (فمن كان مؤمناً بالله وبرسوله، مظهراً للإسلام، محباً لله ورسوله، فإن الله يغفر له ولو قارف بعض الذنوب القولية أو العملية. سواء أطلق عليها لفظ الشرك أو لفظ المعاصي) ا.هـ.

ويقول الإمام ابن القيم: (وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾. فأثبت لهم تبارك وتعالى الإيمان مع مقارنة الشرك. فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان وإن كان تصديق برسله وهم يرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل واليوم الآخر ـ فهم مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر) ا.هـ.

ويقول الغزالي: (ولكني أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك، وترعوي بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان في أهل الإسلام، وإن اختلفت طرقهم، ما داموا متمسكين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله» صادقين بها غير مناقضين لها) ا.هـ.

فتأمل رحمك الله أقوال هؤلاء الأئمة وفيمن يتكلمون، أم أن العين تقرأ فقط ما يستهويها قراءته وتغفل عما لا تحب أن ترى؟!

فيظهر مما سبق أن الاستدلال بهذه النقول استدلالاً ليس في موضعه.

فكما أنه لا مشاحة فيما أورده الإمام ابن القيم والإمام الشاطبي في الخلاف في تكفير الداعي إلى البدعة؛ وفي عذر العامي الجاهل المقلد لأهل البدع في بدعهم إن لم يكن قادراً على تعلم الهدى. فلا مشاحة أيضاً ـ كما أسلفنا القول ـ في كفر من جهل أصلاً من أصول التوحيد ينخرم به أصل الإسلام.

(ج) إيضاح لقول صاحب «الروضة الندية» صديق حسن خان:

فقد نقل عن الإمام الشوكاني قوله: (فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشرك لا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام، ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر، ولا اعتبار بلفظ يلفظ به المسلم يدل على الكفر وهو لا يعتقد معناه) ا.هـ.

فنقول ـ كما سبق أن قلنا كثيراً ـ إنه يجب الرجوع إلى قول الفقيه

أولاً وقراءته قراءة جيدة، وفهم ما قبله وما بعده لنعرف في أي موضوع يتحدث أصلاً، وعلى أي شيء يقصد أن الجهل قد وقع عليه؛ حتى لا نظلمه فنحمّله وزر ما لم يقل، ولا نظلم أنفسنا فنفهم غير المقصود بسوء التأويل وسرعة النظر.

فإذا ما فعلنا هذا، علمنا أنه لا يتحدث هنا عن الكفر الأكبر الذي ينقل عن الملة، وإنما يتحدث عن أعمال المعاصي التي وردت السنة بإطلاق لفظ الكفر أو الشرك على فاعلها، والتى قد تكون شركاً أصغر أو شركاً أكبر بحسب حال قائلها ونيته ومقصده؛ ويتحدث أيضاً عن قضية تكفير المتأولين الناقل عن الملة، وإلا فلا يشك مسلم في كفر صاحبه وخروجه عن الإِسلام علم أم جهل.

والدليل على ما نقول نسوقه من كلام المؤلف نفسه في السطور التي تسبق كلامه المذكور سابقاً والتي تليه.

يقول المؤلف في الصفحة السابقة: (وأما قول بعض أهل العلم إن المتأول كالمرتد فههنا تسكب العبرات ويناح على الإِسلام وأهله بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر لا بسنة ولا قرآن ولا بيان من الله ولا برهان، بل لما غلت مراجل العصبية في الدين وتمكن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين) ا.هـ.

ثم يسوق المؤلف كلاماً كثيراً عن التحرز من تكفير المسلمين بتأويل أو رأي أو قول دون الرجوع إلى مستند من كتاب أو سنة أو إجماع، إلى أن يقول: (فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشرك.. إلى آخر النص المنقول آنفاً).

ويقول بعدها: (فإن قلت: قد ورد في السنة ما يدل على كفر من حلف بغير ملة الإِسلام، وورد في السنة المطهرة ما يدل على كفر من كفر مسلماً كما تقدم، وورد في السنة المطهرة إطلاق الكفر على من فعل فعلاً يخالف الشرع كما في حديث: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم

رقاب بعض» ونحوه مما ورد مورده؛ وكل ذلك يفيد أن صدور شيء من هذه الأمور يوجب الكفر وإن لم يرد قائله أو فاعله به الخروج من الإسلام إلى ملة الكفر. قلت: إذا ضاقت عليك سبل التأويل ولم تجد طريقاً تسلكها في مثل هذه الأحاديث، فعليك أن تقرها كما وردت، وتقول: من أطلق عليه رسول الله ﷺ اسم الكفر فهو كما قال) ا.هـ.

فواضح تماماً أنه يتحدث عمن صدر منه قول أو فعل وصفته السنة المطهرة بأنه كفر أو شرك من باب التغليظ، وهو في حقيقته شرك أصغر يجب فيه الرجوع إلى نية صاحبه ومقصده قبل الحكم عليه بالكفر.

وانظر مثلاً إلى قول المؤلف بعدها، حين بدأ يتحدث عن أنواع من الكفر الأكبر، وحكمه بردة فاعلها دونما تردد.

يقول مثلاً: (لكون عمل السحر نوعاً من الكفر ففاعله مرتد يستحق ما يستحقه المرتد) ا.هـ. ثم سرد الخلاف في حد الساحر إلى أن قال: (أقول: لا شك أن من تعلم السحر بعد إسلامه كان بفعله كافراً مرتداً، وحده حد المرتد) ا.هـ.

ويقول أيضاً: (والزنديق وهو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر ويعتقد بطلان الشرائع، فهذا كافر بالله وبدينه، مرتد عن الإسلام أقبح ردة، إذا ظهر منه ذلك بقول أو فعل) ا.هـ.

ويقول: (والساب لله أو لرسوله أو للإسلام أو للكتاب أو للسنة، والطاعن في الدين وكل هذه الأفعال موجبة للكفر الصريح، ففاعلها مرتد، حده حده) ا.هـ.

ثم شرع يذكر بعض الأحاديث في أن حد الساب هو القتل، وإلى أن قال: (ونقل أبو بكر الفارسي أحد أئمة الشافعية في كتاب الإجماع أن من سب النبي ﷺ بما هو قذف صريح، كفر باتفاق العلماء، فلو تاب لم يسقط عنه القتل) ا.هـ.

ويقول كذلك: (وإذا ثبت ما ذكرنا في سب النبي ﷺ فبالأولى من سب الله تبارك وتعالى أو سب كتابه أو الإسلام أو طعن في دينه. وكفر من فعل هذا لا يحتاج إلى برهان) ا.هـ.

بل انظر إلى قول الإمام الشوكاني نفسه في إحدى رسائله التي يحكم فيها بكفر غالب أهل اليمن في عصره وردتهم عن الإسلام، ويسوق الأدلة على هذا.

يقول الشوكاني مثلاً: (وقد صح عن معلم الشرائع ﷺ أنه قال: «ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة». فالتارك للصلاة من الرعايا كافر. وفي حكمه من فعلها وهو لا يحسن من أذكارها وأركانها ما لا يتم إلا به، لأنه أخل بفرض عليه من أهم الفروض، وواجب من آكد الواجبات، وهو علم ما لا تصح الصلاة إلا به) ا.هـ.

إلى أن يقول: (وكثيراً ما يأتي هؤلاء الرعايا بألفاظ كفرية فيقول: هو يهودي ليفعلن كذا، وليفعل كذا. ويرتد تارة بالقول وتارة بالفعل وهو لا يشعر. ويطلق امرأته حتى تبين منه بألفاظ يديم التكلم بها) ا.هـ.

ويقول الشوكاني: (ولا شك ولا ريب أن ارتكاب هؤلاء لمثل هذه الأمور الكبيرة من أعظم الأسباب الموجبة للكفر، السالبة للإيمان، التي يتعين على كل فرد من أفراد المسلمين إنكارها، . ويجب على كل قادر أن يقاتل أهلها حتى يعودوا إلى دين الإسلام الذي بعث الله به خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام) ا.هـ.

فانظر رحمك الله، كيف يتحدث المؤلف هنا عن الشرك الأكبر ويحكم على فاعله بأنه مشرك، وأن كفره لا يحتاج إلى برهان! وانظر كيف يحكم الشوكاني بكفر غالب أهل اليمن بالرغم من أنهم يؤدون الصلاة، ولكنهم يجهلون أن صلاتهم غير صحيحة، فكان حكمهم عنده حكم من لم يصل. وكيف أن منهم من يرتد بقول أو فعل وهو لا يشعر أنه كفر بذلك فلا يعذره هذا في الحكم بكفره. بل يرى الشوكاني أنهم على غير دين الإسلام الذي بعث به رسول الله ﷺ، فتعين قتالهم على كل قادر حتى يعودوا إلى دين الله! فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل السابع
قضية تكفير المعين

اتضح مما سبق أن هناك من الأقوال والأفعال ما يعتبر كفراً بذاته أو بجنسه، منها:

* إنكار متواتر من الأخبار حيث توجد مظنة العلم.

* إنكار قاعدة قطعية في الدين حيث توجد مظنة العلم.

* القول بتحليل حرام أو تحريم حلال علم خلافه من الدين بالضرورة، حيث توجد مظنة العلم.

فهذه الأمور وأمثالها يكفر معتقدها ولا شك؛ لكنها ـ كما سبق أن بينا ـ إن اقترنت بالجهل حيث لا توجد مظنة العلم، فلا يمكن تكفير قائلها ـ عيناً ـ إلا بعد إقامة الحجة عليه بالدليل الواضح، الذي لا خلاف عليه. فإن استمر على قوله كفر. وذلك بخلاف أمور الشرك الأكبر المخرج من الملة والذي لا يعتبر الجهل فيه بأي صورة من الصور في أحكام الدنيا، بل تجري الأحكام فيه على الظاهر، على الأصل الذي قررناه فيما سبق من فصول.

إذن فالأصل المقرر هو: أن كل من كان كفره بنقض ركن من أركان التوحيد وسقوطه في شرك أكبر ينقل عن الملة، فإنه يكفر بذلك عيناً في إجراء الحكم عليه في الدنيا على أساس ظاهر أمره.

وإن كان كفره واقعاً على غير هذا من أمور الشريعة، حيث لا توجد مظنة العلم بها، احتاج الأمر إلى إقامة الحجة الواضحة عليه، لأنه قد يكون

لم تبلغه فروع الشريعة المحمدية بالفعل في هذه الجزئية، فإذا ما أنكر بعد إعلامه بها وإقامة الحجة عليه في نفس الأمر كفر بذلك عيناً.

وكما أخطأ البعض فظن أن اعتبار الجهل يقع متمثلاً على التوحيد وعلى غيره من أمور الشريعة، فيعذر بالجهل ابتداءً في كليهما؛ فقد أخطأ البعض الآخر فاعتقد أن تكفير المعين من الناس ـ والذي يقول قولاً مكفراً بجنسه ـ لا يلزم سواءً أقيمت عليه الحجة أم لم تقم وإنما لا يجوز تكفير المعين مطلقاً!!

وهذا القول ـ على غرابته وشذوذه ومناقضته للمنقول والمعقول ـ قد استشهدوا له بنصوص من كلام الإمام ابن تيمية، فهموها على غير وجهها، بل ولم يربطوها بما قبلها وما بعدها؛ فاكتفوا مثلاً بقوله في أحد كتبه (.. ولا نشهد لمعين أنه في النار لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه..) ا.هـ. فقالوا: إن المعين لا يجوز تكفيره مطلقاً، وإنما يقال فقط: إن جنس من قال كذا كافر، أو جنس من فعل كذا كافر! أو أن يقال: إن قول كذا كفر، أو فعل كذا كفر، ثم لا يكفر القائل أو الفاعل له سواءً في وجود مظنة العلم أم لا، وسواءً أقيمت عليه الحجة أم لا!!

والحق أن ابن تيمية بريء من هذا الزور المفترى عليه، فإن قولهم هذا يلزم عنه تعطيل أحكام الله وحدوده سبحانه وتعالى؛ فقد قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ ..﴾ الآية. فأثبت سبحانه وتعالى إمكانية وقوع الردة من المؤمنين عامة. وقال ﷺ مبيناً حكم من يرتد من المسلمين: «من بدل دينه فاقتلوه». وهو حكم أوحد لا يمكن إيقاعه إلا على معين من الناس، وإلا فكيف يمكن أن يقتل جنس من قال كذا أو فعل كذا؟! هذا قول بيّن البطلان وتعطيل لأحكام الله وحدوده.

وأما عن نصوص الإمام ابن تيمية، فقد أوضح هذا الإمام الجليل أن قوله في هذه المسألة إنما هو فيمن يقول قولاً مكفراً بجنسه، حيث يتفشى الجهل ولا تتوافر مظنة العلم، فلا يصح تكفير المعين ابتداءً ـ والحال هكذا

ـ حتى تقام عليه الحجة أولاً، فإذا ما قامت عليه الحجة واستمر على قوله كفر بذلك عيناً.

يقول ابن تيمية: (.. فنفي الصفات كفر، والتكذيب بأن الله يُرى في الآخرة كفر، وإنكار أن يكون الله على العرش كفر... وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه مع الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة بالرسالة التي يبين بها لهم أنهم مخالفون للرسول، وإن كانت مقالتهم هذه لا ريب أنها كفر. وهكذا الكلام في جميع تكفير المعينين، مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض؛ وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان والعمل الصالح ما ليس في بعض، والله أعلم) ا.هـ.

وقد قام الإمام محمد بن عبد الوهاب بالرد على هذا الافتراء على شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة مستقلة له، تتبع فيها أقوال ابن تيمية وأوضح أن قوله بعدم تكفير المعين إنما هو حتى إقامة الحجة عليه، وأن هذا في الأمور الخفية والمسائل الغير ظاهرة فقط.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (قال أبو العباس ابن تيمية في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾. ظاهره أن ما ذبح لغير الله سواء لفظ به أو لم يلفظ حرام، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله أزكى مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه باسم الله.

فإن عبادة الله بالصلاة والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور. والعبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله.

فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه لحرّم، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبائحهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان. ومن هذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح للجن. انتهى كلام الشيخ.

وهو الذي ينسب إليه أعداء الدين أنه لا يكفر المعين! فانظر أرشدك الله إلى تكفيره من ذبح لغير الله من هذه الأمة، وتصريحه أن المنافق يصير مرتداً بذلك، وهذا في المعين إذ لا يتصور أن تحرم إلا ذبيحة معين.

إلى قوله ـ يقصد ابن تيمية ـ: ومن أراد أن يعلم كيف كانت أحوال المشركين في عبادتهم الأوثان، ويعرف حقيقة الشرك الذي ذمّه الله وأنواعه، حتى يتبين له تأويل القرآن، فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ وأحوال العرب في زمانه، وما ذكره الأزرقي وغيره في أخبار مكة في العلماء.

وكان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسمونها ذات أنواط، فقال بعض الناس: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: الله أكبر، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم.

فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها أسلحتهم، فكيف بما هو أعظم من ذلك من الشرك بعينه.

إلى أن قال: فمن ذلك عدة أماكن بدمشق، مثل مسجد يقال له مسجد الكف، فيه تمثال كف. يقال: إنه كف علي بن أبي طالب، حتى هدم الله ذلك الوثن، وهذه الأمكنة كثيرة في البلاد، وفي الحجاز منها مواضع..

ومما يبين صحة هذه العلة أنه لعن من يتخذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا يكون ترابها نجساً، وقال عن نفسه: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد». فعلم أن نهيه عن ذلك كنهيه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها سداً للذريعة، لئلا يصلى في هذه الساعة، وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله ولا يدعو إلا الله، لئلا يقضي ذلك إلى دعائها والصلاة لها، وكلا الأمرين قد وقع.

فإن من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب، ويدعوها

بأنواع الأدعية، وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضل به كثير ممن ينتسب إلى الإِسلام. وصنَّف بعض المشهورين فيه كتاباً على مذهب المشركين مثل أبي معشر البلخي وثابت بن قرة وأمثالهم ممن دخل في الشرك وآمن بالطاغوت والجبت وهم ينتسبون إلى الكتاب. انتهى كلام الشيخ.

فانظر رحمك الله إلى هذا الإِمام الذي ينسب عنه من أزاغ الله قلبه عدم تكفير المعين، كيف ذكر مثل الفخر الرازي وهو من أكابر أئمة الشافعية، ومثل أبي معشر وهو من أكابر المشهورين من المصنفين وغيرهم، أنهم كفروا وارتدوا عن الإِسلام، والفخر هو الذي ذكره الشيخ في الرد على المتكلمين لما ذكر تصنيفه الذي ذكر هنا، قال: وهذه ردة صريحة باتفاق أئمة المسلمين، وسيأتي كلامه بعد.

وتأمل أيضاً ما ذكره في اللات والعزى ومناة، وجعله فعل المشركين معها هو بعينه الذي يفعل بدمشق وغيرها. وتأمل قوله على حديث ذات أنواط، هذا في قوله في مجرد مشابهتهم في اتخاذ شجرة، فكيف بما هو أطمّ من ذلك من الشرك بعينه؟ فهل الزائغ بعد متعلق بشيء من كلام الإِمام؟

وأنا أذكر لفظه الذي احتج به على زيغهم، قال رحمه الله: «أنا من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير أو تبديع أو تفسيق أو معصية، إلا إذا علم أنه قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى وعاصياً أخرى». انتهى كلام الشيخ.

وهذا صفة كلامه في المسألة في كل موضع وقفنا عليه من كلامه لا يذكر عدم تكفير المعين إلا ويصله بما يزيل الإِشكال أن المراد بالتوقف عن تكفيره قبل أن تبلغه الحجة، وأما إذا بلغته حكم عليه بما تقتضيه تلك المسألة من تكفير أو تفسيق أو معصية، وصرح رضي الله عنه أن كلامه في غير المسائل الظاهرة.

فتأمل هذا وتأمل ما فيه من تفصيل الشبهة التي يذكر أعداء الله، لكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً.

على أن الذي نعتقده وندين الله به ونرجو أن يثبتنا عليه أنه لو غلط هو أو أجلّ منه في هذه المسألة، وهي مسألة المسلم إذا أشرك بالله بعد بلوغ الحجة، أو المسلم الذي يفضل هذا على الموحدين أو يزعم أنه على حق، أو غير ذلك من الكفر الصريح الظاهر الذي بينه الله ورسوله وبينه علماء الأمة، إنا نؤمن بما جاءنا عن الله ورسوله من تكفيره ولو غلط من غلط. فكيف والحمد لله ونحن لا نعلم عن واحد من العلماء خلافاً في المسألة. وإنما يلجأ من شاق فيها إلى حجة فرعون ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أو حجة قريش ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ا.هـ.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نفس الرسالة: (وقال أبو العباس أيضاً، في الكلام على كفر مانعي الزكاة. والصحابة لم يقولوا: هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد لها؛ هذا لم يعهد عن الخلفاء والصحابة. بل قال الصديق لعمر رضي الله عنهما: «والله لو منعوني عقالاً - أو عناقاً - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه». فجعل المبيح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب.

وقد روي أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب لكن بخلوا بها، ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم جميعهم سيرة واحدة، وهي قتل مقاتليهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم والشهادة على قتلاهم بالنار، وسموهم جميعاً أهل الردة.

وكان من أعظم فضائل الصديق رضي الله عنه أن ثبته الله عند قتالهم، ولم يتوقف كما توقف غيره، فناظرهم حتى رجعوا إلى قوله.

وأما قتال المقرين بنبوة مسيلمة فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم. انتهى كلام الشيخ.

فتأمل رحمك الله في تكفير المعين والشهادة عليه إذا قتل بالنار، وسبي حريمه وأولاده عند منع الزكاة. فهذا الذي ينسب عنه أعداء الدين عدم تكفير المعين.

قال رحمه الله بعد ذلك: وكفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنة. انتهى كلامه.

وقال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» في إنكار تعظيم القبور: وقد آل الأمر بهؤلاء المشركين أن صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سماه «مناسك المشاهد» ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عبادة الأصنام. انتهى كلامه.

وهذا الذي ذكره ابن القيم رجل من المصنفين يقال له ابن المفيد، فقد رأيت ما فيه بعينه. فكيف ينكر تكفير المعين؟!

وأما كلام سائر أتباع الأئمة في التكفير، فنذكر منه قليلاً من كثير.

أما كلام الحنفية: فكلامهم في هذا من أغلظ الكلام، حتى إنهم يكفرون المعين إذا قال: مصيحف أو مسيجد أو صلى صلاة بغير وضوء.

وقال أبو العباس رحمه الله: حدثني ابن الخضيري عن والده الشيخ الخضيري إمام الحنفية في زمانه قال: كان فقهاء بخارى يقولون ابن سينا كان كافراً ذكياً، فهذا إمام الحنفية في زمنه حكى عن فقهاء بخارى جملة كفر ابن سينا، وهو رجل معين مصنف يتظاهر بالإسلام.

وأما كلام المالكية: فهو أكثر من أن يحصى، وقد اشتهر عن فقهائهم سرعة الفتوى والقضاء بقتل الرجل عند الكلمة التي لا يفطن لها أكثر الناس.

وقد ذكر القاضي عياض في آخر كتاب «الشفا» من ذلك طرفاً، ومما ذكر أن من حلف بغير الله على وجه التعظيم كفر، وكل هذا دون ما نحن فيه بكثير.

وأما كلام الشافعية: فقال صاحب الروضة: إن المسلم إذا ذبح للنبي ﷺ كفر.

وقال أيضاً: من شك في كفر طائفة ابن عربي فهو كافر، وكل هذا دون ما نحن فيه، وقد صنف ابن حجر كتاباً مستقلاً سماه (الإعلام بقواطع الإسلام) ذكر فيه أنواعاً كثيرة من الأقوال والأفعال، كل واحد منها ذكر أنه يخرج من الإسلام ويكفر به المعين.

فمن أحسن ما يزيل الإشكال فيها ويزيد المؤمن يقيناً، ما جرى من النبي ﷺ وأصحابه والعلماء بعدهم فيمن انتسب إلى الإسلام.

كما ذكر أنه ﷺ بعث البراء ومعه الراية إلى رجل تزوج امرأة أبيه ليقتله ويأخذ ماله؛ ومثل همه بغزو بني المصطلق لما قيل إنهم منعوا الزكاة.

ومثل قتال الصديق وأصحابه لمانعي الزكاة وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم وتسميتهم مرتدين، ومثل إجماع الصحابة في زمن عمر على تكفير قدامة بن مظعون وأصحابه إن لم يتوبوا عن تأويلهم لشرب الخمر بأنها حلال لبعض الخواص. ومثل إجماع الصحابة في زمن عثمان على تكفير أهل المسجد الذين ذكروا كلمة في نبوة مسيلمة مع إنهم لم يتبعوه، وإنما اختلف الصحابة في قبول توبتهم.

ومثل تحريق علي رضي الله عنه أصحابه لما غلوا فيه، ومثل إجماع التابعين مع بقية الصحابة على كفر المختار ابن أبي عبيد ومن اتبعه، مع أنه يدعي أنه يطالب بدم الحسين وأهل البيت؛ ومثل إجماع التابعين ومن بعدهم على قتل الجعد بن درهم وهو مشهور بالعلم والدين.. وهلم جراً من وقائع لا تعد ولا تحصى ا.هـ.

ويقول الشيخ أبو بطين موضحاً أقوال الإمام ابن تيمية في نفس الموضوع: فقول الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى: إن التكفير والقتل

موقوف على بلوغ الحجة، يدل كلامه على أن هذين الأمرين ـ وهما التكفير والقتل ـ ليسا موقوفين على فهم الحجة مطلقاً بل على بلوغها، ففهمها شيء وبلوغها شيء آخر، فلو كان هذا الحكم موقوفاً على فهم الحجة، لم نكفر ونقتل إلا من علمنا أنه معاند خاصة، وهذا بين البطلان.

بل آخر كلامه رحمه الله يدل على أنه يعتبر فهم الحجة في الأمور التي يخفى على كثير من الناس، وليس فيها مناقضة للتوحيد والرسالة، كالجهل ببعض الصفات.

وأما الأمور التي هي مناقضة للتوحيد والإيمان بالرسالة فقد صرح رحمه الله تعالى في مواضع كثيرة بكفر أصحابها وقتلهم بعد الإستتابة، ولم يعذرهم بالجهل مع أنا نتحقق أن سبب وقوعهم في تلك الأمور إنما هو الجهل بحقيقتها، فلو علموا أنها كفر تخرج عن الإسلام لم يفعلوها، وهذا في كلام الشيخ رحمه الله تعالى كثير ا.هـ.

ويقول أبو بطين: (وكلامه رحمه الله ـ يقصد ابن تيمية ـ في مثل هذا كثير، فلم يخص التكفير بالمعاند مع القطع بأن أكثر هؤلاء جهال لم يعلموا أن ما قالوه أو فعلوه كفر، فلم يعذروا بالجهل في مثل هذه الأشياء، لأن منها ما هو مناقض للتوحيد الذي هو أعظم الواجبات، ومنها ما هو متضمن معارضة الرسالة ورد نصوص الكتاب والسنة الظاهرة المجمع عليها بين علماء السلف. وقد نص السلف والأئمة على تكفير أناس بأقوال صدرت منهم مع العلم أنهم غير معاندين..) إلى أن يقول (.. وذكروا في باب حكم المرتد أشياء كثيرة ـ أقوالاً وأفعالاً ـ يكون صاحبها مرتداً، ولم يقيدوا الحكم بالمعاند) ا.هـ.

ويقول أيضاً: (فانظر إلى تفريقه بين المقالات الخفية والأمور الظاهرة فقال في المقالات الخفية التي هي كفر: قد يقال إنه فيها مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها، ولم يقل ذلك في الأمور الظاهرة، فكلامه ظاهر في الفرق بين الأمور الظاهرة والخفية، فيكفي بالأمور الظاهر حكمها مطلقاً، وبما يصدر منها من مسلم جهلاً..) ا.هـ.

ويقول الشيخ أبو بطين: (فالأمر الذي دل الكتاب والسنة وإجماع العلماء عليه أنه كفر مثل الشرك بعبادة غير الله سبحانه، فمن ارتكب شيئاً من هذا النوع أو حسنه فهذا لا شك في كفره، ولا بأس بمن تحققت منه شيئاً من ذلك أن تقول كفر فلان بهذا الفعل) ا.هـ.

ويقول أيضاً: يبين هذا أن الفقهاء يذكرون في باب حكم المرتد أشياء كثيرة يصير بها المسلم مرتداً كافراً، ويستفتحون هذا الباب بقولهم: من أشرك بالله كفر وحكمه أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، والاستتابة إنما تكون مع معين..) ا.هـ.

ويقول: (.. وأعظم أنواع الكفر الشرك بعبادة غير الله، وهو كفر بإجماع المسلمين، ولا مانع من تكفير من اتصف بذلك، كما أن من زنى قيل فلان زان، ومن رابى قيل فلان مراب، والله أعلم) ا.هـ.

وخلاصة الأمر:

* إن تكفير المعين إنما يكون في أمور التوحيد أي أصل الدين، لأن أحكام الدنيا تجري على ظاهر الأمر، فكل من تلبس بكفر أكبر ينقل عن الملة، فهو كافر بعينه في ظاهر أمره. فإذا ما توقف البعض عن إطلاق اسم الكفر عليه، فلاعتبارات واقعية معينة أملتها ضرورات الظروف المحيطة بالدعوة في مراحل خاصة؛ وليس كموقف فقهي يعتقده الداعية ويتبناه؛ وإلا فهو يعطل حدود الله ويخالف حكمه وسنة نبيه ﷺ.

* إن التوقف عن تكفير المعين ابتداء إثماً يكون في الأمور التي يلزم فيها شيوع العلم بأحكام الرسالة المحمدية، فلا يصح إلا بعد إقامة الحجة ـ في حالة عدم وجود مظنة العلم ـ فإن أنكر بعد ذلك كفر بعينه.

* إن التوقف عن تكفير المعين مطلقاً؛ والقول بأن جنس من فعل كذا فهو كافر ولكن المعين إن فعله فلا نستطيع تكفيره، ما هو إلا لغو لا معنى له وإبطال للأحكام الشرعية، وبدعة مخالفة لهدي رسول الله ﷺ، واجماع الصحابة والتابعين وعلماء الأمة.

الخاتمة

وبعد..

فنحن وإن كنا ندعو إلى دين الله، إلا أننا ندعو إليه «على بصيرة».

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

وإن ضرورة «إجراء الحكم» على كل ما يستحقه إنما هي ضرورة شرعية وضرورة واقعية لا محيد عنها، بل إن ضرورتها الشرعية لترتبط بضرورتها الواقعية ارتباطاً شديداً في مجال الدعوة إلى دين الله.

فإنه إلى جانب أن إقامة الحدود سواء على المرتدين أو العصاة المذنبين، هي من شريعة الله التي لا يجوز أن تعطل بأي وجه من الوجوه، فإن من أهداف الشريعة كذلك تمييز الخبيث من الطيب، بل إن القرآن الكريم قد ذخرت آياته بأوصاف المؤمنين والكافرين والمنافقين، لكي يعرف المؤمن هؤلاء فيكون منهم ومعهم، ويتقي أولئك فيفارقهم ويكون عليهم.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

يقول الإمام الطبري: (ما كان الله ليدع المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق، فلا يعرف هذا من هذا، حتى يميز الخبيث من الطيب، يعني بذلك حتى يميز الخبيث وهو المنافق المستسر بالكفر من الطيب وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان بالمحن والاختبار) ا.هـ.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

يقول الإمام ابن كثير: (.. ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم

الاحتراز منهم. ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الوقت، وهذا من المحظورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير) ا.هـ.

وأي خير ينسب إلى أهل الفجور والكفر أكبر من نسبتهم إلى دين الله؟ وأي محظور وفساد أعظم من اختلاطهم بالمؤمنين وإفساد دينهم عليهم والتشبيه لهم وتمويه الحق عليهم؟ وأي عصر ألزم من عصرنا هذا في المعرفة المستبصرة المميزة للخبيث من الطيب، خاصة في مجال الدعوة إلى الله.

إن هذا التمييز بين أهل الحق وأهل الباطل هو مفرق الطريق الذي لا معدى عنه؛ ولا فائدة من المماحكة عنده ولا الجدال. إما الإسلام وإما جاهلية، وإما إيمان وإما كفر، إما توحيد وإما شرك.

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم، وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة، ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء!

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية، فلن يستقيم له ميزان، ولن يتضح له منهج، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل، ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح.

وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس، فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا دعاة لهذا الدين، وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

وصل اللهم على رسولك الأمين وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرسالة الرابعة عشرة

تفسير القرآن الحكيم
الشهير بتفسير المنار

تفسير آية ١٧٢ من سورة الأعراف

للشيخ: محمد رشيد رضا

رحمه الله تعالىٰ



الجزء التاسع

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

هذه الآيات بدء سياق جديد في شؤون البشر عامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره، في أثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة بني إسرائيل، فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة، أو سياق على سياق. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقري لهيكل الإنسان الذي هو قوام بنيته، ومركز النخاع الشوكي الذي عليه مدار حياته، فيصح أن يعبر به عن جملة وجوده الجسدي الحيواني، والذرية سلالة الإنسان من الذكور والإناث. قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب (ذرياتهم) بالجمع والباقون بالإفراد ومعناها واحد، فإن المفرد المضاف يفيد العموم، ورسمها في المصحف الإمام واحد، وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من بني آدم بمعناه والجمهور على أنه بدل البعض من الكل، وهو الظاهر إذا لم يرد بهذا البعض ذلك الكل، وقال أبو البقاء هو بدل اشتمال.

والمعنى واذكر أيها الرسول في إثر ذكر ميثاق الوحي على بني

إسرائيل خاصة، ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة، إذا استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً بعد بطن، فخلقهم على فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدث، وأن فوق كل العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات، والعلل والمعلومات، سلطاناً أعلى على جميع الكائنات، وهو الأول والآخر، هو المستحق للعبادة وحده ـ وقد بسطنا هذه المسألة ـ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداد عقله قائلاً قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتلقين، ألست بربكم؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا. فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلى أساليب البلاغة وشواهده في القرآن وكلام البلغاء كثيرة.

بيّن سبحانه سبب هذا الإشهاد وعلته فقال:

﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي فعلنا هذا منا لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأن تقولوا إذا أنتم أشركتم فقال إنا كنا غافلين عن هذا التوحيد للربوبية وما يستلزمه من توحيد الألوهية بعبادة الرب وحده، والمراد أنه تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ جاهلين ببطلان شركهم، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم، مع عذرنا بتحسين الظن بهم، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آبائهم وأجدادهم، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل، بعد ما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبني آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم، ولعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم. والآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة بالشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والمنكرات التي تنفر منها الفطرة السليمة، وتدرك ضررها وفسادها العقول المستقلة، وإنما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أن لا يعرف إلا منهم، وهو أكثر العبادات التفصيلية.

الرسالة الخامسة عشرة

من فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم

جزء ١٢ صفحة ٢٠٦

«باب الذكاة»

من فتاوي الشيخ محمد بن إبراهيم

جزء «١٢» ص«٢٠٦»

(باب الذكاة)

(٣٩٣٩ ـ لا بد من صحة معتقد المذكيّ)

يشترط في القصاب فاضل الدين أن يكون مسلماً صحيح المعتقد ينكر الخرافات كعبادة القبور وغيرها مما يعبد من دون الله، وينكر جميع المعتقدات والبدع الكفرية كمعتقد القاديانية والرافضة الوثنية وغيرها. ولا يكتفى في حل ذبيحته بمجرد الانتساب إلى الإسلام والنطق بالشهادتين وفعل الصلاة وغيرها من أركان الإسلام مع عدم الشروط التي ذكرناها، فإن كثيراً من الناس ينتسبون وينطقون بالشهادتين ويؤدون أركان الإسلام الظاهرة ولا يكتفي بذلك في الحكم بإسلامهم، ولا تحل ذكاتهم لشركهم بالله في العبادة بدعاء الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم وغير ذلك من أسباب الردة عن الإسلام.

وهذا التفريق بين المتسبين إلى الإسلام أمر معلوم بالأدلة من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها.

ثم ما ذكرنا من الأمور المطلوبة في هذا القصاب يعتبر في ثبوتها نقل عدل ثقة يعلم حقيقة ذلك من هذا الرجل، وينقله الثقة عن هذا العدل حتى يصل إلى من يثبت لديه ذلك حكماً ممن يعتمد على ثبوته عنده شرعاً.

(ص/م٦١٧ في ١٣٧٤/٥/٢٠)

من فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، المجلد الأول صحيفة ٨٤ جمع بن قاسم

قال: في هذه الأزمان وقبلها بأزمان يدعي العلم ضخام العمائم الذين

يدعون أنهم حفاظ الدين على الأمة وأنهم وأنهم، . . . وأبو جهل أعلم منهم، فإنه يعلم معنى لا إله إلا الله وهم لا يعرفونه، والجهل درجات فبه تعرف قدر الذين أبو جهل أعلم منهم، وقبل الكلام المذكور بالصحيفة المذكورة قال: وأظنهم لا يكفرون إلاَّ من نص القرآن على كفره كفرعون والنصوص لا تجيء بتعيين كل أحد، يدرس باب حكم المرتد ولا يطبق على أحد وهذه ضلالة عمياء وجهالة كبرى، ثم الذين توقفوا في تكفير المعين في الأشياء التي قد يخفى دليلها فلا يكفر حتى تقوم عليه الحجة الرسالية من حيث الثبوت والدلالة، فإذا أوضحت له الحجة بالبيان الكافي كفر سواء فهم أو قال ما فهمت.

وبصحيفة ٤٠ من الدرر السنية الطبعة الثانية طبعة فيصل من المجلد الأول الجزء الثاني قال: «الذي يواجه الله ولا عرف التوحيد أو عرفه ولم يعمل به خالداً في النار ولو كان من أعبد الناس لقوله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾.

ومن صحيفة ٢١٤ من نفس المجلد قال: «وما نجا من شَركَ هذا الشرك الأكبر إلاَّ من عادىٰ المشركين، يبين لك أن الإسلام لا يستقيم إلاَّ بمعاداة أهل هذا الشرك فإن لم يعاديهم فهو منهم وإن لم يفعله».

وفي باب حكم المرتد الجزء الثامن صحيفة ١١١، ١١٢ قال: «المسألة الحادية عشر رجل دخل هذا الدين وأحبه ولكن لا يعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفرهم، أو قال أنا مسلم ولكن لا أقدر أن أكفر أهل لا إله إلاَّ الله، ولو لم يعرفوا معناها، ورجل دخل هذا الدين وأحبه ولكن يقول لا أتعرض للقباب وأعلم أنها لا تنفع ولا تضر ولكن ما أتعرض لها؟

الجواب: إن الرجل لا يكون مسلماً إلاَّ إذا عرف التوحيد ودان به وعمل بموجبه وصدق الرسول ﷺ فيما أخبر به وأطاعه فيما نهى عنه وأمر به وآمن به وبما جاء به، فمن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم

يكفرهم أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلاَّ الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله، أو قال لا أتعرض للقباب فهذا لا يكون مسلماً بل هو ممن قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ الآية.

والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم فقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآيات. انتهى.

الرسالة السادسة عشرة

من كتاب الدرر السنية
في الأجوبة النجدية

فتوى للشيخ سليمان بن سحمان

المجلد الأول ـــ الجزء الثاني ص١٦٧/١٧٦

قال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أوضح المحجة للسالكين، وأقام الحجة على جميع المكلفين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقيوم السموات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليله الصادق الأمين، الذي علم الله به من الجهالة، وهدى به من الضلالة، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وعبد الله حتى أتاه اليقين، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً (أما بعد):

فإن الله سبحانه وتعالى قد أكمل لنا الدين، وبلغ رسوله ﷺ البلاغ المبين، فليس لأحد من الناس أن يشرع في دين الله ما لم يأذن به الله، ولا أن يزيد فيه بعد أن أكمله الله، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾، وقال ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وأياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

وقال ﷺ: «ما تركت من شيء يقربكم من الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا من شيء يبعدكم من النار إلا وقد حدثتكم به»، وقال ﷺ: «من

أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» رواه البخاري ومسلم، وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وقال أبو ذر رضي الله عنه، لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علماً، وفي صحيح مسلم: أن بعض المشركين قالوا لسلمان: لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، قال: أجل. فإذا تحققت هذا وعلمته فالواجب على المسلم أن يقتدي ولا يبتدي، وأن يتبع ولا يبتدع؛ كما قيل:

فخيرِ الأمور السالفات على الهدى　　　وشر الأمور المحدثات البدائع

فقد حذر ﷺ أصحابه عن البدع ومحدثات الأمور، وأمرهم بالاتباع الذي فيه النجاة من كل محذور، ونهاهم عن الغلو في الدين، واتباع غير سبيل المؤمنين، قال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا المعنى.

وقال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

فعلى من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يتمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ لأنهم القدوة وبهم الأسوة، وما من خير إلا وقد سبقونا إليه، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ولإظهار دينه، فخذوا بهديهم واعرفوا لهم فضلهم فإنهم كانوا على الصراط المستقيم.

وقال الإمام محمد بن وضاح في كتاب (البدع والنهي عنها): أخبرنا

الحكم بن المبارك أخبرنا عمر بن يحيى قال سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج عليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعاً فقال: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفاً أمر أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيراً، قال فما هو؟ قال إن عشت فستراه؛ قال: رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصاً فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة، فيقول هللوا مائة فيهللون مائة، فيقول سبحوا مائة فيسبحون مائة قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئاً أنتظر رأيك، وأنتظر أمرك. قال: أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير والتهليل، والتسبيح والتحميد، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء أصحابه متوافرون وهذه ثيابه لم تبل وآنيته لم تنكسر؛ والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة، قالوا: والله يا أبا عبد الله الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لم يصبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا: «أن قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم» وأيم الله لا أدري لعل أكثرهم منكم؟ ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج انتهى.

فإذا كان هذا حال هؤلاء القوم، وهم إنما يكبرون الله ويحمدونه ويسبحونه قد كانوا مفتتحين باب ضلالة لأنهم عملوا عملاً لم يكن عليه رسول الله ﷺ ولا أصحابه، فأفضى بهم إلى الغلو في الدين والمجاوزة للحد أن مرقوا من الإسلام فصار أكثرهم يطاعنون الصحابة مع الخوارج يوم النهروان.

فإذا تبين هذا وما ذكرته قبل ذلك مما تقدم بيانه (فاعلم) أنه قد حدث في هذه الأزمان من بعض الإخوان من الغلو والمجاوزة للحد في بعض المسائل الدينية والأوامر الشرعية ما يجب على كل مسلم إنكاره وبيان خطأ من أحدثه في الدين، من غير بينة ولا برهان ولا حجة يجب المصير إليها من السنة والقرآن، ولا قال بها أحد من أئمة الإسلام لذويهم معالم الهدى ومصابيح الدجا، وهم القدوة وبهم الأسوة في بيان مراتب الدين والأحكام ـ إلى أن قال ـ واذكر قبل شروع في الكلام على هذه المسائل والجواب عنها معنى لا إله إلا الله وما ذكره العلماء في ذلك، وما ذكره شيخنا (الشيخ عبد الرحمن بن حسن) مفتي الديار النجدية رحمه الله تعالى من شروطها التي لا يصح إسلام أحد من الناس إلا إذا اجتمعت له هذه الشروط، وقال بها علماً وعملاً واعتقاداً، وكذلك نواقض الإسلام العشرة التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لأن هذا هو الأصل الذي تتفرع عليه هذه المسائل، وتبنى عليه أحكامها، فأقول وبالله التوفيق وبه العصمة والثقة:

اعلم رحمك الله أن كلمة الإخلاص لا إله إلا الله هي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وبها أمر الله جميع العباد.

فهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومفتاح عبوديته التي دعا الأمم على ألسن رسله إليها، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وأساس الفرض والسنة.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن لا إله إلا الله لا تنفع قائلها إلا بعد معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، وأنها لا تنفعه إلا بعد الصدق والإخلاص واليقين، لأن كثيراً ممن يقولها في الدرك الأسفل من النار، فلا بد في شهادة ألا إله إلا الله من اعتقاد بالجنان ونطق باللسان، وعمل بالأركان،

فإن اختل نوع من هذه الأنواع لم يكن الرجل مسلماً وعاملاً بالأركان، ثم حدث منه قول أو فعل أو اعتقاد يناقض ذلك لم ينفعه قول لا إله إلا الله، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة، وكلام أئمة الإسلام أكثر من أن تحصر.

وقد أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذ رضي الله عنه رديفه على الرحل قال: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله، وسعديك، قال: «يا معاذ»، قال لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثاً، قال: «ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرم الله تعالى عليه النار»، قال: يا رسول الله أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ قال: «إذاً يتكلوا»، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً.

قال شيخ الإسلام وغيره في هذا الحديث ونحوه: إنه فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة لقوله: «خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين»، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى، بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحالة قال ذلك فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول لا إله إلا الله يدخل النار، ثم يخرج منها؛ وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله وشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال؛ وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها تقليداً وعادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه؛ وغالب من يفتن عند الموت، وفي القبور أمثال هؤلاء، كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»، وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من

أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذا الحال مصراً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذاً لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك فإن هذا الإيمان، وهذا الإخلاص، وهذه التوبة، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا تترك له ذنباً إلا مُحي عنه كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مصر على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات بحسناته، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته، ومات مصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار وإن قال لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر لكنه لم يمت على ذلك بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصراً على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة. وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين بل

يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسى القلب عن قولها وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأن إلى الباطل واستحلى الرفث ومخالطة أهل الباطل، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدقه عمله.

قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيراً قبل منه، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه.

وقال أبو بكر ابن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه، فمن قال لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها بل اكتسب مع ذلك ذنوباً وكان صادقاً في قولها، موقناً بها لكن له ذنوبه أضعفت صدقه ويقينه وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مصراً على الذنوب بخلاف من يقولها بيقين وصدق ثابت فإنه لا يموت مصراً على الذنوب، إما ألا يكون مصراً على سيئة أصلاً، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته، والذي يدخل النار ممن يقولها أما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافين للسيئات أو لرجحانها أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات فترجح سيئاتهم على حسناتهم، انتهى ملخصاً.

وقال الوزير أبو المظفر في الإفصاح: قوله: «شهادة أن لا إله إلا الله» يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بألاّ إله إلاّ الله كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. قال: واسم الله مرتفع بعد ﴿إِلَّا﴾ من حيث أنه الواجب

له الإلهية فلا يستحقها غيره سبحانه قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت، وآمن بالله. وقال (في البدائع) رداً لقولة من قال أن المستثنى مخرج من المنفي، قال: بل هو مخرج من النفي وحكمه، فلا يكون داخلاً في المنفي إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى، وهذه أعظم كلمة تضمنت لنفي الإلهية عما سوى الله تعالى، وإثباتها له بوصف الاختصاص، فدلالتها على إثبات الإلهية أعظم من دلالة قولنا (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البته انتهى بمعناه.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره لا إله إلا الله: أي لا معبود إلا هو، وقال الزمخشري: الإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، قال شيخ الإسلام: الإله هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد، هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هوالمحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع، قال: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تأله القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها؛ وتتوكل عليه في مصالحها وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه وليس ذلك إلا لله وحده؛ ولهذا كانت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال، وذوق، فإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

وقال ابن القيم: الإله الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً، وإنابة وإكراماً وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاء وتوكلاً.

وقال ابن رجب: الإله هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفاً ورجاء، وتوكلاً عليه وسؤالاً منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول لا إله إلا الله، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وقال البقاعي: لا إله إلا الله أي انتفي انتفاء عظيماً أن يكون معبوداً بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف.

وقال الطيبي: الإله فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله آلهة، أي عبد عبادة، قال (الشارح) وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم، فدلت لا إله إلا الله على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائناً من كان، وإثبات الألهية لله وحده دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن، من أوله إلى آخره كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، فلا إله إلا الله لا تنفع إلاّ من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً واعتقد ذلك وقبله وعمل به، وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهي حجة عليه بلا ريب، فقوله في الحديث: «وحده لا شريك له» تأكيد وبيان لمضمون معناها، وقد أوضح عن ذلك وبينه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين، فما أجهل عباد القبور بحالهم، وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الإخلاص لا إله إلا الله، فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله لفظاً ومعنى، وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً، وجحدوها معنى، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة كالحب والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء

وغير ذلك من أنواع العبادة، بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فرجاً لهم من الله، بخلاف حال المشركين الأولين فإنهم يشركون في الرخاء وأما في الشدائد فإنهم يخلصون لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الآية.

فبهذا تبين أن مشركي هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم، وانتهى من فتح المجيد، فهذا بعض ما ذكره بعض العلماء في معنى لا إله إلا الله وفيه كفاية ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

(فصل) وأما شروطها التي ذكر شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن أنه لا بد منها في شهادة ألاّ إله ألا الله، فقال رحمه الله: لا بد في شهادة إلاّ إله إلا الله من (سبعة شروط) لا تنفع قائلها إلا باجتماعها.

الأول: العلم المنافي للجهل، فمن لم يعرف المعنى فهو جاهل بمدلولها.

الثاني: اليقين المنافي للشك لأن من الناس من يقولها وهو شاك فيما دلت عليه من معناها.

الثالث: الإخلاص المنافي للشرك، فإن لم يخلص أعماله كلها لله فهو مشرك شركاً ينافي الإخلاص.

الرابع: الصدق المنافي للنفاق، لأن المنافقين يقولونها ولكنه لم يطابق ما قالوه لما يعتقدونه فصار قولهم كذباً لمخالفة الظاهر للباطن.

الخامس: القبول المنافي للرد لأن من الناس من يقولها مع معرفته معناها لكن لا يقبلها ممن دعاه إليها إما كبراً أو حسداً أو غير ذلك من الأسباب المانعة من القبول فتجده يعادي أهل الإخلاص، ويوالي أهل الشرك ويحبهم.

السادس: الانقياد المنافي للشرك لأن من الناس من يقولها وهو يعرف معناها لكنه لا ينقاد للإتيان بحقوقها، ولوازمها، من الولاء والبراء والعمل بشرائع الإسلام، ولا يلائمه إلاّ ما وافق هواه، أو تحصيل دنياه، وهذه حال كثير من الناس.

السابع: المحبة المنافية لضدها، انتهىٰ ما ذكره الشيخ.

فإذا تبين لك هذا وعرفته وتحققت أن لا إله إلا الله هي كلمة الإخلاص، وهي الفارقة بين الكفر والإسلام وهي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، فاعلم أن هذه الكلمة نفي وإثبات، نفي الألهية عما سوى الله من المخلوقات، وإثباتها لله وحده لا شريك له، وأنها لا تنفع قائلها إلا باجتماع هذه الشروط التي تقدم ذكرها، فمن عرف معناها وعمل بمقتضاها وتحقق بها علماً وعملاً واعتقاداً فقد استمسك بالإسلام الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

فإذا علمت هذا فقد ذكر أهل العلم نواقض الإسلام وذكر بعضهم أنها قريب من أربعمائة ناقض ولكن الذي أجمع عليه العلماء هو ما ذكره شيخ الإسلام، وعلم الهداة الأعلام الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) من نواقض الإسلام وأنها عشرة، فقال رحمه الله.

أعلم أن نواقض الإسلام عشرة: **الأول**: الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ و﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم كفر إجماعاً.

الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر.

الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطوغيت على حكمه فهو كافر.

الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر.

السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

السابع: السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

التاسع: من أعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر.

العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطراً وأكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، انتهى.

الرسالة السابعة عشرة

أدلة
معتقد أبي حنيفة الإمام
في أبوي الرسول عليه السلام

لمؤلفها العارف بربه الباري

الشيخ علي بن سلطان محمد القاري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خص من شاء من عباده في عالم القضا بالإيمان * وهداه بجوده إلى معرفة نور وجوده وظهور شهوده في مقام العرفان * ومرام الإحسان * والصلاة والسلام الأتمان الأكملان * على سيدنا محمد من أولاد عدنان * وعلى آله الكرام * وأصحابه الفخام * إلى يوم القيام * وعلى أتباعه خلاصة أهل الأديان.

(أما بعد) فيقول أفقر عباد الله الباري علي بن سلطان محمد القاري: قد قال الإمام الأعظم * والهمام الأقدم * في كتابه المعتبر * المعبر بالفقه الأكبر * ما نصه: ووالدا الرسول ﷺ ماتا على الكفر، فقال شارحه: هذا رد على من قال بأن والدي الرسول عليه الصلاة والسلام ماتا على الإيمان * وعلى من قال: ماتا على الكفر ثم أن رسول ﷺ دعا الله لهما فأحياهما الله وأسلما ثم ماتا على الإيمان.

فأقول وبحوله سبحانه أصول هذا الكلام من حضرة الإمام لا يتصور في هذا المقام * لتحصيل المرام * إلا أن يكون قطعي الدراية * لا ظني الرواية، لأنه في باب الاعتقاد لا يعمل بالظنيات ولا يكتفى بالآحاد من الأحاديث الواهيات * والروايات الوهميات * إذ من المقرر المحرر في الأصل المعتبر أنه ليس لأحد من أفراد البشر أن يحكم على أحد بأنه من أهل الجنة ولا بأنه من أهل النار إلا فيما ثبت بنص من الكتاب أو تواتر من السنة أو إجماع علماء الأمة بالإيمان المقرون بالوفاة * أو بالكفر المنضم إلى آخر الحياة *

فإذا عرفت ذلك فنستدل على مرام الإمام بحسب ما اطلعنا عليه في هذا المقام بالكتاب والسنة واتفاق الأئمة الأعلام.

ما جاء في الكتاب

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ فقراءة الجمهور على المجهول في النفي وقراءة نافع على المعلوم بالنهي. وقد أخرج وكيع وسفيان بن عيينة وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبويّ»؟ فنزلت: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله تعالى وفيه دليل واضح على المدعي وتنبيه نبيه على أن هذا حكم لم ينسخ بالإحياء كما لا يخفى قال العلامة السيوطي هذا مرسل ضعيف الإسناد.

قلت: المرسل حجة عند الجمهور من علماء الأصول والاعتقاد والطرق المتعددة للحديث ترفع الضعف وتوصله إلى الحسن أو الصحة عند الكل في الاعتماد.

وأخرج ابن جرير عن داود ابن أبي عاصم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أين أبويّ»؟ فنزلت، قال السيوطي والآخر معضل الإسناد ضعيف.

قلت: المعضل عندنا حجة وضعفه يتقوى بالتعدد لا سيما وقد تعلق به اجتهاد المجتهد، فدل على صحته. والحديث ضعف بالنسبة إلى اللين في روايته ويكتفي بمثل ذلك في أسباب النزول كما هو معقول عند أرباب النقول.

وأخرج ابن المنذر عن الأعراج أنه قرأ (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) أي أنت يا محمد كذا في الدر المنثور. وفي تفسير العماد بن كثير قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبوي ليت شعري ما فعل أبوي، ليت شعري ما فعل أبوي» ثلاث مرات، فنزل:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله وهذا يؤيد ما قدمناه، فتدبر وتأمل. ورواه ابن جرير عن كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة به مثله وذكر الحديث الآخر بسنده كما تقدم، ثم قال ابن كثير: وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمد بن كعب وغيره في ذلك لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه واختار القراءة الأولى يعني النفي، قال: وهذا الذي يسلكه ها هنا فيه نظر لاحتمال أن هذا كان في حال استفساره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكرها ابن جرير انتهى كلام ابن كثير.

وقال محيي السنة في تفسيره معالم التنزيل: قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وذلك أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبويّ» فنزلت هذه الآية - أقول وهذا النقل من ابن عباس حبر الأمة كاف في الحجة لا سيما وهو من أهل بيت النبوة ولو كان هناك تردد في القضية لما ذكر مثل هذه القصة المستلزمة للقضية، وكذا نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وهذا على قراءة من قرأ (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم). وقال البيضاوي: قرأ نافع ويعقوب ولا تسأل على أنه نهي للرسول ﷺ من السؤال عن حال أبويه انتهى.

والحاصل أن عامة المفسرين كالمجمعين على أن هذا سبب نزول الآية، ومن المقرر في علم الأصول أن نقل الصحابي في سبب النزول ولو كان موقوفاً فهو في حكم المرفوع الموصول فكيف وقد ثبت رفعه بطرق متعددة وأسانيد مختلفة؟ هذا وقد قال من أئمة التفسير صاحب التيسير لما أمر رسول الله ﷺ بتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين كان يذكر عقوبات للكفار فقام رجل فقال: يا رسول الله أين والدي: فقال «في النار»، فحزن الرجل، فقال عليه السلام: «إن والدك ووالدي ووالد إبراهيم في النار»، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فلم يسألوا بعد ذلك وهو كقوله

تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ انتهى، وفيه تنبيه على أن قراءة النفي أيضاً تدل على المدعي فتبين ما ذكره العلماء من المفسرين والقراء من أن الأصل في القراءتين أن يتفق حالهما ويجتمع مآلهما، ثم تفَطّن لما في الحديث من تصريح ذكر والد إبراهيم في هذا المقام الفخيم.

ما جاء في السنة

وأما السنة فما رواه مسلم عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله أين أبي؟ فقال: «في النار»، فلما قفّىٰ دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»، وكذا ما رواه البزار من أنه ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فضرب جبرائيل صدره وقال لا تستغفر لمن مات مشركاً، وكذا ما رواه الحاكم في مستدركه وصححه أنه ﷺ قال لابني مُليكة: «أمكما في النار» فشق عليهما فدعاهما فقال: «إن أمي مع أمكما» وتعقب الذهبي له بكون عثمان بن عمير ضعفه الدارقطني لم يخرجه عن كونه ثابتاً حسناً قابلاً للاستدلال، أما على الاستقلال وأما مع غيره لتقوية الحال.

وكذا ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أين أمي؟ قال: «أمك في النار»، قلت: فأين من مضى من أهلك؟ قال: «أما ترضى أن تكون أمك مع أمي»؟ وكذا ما روىٰ ابن جرير عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً، فقلنا: يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت، قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي»، فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ. وسيأتي سبب بكائه ﷺ منصوصاً عن بعض العلماء والله أعلم.

وكذا حديث مسلم وأبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ استأذن في الاستغفار لأمه فلم يؤذن له. وأما القول بأنه استأذنه ثانياً وأذن له فيحتاج إلى دليل صريح ونقل صحيح، ثم لا ينافي الحديث الأول ما

ورد من طريق آخر ولم يذكر فيه أن أبي وأباك في النار، بل قال إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار فإنه يفيد التعميم والأول يدل على التخصيص فذكره أولاً تسلية له وثانياً لئلا يتقيد الحكم بالمذكور بل يعم من هو بالكفر مشهور كما يدل عليها رواية ابن ماجه من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري عن سالم عن أبيه فقال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم وكان وكان، فأين هو؟ قال «في النار» فكأنه وجد من ذلك فقال: يا رسول الله فأين أبوك؟ قال رسول الله ﷺ: «حيث ما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار» قال: فأسلم الأعرابي بعد وقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً، ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار.

وفي هذا التعميم دلالة واضحة وإشارة لائحة، بأن أهل الجاهلية كلهم كفار، إلا ما خص منهم بالإخبار عن النبي المختار ﷺ.

ومما ثبت في الكتاب والسنة ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال النبي ﷺ: «والله لاستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ - الآية، ثم عذر الله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «أُوحي إلي كلمات قد دخلن في أذني ووقرن في قلبي، أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شراً له، ولا يلوم الله على كفاف» وتأويل السيوطي أن المراد بأبيه عمه أبو طالب وبأبي إبراهيم عمه آزر في غاية من السقوط، فتدبر. وسيأتي زيادة الكلام للرد عليه بالوجه الأوفر.

وأخرج ابن جرير عن طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾

ـ الآية، قال: إن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عن ذلك قال: فإن إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ قال السيوطي هذا الأثر ضعيف معلول فإن عطية ضعيف وهو مخالف لرواية علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس السابقة تلك أصح وعلي ثقة جليل.

قلت: عطية مختلف فيه ولو سلم أنه ضعيف فيتقوى بانضمام غيره إليه، ثم لا مخالفة بين الروايتين لإمكان الجمع بين القضيتين بتعدد الواقعة في الحالتين، وقد نقله الحافظ عماد الدين في تفسيره عن العوفي عن ابن عباس وسكت عليه وهذا دليل ثبوته عنده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكا فبكينا لبكائه، ثم قام إليه عمر فدعاه ثم دعانا فقال: «ما أبكاكم»؟ قلنا: بكينا لبكائك، قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة وأني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي وأني استأذنت ربي الاستغفار لها فلم يأذن لي» وأنزل علي الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرأفة فذاك الذي أبكاني. وكذا ذكره الواحدي في أسباب نزوله بإسناده عنه مثله ورواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه كما ذكره القسطلاني، قال القاضي عياض: وبكاؤه عليه السلام على ما فاتها من إدراك أيامه والإيمان به.

وأخرج ابن مردويه عن بريدة رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ إذ وقف على عسفان فنظر يميناً وشمالاً فأبصر قبر أمه آمنة فورد الماء فتوضأ ثم صلى ركعتين فلم يفجأنا إلا ببكائه فبكينا لبكائه ثم قام فصلى ركعتين ودعا، فلم يفجئنا إلا وقد علا بكاؤه فعلا بكاؤنا لبكائه ثم انصرف إلينا فقال: «ما الذي أبكاكم»؟ قالوا: بكيت فبكينا يا رسول الله، قال: «وما

ظننتم»؟ قالوا: ظننا أن العذاب نازل علينا بما نعمل، قال: «لم يكن من ذلك شيء» قالوا: فظننا أن أمتك قد كلفت من الأعمال ما لا يطيقون فرحمتها، قال: «لم يكن من ذلك شيء» ولكن مررت بقبر آمنة أمي فصليت ركعتين ثم استأذنت أن استغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربي أن أستغفر لها فزجرت زجراً فعلا بكائي، ثم دعا براحلته فركبها فما سار إلا هنية حتى قامت أي وقفت الناقة لثقل الوحي فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآيتين.

رفع اثنتين من أربعة

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك اعتمر فلما هبط من ثنية عسفان أمر الصحابة أن يستندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم فذهب فنزل على قبر آمنة فناجى ربه طويلاً ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه فبكى هؤلاء لبكائه فقالوا: ما بكى نبي الله هذا البكاء إلا وقد حدث في أمته شيء لم تطقه، فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال: «ما يبكيكم»؟ قالوا: يا نبي الله ما هذا البكاء إلا وقد حدث في أمتك شيء لم تطقه، قال: «وقد كان بعضه ولكنني نزلت على قبر أمي فدعوت الله ليأذن لي في شفاعتها يوم القيامة فأبى أن يأذن لي فرحمتها وهي أمي فدعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأبى أن يرفع عنهم القتل والهرج والمرج.

وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت (كدى) وكانت عسفان لهم وبها ولد النبي ﷺ أي على قول. وقد أخرج العماد بن كثير هذا الحديث بسند الطبراني المتصل إلى ابن عباس مع تغيير قليل وزاد في

آخره ثم جاءني جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فتبرأ من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه فرحمها وهي أمي ودعوت ربي، إلى آخره.

وأخرج ابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن أبي مسعود رضي الله عنه قال جاء ابنا مليكة وهما من الأنصار فقالا يا رسول الله إن أمنا كانت تحفظ على البعل وتكرم على الضيف وقد وأدت في الجاهلية فأين أمنا؟ قال: «أمكما في النار» فقاما وقد شق ذلك عليهما فدعاهما رسول الله ﷺ فرجعا فقال: «ألا أن أمي مع أمكما في النار».

وأخرج ابن سعد عن الكلبي وأبي بكر بن قيس الجعفي نحوه.

وفي المعالم قال أبو هريرة وبريدة رضي الله عنهما: لما قدم رسول الله ﷺ أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ثم ذكر إسناده المتصل إلى مسلم بن الحجاج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، فاستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».

ما جاء في الإجماع

وأمّا الإجماع فقد اتفق السلف والخلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وسائر المجتهدين على ذلك من غير إظهار خلاف لما هنالك والخلاف من اللاحق لما يقدح في الإجماع السابق سواء من جنس المخالف أو صنف المرافق، والعجب من الشيخ جلال الدين السيوطي مع إحاطته بهذه الآثار التي كادت أن تكون متواترة في الأخبار أنه عدل عن متابعة هذه الحجة وموافقة سائر الأئمة وتبع جماعة من العلماء المتأخرين وأورد أدلة واهية في نظر الفضلاء المعتبرين منها: أن الله سبحانه أحيا له

أبويه حتى آمنا به مستدلاً بما أخرجه ابن شاهين في الناسخ والمنسوخ والخطيب البغدادي في السابق واللاحق والدارقطني وابن عساكر كلاهما في غرائب مالك بسند ضعيف عن عائشة رضي الله عنها قالت: حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع فمر بي على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم فنزل فمكث عني طويلاً ثم عاد إلي وهو فرح مبتسم فقلت له فقال لي: «ذهبت لقبر أمي فسألت الله أن يحييها فآمنت بي وردها الله عز وجل» وهذا الحديث ضعيف باتفاق المحدثين كما اعترف به السيوطي، وقال ابن كثير أنه منكر جداً ورواته مجهولون فقول الشيخ ابن حجر المكي في شرح الهمزية هو حديث صحيح صححه غير واحد من الحفاظ مردود عليه بل كذب صريح وعيب قبيح مسقط للعدالة وموهن للرواية لأن السيوطي مع جلالته وكمال إحاطته ومبالغته في رسائل متعددة من تصانيفه ذكر الاتفاق على ضعف هذا الحديث، فلو كان له طريق واحد صحيح لذكره في معرض الترجيح، ومن المعلوم أن بعده لم يحدث به غير واحد من المحدثين الذين يصح كونهم من المصححين ومن ادعى فعليه البيان في معرض الميدان.

هذا وقد قال الحافظ ابن دحية كما نقله العماد ابن كثير عنه أن هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ انتهى والمعنى أنه ثبت كفرهما بما سبق من دلالة الآية السابقة المنضمة إلى رواية السنة المتقوية بإجماع الأمة مع قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ليس التوبة صحيحة ممن مات وهو كافر لأن المعتبر هو الإيمان الغيبي لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

والحاصل أنه لم يثبت إحياؤهما وإيمانهما والدليل على انتفائهما عدم اشتهارهما عند الصحابة لا سيما والواقعة في حجة الوداع والخلق الكثير في خدمته بلا نزاع مع منافاته للقواعد الشرعية من عدم قبول الإيمان بعد

مشاهدة الأحوال الغيبية بالإجماع، ثم دعوى الخصوصية يحتاج إلى إثبات الأدلة القوية فمن ادعى هذا العنوان فعليه البيان.

وأما استدلاله بالقدرة الإلهية وقابلية الخصوصية للحضرة النبوية فأمر لا ينكره أحد من أهل الملة الحنيفية وإنما الكلام في إثبات هذا المرام بالأدلة على وجه النظام لا بالاحتمال الذي لا يصلح للاستدلال خصوصاً في معارضة نصوص الأقوال.

وأما قول القرطبي فليس أحياؤهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً فلا شبهة في إمكانه أصلاً ولا فرعاً وإنما الكلام في ثبوته أولاً ونفيه ثانياً وبهذا يندفع ما أورده السهيلي في الروض الأنف بسند فيه جماعة مجهولون أن الله أحيا له أباه وأمه فآمنا به ثم قال بعد إيراده: الله تعالى قادر على كل شيء وليس بعجز رحمته وقدرته عن شيء ونبيه ﷺ أهل أن يختص بما شاء من فضله وينعم عليه بما شاء من كرامته.

قلت: ولو صح هذا الإحياء لأبويه ﷺ على الأعداء فضلاً عن الأحياء من أكابر أصحابه ولم يكتف بذكره لعائشة من بين أحبابه على أن رواية عائشة رضي الله عنها لو صحت لانتشر عنها إلى التابعين وغيرهم وشاعت، فأنه لو صح إحياء أبويه وإيمانهما لكان من أظهر معجزاته وأكبر كراماته ﷺ.

موضوعات الرافضة

فتبين أن هذا من موضوعات الرافضة، وإنما نسبوا الحديث إلى عائشة رضي الله عنها تبعيداً عن الظن بوضعهم وتأكيداً للقضية في معنى إثباتهم. وأغرب القرطبي حيث قال لا تعارض بين حديث الأحياء وحديث النهي عن الاستغفار لهما بدليل حديث عائشة رضي الله عنها أن ذلك في حجة الوداع ولذلك جعله ابن شاهين ناسخاً لما ذكر من الأخبار انتهى.

ولا يخفى وجه الغرابة، فإن الحديث إذا كان ضعيفاً باتفاق المحدثين

وموضوعاً عند المحققين ومخالفاً للكتاب عند المفسرين كيف يصلح أن يكون معارضاً لحديث مسلم في الصحيح، ومناقضاً لما سبق مما كاد أن يكون متوافر في التصريح أو كيف يمكن أن يكون ناسخاً والنسخ لا يجوز في الأخبار عند العلماء وإنما هو من مختصات الإنشاء والأحكام وإلا فيلزم الخلف في إخباره ويتوجه المبدأ في إثارة وهو متعال عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها قول السيوطي إنهما ماتا قبل البعثة وإنهما كانا من أصحاب الفترة وهذا كما لا يخفى معارضته بما ثبت في الكتاب والسنة ومناقضته لما صرح بإشراكهما فيما سبق من صاحب النبوة فما ذكره من تطويل للبحث وتكثير الأدلة غير مفيد له في هذه القضية مع ظهور التناقض في كلامه لتحصيل مرامه، فإنهما لو كانا من أهل الفترة لما احتاجا إلى الإحياء والإيمان بالنبوة بناء على أنهما من أهل النجاة في الفطرة، ثم هذه المسألة فيها خلاف المعتزلة وأكثر أكابر أهل السنة حتى قال بعض المحققين لا يوجد صاحب الفترة إلا من ولد في مفازة خالية عن سماع بعثة صاحب النبوة بالكلية على خلاف في أنه هل هو مكلف بالعقل توحيد الرب وشكر نعمته ووجوب النظر في صنعته أم لا ومما يتفرع عليه ما ذكره البغوي في التهذيب، أما من لم تبلغه الدعوة فلا يجوز قتله، قبل أن يدعى إلى الإسلام فإن قتل قبل أن يدعى إلى الإسلام وجب في قتله الدية والكفارة وعند أبي حنيفة لا يجب الضمان بقتله وقال الغزالي في البسيطة: من لم تبلغه الدعوة يضمن بالدية والكفارة لا بالقصاص على الصحيح لأنه ليس مسلماً على التحقيق وإنما هو في معنى المسلم. قال ابن الرفعة في الكفاية: لأنه مولود على الفطرة ولم يظهر منه عناد، انتهى.

ولا يخفى ما فيه من الدلالة على أن أهل الفترة هو الذي يكون على أصل الفطرة من التوحيد ولم يظهر منه الكفر ما ينافي التفريد كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وكما ورد في حديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو

يمجسانه» الحديث، وفيه دليل على أن كل مولود في حالة عقله وكمال حاله إذا خلي هو من طبعه اختار التوحيد لله في الذات والتفريد له في الصفات كما يدل عليه قضية الميثاق الذي وقع عليه الاتفاق على ما هو مقرر في محله لا يليق به، ولهذا قال الإمام فخر الدين: من مات مشركاً فهو في النار وإن مات قبل البعثة لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه وليس معهم حجة ولم يزل معلوماً من دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم قبيح الشرك والوعيد عليه في النار وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرناً بعد قرن، فلله الحجة البالغة على المشركين في كل وقت وحين، ولو لم يكن إلا ما فطر الله عليه عباده من توحيد ربوبيته وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر وإن كان سبحانه لا يعذب بمقتضى هذه الفطرة وحدها فلم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد في الأرض معلومة لأهلها، فالمشرك مستحق للعذاب في النار لمخالفته دعوى الرسل وهو مخلد فيها دائماً كخلود أهل الجنة في الجنة، انتهى.

ولا يخفى أن ما ورد عنه ﷺ في حق بعض أرباب الفترة من التعذيب يدل دلالة صريحة للرد على ما عليه بعض الشافعية من أن أهل الفترة لا يعذبون مطلقاً. قال واصلة أن عندهم محجوج عليه بعقله وعندنا هو غير محجوج عليه قبل بلوغ الدعوة إليه. ومنها قول السيوطي أنه ورد في أهل الفترة أحاديث أنهم يمتحنون يوم القيامة بأن ترفع لهم. نار فيقال لهم أدخلوها فيدخلها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل ويمتنع من دخولها من كان في علم الله شقياً لو أدرك العمل، فيقول تعالى إياي عصيتم فكيف برسلي بالغيب. ولا يخفى أن هذا على تقدير صحته وقوته لمعارضته ومخالفته إنما يكون فيمن مات من أهل الفترة ولم يعلم حالة من أحداث الشرك والتوحيد على الفطرة، وأما من ثبت كفره بالكتاب والسنة واتفاق الأئمة فلا وجه لإدخاله في أصحاب الامتحان للطاعة كورقة بن نوفل وقس بن ساعدة وغيرهما ممن ثبت توحيدهما ولا نحو صاحب المحجن وغيره ممن ثبت شركهما.

وأغرب من هذا أنه استدل بقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في بعض كتبه بالظن بآله ﷺ يعني الذين ماتوا قبل البعثة أنهم يطيعون عند الامتحان إكراماً له ﷺ لتقرّ بهم عينه انتهى.

ووجه الغرابة أن هذه القضية بالطريقة الظنية في أهل الفترة الحقيقية المبهمة لا تفيد في المسألة العينية وكذا من العجيب ما نسب إلى العسقلاني في قوله: «ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآل بيته في جملة من يدخلها طائعاً فينجو إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن وثبت في الصحيح أنه في ضحضاح من نار، انتهى».

ولا يخفى أن إدخال عبد المطلب في القصة خارج عن الصحة لما ورد في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما أن رسول الله ﷺ دخل على أبي طالب عند موته وعنده أبو جهل وابن أبي أمية قائلين أترغب عن ملة عبد المطلب فقال أنا على ملة عبد المطلب وأبي أن يقول لا إله إلا الله فنزل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

فهذا يقتضي أن عبد المطلب مات على الشرك بلا شك، وفي الأصل المهذب أن المجرب لا يجرب، ومما يقويه ويؤكده ما في مسند البزار وكتاب النسائي من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها وقد عزّت قوماً من الأنصار عن ميتهم «لعلك بلغت معهم الكدى» فقال: «لو كنت بلغت معهم الكدى ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك»، وقد أخرجه أبو داود أيضاً إلا أنه لم يذكر فيه حتى يراها جد أبيك، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد على مرتكب المعصية ولو كان صاحبها من أعلى أهل بيت النبوة.

وأما ما ورد من قوله ﷺ: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، فمحمول على أنه ليس من باب الافتخار في الانتساب بالآباء الكفار بل لإظهار الجلادة والشجاعة والاشتهار كما بينه في شرح الشمائل للترمذي، وأما ما حكاه ابن سيد الناس أن الله أحياه بعد بعثة النبي ﷺ حتى آمن به

وأسلم ثم مات فهو مردود لأنه لا دليل عليه من حديث ضعيف ولا غيره وإنما حكوه عن بعض الشيعة وخلافهم غير معتبر عند أهل السنة، وكذا قول القرطبي ما حكاه العماد بن كثير في تفسيره أن الله أحيا أبا طالب حتى آمن، باطل موضوع بإجماع أهل الحديث ومخالف لمذهب الحق، على أنه سبق أن لا ينفع الإيمان بعد البيان بل أقول لا يتصور هذا البيان إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ولا خلف في إخباره سبحانه وتعالى.

ومنها قول السيوطي أن ابن جرير ذكر في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ قال من رضا محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار وفيه أن هذا قول صحابي من قبل رأيه وعلى تسليم صحته ودلالته فأهل بيته لا يتناول أقاربه المتقدمين من الكفار بالإجماع، نعم يفيد أن من كان نسبه ثابتاً إلى صاحب بيت النبوة يرجى له حسن الخاتمة وحصول الشفاعة أو توفيق التوبة عن المعصية إذا كان من أهل الملة لما أخرجه أبو سعيد في شرف النبوة والملا في السيرة عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي أن لا يدخل النار أحد من أهل بيتي فأعطاني ذلك»، على أنه يمكن أن يقال المراد بالنفي دخول الآباء فيكون بشارة إلى موت أهل البيت على الإسلام ودخولهم دار السلام ولو كان بعد مضي الأيام.

وأما ما أخرج تمام الرازي في فوائدة بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة شفعت لأبي وأمي وعمي أبي طالب وأخ لي كان بالجاهلية أي بالرضاعة كما في رواية فهو حجة لنا لا علينا لإدراجه أبويه مع عمه أبي طالب المجمع على كفره، فالحديث إن ثبت فهو محمول على ما ورد في الصحيح من تخفيف العذاب عنهم بشفاعته ﷺ والله أعلم.

ثم أغرب السيوطي في قوله ومما يرشح ما نحن فيه ما أخرجه ابن

أبي الدنيا عن أبي بريدة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «سألت ربي أبناء العشرين من أمتي فوهبهم لي» ثم قال ومما ينضم إلى ذلك وإن لم يكن صريحاً في المعة ما أخرجه الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً «أول من يشفع له يوم القيامة أهل بيتي ثم الأقرب فالأقرب» الحديث تذكر هذا وأمثاله مما لا يناسب حالة إذ الكلام ليس في أهل بيته من أهل الإسلام ولذا قال النووي في شرح مسلم عند حديث: «إن أبي وأباك في النار» فيه أن من مات كافراً في النار لا تنفعه قرابة الأقربين، وتعقبه السهيلي بما ظاهره من البطلان البديهي وهو قوله ليس لنا أن نقول ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: ولا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات»، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ولعله يصلح ما جاء أنه ﷺ سأل الله فأحيا له أبويه ورسول الله ﷺ فوق هذا ولا يعجز الله سبحانه شيئاً، ثم أورد قول النووي أن من مات على الفترة على ما كان العرب من عبادة الأوثان فهو في النار وليس هذا من التعذيب قبل بلوغ الدعوة لأنه بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره، انتهى.

وهو في غاية من البهاء كشمس الضحى، وبدر الدجى لكن مع هذا تعقبه بما هو كالبهاء في الهوى من المناقشة في العبارة على توهم المناقضة بين كلامي النووي معترضاً عليه بقوله أن من بلغته الدعوة لا يكون من أهل الفترة، ودفعه سهل، فإن مراد النووي من أهل الفترة من كان قبل بعثة نبينا محمد ﷺ المعبر عنهم بالجاهلية، ومنها قول السيوطي أنهما لم يثبت شرك عنهما بل كانا على الحنفية دين جدهما إبراهيم.

قلت وهذا يعارضه ما صح في صحيح مسلم عنه ﷺ كما سبق عليه الكلام قال: وهذا المسلك ذهبت إليه طائفة منهم الإمام فخر الدين الرازي فقال في كتابه أسرار التنزيل ما نصه: قيل إن آزر لم يكن والد إبراهيم بل كان عمه واحتجوا عليه بوجوه منها إن آباء الأنبياء عليهم السلام ما كانوا كفاراً ويدل عليه وجوه منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ

فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ قيل إن معناه أنه كان ينقل نوره من ساجد إلى ساجد وبهذا التقرير كالآية دالة على أن جميع آباء محمد ﷺ كانوا مسلمين وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام ما كان من الكافرين إنما ذلك عمه، أقصى ما في الباب أن يحمل قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ على وجوه أخرى وإذا وردت الرواية بالكل ولا منافاة بينهما وجب حمل الآية على الكل ومتى صح ذلك ثبت أن والد إبراهيم ما كان من عبدة الأوثان ثم قال ومما يدل على أن آباء محمد ﷺ ما كانوا مشركين قوله عليه السلام: «ولم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركاً. قال السيوطي: هذا كلام الإمام فخر الدين بحروفه وناهيك به أمامة وجلالة فإنه إمام أهل السنة في زمانه والقائم بالرد على فرق المبتدعة والناصر لمذاهب الأشاعرة في عصره، وهو العالم المبعوث على رأس المائة السادسة ليجدد لهذه الأمة أمر دينها، انتهى.

ولا يخفى مع معارضة كلامه لما سبق من الكتاب والسنة واتفاق الأئمة وما هو صريح في صحيح مسلم من كلام صاحب النبوة أنه قال: قال الله تعالى في كلامه القديم ما يدل على كفر أبي إبراهيم والأصل في حمل الكلام على الحقيقة ولا يعدل إلى المجاز، إلا حال الضرورة عند دليل صريح ونقل صحيح يضطر منه إلى ارتكاب المجاز، فبمجرد قول أخباري أو تاريخي يهودي أو نصراني كما عبر عنه يقبل أن آزر لم يكن والد إبراهيم بل كان عمه، كيف يعدل عن آيات مصرحة فيها إثبات أبوه منها قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ وهو عطف بيان ويدل بناء على أنه لقب له أو نعت بلسانهم نحو ذلك ومنها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ وفي قراءة شاذة وعدها أباه، ومنها قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ﴾ مكرراً، ومنها

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

وأقول زيادة على ذلك وهو أنه ﷺ كان مبيناً للكتاب ممهداً لطريق الصواب، فلو كان المراد بأبي إبراهيم عمه لبينه ولو في حديث للأصحاب ليحملوا الأب على عمه بطريق المجاز في هذا الباب، ثم دعوى أن آباء الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا كفاراً نحتاج إلى برهان واضح ودليل واضح، فاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ بناء على ما في غاية من السقوط كما يعلم من قول سائر المفسرين في الآية، فقد ذكر البيضاوي وغيره في تفاسيرهم أن معنى الآية وترددك في تصفح أحوال المتهجدين كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى.

ونقل الإمام أبو حيان في البحر عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أن الرافضة هم القائلون أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ وبقوله عليه السلام: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين»، الحديث.

وأما قول ابن حجر المكي فلك رد قول أبي حيان بأن مثله أنما يرجع إليه في علم النحو وما يتعلق به فظاهر البطلان للإجماع على قبول شهادة النحويين وروايتهم عن المحدثين إذا لم يكن فيه ضعف الدين، كيف وله ثلاثة من التفاسير وله من السير كتاب كبير مع أن الشيعة بأجمعهم مقرون بأن هذا قاعدة مذهبهم وله أن يعارضك ويقول وأنت فقيه صرف لم تعرف إلا رؤوس المسائل الفقهية المتعلقة بالخصومات العرفية، وبهذا أيضاً يظهر بطلان قول ابن حجر وأما من أخذه بظاهره كالبيضاوي وغيره فقد تساهل واستروح، انتهى.

فكيف يصح قول الرازي أن جميع آباء محمد ﷺ كانوا مسلمين مع حديث مسلم وإجماع جمهور المسلمين ثم أغرب في قوله وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام ما كان من الكافرين، انتهى.

ولا يخفى أنه لم يثبت به الظن فضلاً عن القطع بل إنما هو في مرتبة الشك أو الوهم ثم الاستدلال على أن آباء محمد ﷺ ما كانوا مشركين بقوله ﷺ ولم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات إلى آخر ما ذكره مردود عليه بما أشرنا إليه وبأن المراد بالحديث ما ورد من طرق متعددة منها ما أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله تعالى في خيرهما، فأخرجت من بين أبويّ لم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم عليه السلام حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً (أي روحاً) وذاتاً، وأخيركم أباً (أي نسباً وحسباً).

ومنها ما أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: لم يلتق أبواي قط على سفاح لم يزل الله عز وجل ينقلني من الاصلاب الطيبة والأرحام الطاهرة مضفاً مهدياً لا يتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما.

ومنها ما أورده البيهقي في سننه: ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام.

وأما ما ذكره ابن حجر المكي تبعاً للسيوطي من أن الأحاديث مصرحة لفظاً في أكثره ومعنى في كله أن آباء النبي ﷺ غير الأنبياء وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر لا يقال في حقه أنه مختار ولا كريم ولا ظاهر فمردود عليه إذ ليس في الأحاديث لفظ صريح مشير إليه، وأما المعنى فكأنه أراد به لفظ المختار والكريم والأطهار وهو لا دلالة فيه على الإيمان أصلاً، وإلا فيلزم منه أن يكون قبيلة قريش كلهم مؤمنين لحديث أن الله

اصطفى كنانة، من ولد إسماعيل وأصطفى قريشاً من كنانة ولم يقل به أحد من المسلمين، وكذا حديث فاختار منهم العرب ولا يصح عموم إيمانهم قطعاً بل لو استدل بمثل هذا المبنى لزم أن لا يوجد كافر على وجه الأرض لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فتأمل فأنه موضع زلل ومقام خطل، وأحذر أن تكون ضالاً مضلاً في الوحل.

ثم ما أبعد قوله في حديث مسلم أن أبي وأباك في النار قصد بذلك تطييب خاطر الرجل خشية أن يرتد لو قرع سمعه أولاً أن أباه في النار انتهى، وهذا نعوذ بالله من القول به وحاشاه ﷺ أن يخبر بغير الواقع ويحكم بكفر والده لأجل تألف قلب واحد يؤمن به أو لا يؤمن، فهذه زلة عظيمة وجراءة جسيمة حفظنا الله عن مثل هذه الجريمة.

ومنها استدلال السيوطي على إيمان جميع آبائه ﷺ بما ذكره عبد الرزاق في المصنف عن معمر عن ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يزل على وجه الأرض في الدهر سبعة مسلمون فصاعداً ولولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها، وهذا أسناد صحيح على شرط الشيخين ومثله لا يقال من قبل الرأي فله حكم الرفع وأطال في ذكر أمثاله من الأخيار والآثار بما ليس له مناسبة في هذا الباب، وإنما هو تسويد الكتاب عند من لم يميز بين الخطأ والصواب.

هذا وما أخرج ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن أبا إبراهيم عليه السلام لم يكن أسمه آزر وإنما كان اسمه تارخ فلا دلالة له فيه على المدعى لأننا نقول ولو سلم أن اسمه تارخ ولقبه آزر لا يلزم أن آباه لم يكن مشركاً وكذا ما أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق بعضها صحيح عن مجاهد قال: ليس آزر أبا إبراهيم يعنى اسمه بل لقبه لما سبق جميعاً بين الأدلة ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن السدى أنه قيل له اسم أبي إبراهيم آزر فقال بل

اسمه تارخ يعنى ولقبه آزر وكذا ما أخرج ابن المنذر بسند صحيح عن ابن جريج في قوله وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ليس آزر بأبيه يعنى بل لقبه إنما هو إبراهيم بن تيرخ أو تارخ بن شاروخ بن ناصور ابن تارخ هذا لم يذكر أحد من هؤلاء الأعلام أن آزر عم إبراهيم عليه السلام فثبت أن هذا القيل من القول العليل.

وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو الله فلم يستغفر له، وأخرج محمد بن كعب وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم قالوا كان يرجو إيمانه في حياته فلما مات على شركه تبرأ منه.

وقد قدمنا هذا البحث مستوفياً ومنها استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ حيث قال: أخرج عبد بن حميد في تفسيره بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا إله إلا الله باقية في عقب إبراهيم.

أقول: أي في ذريته ولا يلزم منه عمومهم ويكفي وجوده في بعض منهم، إذا الإجماع منعقد أن جميع ذرية إبراهيم من أولاد إسماعيل وإسحاق عليهم السلام لم يكونوا مؤمنين، ولهذا قال قتادة رضي الله عنه، لا يزال في ذريته من يقولها من بعده، وفي رواية من يوحد الله عز وجل ويعبده قال ابن جريج فلم يزل بعد من ذرية إبراهيم من يقول لا إله إلا الله، ومنها استدلاله بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ حيث قال أخرج ابن جرير في تفسيره عن مجاهد في هذه الآية قال: فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته واستجاب الله تعالى له وجعل هذا البلد آمناً ورزق أهله من الثمرات وجعله إماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة انتهى.

ولا يخفى أنه لا يصح حمل ولده على عموم ذريته للإجماع على أن

في أولاد ولد إسماعيل وإسحاق كفرة مشركين من العرب واليهود والنصارى، فيجب حمله على أن المراد بولده أولاد صلبه كما هو ظاهر كلامه تعالى حكاية عنه بقوله: وبنيّ.

قال البغوي: فإن قيل قد كان إبراهيم معصوماً عن عبادة الأصنام فكيف يستقيم للسؤال وقد عبد كثير من بنيه الأصنام فأين الإجابة؟ قيل الدعاء في حق إبراهيم عليه السلام لزيادة العصمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه ولم يعبد أحد منهم الصنم، وقيل أن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه أي ذريته وبهذا اندفع ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينه أنه سئل هل عبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام؟ قال: ألا تسمع قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، قيل: وكيف لم يدخل ولد إسحاق وسائر ولد إبراهيم قال لأنه دعا لأهل هذه البلدان لا يعبدوا إذا أسكنهم إلا أياه فقال أجعل هذا البلد آمناً ولم يدع لجميع البلدان بذلك فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ وقد خص أهله فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

قال السيوطي: فانظر إلى هذا الجواب من ابن عيينة وهو أحد الأئمة المجتهدين وهو شيخ إمامنا الشافعي، قلت: انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال ليتبين لك حقيقة الحال، فإن الاتفاق على أن العرب من نسل إسماعيل عليه السلام وهم سكان حول البيت الحرام وكانوا يعبدون الأصنام في جميع الليالي والأيام وأن الأوثان داخل البيت وخارجه في مكة كانت في غاية من الكثرة إلى أن غلب عليهم ﷺ يوم الفتح فكسرها وأخرجها قائلاً: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي مضمحلاً من نفسه وفي حد ذاته في جميع أوقاته، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وكقول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

وقال البيضاوي: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ بعدني وإياهم أن نعبد الأصنام وهو بظاهره، لا يتناول أحفاده وجميع ذريته، وزعم ابن عيينة

أن أولاد إسماعيل عليه السلام لم يعبدوا الصنم محتجاً به إنما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمونها الدوار ويقولون أن البيت حجر فحينما نصبنا حجر فهو بمنزلته انتهى

وبطلانه ظاهر مما قدمناه كما لا يخفى ومنها استدلاله بقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: فلن يزال من ذرية إبراهيم عليه السلام ناس على الفطرة يعبدون الله، قلت: هذا كلام صحيح ودلالته على التبعيض صريح، وأما ما ورد عن ابن عباس وغيره من أنه كان عدنان وجعد وربيعة ومضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم فلا تذكروهم إلا بخير فلا دلالة فيه على تقدير صحته إلا على أن هؤلاء كانوا على التوحيد وإنما أشرك أولادهم من بعدهم بخروجهم عن حيز التوفيق والتأييد. ومنها أنه قد ثبت عن جماعة كانوا في زمن الجاهلية أنهم تحنفوا وتدينوا بدين إبراهيم عليه السلام وتركوا الشرك، فما المانع من أن يكون أبوي النبي ﷺ سلكوا سبيلهم في ذلك؟

قلت: بعد ما كان مستدلاً قاطعاً رجع فصار مانعاً، وهذا مسلكه أهون من بيت العنكبوت ولا يصلح أن يقال مثل هذا إلا في البيوت إذ حديث مسلم ينادي علي خلال ذلك وبقية ما ذكرنا من الدلالات في الآيات والأحاديث يرد احتمال خلاف ما هنالك، لأن الحافظ أبا الفرج ابن الجوزي ذكر في التلقيح تسمية من رفض عبادة الأصنام في الجاهلية أبو بكر الصديق، زيد بن عمرو بن نفيل، عبيد الله بن جحش، عثمان بن الحويرث، قس بن ساعدة الأيادي، أبو قيس بن حرمة انتهى.

ولو كانا من هذا القبيل لكان ذكرهما أولى في مقام التعليل. هذا وقد روى ابن إسحاق وأصله في الصحيح تعليقاً عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو وابن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم

وهذا يدل على ما حررناه وفيما تقدم قررناه من أن جميع ذرية إسماعيل عليه السلام لم يثبتوا على دين إبراهيم من التوحيد.

وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة عن عمرو بن عنبسة السلمي قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية ورأيت أنها الباطل يعبدون الحجارة. وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق الشعبي عن شيخ من جهينة أن عمر بن حبيب الجهني ترك الشرك في الجاهلية وصلى لله تعالى وعاش حتى أدرك الإِسلام.

هذا وقد أظهر السيوطي مجادلته مع كل من الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي في عدولهم من الحديث الصحيح لما قام عندهم من الدليل الصريح الصادق عن العمل بذلك الحديث والأخذ به مع أن أدلة كل من المذاهب مذكورة في مؤلفاتهم ومسطورة في مطولاتهم وليس في قواعدهم أن يتركوا الحديث الصحيح ويأخذوا بالحديث الضعيف في مقام الترجيح، على أن الشافعي قال إذا صح الحديث فاتركوا قولي ثم قال وإن كان المجادل ممن يكتب الحديث ولا فقه عنده فقد قال الأقدمون المحدث بلا فقه كعطار غير طبيب، فالأدوية حاصلة في دكانه ولا يدري لماذا تصلح والفقيه بلا حديث كطبيب ليس بعطار يعرف ما تصلح له الأدوية إلا أنها ليست عنده وإني بحمد الله قد اجتمع عندي الحديث والفقه والأصول وسائر الآلات من العربية والمعاني والبيان وغير ذلك فأنا أعلم كيف أتكل وكيف أقول وكيف أستدل وكيف أرجح وأما أنت أخي وفقني الله وإياك فلا يصلح لك ذلك لأنك لا تدري الفقه ولا الأصول ولا شيئاً من الآلات، والكلام في الحديث والاستدلال به ليس بالهين ولا يحل الإقدام على التكلم فيه لمن لم يجمع هذه العلوم فاقتصر على ما أتاك الله تعالى وهو أنك إذا سئلت عن حديث مقول ورد أو لم يرد وصححه الحفاظ وحسنوه أو ضعفوه لا يحل لك في الإفتاء سوى هذا القدر وخل ما عدا ذلك والله أعلم.

لا تحسب المجد تمر أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقد أطنب الشيخ رحمه الله تعالى في منقبته هو كذلك في حد ذاته وصفاته مع استحقاق زيادة في تزكيته لأنه صنف في كل صنف من العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه والآلات العربية إلا أنه في هذه الرسالة عمل عمل العطارين في تكبير النوالة وتكثير الحوالة ولم ينظر إلى كلام العلماء والمتقدمين والأئمة المعتبرين الذين هم الأطباء والحكماء في نظر الخواص والعوام أجمعين.

ثم أقول له بطريق المجادلة على أسلوب الجدل هل يعارض حديث مسلم المجمع على صحته الدال على كفر أبويه ﷺ بحديث إحيائهما وإيمانهما به بعد بعثهما والحال أنه ضعيف باتفاق المحدثين بل موضوع باطل لا أصل له عند المحققين مع أنه مخالف للآيات السابقة والأحاديث اللاحقة ولكلام الأئمة الأربعة وغيرهم من أكابر هذه الأمة وعلماء أهل السنة والجماعة، وإنما هو على الأصول الباطلة للطائفة والرافضة، أو نقول إذا صح الحديث عن الرسول وتلقته الأئمة بالقبول فهل يحل لأحد من أرباب الفضول أن يرد عليه ويقول أنهما ماتا بالفترة قبل البعثة أو يمتحنان يوم القيامة أفليس هذا معارضة بالتعليل في مقابلة النص من الدليل؟

أما ذكر أرباب الأصول في الحديث والفقه الجامعين بين المنقول والمعقول أن الحديث إذا أثبت في الصحيحين أو أحدهما فلا يعارضه حديث غيرهما ولو صح من طريقهما وإن كان من بقية الصحاح الست، فكيف إذا أخرجه أصحاب الكتب الغير المعتبرة من الطرق الغير مشهورة وصرح الحفاظ بضعف طرقه كلها بل بوضعها والحال أنه لم يقل بهذه الرواية إلا جمع من المقلدين لم يصلوا إلى مرتبة المجتهدين كابن شاهين والخطيب البغدادي والسهيلي والقرطبي والمحب الطبري وابن المنذر وأمثالهم، فهل يحل لأحد من الحنفية وغيرهم أن يقلدوا هؤلاء المذكورين ويتركوا الاقتداء بأئمتهم المعتبرين مع ظهور أدلة الجمهور من علماء الأمة

لا سيما والمسألة من الاعتقاديات التي لا بد لها من الأدلة اليقينية لا من الفروع الفقهية التي تغلب مدارها على القواعد الظنية؟ انتهى.

ما تعلق بزبدة كلامه وخلاصة مرامه وعدلنا عن التعرض لما ذكره من التطويل الذي لا يفيد التعليل في مقام التحصيل وإنما هو بيان قال وقيل والله هو الهادي إلى سواء السبيل وبهذا تبين أنه كحاطب ليل وخاطب ويل فتارة يقول أنهما مؤمنان من أصلهما لأنهما من أهل الفترة أو لكونهما وأن كان من آباء أرباب النبوة، وأخرى يقول أنهما كانا كافرين لكنهما أحياهما الله وآمنا، ومرة يقول كانا مؤمنين وما كانا كافرين بل كانا في مرتبة المجانين جاهلين فيمتحنان يوم القيامة وبالظن يحكم أنهما ناجيان، فانظر إلى هذه المعارضات الواضحة والمناقضات اللائحة فهل تثبت المسائل الاعتقادية بأمثال هذه الاحتمالات العقلية فدلت تصانيفه في هذه القضية بأنه أقل العطارين بالنسبة إلى إمام الحكماء المعتبرين فإنه رحمه الله أعلم علماء الشافعية في زمانه وتفوق على جميع أقرانه وأنا الفقير الحقير من أقل علماء الحنفية بينت خطاء بما أخذته من الكتب التفسيرية والحديثية ولكن ذلك الفضل من الله، ولا قوة إلا بالله وفيه الدلالة على أن باب الفيض مفتوح على هذه الأمة وأن لا بد في الوجود من يكشف الغمة مما اختلف فيه الأئمة ويميز الحق والباطل ويبين المزين من الباطل.

ثم اعلم أن ما اختاره الفخر الرازي وتبعه السيوطي في أن أبا إبراهيم عليه السلام لم يكن كافراً فساد عظيم في الدين وتشكيك لعقيدة أرباب اليقين وإن كان كل واحد منهما يدعي أنه من المجددين بل يصح أن يقال أنهما من المحدثين لما ورد أنه (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد) من بين المجتهدين، وبيانه أن المسلمين من أهل الشرق والغرب أجمعين يقرأون القرآن العظيم ويتلون الفرقان الكريم فإذا رأوا فيه نصاً على انتساب الكفر إلى أبي إبراهيم عليه التحية والتسليم يعتقدون ذلك حيث لم يكن صادف عن حمله على الحقيقة هنالك ولا يدرون أن أخبارياً يهودياً أو

نصرانياً ذكر أن المراد بأبيه عمه قاصداً بذلك الطعن في دين النبي ﷺ وكتاب ربه، هل يحكم ببطلان هذا القول الذي هو مخالف لظاهر الكتاب ومعارض لما قدمناه في هذا الباب أو يحكم بفساد اعتقاد جميع المسلمين من أهل البر والبحر أجمعين إلا من اعتقد اعتقاد الرازي والسيوطي مع أنهما قبل وصول هذا القول الباطل إليهما لم يكونا شاكين في أن أبا إبراهيم ما كان على الدين القويم والطريق المستقيم، فلما حققا ذلك وصنفا بيان ما هنالك رجعا من اعتقادهما الباطل على زعمهما إلى الاعتقاد الحق عندهما حتى قلدهما ابن حجر المكي وبالغ حتى قال وهذا هو الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال، والله سبحانه يصلح الأحوال.

ثم انظر إلى ما قال السيوطي من الاستدلال السقوطي وهو أنه قد وجه من حيث اللغة بأن العرب تطلق لفظ الأب على العم إطلاقاً شائعاً وإن كان مجازاً، ففي التنزيل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عليهم السلام فأطلق على إسماعيل لفظ الأب وهو عم يعقوب كما أطلق على إبراهيم وهو جده.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول الجد أب ويتلو: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ الآية. وأخرج عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ عليهما السلام قال سمى العم أباً. وأخرج عن محمد بن كعب القرظي قال: الخال والد والعم والد وتلا هذه الآية، فهذه أقوال السلف من الصحابة والتابعين في ذلك.

قلت هذه طنطنة مصرية ليس تحتها فائدة قوية، إذ نفس الآية الشريفة يستفاد منها عند كل عاقل اللابتناء أنه لا يصح إطلاق جميع الآباء حقيقة بالنسبة إلى واحد من الأبناء لا شرعاً ولا عرفاً على عموم الجزاء بأن يقال المراد بالآباء الأسلاف كما قاله الأئمة الحنفية أو على استعمال اللفظ بالاشتراك بين الحقيقة والمجاز كما اختاره الشافعية، فإذا عرفت ذلك فهل

ترى أن تكون هذه الآية نظير الآيات الدالة على أن المراد بأبي إبراهيم أبوه حقيقة ولا يصح إرادة عمه مجازاً حيث لا دليل من جهة العقل الصحيح ولا من طريقة النقل الصريح ما يصلح أن يكون مانعاً من إرادة الحقيقة وباعثاً على قصد المجاز.

ثم رأيت رسالة في هذه المسألة لابن كمال باشا وفيها ما لا ينبغي من الأشياء منها قوله أن السلف اختلفوا والحال أنه لا يصح الخلف إلا في الخلف ومنها نقله عن الحافظ ابن دحية ما قدمناه أنه قال: فمن مات كافراً لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة بل لو آمن عند المعاينة فكيف بعد الإعادة؟ وتعقبه بأنه مدفوع بما ورد من أن أصحاب الكهف يبعثون في آخر الزمان ويحجون ويكونون من هذه الأمة تشريفاً لهم بذلك، أخرجه ابن عساكر في تاريخه وأخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً أن أصحاب الكهف أعوان المهدي انتهى.

ولا يخفى بطلان هذا التعقيب لأن أصحاب الكهف ماتوا مؤمنين بإجماع المسلمين، وإنما الكلام في قبول توبة الأموات من المشركين. ثم قال: ولا بد من أن يكون الله كتب لأبوي النبي ﷺ عمراً ثم قبضهما قبل استيفائه ثم أعادهما لاستيفاء تلك اللحظة الباقية وآمنا فيها فيعتد به انتهى.

ولا يخفى أن البحث ليس في إمكان القدرة لأنها قابلة للطرفين وشاملة للصنفين وإنما الكلام في صحة وقوع أي الشقين، ثم قال: وأما قوله بل أبويه آمنا عند المعاينة فكيف الإعادة، فمردود بأن الإيمان عند المعاينة إيمان يأس فلا يقبل بخلاف الإيمان بعد الإعادة وقد دل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

أقول الكمال لله وإلا فمثل هذا الفاضل في مقام الأقصى كيف يغفل عن البرهان الأولى فإن الإيمان إذا لم يقبل عند مشاهدة بعض أحوال الآخرة الذي هو عين اليقين، فكيف يقبل بعد خروجه من الدنيا وتحققه بأمور العقبى الذي يسمى حق اليقين على أن المطلوب من العبد أن يؤمن

بالغيب الذي هو علم اليقين مع أن الله تعالى نص على الحالتين بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ وهو على حال الغرغرة: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ هو بعد الإعادة.

ثم من أعجب العجائب وأغرب الغرائب قوله ويبني على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ فإنه دل عليه صحيحاً لكن على رده صريحاً لأنهم إذا عادوا لما نهوا عنه من الكفر والمعصية فلا يتصور منهم وجود الإيمان مع الطاعة. وأما ما ذكره ابن الكمال تبعاً للسيوطي من أنه سئل القاضي أبو بكر بن العربي أحد المالكية عن رجل قال أن أبا النبي ﷺ في النار فأجاب بأنه ملعون لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال ولا أذى أعظم من أن يقال عن الله أنه في النار فمحمول على من قصد أذى النبي ﷺ بإطلاق هذا الكلام فإنه ملعون بل كافر مطعون، وأما من أخبره بما ثبت عنه عليه السلام واعتقده كأبي حنيفة وغيره من علماء الإعلام فحاشاهم من نسبة الطعن عليهم ويحرم عليهم اللعن.

ثم نقله تبعاً له عن السهيلي ليس لنا أن نقول ذلك في أبوي النبي ﷺ لقوله عليه السلام «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات» كما رواه الطبراني فدفعه ظاهر على من عنده علم باهر وعقل قاهر.

قال ابن الكمال وبالجملة هذه المسألة ليست من الاعتقاديات فلا حظر للقلب منها وأما اللسان فحقه أن يصان عما يتبادر منه النقصان خصوصاً إلى وهم العامة لأنهم لا يقدرون على دفعه وتداركه.

قلت: ما ثبت بالكتاب والسنة يجب اعتقاده مجملاً أو مفصلاً نعم لو لم يخطر ببال مؤمن هذا البحث لا نفياً ولا إثباتاً لا يضره ككثير من المسائل المذكورة في كتب العقائد المسطورة، ثم هذه المسألة لو لم تكن في الجملة من المسائل الاعتقادية لما ذكرها الإمام المعظم المعتبر في ختم

فقهه الأكبر وكأن هذا من علامة ولايته رضي الله عنه حيث كوشف له هذا المعنى أن يقع الاختلاف في هذا المبنى، ثم لا عبرة للعوام كالأنعام في عقائدهم الفاسدة وتأويلاتهم الكاسدة وإنما المدار على كلام الخواص من العلماء الأعلام الذين هم قدوة أهل الإسلام.

ثم من الوقائع الغريبة في الأزمنة القريبة أن بعض علماء الحنفية مع أنه بلغ غاية القصوى في مرتبة الفتوى أفتى تبعاً للسيوطي وجمع من الشافعية مع اطلاعه على عقيدة إمام الملة الحنفية حيث قال: المشهور عند العلماء ما ذكره الإمام الأعظم ولم يرجع عنه غير أن العلامة السيوطي أخرج بسنده حديثاً لا يصح التمسك به مضمونه أن الله أحيا له أبويه فآمنا به، ثم قال في آخره وهذا الذي نعتقده وندين الله به. ثم ذكر أنه تعارض حديث ابن مسعود وحديث ابن عباس وأمكن الجمع بينهما بأنه منع من الاستغفار أولاً وهو حديث ابن مسعود ثم أذن له ثانياً وهو مضمون حديث ابن عباس الذي أخذ به الجلال السيوطي انتهى ملخصاً.

وأنت عرفت أن الحديث الأول الذي تمسك به السيوطي ليس بإسناده ولا يصح بالاتفاق بل هو ضعيف كما اعترف به السيوطي أو موضوع كما صرح به غيره، وأما ما نسبه إلى ابن عباس فلا أصل له لا عند السيوطي ولا عند غيره والله أعلم، وكان واجباً عليه حديث لا دليل قدامه أن يقتفي أمامه ولا يتعدّ إمامه تصديقاً لقول القائل..

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

ثم قال ابن الكمال: لا خفاء في أن إثبات الشرك في أبويه إضلال ظاهر بشرف نسبه الطاهر.

قلت: هذا القول ليس له دخل في نسبه الطاهر بل إثبات لما أثبته عليه السلام بنفسه الطاهر نعم من قذف أم النبي ﷺ قتل مسلماً كان أو كافراً كما قاله الإمام موفق الدين ابن قدامة الحنبلي في المقنع ونقله عنه السيوطي، وإنما خص الأم بالذكر لثبوت أحاديث دلت على أنه ﷺ ولد

من أمه بنكاح غير سفاح فإنكار ما ثبت عنه ﷺ كفر فلا يرد أن حكم القاذف الحد المعروف ثم قوله كافراً فيه بحث من جهة إطلاقه لأن الحربي لا كلام فيه والمستأمن لا يجوز قتله والذمي ظاهره القتل لأن له ما لنا وعليه وما علينا إلا ما خص بدليل.

وأما ما ذكره الكردي في منامه من أن من مات على الكفر أبيح لعنه إلا والدي الرسول ﷺ لثبوت أن الله أحياهما حتى آمنا به ففيه مع ما سبق من التنبيه أنه أثبت كفر والديه ومنع لعنهما بشبهة الحديث المذكور ولو لم يصح نقلاً ولا شرعاً غايته أن يجوز عقلاً فلا شك أن الأحوط لصاحب الدين أن لا يلعن أحداً فإن عدم الاشتغال بذكر الموتى في كل حال هو الأولى.

ثم ظهر لي وجة آخر في منع اللعن وهو ما قال ﷺ: لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات، فعلى هذا لا يجوز لعن والدي رسول الله ﷺ ووالدي عمر رضي الله عنه ولا آباء سائر الصحابة ولا آباء بقية المسلمين إذ لا فائدة في اللعن، وقد يتفرع عليه الطعن وينجر إلى الفساد فيما بين العباد على الخصوص بالنسبة إلى والديه ﷺ في إيذائه للأمة وله كمال في الحرمة ولولا منع النبي ﷺ من الاستغفار لهما ولأمثالهما في الآية لكنا دعونا لهما بالمغفرة فلا يناسب أن ندعو عليهما باللعن والطرد عن الرحمة بل ربما يجوز لنا أن ندعوا لهما بتخفيف العذاب عنهما وتسليم الأمر إلى خالقهما فيما قضى عليهما وكان أمر الله قدراً مقدوراً وكان ذلك في الكتاب مسطوراً، وهذه مسألة تحيرت فيها العقول واضطربت فيها النقول وليس لأحد الوصول إلى حقيقة هذا المحصول إلا أن يقول كما قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم من الواقعة الغريبة في حالة القريبة أن الفاضل العصامي فمتى مذهب الشافعي أنكر على الحنفية في قولهم إن ذا أب مسلم لا يكون كفواً لمن يكن له أب مسلم معترضاً بأنه يلزم منه أن لا يكون النبي ﷺ كفواً

لعائشة رضي الله عنها وإنما فشا منه هذا بناء على جهله بالقواعد الحنفية فإنهم قالوا قريش بعضهم كفواً لبعض والعرب كذلك وإنما اعتبروا إيمان الآباء في ما عدا العرب من الأعجام والأروام وسائر الأنام في مسألة الأكفاء، هذا وفيه بيان لكمال قدرته في خلقه وأمره وتبيان لسر قضائه وقدره ورد على الحكماء والفلاسفة والطبيعية في بناء أمر النبوة والمعرفة على الأمور النسبية والأحوال الكسبية لا على المواهب الإلهية السبحانية والجذبات الربانية الصمدانية كما أشار الله سبحانه إلى هذا المعنى في رد ذلك المبنى بقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ فأخرج الله المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، كابن نوح عليه السلام فإنه كافر بإجماع أئمة الإسلام وكقابيل قاتل هابيل من بني آدم عليه السلام فإنه كافر باتفاق علماء الأعلام، ولما رأى عليه السلام عكرمة ابن أبي جهل بعد الإسلام قرأ يخرج الحي من الميت، وفي هذا البيان عظيم إلى أن الإيمان إنعام جسيم لا يصل إليه إلا نبي أو ولي كريم ممن سبقت لهم الحسنى بالوصول إلى المقام الأسنى.

فنسأل الله تعالى الخاتمة الدالة على سبق العناية بتعليق الإرادة بتحقيق السعادة، داعين ربنا توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين وأدخلنا الجنة آمنين غير خزايا ولا مفتونين آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

جرى نسخ هذه الرسالة الفريدة من أصل موجود بمكتبة شيخ الإسلام في المدينة المنورة.

الرسالة الثامنة عشرة

العقيدة الطحاوية

تعليق سماحة الشيخ

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الحمد لله رب العالمين.

قال العلامة حجة الإسلام أبو جعفر الوراق الطحاوي ـ بمصر ـ رحمه الله. هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون به رب العالمين.

١ ـ نقول في توحيد الله[1] معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له.

---

(١) قوله: (نقول في توحيد الله..إلخ).

اعلم (أن التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب ينقسم إلى أقسام ثلاثة حسب استقراء النصوص من الكتاب والسنة وحسب واقع المكلفين.

القسم الأول: توحيد الربوبية وهو توحيد الله بأفعاله سبحانه وهو الإيمان بأنه الخالق الرازق المدبر لأمور خلقه المتصرف في شؤونهم في الدنيا والآخرة لا شريك له في ذلك كما قال تعالى ﴿**الله خالق كل شيء**﴾ الزمر، الآية (٦٢)، وقال سبحانه: ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر**﴾ يونس، الآية(٣). وهذا النوع قد أقر به المشركون عباد الأوثان وإن جحد أكثرهم البعث والنشور ولم يدخلهم في الإسلام لشركهم بالله في العبادة وعبادتهم الأصنام والأوثان معه سبحانه وعدم إيمانهم بالرسول محمد ﷺ.

القسم الثاني: توحيد العبادة ويسمى توحيد الألوهية وهي العبادة وهذا القسم هو الذي أنكره المشركون فيما ذكر الله عنهم سبحانه بقوله: ﴿**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب**﴾ ص، الآيتان(٤،٥). وأمثالها كثير. وهذا القسم يتضمن إخلاص العبادة لله وحده والإيمان بأنه المستحق لها وأن عبادة ما سواه باطلة وهذا هو معنى لا إله إلا الله، فإن معناها لا معبود حق إلا الله كما قال الله عز وجل: ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل**﴾ الحج، الآية(٦٢).

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو الإيمان بكل ما ورد في كتاب الله=

٢ ـ ولا شيء مثله.

٣ ـ ولا شيء يعجزه.

٤ ـ ولا إله غيره.

٥ ـ قديم بلا إبتداء[1]، دائم بلا انتهاء.

٦ ـ لا يفنى ولا يبيد.

= العزيز وفي السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ من أسماء الله وصفاته وإثباتها لله سبحانه على الوجه الذي يليق به من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل كما قال سبحانه: **﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾** (الإخلاص). وقال سبحانه: **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** الشورى، الآية(١١)، وقال عز وجل: **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** الأعراف، الآية(١٨٠)، وقال سبحانه: **﴿ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾** النحل، الآية(٦٠). والآيات في هذا المعنى كثيرة والمثل الأعلى هو الوصف الأعلى الذي لا نقص فيه وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من أصحاب الرسول ﷺ وأتباعهم بإحسان يمرون آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت ويثبتون معانيها لله سبحانه إثباتاً بريئاً من التمثيل وينزهون الله سبحانه عن مشابهة خلقه تنزيهاً بريئاً من التعطيل وبما قالوا تجتمع الأدلة من الكتاب والسنة وتقوم الحجة على من خالفهم وهم المذكورون في قوله سبحانه: **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾** التوبة، الآية(١٠٠) جعلنا الله منهم بمنه وكرمه والله المستعان.

(١) قوله (قديم بلا ابتداء).
هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله الحسنى كما نبه عليه الشارح رحمه الله وغيره وإنما ذكره كثير من علماء الكلام ليثبتوا به وجوده قبل كل شيء، وأسماء الله توقيفية لا يجوز إثبات شيء منها إلا بالنص من الكتاب العزيز أو السنة الصحيحة ولا يجوز إثبات شيء منها بالرأي كما نص على ذلك أئمة السلف الصالح. ولفظ القديم لا يدل على المعنى الذي أراده أصحاب الكلام لأنه يقصد به في اللغة العربية المتقدم على غيره وإن كان مسبوقاً بالعدم كما في قوله سبحانه: **﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾** يس، الآية(٣٩)، وإنما يدل على المعنى الحق بالزيادة التي ذكرها المؤلف وهو قوله: (قديم بلا ابتداء) ولكن لا ينبغي عده في أسماء الله الحسنى لعدم ثبوته من جهة النقل ويغني عنه اسمه سبحانه الأول كما قال عز وجل: **﴿هو الأول والآخر﴾** الحديد، الآية(٣) والله ولي التوفيق.

٧ ـ ولا يكون إلا ما يريد.

٨ ـ لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام.

٩ ـ ولا يشبه الأنام.

١٠ ـ حي لا يموت، قيوم لا ينام.

١١ ـ خالق بلا حاجة. رازق بلا مؤنة.

١٢ ـ مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة.

١٣ ـ ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه. لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته. وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً.

١٤ ـ ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم (الخالق). ولا بإحداث البرية استفاد اسم (الباري).

١٥ ـ له معنى الربوبية ولا مربوب. ومعنى الخالق ولا مخلوق.

١٦ ـ وكما أنه محيي الموتى بعدما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم. كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم.

١٧ ـ ذلك بأنه على كل شيء قدير وكل شيء إليه فقير. وكل أمر عليه يسير. لا يحتاج إلى شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

١٨ ـ خلق الخلق بعلمه.

١٩ ـ وقدر لهم أقداراً.

٢٠ ـ وضرب لهم آجالاً.

٢١ ـ ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم. وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم.

٢٢ ـ وأمرهم بطاعته. ونهاهم عن معصيته.

٢٣ ـ وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته. ومشيئته تنفذ، لا مشيئة العباد. إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان. وما لم يشأ لم يكن.

٢٤ ـ يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً. ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً.

٢٥ ـ وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله.

٢٦ ـ وهو متعال عن الأضداد والأنداد.

٢٧ ـ لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره.

٢٨ ـ آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلاً من عنده.

٢٩ ـ وأن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى.

٣٠ ـ وأنه خاتم الأنبياء. وإمام الأتقياء. وسيد المرسلين. وحبيب رب العالمين[١].

٣١ ـ وكل دعوى النبوة بعده فغيّ وهوى.

٣٢ ـ وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى. بالحق والهدى. وبالنور والضياء.

٣٣ ـ وأن القرآن كلام الله. منه بدأ بلا كيفية قولاً. وأنزله على رسوله وحياً. وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً. وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة. ليس بمخلوق ككلام البرية. فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر. وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر. حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ المدثر، الآية(٢٦)، فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ المدثر، الآية(٢٥)، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر. ولا يشبه قول البشر.

---

(١) بل هو خليل رب العالمين. (الناشر).

٣٤ ـ ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر، فقد كفر. فمن أبصر هذا اعتبر. وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر.

٣٥ ـ والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة، الآية من ٢٢ ـ ٢٣. وتفسيره على ما أراده الله تعالى وعلمه وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال ومعناه على ما أراد. لا ندخل في ذلك متأولين بأرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا. فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه.

٣٦ ـ ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام. فمن رام علم ما خطر عنه علمه. ولم يقنع بالتسليم فهمه. حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً.

٣٧ ـ ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ـ بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية.

٣٨ ـ وتعالى[1] عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات.

---

(١) قوله: تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات والجهات الست كسائر المبتدعات، هذا الكلام فيه إجمال قد يستغله أهل التأويل والإلحاد في أسماء الله وصفاته وليس لهم بذلك حجة لأن مراده رحمه الله تنزيه البارئ سبحانه عن مشابهة المخلوقات لكنه أتى بعبارة تحتاج إلى تفصيل حتى يزول الاشتباه، فمراده بالحدود يعني التي يعلمها البشر فهو سبحانه لا يعلم حدوده إلا هو سبحانه لأن الخلق لا=

٣٩ ـ والمعراج حق. وقد أسري بالنبي ﷺ. وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء. ثم إلى حيث شاء الله من العلا. وأكرمه الله بما شاء. وأوحى إليه ما أوحى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ النجم، الآية(١)، فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى.

٤٠ ـ والحوض الذي أكرمه الله تعالى به، غياثاً لأمته حق.

٤١ ـ والشفاعة التي ادخرها لهم حق. كما روي في الأخبار.

٤٢ ـ والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق.

٤٣ ـ وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة. فلا يزداد في ذلك العدد، ولا ينقص منه.

٤٤ ـ وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه. وكل ميسر لما خلق له. والأعمال بالخواتيم. والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله.

= يحيطون به علماً كما قال عز وجل: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾ طه، الآية(١١٠). ومن قال من السلف بإثبات الحد في الاستواء أو غيره فمراده حد يعلمه الله سبحانه ولا يعلمه العباد. وأما الغايات والأركان والأعضاء والأدوات، فمراده رحمه الله تنزيهه عن مشابهة المخلوقات في حكمته وصفاته الذاتية من الوجه واليد والقدم ونحو ذلك فهو سبحانه موصوف بذلك لكن ليست صفاته مثل صفات الخلق ولا يعلم كيفيتها إلا هو سبحانه، وأهل البدع يطلقون مثل هذه الألفاظ لينفوا بها الصفات بغير الألفاظ التي تكلم الله بها وأثبتها لنفسه حتى لا يفتضحوا وحتى لا يشنع عليهم أهل الحق. والمؤلف الطحاوي رحمه الله لم يقصد هذا المقصد لكونه من أهل السنة المثبتين لصفات الله وكلامه في هذه العقيدة يفسر بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً ويفسر مشتبهه بمحكمه وهكذا قوله لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات مراده الجهات الست المخلوقة وليس مراده نفي علو الله واستواءه على عرشه لأن ذلك ليس داخلاً في الجهات الست بل هو فوق العالم ومحيط به وقد فطر الله عباده على الإيمان بعلوه سبحانه وأنه في جهة العلو وأجمع أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان على ذلك والأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة كلها تدل على أنه في العلو سبحانه فتنبه لهذا الأمر العظيم أيها القارئ الكريم واعلم أنه الحق وما سواه باطل والله ولي التوفيق.

٤٥ ـ وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة. فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الأنبياء، الآية(٢٣)، فمن سأل لم فعل: فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

٤٦ ـ فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى: وهي درجة الراسخين في العلم لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود[1]. فإنكار العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر. ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود.

٤٧ ـ ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقم. فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه. جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه.

---

(١) مراده رحمه الله بالعلم المفقود هو علم الغيب وهو مختص بالله عز وجل ومن ادعاه من الناس كفر لقول الله سبحانه: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾** الأنعام، الآية (٥٩)، وقوله عز وجل: **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾** النمل، الآية (٦٥).
وقول النبي ﷺ: **مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا قوله سبحانه: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾** لقمان، الآية(٣٤). والأحاديث صحيحة كثيرة وردت في الباب تدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب مع أنه أفضل الخلق وسيد الرسل فغيره من باب أولى وهو ﷺ لا يعلم من ذلك إلا ما علمه إياه سبحانه. ولما تكلم أهل الإفك في عائشة رضي الله عنها لم يعلم براءتها إلا بنزول الوحي ولما ضاع عقدها في بعض أسفاره ﷺ بعث جماعة في طلبه ولم يعلم مكانه حتى أقاموا البعير فوجدوه تحته، والأدلة من الكتاب والسنة في هذا كثيرة.

٤٨ ـ وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه. فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه. وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وبربوبيته. كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان، الآية(٢)، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ الأحزاب، الآية(٣٨).

فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً. وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً. لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً. وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً.

٤٩ ـ والعرش والكرسي حق.

٥٠ ـ وهو مستغن عن العرش وما دونه.

٥١ ـ محيط بكل شيء وفوقه وقد أعجز عن الإحاطة خلقه.

٥٢ ـ ونقول: إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً. وكلم الله موسى تكليماً. إيماناً وتصديقاً وتسليماً.

٥٣ ـ ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين. ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين.

٥٤ ـ ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين. ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين.

٥٥ ـ ولا نخوض في الله. ولا نماري في دين الله.

٥٦ ـ ولا نجادل في القرآن ونشهد أنه كلام رب محمد ﷺ وهو كلام الله تعالى. لا يساويه شيء من كلام المخلوقين. ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين.

٥٧ ـ ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله[1].

---

(١) قوله (ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله). =

٥٨ ـ ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله.

٥٩ ـ نرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة[1] ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم.

٦٠ ـ والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة.

٦١ ـ ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه[2].

= فمراده رحمه الله أن أهل السنة والجماعة لا يكفرون المسلم الموحد المؤمن بالله واليوم الآخر بذنب يرتكبه كالزنا وشرب الخمر والربا وعقوق الوالدين وأمثال ذلك ما لم يستحل ذلك فإن استحله كفر لكونه بذلك مكذباً لله ولرسوله خارجاً عن دينه أما إذا لم يستحل ذلك فإنه لا يكفر عند أهل السنة والجماعة بل يكون ضعيف الإيمان وله حكم ما تعاطاه من المعاصي في التفسيق وإقامة الحدود وغير ذلك حسبما جاء في الشرع المطهر، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن سلك مسلكهم الباطل، فإن الخوارج يكفرون بالذنوب والمعتزلة يجعلونه في منزلة بين المنزلتين يعني بين الإسلام والكفر في الدنيا وأما في الآخرة فيتفقون مع الخوارج بأنه مخلد في النار وقول الطائفتين باطل بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وقد التبس أمرهما على بعض الناس لقلة علمه ولكن أمرهما بحمد الله واضح عند أهل الحق كما بيّنا وبالله التوفيق.

(١) مراده رحمه الله إلا من شهد له الرسول ﷺ بالجنة كالعشرة ونحوهم كما يأتي ذلك في آخر كلامه. مع العلم بأن من عقيدة أهل السنة والجماعة الشهادة للمؤمنين والمتقين على العموم بأنهم من أهل الجنة وإن الكفار والمشركين والمنافقين من أهل النار كما دلت على ذلك الآيات الكريمات والسنة المتواترة عن رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله سبحانه ﴿**إن المتقين في جنات ونعيم**﴾ الطور، الآية (١٧). وقوله عز وجل ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ التوبة، الآية (٧٢) في آيات كثيرات تدل على هذا المعنى، وقوله سبحانه في الكفار: ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور**﴾ فاطر، الآية (٣٦)، وقوله سبحانه: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً**﴾ النساء، الآية (١٤٥)، في آيات أخرى تدل على هذا المعنى وبالله التوفيق.

(٢) هذا الحصر فيه نظر فإن الكافر يدخل في الإسلام بالشهادتين. إذا كان لا ينطق بهما=

٦٢ ـ والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان[١].

٦٣ ـ وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق.

٦٤ ـ والإيمان واحد[٢] وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى.

٦٥ ـ والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن.

= فإن كان ينطق بهما دخل في الإسلام بالتوبة مما أوجب كفره وقد يخرج من الإسلام بغير الجحود لأسباب كثيرة بيّنها أهل العلم في باب حكم المرتد، من ذلك طعنه في الإسلام أو في النبي ﷺ أو استهزاؤه بالله ورسوله أو بكتابه أو بشيء من شرعه سبحانه لقوله سبحانه: ﴿**قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾ التوبة، الآيتين (٦٥ ـ ٦٦). ومن ذلك عبادته للأصنام أو الأوثان أو دعوته الأموات والاستغاثة بهم وطلبه منهم المدد والعون ونحو ذلك لأن هذا يناقض قوله لا إله إلا الله لأنها تدل على أن العبادة حق لله وحده ومنها الدعاء والاستغاثة والركوع والسجود والذبح والنذر ونحو ذلك، فمن صرف منها شيئاً لغير الله من الأصنام والأوثان والملائكة والجن وأصحاب القبور وغيرهم من المخلوقين فقد أشرك بالله ولم يحقق قول لا إله إلا الله وهذه المسائل كلها تخرجه من الإسلام بإجماع أهل العلم وهي ليست من مسائل الجحود وأدلتها معلومة من الكتاب والسنة وهناك مسائل أخرى كثيرة يكفر بها المسلم وهي لا تسمى جحوداً وقد ذكرها العلماء في باب حكم المرتد فراجعها إن شئت وبالله التوفيق.

(١) هذا التعريف فيه نظر وقصور والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر. وقد ذكر الشارح ابن أبي العز جملة منها فراجعها إن شئت، وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة وليس الخلاف بينهم وبين أهل السنة فيه لفظياً بل هو لفظي ومعنوي ويترتب على أحكام كثيرة يعلمها من تدبر كلام أهل السنة وكلام المرجئة والله المستعان.

(٢) قوله: (والإيمان واحد وأهله في أصله سواء) هذا فيه نظر بل هو باطل فليس أهل الإيمان فيه سواء بل هم متفاوتون تفاوتاً عظيماً، فليس إيمان الرسل كإيمان غيرهم كما أنه ليس إيمان الخلفاء الراشدين وبقية الصحابة رضي الله عنهم مثل إيمان غيرهم، وهكذا ليس إيمان المؤمنين كإيمان الفاسقين، وهذا التفاوت بحسب ما في القلب من العلم بالله وأسمائه وصفاته وما شرعه لعباده وهو قول أهل السنة والجماعة خلافاً للمرجئة ومن قال بقولهم والله المستعان.

٦٦ ـ والإيمان: هو الإيمان بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى.

٦٧ ـ ونحن مؤمنون بذلك كله. لا نفرق بين أحد من رسله. ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به.

٦٨ ـ وأهل الكبائر (من أمة محمد ﷺ) في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وإن لم يكونوا تائبين. بعد أن لقوا الله عارفين (مؤمنين) وهم في مشيئته وحكمه. إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله. كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء، من الآيتين (٤٨ ـ ١١٦)، وإن شاء عذبهم في النار بعدله. ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته. وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته. ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته. ولم ينالوا من ولايته. اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به.

٦٩ ـ ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم.

٧٠ ـ ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاقٍ ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ونذر سرائرهم إلى الله تعالى.

٧١ ـ ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف.

٧٢ ـ ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية. وندعو لهم بالصلاح والمعافاة.

٧٣ ـ ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة.

٧٤ ـ ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة.

٧٥ ـ ونقول: الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه.

٧٦ ـ ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر. كما جاء في الأثر.

٧٧ ـ والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما.

٧٨ ـ ونؤمن بالكرام الكاتبين فإن الله قد جعلهم علينا حافظين.

٧٩ ـ ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين.

٨٠ ـ وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً. وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم.

٨١ ـ والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

٨٢ ـ ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب، والصراط والميزان.

٨٣ ـ والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان. وإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له وصائر إلى ما خلق له.

٨٤ ـ والخير والشر مقدران على العباد.

٨٥ ـ والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل. وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة، الآية(٢٨٦).

٨٦ ـ وأفعال العباد خلق الله، وكسب من العباد.

٨٧ ـ ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون[١] إلا ما كلفهم، وهو تفسير (لا حول ولا قوة إلا بالله). نقول لا حيلة لأحد ولا حركة لأحد ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله.

٨٨ ـ وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئتهُ المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً، تقدس عن كل سوء وحين وتنزه عن كل عيب وشين ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الأنبياء، الآية(٢٣).

٨٩ ـ وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات.

٩٠ ـ والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات.

٩١ ـ ويملك كل شيء ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين.

٩٢ ـ والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى.

٩٣ ـ ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نُفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

٩٤ ـ ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب

---

(١) هذا غير صحيح بل المكلفون يطيقون أكثر مما كلفهم به سبحانه، ولكنه عز وجل لطف بعباده ويسر عليهم ولم يجعل عليهم في دينهم حرجاً فضلاً منه وإحساناً والله ولي التوفيق.

رضي الله عنه ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب ضي الله عنه. وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون.

٩٥ ـ وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق. وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة. رضي الله عنهم أجمعين.

٩٦ ـ ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق.

٩٧ ـ وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

٩٨ ـ ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء.

٩٩ ـ ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم.

١٠٠ ـ ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها.

١٠١ ـ ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً.

١٠٢ ـ ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

١٠٣ ـ ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً.

١٠٤ ـ ودين الله في الأرض والسماء واحداً، وهو دين الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمران، الآية(١٩)، وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة، الآية(٣).

١٠٥ ـ وهو بين الغلو والتقصير.

١٠٦ ـ وبين التشبيه والتعطيل.

١٠٧ ـ وبين الجبر والقدر.

١٠٨ ـ وبين الأمن والإياس.

فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً. ونحن براء إلى الله من كل من خالف الذي ذكرناه وبيّناه.

ونسأل الله تعالى أن يثبّتنا على الإيمان، ويختم لنا به. ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية، مثل المشبهة، والمعتزلة، والجهمية، والجبرية، والقدرية، وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة، وحالفوا الضلالة، ونحن منهم براء وهم عندنا ضُلّال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق.

الرسالة التاسعة عشرة

فتوى للشيخ عبد الله والشيخ إبراهيم
أبناء الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ
والشيخ سليمان بن سحمان

بشأن ـ تكفير الجهمية ـ
والجواب عن حديث من صلى صلاتنا.. إلى آخره

فتاوى متفرقة

وسئل أيضاً الشيخ عبد الله والشيخ إبراهيم ابنا الشيخ عبد اللطيف والشيخ سليمان بن سحمان رحمهم الله تعالى عن الجهمية فأجابوا: أما الجهمية فالمشهور من مذهب أحمد وعامة علماء السنة رحمهم الله تكفيرهم لأن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب، وحقيقة قولهم جحود الصانع وجحود ما أخبر به عن نفسه بل وجميع الرسل، ولهذا قال الإمام عبد الله بن المبارك أم لنحكي كلام اليهود والنصارىٰ ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية وبهذا كفروا من يقول القرآن مخلوق وإن الله لا يُرى في الآخرة وإن الله ليس على العرش وأنه ليس له علم ولا قدرة ولا رحمة ولا غضب ولا غير ذلك من صفاته، وهم عند كثير من السلف مثل ابن المبارك ويوسف ابن أسباط وطائفة من أصحاب أحمد ليسوا من الثلاث والسبعين فرقة. وقد بينا لك فيما مضى أن الإمام أحمد وأمثاله من أهل العلم والحديث لا يختلفون في تكفير الجهمية وأنهم ضُلّال زنادقة مرتدون، وقد ذكر من صنف في السنة تكفيرهم عن عامة أهل العلم والأثر كاللالكائي وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة له وابن أبي مليكة والخلال في السنة له وإمام الأئمة ابن خزيمة قد قرر كفرهم ونقله عن أساطين الأئمة. وقد حكى كفرهم شمس الدين ابن القيم في كافيته عن خمسمائة من أئمة المسلمين وعلمائهم فكيف إذا انضاف إلى ذلك كونهم من عُبّاد القبور وعلى طريقتهم؟ فلا إشكال والحالة هذه في كفرهم وضلالهم.

وأما إباضية أهل هذا الزمان فحقيقة مذهبهم وطريقتهم جهمية قبوريون

وإنما ينتسبون إلى الإباضية انتساباً فلا يشك في كفرهم وضلالهم إلا من غلب عليه الهوى وأعمى الله عين بصيرته، فمن تولاهم فهو عاص ظالم يجب هجره ومباعدته والتحذير منه حتى يعلن بالتوبة كما أعلن بالظلم والمعصية، وما ذكر في السؤال عمن لا يرىٰ كفر الجهمية وإباضية أهل هذا الزمان ويزعم أن جهاداً أهل الإسلام لهم سابقاً غلو وهو لأجل المال كاللصوص فهذا لم يعرف حقيقة الإسلام ولا شم رائحته وإن انتسب إليه وزعم أنه من أهله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

وأما ما ذكرته من استدلال المخالف بقوله ﷺ: «من صلّىٰ صلاتنا» وأشباه هذه الأحاديث فهذا استدلال جاهل بنصوص الكتاب والسنة لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فإن هذا فرضه ومحله في أهل الأهواء من هذه الأمة ومن لا تخرجه بدعته من الإسلام كالخوارج ونحوهم فهؤلاء لا يكفرون لأن أصل الإيمان الثابت لا يحكم بزواله إلا بحصول مناف لحقيقته مناقض لإصله، والعمدة استصحاب الأصل وجوداً وعدماً لكنهم يُبدَّعون ويُضلّلون ويجبُ هجرهم وتضليلهم والتحذير عن مجالستهم ومجامعتهم كما هو طريقة السلف في هذا الصنف.

وأما الجهمية وعباد القبور فلا يستدل بمثل هذه النصوص على عدم تكفيرهم إلاّ من لم يعرف حقيقة الإسلام وما بعث الله به الرسل الكرام؛ لأن الحقيقة ما جاءوا به ودعوا إليه وجوب عبادة الله وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وأن لا يشرك في واجب حقه أحد من خلقه وأن يُوصف بما وصَف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، فمن خالف ما جاءوا به ونفاه وأبطله فهو كافر ضال وإن قال لا إله إلا الله وزعم أنه مسلم لأن ما قام به من الشرك يناقض ما تكلم به من كلمة التوحيد، فلا ينفعه التلفظ بقول لا إله إلا الله لأنه تكلم بما يعمل به ولم يعتقد ما دل عليه؛ وأما قوله نقول بأن القول كفر ولا نحكم بكفر القائل فإطلاق هذا

جهل صرف لأن هذه العبارة لا تنطبق إلا على المعين ومسألة تكفير المعين مسألة معروفة إذا قال قولاً يكون القول به كفراً فيقال من قال بهذا القول فهو كافر لكن الشخص المعين إذا قال ذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر بها تاركها، وهذا في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض الناس كما في مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك، فما قاله أهل الإهواء فإن بعض أقوالهم تتضمن أموراً كفرية من رَدّ أدلة الكتاب والسنة المتواترة فيكون القول المتضمن لرد بعض النصوص كفراً ولا يحكم على قائله بالكفر لاحتمال وجود مانع كالجهل وعدم العلم بنقض النص أو بدلالته، فإن الشرائع لا تلزم إلا بعد بلوغها ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كثير من كتبه؛ وذكر أيضاً تكفير أناس من أعيان المتكلمين بعد أن قرر هذه المسائل قال: وهذا إذا كان في المسائل الخفية فقد يقال بعدم التكفير، وأما ما يقع منهم في المسائل الظاهرة الجلية أو ما يعلم من الدين بالضرورة فهذا لا يتوقف في كفر قائله ولا تجعل هذه الكلمة عكازة تدفع بها في نحر من كفر البلدة الممتنعة عن توحيد العبادة والصفات بعد بلوغ الحجة ووضوح المحجة.

وأما قوله وهؤلاء ما فهموا الحجة فهذا مما يدل على جهله وأنه لم يفرق بين فهم الحجة وبلوغ الحجة، ففهمها نوع وبلوغها نوع آخر، فقد تقوم الحجة على من لم يفهمها؛ وقد قال شيخنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كلام له فإن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة أو يكون ذلك في مسائل خفية مثل مسألة الصرف والعطف فلا يكفر حتى يعرف، وأما أصول الدين التي وضحها الله وأحكمها في كتابه فإن حجة الله هي القرآن فمن بلغه فقد بلغته الحجة، ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة فإن الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ

وَقْرًا﴾ فقيام الحجة وبلوغها نوع وفهمها نوع آخر، وكفرهم الله ببلوغها إياهم مع كونهم لم يفهموها إلى آخر كلامه رحمه الله.

وأما قوله عن الشيخ محمد رحمه الله أنه لا يكفر من كان على قبة الكواز ونحوه لا يكفر الوثني حتى يدعوه وتبلغه الحجة فيقال: نعم فإن الشيخ محمداً رحمه الله لم يكفر الناس ابتداء إلا بعد قيام الحجة والدعوة لأنهم إذ ذاك في زمن فترة وعدم عِلم بآثار الرسالة ولذلك قال لجهلهم وعدم من ينبههم، فأما إذا قامت الحجة فلا مانع من تكفيرهم وإن لم يفهموها، وفي هذه الأزمان خصوصاً في جهتكم قد قامت الحجة على من هناك واتضحت لهم المحجة، ولم يزل في تلك البلاد من يدعو إلى توحيد الله ويقرره ويناضل عنه ويقرر مذهب السلف وما دلت عليه طريقتهم حتى صار الأمر في هذه المسائل في تلك البلاد أظهر منه في غيرها ولا تخفى النصوص والأدلة حتى على العوام فلا إشكال والحالة هذه في قيام الحجة وبلوغها على من في جهتكم من المبتدعة والزنادقة الضلال، ولا يجادل في هذه المسألة ويشبه بها إلا من غلب جانب الهوى ومال إلى المطامع الدنيوية واشترى بآيات الله ثمناً قليلاً والله أعلم.

وأما قوله وتجوز حماية الكفار أو نائبهم وأخذ علم منهم لسلامة المال والسفينة وإن هذا بمنزلة الخفير الذي هو الرفيق، فالجواب أن يقال هذا قياس باطل فإن أخذ الخفير لسلامة المال جائز إذا ألجأ الحال إليه والخفير مسلم ظالم أو فاجر فاسق، وأما الدخول تحت حماية الكفار فهي ردة عن الإسلام وأخذ العلم منهم لا يجوز إذا كانوا لم يدخلوا تحت حمايتهم وولايتهم وليس بمنزلة أخذ الخفير لحماية المال فإن هذا علم وعلامة على أنهم منقادون لأمرهم داخلون في حمايتهم وذلك موافقة لهم في الظاهر وأجابوا أيضاً لا تصح إمامة من لا يكفر الجهمية والقبوريين أو يشك في تكفيرهم، وهذه المسألة من أوضح الواضحات عند طلبه العلم وأهل الأثر وذلك أن الإمام أحمد وأمثاله من أهل العلم والحديث لم

يختلفوا في تكفير الجهمية وأنهم ضلال زنادقة، وقد ذكر من صنف في السنة تكفيرهم عن عامة أهل العلم والأثر، وعَدّ اللالكائي منهم عدداً يتعذر ذكرهم في هذه الفتوى وكذا عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة والخلال في كتاب السنة وإمام الأئمة ابن خزيمة قرر كفرهم ونقله عن أساطين الأئمة، وقد حكى كفرهم ابن القيم في كافيته عن خمسمائة من أئمة المسلمين وعلمائهم وقد يفرق بين من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها وبين من لا شعور له بذلك، وهذا القول يميل إليه شيخ الإسلام في المسائل التي يخفى دليلها على بعض الناس، وعلى هذا القول فالجهمية في هذه الأزمنة قد بلغتهم الحجة وظهر الدليل وعرفوا ما عليه أهل السنة والجماعة واشتهرت التفاسير والأحاديث النبوية وظهرت ظهوراً ليس بعده إلا المكابرة والعناد وهذه هي حقيقة الكفر والالحاد، كيف لا وقولهم يقتضي من تعطيل الذات والصفات والكفر بما اتفقت عليه الرسالة والنبوات وشهدت به الفطر السليمات مما لا يبقى معه حقيقة للربوبية والإلهية ولا وجود للذات المقدسة المتصفة بجميل الصفات، وهم إنما يعبدون عدماً لا حقيقة لوجوده ويعتمدون على الخيالات والشُبَه ما يعلم فساده بضرورة العقل وبالضرورة من حقيقة دين الإسلام عند من عرفه وعرف ما جاءت به الرسل.

ولبشر المريسي وأمثاله من الشبه والكلام في نفي الصفات ما هو من جنس هذا المذكور عند الجهمية المتأخرين بل كلامه أخف إلحاداً من بعض قول هؤلاء الضُلال ومع ذلك فأهل العلم متفقون على تكفيره، وكذلك القبوريون لا يشك في كفرهم من شم رائحة الإيمان.

وقد ذكر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم في غير موضع أن نفي التكفير بالمكفرات قوليها وفعليها فيما يخفى دليله ولم تقم الحجة على فاعله وإن النفي يراد به نفي تكفير الفاعل وعقابه قبل قيام الحجة عليه وأن نفي التكفير مخصوص بمسائل النزاع بين الأئمة، وأما دعاء الصالحين

والاستغاثة بهم وقصدهم في الملمات والشدائد فهذا لا ينازع مسلم في تحريمه والحكم بأنه من الشرك الأكبر فليس في تكفيرهم وتكفير الجهمية قولان، وأما الإباضية في هذه الأزمان فليسوا كفرقة من أسلافهم والذي يبلغنا أنهم على دين عباد القبور وانتحلوا أموراً كفرية لا يتسع ذكرها هنا، ومن كان بهذه المثابة فلا شك في كفره فلا يقول بإسلامهم إلا مُصاب في عقله ودينه.

الرسالة العشرون

أربعة فتاوى

تعليق سماحة الشيخ ابن باز على نواقض الإسلام

أ - فتوى في حكم دعاء الجن والشياطين
ب - فتوى في عدم العذر بالجهل
ج - تكفير من يدعو الجن
د - كفر من رضي بما هو عليه
من الشرك وأعرض عن تعلم التوحيد

نواقض الإسلام

لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ المفتي العام للمملكة العربية السعودية ـ الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

فاعلم أيها الأخ المسلم أن الله سبحانه أوجب على جميع العباد الدخول في الإسلام والتمسك به والحذر مما يخالفه وبعث نبيه محمداً ﷺ للدعوة إلى ذلك، وأخبر عز وجل أن من اتبعه فقد اهتدى ومن أعرض عنه فقد ضل، وحذر في آيات كثيرات من أسباب الردة وسائر أنواع الشرك والكفر، وذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ في باب حكم المرتد أن المسلم قد يرتد عن دينه بأنواع كثيرة من النواقض التي تُحل دمه وماله ويكون بها خارجاً من الإسلام ومن أخطرها وأكثرها وقوعاً عشرة نواقض نذكرها لك فيما يلي على سبيل الإيجاز لتحذرها وتحذر منها غيرك رجاء السلامة والعافية منها مع توضيحات قليلة نذكرها بعدها.

الأول من النواقض العشرة: **الشرك في عبادة الله**، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ومن ذلك دعاء الأموات والاستغاثة بهم والنذر والذبح لهم.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم فقد كفر إجماعاً.

الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر.

الرابع: من اعتقد أن هدى غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر.

الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر وذلك لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

السابع: السحر ومنه الصرف والعطف فمن فعله أو رضي به كفر والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وبما أنها من أعظم ما يكون خطراً وأكثر ما يكون وقوعاً فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ويدخل في القسم الرابع من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنها الناس أفضل من شريعة الإسلام، أو أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في القرن العشرين، أو أنه كان سبباً في تخلف المسلمين، أو أنه يحصر في علاقة المرء بربه دون أن يتدخل في شؤون الحياة الأخرى، ويدخل في الرابع أيضاً من يرى أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحديث، ويدخل في ذلك أيضاً كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات أو الحدود أو غيرهما وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة لأنه بذلك يكون قد استباح ما حرم الله إجماعاً، وكل من استباح ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والخمر والربا والحكم بغير شريعة الله فهو كافر بإجماع المسلمين.

ونسأل الله أن يوفقنا جميعاً لما يرضيه وأن يهدينا وجميع المسلمين صراطه المستقيم إنه سميع قريب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

أ ـ فتوى في حكم دعاء الجن والشياطين
للشيخ عبد العزيز بن باز

من عبد العزيز بن باز إلى............. سلمه الله.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فأشير إلى استفتائك المقيد بإدارة البحوث العلمية والإفتاء برقم ٤٠٢ وتاريخ ١٤٠٧/١/٢٤هـ الذي تسأل فيه عن حكم دعاء الجن والشياطين سواء كان بقصد أو بغير قصد وعن الجهل بأمور العقيدة هل الإنسان معذور فيه. وأفيدكم أنه لا يجوز للمسلم أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله أياً كان المدعو، سواء كان بقصد أو غير قصد لا سيما الجن والشياطين، وسبق أن صدر من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فتوى

في حكم العذر بالجهل فنرفق لك نسخة منها وفيها الكفاية إن شاء الله وفق الله الجميع لما فيه رضاه أنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرئيس العام
لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

ب ـ فتوى في عدم العذر بالجهل

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية
فتوى برقم ٩٢٥٧ وتاريخ ١٤٠٥/١٢/٢٢هـ

السؤال الأول: هل كُلُّ من أتى بعمل من أعمال الكفر أو الشرك يكفر ـ علماً بأنه أتى بهذا الشيء جاهلاً هل يعذر بجهله أم لا يعذر؟ وما هي الأدلة بالعذر أو عدم العذر؟

الجواب: لا يعذر المكلف بعبادته غير الله أو تقربه بالذبائح لغير الله أو نذره لغير الله ونحو ذلك من العبادات التي هي من اختصاص الله إلاّ إذا كان في بلاد غير إسلامية ولم تبلغه الدعوة فيُعذر لعدم البلاغ لا مجرد الجهل لما رواه مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلاّ كان من أصحاب النار».

فلم يعذر النبي ﷺ من سمع ومن يعيش في بلاد إسلامية قد سمع بالرسول ﷺ فلا يعذر في أصول الإيمان بجهله.

أما الذين طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط يعلقون بها أسلحتهم فهؤلاء كانوا حديثي عهد بكفر وقد طلبوا فقط ولم يفعلوا فكان ما حصل منهم مخالفاً للشرع وقد أجابهم النبي ﷺ بما يدل على أنهم لو فعلوا ما طلبوا كفروا.

السؤال الثاني: شخص يقول: لقد كنت في إحدى الدول وأعطاني أخ مبلغاً من المال احتفظ به عندي كوديعة حتى يصل من سفره. وهو يعلم أن هذا المبلغ إذا ضبط معي في المطار سوف يؤخذ مني لأن الدولة لا تسمح بخروج هذا المبلغ لأنه زائد عن المبلغ الذي تسمح به. فتم ضبط هذا المبلغ معي وأخذ مني ـ علماً بأني وضعت بعض المال لي، وأخذ مالي أيضاً ـ فما حكم رد هذا المبلغ؟

الجواب: المودع أمين وإذا هلك ما في يده بدون تعد فلا ضمان فإذا كان الأمر كما ذكرت فلا يجب عليك رد بدله.

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز

ج ـ تكفير من يدعو الجن

فتوى رقم ٤٣٣ وتاريخ ٢٠/ ٤/ ١٣٩٣هـ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وبعد:

فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على الاستفتاء المقدم من: . . . . إلى فضيلة رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد والمحال إليها من الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء برقم ٢٨٣ وتاريخ ٦/ ٣/ ١٣٩٣هـ وقد اشتمل الاستفتاء على سؤالين وأجابت اللجنة عن كل منهما بمفرده ونص الأول:

ما حكم المناذير وهو دعاء الجن والشياطين على شخص ما ليعملا به عملاً مكروهاً ـ كأن يقال خذوه، اذهبوا به، انفروا به، بقصد أو بغير قصد، وما حكم من دعا بهذا القول، حيث سمعت قول أحدهم أنه من

دعا الجن لم تقبل له صلاة ولا صيام ولا يقبر في مقابر المسلمين ولا تتبع جنازته ولا يصلى عليه إذا مات.

وقد أجابت اللجنة بما يلي:

الاستعانة بالجن واللجوء إليهم في قضاء الحاجات من الإضرار بأحد أو نفعه شرك في العبادة لأنه نوع من الإستمتاع بالجني بإجابته سؤاله وقضائه حوائجه في نظير استمتاع الجني بتعظيم الإنسي له ولجوئه إليه واستعانته به في تحقيق رغبته، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ فاستعانة الإنسي بالجني في إنزال ضرر بغيره واستعاذته به في حفظه من شر من يخاف شره كله شرك.

ومن كان هذا شأنه فلا صلاة له ولا صيام لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ﴾.

ومن عرف عنه ذلك لا يُصلي عليه إذا مات ولا تتبع جنازته ولا يدفن في مقابر المسلمين.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم

اللجنة الدائمة

عضو	عضو	نائب الرئيس
عبد الله بن منيع	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفي

د ـ كفر من رضي بما هو عليه من الشرك وأعرض عن تعلم التوحيد

فتوى برقم ٣٥٤٨ وتاريخ ١٨/٣/١٤٠١هـ

السؤال: يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

إن ظاهر الآية السابقة يمنع الاستغفار للمشركين لو كانوا من ذوي القرابة، والكثير منا نحن أعراب البادية من له والدان وأقرباء وقد اعتادوا الذبح عند القبور والتوسل بأهلها وتقديم النذور والاستعانة بتوسيط أهل القبور في فك الكربات وشفاء المرضى وقد ماتوا على ذلك ولم يصلهم من يعرفهم معنى التوحيد ومعنى لا إله إلا الله ولم يصلهم من يعلمهم أن النذور والدعاء عبادة لا يصح صرفها إلا لله وحده، فهل يصح المشي في جنائزهم والصلاة عليهم والدعاء والاستغفار لهم وقضاء حجهم والتصدق عليهم؟

الجواب: من مات على الحالة التي وصفت لا يجوز المشي في جنازته ولا الصلاة عليه ولا الدعاء ولا الاستغفار له ولا قضاء حجه ولا التصدق عنه، لأن أعماله المذكورة أعمال شركية وقد قال سبحانه وتعالى في الآية السابقة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ ولما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «استأذنت ربي في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي واستأذنته في زيارة قبرها فأذن لي».

وليسوا معذورين بما يقال عنهم أنهم لم يأتهم من يبين لهم أن هذه الأمور المذكورة التي يرتكبونها شرك لأن الأدلة عليها في القرآن الكريم واضحة وأهل العلم موجودون بين أظهرهم، ففي إمكانهم السؤال عما هم عليه من الشرك لكنهم قد أعرضوا ورضوا بما هم عليه.

الفهرس